جدران أربع وهدية

سامر الصليبي

رواية

جدران أربع وهدية

رواية

لسامر الصليبي

حقوق
الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
متاحة للجميع

جدول المحتويات

جدران أربع يفصل بينها أميال 1
جدران أربع يفصل بينها أمتار 96
هدية 188

الفصل الأول

جدران أربع يفصل بينها أميال

(1)

كان صباح يوم جديد قد أطل من أيام نيسان الذي لا يعرف في مدينة النذر العاجزة بأرضه الخضراء ولا بوروده وروائحها ولا بأجوائه اللطيفة ولا بطيوره العائدة بعد هجرة، فالأرض مزدحمة بالجدران التي تقف عائقًا حتى أمام تشكل زوبعة، فنسمات الهواء لا تلتقي ببعضها بل تلتقي كل نسمة بجدار يصدها سواء كان من لحم ودم أم من حجر وطين.

كان قد مضى أسبوع على إعلان الهدنة طويلة الأمد التي لم يصدق بطولها حتى أولئك الموقعون عليها، أسبوع تم فيه إزاحة ركام المباني والجثث من الشوارع الرئيسية لتعود الحياة الميتة بعد الموت الرحيم الذي كانت تُحله الحرب، أسبوع عاد فيه كل من تشرد من حيّه إليه بعد التعرف عليه بصعوبة لملامحه المتغيرة من لمسات الصواريخ الساحرة، أسبوع نُصبت فيه الخيام أمام جميع المنازل المُهدَّمة، أسبوع استخرج فيه السكان من تحت الركام ما استطاعوا الوصول إليه من مقتنيات أكسبتها ذكرياتهم معها قيمة عالية، وما استطاعوا الوصول إليه من ألعاب أطفالهم التي لم يخرجها تشوهها عن كونها ألعاب.

استيقظ عمر فزعًا على دوي انفجار شديد ارتجت على إثره أعمدة المبنى الذي يقطن فيه، وتساقط ما بقي من زجاج النوافذ الذي كان السكان قد أعادوا تركيبه، وتحطم ما بقي سليمًا من الأواني والكؤوس والأطباق التي أُرجعت إلى رفوفها بعدما أنزلت تحسبًا من تكسرها جراء سقوطها.

لم يرجح ببعد الانفجار ولا بقربه، فخبرته التي اكتسبها من الحروب التي عايشها كانت كافية لإعلامه أنَّ أصوات الانفجارات وآثارها لم يعد البعد مؤثرًا فيها، ليأخذ بالتساؤل حينها بتعجب وبحزن عميق وكآبة قاتمة قائلًا: **"أعادوا لإكمال إلقاء دعابة جون كينز؟ ألم ينتهوا من إلقائها بعد!"**

كانت رغباته متضاربة، فتارة يرغب بعودة الحرب لإكمال مهمتها أي التدمير وتارة يرغب باستمرار الهدنة التي يتم فيها التعمير، فلقد كانت رغبته بالحرب لقدرتها على إعطاء بصره مدى أوسع للانطلاق فيه سواء كان ذلك بالمباني التي تحتضن الأرض أو بالجدران التي امتلأت بالفتحات، فلم تكن الصواريخ والرصاصات تصنع مسارات لمطلقها بقدر ما كانت تصنع مسارات لبصره للانطلاق، أما الهدنة فرغبته فيها كانت هربًا من وجوه الأطفال الفزعة ومن مشاهد جثث العائلات المتفحمة ومن معاناة الناس جراء تشردهم.

لقد كانت النذر العاجزة مدينة وجد من فيها ليذوق أشد أصناف العذاب فتكًا، فحتى أنامل الموتى فيها تشير إلى الجحيم، من تحت الأرض تشير إلى ما فوقها، كأنها مكان وجد من فيه من البشر للتكفير عن آثام البشرية جمعاء، كأنها مكان تُعطي تصريحًا لبقية البشر لارتكاب المعاصي والجرائم فكل ما يأتون به مغفور لهم بهذه المعاناة التي لا يُنظر إلى من تحل عليهم كبشر. لقد كان ساكنوها أناسًا لم تطلهم مغفرة من الله على تناول ثمار الشجرة المحرّمة، أناس لا يعرف إلا بهم غضب الله، أناس بوجودهم كان للإنسان شكوى، أناس يمنحون غيرهم قلوب لتحزن وعيون لتدمع وأيدي لتعطي، أناس ترهب بهم الحياة من ارتكاب المعاصي وتغري بغيرهم على إتيان الفضائل، أناس تنبت الأرض أمام كل خطوة لهم جدار، أناس ليس من حقهم الطموح، أناس لهم رب يُرجى بدون أن يكون لهم رب يُعطي، أناس انتفى جحيمهم إلى الأرض، أناس مرغمون على الكراهية والحقد والغضب والرغبة بالانتقام.

التقط هاتفه المحمول مكدر النفس معتكر المزاج لتصفح المواقع الإخبارية بحثًا عن سبب الانفجار، ليجده مغلق على إثر بطاريته الفارغة ليضيف يومًا آخر للأيام التاسعة والتسعين التي حُظرت فيها الكهرباء بشكل متواصل على مدار أربعة وعشرين ساعة، كانت فيها جميع الأجهزة التي تحتاج إلى كهرباء لتعمل فاقدة لجدواها وبلى أدنى قيمة، فاضطر للاستعانة بجهاز راديو صغير كان ملتصق طوال الوقت بيد جدته المتوفاة احتفظ به كتذكار لها، ثم أخذ يبحث فيه عن إذاعة كان يستمع لها أثناء الحرب، ليجدها بعد وصوله إليها تبث أناشيد النصر المعتادة بعد كل جولة حرب، بالرغم من الدمار الهائل الذي يصيب البنية التحتية وفقدان كثير من الأرواح واستمرار الحصار الخانق.

أدرك أن الحرب لم تُجدد ففي الحرب نتيجة القصف المتواصل والكثيف وعدد القتلى الكبير لا تتوفر المساحة للأناشيد الوطنية، فرجح أن الانفجار ناجم عن محاولات لإسقاط أحد المباني المائلة أو تلك التي استهدفت ولكن لم تسوى بالأرض والتي كثر وجودها في الحروب الأخيرة بشكل متعمد لتكبيد أصحابها تكاليف إنزالها التي تقارب تكاليف إعادة بنائها.

كانت الحروب التي تندلع في معظم الأحيان محاولة لتخفيف الحصار الذي بسببه لم يكن لمعظم سكان المدينة تجارب في الحب أو الجنس أو العمل أو في تذوق أصناف جديدة من الطعام أو في التمتع بجلال مناظر طبيعية وجمال مدن عصرية أو في التعرف على جديد الابتكارات في الآداب والعلوم والفلسفات والفنون، فحياتهم بسبب الحصار تبلغ من الرتابة حدًا يتسبب لهم بغضب كبير منهم من لا يجد إلا بعضهم البعض سبيلًا لتفريغه ومنهم من لا يجد غير المسليات المتاحة كلعب الورق سبيلًا لتجاهله والهرب منه، حياتهم بسببه تجربة واحدة غير منتقاة ملتصقة بهم لا سبيل لهم للفكاك منها.

بعد لحظات صامتة صاخبة غرق فيها بالتساؤل عن سبب هذه الحياة البائسة المطرود منها الهدوء والأمان والسلام، نظر الى الساعة بجواره فوجدها تشير إلى الثامنة إلا ربع، فنهض من فراشه على عجل وارتدى ملابسه بسرعة ونزل راكضًا على السلم من دون التفات إلى المصعد الذي أفقده انقطاع التيار الكهربائي وظيفته، متوجهًا إلى جامعته التي لا تبعد عن مكان إقامته سوى نصف ميل، والتي يذهب إليها في العادة على قدميه. استقل سيارة محاولاً الوصول إلى قاعة المحاضرة قبل وصول المحاضر الذي جعل ما عليه مساقه من تعقيد الحضور إلزاميًا.

عند وصوله باب القاعة وقبل أن يدفعه للدخول وجد نفسه متأخرًا لدقائق بعدما نظر لساعته، فتوقف مترددًا، فإذا اتخذ قرار بالدخول يكون بذلك قد أُدرج في قائمة أعداء المحاضر الذي يدخل إليها كل من يتجرأ على الدخول إلى القاعة بعد دخوله، والذي يكون من عواقب هذا الإدراج العلامات المتدنية والتقييم السيئ، وإذا اتخذ قرار بعدم الدخول فلن يكون بإمكانه إلا تحصيل فهم بسيط لموضوع المحاضرة وبجهد ذاتي كبير ووقت طويل، فلقد كان خيار طلب المساعدة من أحد الزملاء غير متاح ليس له فقط بل للجميع الذين يُشبهون خيار تقديم المساعدة لزميل محتاج لها بخيار تقديم المساعدة لعدو، فتقديمها يعني حصول الزميل على درجات أعلى وتقييم أفضل وبالتالي منافسة على الوظائف أصعب.

بسبب الحصار كان للفرص الشحيحة أثرها على جميع سكان المدينة ، مهما كانت قريبة صلاتهم وقوية علاقاتهم، فبسببه طلب المساعدة ممتنع بالرغم من احتياج الجميع لها، وذلك ليس لأن الطلب غير مجدي فقط بل لأن الطلب متسم صاحبه بالوقاحة وقلة الذوق، فكانت هذه الظروف ذات الرائحة الشهية لشركات الإقراض مساهمة في هرولتها بفوائدها المُكبِّلة إلى المدينة، لتزيد من حصارها ومعاناة سكانها بإخراج ما عجزت الجدران عن إخراجه من أموال كأرباح لأصحابها الذين خلف الجدار بدون استثمار حتى ولو جزء منها في مشاريع توفر فرص عمل للسكان.

بعد موازنة للعواقب، قرر عدم الدخول وانتظار خروج زملائه، الذي فرض عليه ما في الفصل الأخير من أعمال مشتركة وأبحاث ونشاطات جماعية التعرف عليهم ومشاركة جلساتهم والاطلاع على اهتماماتهم والتحدث في مواضيعهم التي لم يكن يرى فيها إلا دليلاً على نقص ثقافتهم وقلة وعيهم وانغماسهم في ملذاتهم تعويضًا عن آمالهم وطموحاتهم التي لا أمل لهم في السعي فيها والوصول لها، لا لأنها نتيجة طمع بالكثير بل نتيجة عدم توفر حتى القليل الذي كانت نتيجته أن أصبحت الحاجة الغير مشبعة إشباعها أمل وطموح وهدف.

لقد طرد العجز عن توفير القليل تلك الآمال والطموحات الكبيرة فبعد النهايات والوصول الشاق لم يعد حكرًا عليها، فلقد طال حتى القدرة على إشباع الحاجات، لقد جرَّد الحصار سكان المدينة منها جميعًا عن طريق كسر احتكارها للطريق الطويل،

ليشغلهم بكيفية توفير لقمة عيشهم وبموعد عودة التيار الكهربائي الذي لم يحضر يومًا في موعده، وبكيفية تسديدهم لدفعات قروضهم التي يكون تفويت موعدها إما قرارًا بحبسهم أو بمضاعفة مبلغ الدفعة المطالب تأجيلها، فكان أقصى آمالهم الحصول على الوظيفة وإن حالفهم الحظ في تحقيق ذلك يكون أملهم الحفاظ عليها لأطول فترة ممكنة والتي قد تمتد لبضع شهور.

تذكر أن تأخره في الاستيقاظ كان حائلًا دون تناوله لفطوره، فالتقط من مقهى الجامعة كوب من القهوة وصنف من الحلويات قليلة الدسم ثم توجه للجلوس خلف المبنى الذي تعقد فيه المحاضرات والذي يستعان بأول حروف اسمه للتدليل عليه بالرغم من سهولة النطق به لحروفه القليلة والغير متشابهة.

كان "خلف k" موقعًا يقل فيه الاكتظاظ والضجيج، معظم الذين يتواجدون فيه من كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية التي كان أحد طلابها نزولًا عند رغبة والديه، فلقد كان يمقت التعليم الأكاديمي الذي يراه يحد من قدراته ويقيده بمسارات مزدحمة لا إبداع ولا ابتكار فيها، ويدفعه للانخراط في صراع اقتناص الفرص الذي يحاول باستمرار تجاهل وجوده وتفادي الانخراط فيه.

بعدما انتهى من تناول فطوره، أخرج كتاب كان قد استعاره من مكتبة جامعته الفقيرة بكتب الفلسفة وعلم النفس والاقتصاد السياسي والتي يهتم بمطالعتها ودراستها والغنية فقط بالكتب الدينية التي لا يبدي كثير من الاهتمام بها، ثم أخذ يطالع من حيث انتهى قبل نومه.

بسبب قراءته المتواصلة لم يكن من يحيطون به عندما يُحادثونه في أمور دينية يبدأون معه بترغيبه بالجنة وترهيبه من النار بل بمناقشة فكرة وجود الله معه، غير مدركين أنه لم يجد الله إلا بالقراءة التي كانت مصدر إلحاد لكثيرين وقعوا في فخ اتكاليتهم على رجال الدين الذين احتضنوهم بخبث ليبقوا لأبوابهم أيدي طارقة ولكلماتهم آذان مُصغية. كانت مطالعة الكتب تدخله جنة نفيت إلى الأرض مع آدم عندما عصى أمر ربه، تمكنه من الوصول لمذاق القهوة التي كانت بأيدي مؤلفيها لحظة الكتابة، ومن التمتع برائحة غرفهم التي يظن شركاؤهم بالسكن بأنها كريهة فيقدموا على إفسادها بفتح النوافذ. كان في حال خُيِّر بين الجنة التي يوعد بها المؤمنون وبين جنة القراءة لما تردد في اختيار الثانية. كان بالقراءة يريد حياة هادئة يسمع فيها تصفيق أجنحة الفراشات ودبيب أقدام النمل، يريد لهذه الحياة الصاخبة أن تنتفي، يريد لهذه النيران التي تزعجه بفرقعات وطقطقات ما تأكله أن تنطفئ. لقد كان أشد ما يحزنه ويشعره ببؤس الحياة وظلمها هو عدم منحها الإنسان الوقت الكافي لمطالعة الكتب الجيدة التي تُشكل المفاضلة بينها والانتقاء منها خسارة كبيرة. كان يُحدِّث من حوله محاولًا الإبانة عن حبه العظيم للقراءة لدفعهم لمنافسته فيقول "إنني أُدخل أحبتي إلى قلبي كما أُدخل الكتب إلى مكتبتي، إنني أصف من أحب من البشر بالكتاب ومن لا أحبه أُبقيه على

بشريته." ويقول في أحيان أخرى "إذا كان الموت ينقلني من عالم فيه كتاب إلى عالم لا كتاب فيه، فحق لي أن أجده مخيفًا". لقد كان يجد في قراءة الكتب وتأمل السماء مهربًا له من حياته البائسة، مهربًا له من بحثه غير المُجدي عن وسيلة.

توقف بعدما قرأ بضع صفحات لم تفلح في مساعدته بالهروب بالقدر الذي كان يطمع به، لملاحظته اقتراب زملائه منه بعد انقضاء وقت المحاضرة. شعر باضطراب شديد، فلقد كان الالتقاء بالناس لشخصيته غير الاجتماعية وعزلته مخيفًا، مقلقًا، ومتسببًا بغضبه في أحيان، ولهذا كانت مكتبة الجامعة المكان المُفضل له.

بعد الالتقاء، رحبوا به ورحب بهم وتبادلوا التهاني على سلامتهم والتعازي على من فقدوا في الحرب ثم جلسوا مشكلين دائرة. كان يجلس بصمت كعادته منطويًا على نفسه منغلقًا عليها وهم يتبادلون الحديث عن معاناتهم في الحرب وعن المواقف المضحكة فيها والمبكية وعن مكتسباتهم منها، يتفحصهم بحزن فلقد كان بينهم من فقد ساقه وبينهم من تهشمت ذراعه وبينهم من أخفت الكدمات ملامح وجهه وبينهم من تسبب تشرده في فقدانه لأناقته.

بعد مرور ما يقارب الساعة على جلوسهم وتبادلهم الحديث نهض زملاؤه وتوجهوا إلى أحد المحاضرات التي كان قد قرر في وقت سابق تفويتها تجنبًا لتكرار اعتراضه على أسلوب شرح محاضرها الذي أسقط عنه إلزامية الحضور سرًا، تجنبًا لاعتراضاته المتكررة والتي قد تحمل زملاءه على مشاركته إياها.

زال اضطرابه بعدما انصرف الجميع وانفرد بنفسه. وعندما كان يخطط لاستكمال المطالعة، فجأة تسربت إليه دفعات كثيفة من القلق والخوف والغضب حينما تذكر أن شهر وحيد يفصله عن تخرجه، فأخذ يتساءل بغضب ويأس وإحباط شديد قائلًا: "كيف سأجد وظيفة في ظل هذه الأعداد الهائلة من الخرجين وفرص العمل الشحيحة، كيف سأجد وظيفة يُمكِّنني مرتبها من تحصيل مبلغ يُمكِّنني من الهجرة بدون أن أعمل فيها لسنوات عشر على أقل تقدير، كيف سأجد وظيفة تمكنني من تحصيل مبلغ من المال أستطيع به الاستقلال وشراء المنزل الخاص بي والزواج وإنجاب الأبناء، كيف سأجد مالاً يُمكِّنني من فتح المشروع الخاص بي، كيف سأجد وظيفة تقل ساعات العمل فيها عن اثني عشر ساعة لا أحوز فيها على استراحة لأريح بها عينيَّ المتورمتين من النظر إلى شاشة الحاسوب أو لأريح بها ظهري الذي تسبب له الحمل الثقيل بانحراف في فقراته، كيف سأحتفظ بكرامتي أمام مدير متسلط وقح يهدد باستمرار بوجود كثيرين غيري قادرين على أخذ مكاني بمرتب أقل من مرتبي وبساعات عمل أكثر، كيف لا أكون كثير التملق والتودد والمجاملة والنفاق والخديعة والمكر والكذب، كيف أحتفظ بإسمي على ابتكاراتي وأعمالي، كيف سأجد عائدًا يتناسب مع ما أبذله من جهد وما أحظى به من تعليم، كيف سأحتفظ باحترامي لتخصصي وقيمه في ظل همجية شركات ومؤسسات هذه المدينة الملعونة بالجدران، كيف أتجنب عداوة وحسد

زملائي إذا حصلت على وظيفة جيدة كانت أم سيئة، كيف لا أكون كالجميع يحاول إيقاع الآخر في الخطأ للحصول على فرصه، كيف يمكنني أن أرفض وظيفة ليس لها ارتباط بتخصصي إذا وجدتها ولم أجد وظيفة في اختصاصي، كيف سيُقبل بي إذا لم يكن لعملي عائد، كيف سأحوز احترام الجميع الذين يرون أن الاحترام يستحقه من يملك مالاً وعائدًا على عمله، كيف سيكون مسموحًا لي طلب المال الذي سيسد فقط حاجاتي من أبي وأنا متمرد على الوظائف التي لن أحصل فيها على الاحترام والعائد الجيد والراحة النفسية والجسدية وعلى حقوقي كاملة منها، كيف سيتم مراعاة اعتراضي ورفضي، كيف ستقبل استقلاليتي وأنا بلى عائد يحفظ لي إشباع حاجاتي، كيف ستقبل استقلاليتي وأنا معتمد على الآخر في إشباع حاجاتي، كيف تكون اختياراتي اختياراتي، كيف سيكون الآخر مقتنعًا أن إشباعه لحاجاتي لا يمنحه الحق في سلب استقلاليتي وحريتي، كيف سأجد تلك البقعة التي سأجد فيها نفسي حرًا ومستقلاً بدون أن أجد اعتراض على ذلك؟"

كان حينها قد استشاط غضبًا وعلى إثر ذلك تنفخ وجهه واشتعلت نار في عينيه وأخذت يداه ترتعشان انفعالاً واضطرب أمام بصره كل شيء، فأسرع يدخل الكتاب في حقيبته مخافة من إيذائه ثم عاد يُحدِّث نفسه قائلًا: "لدي القدرة ولكن أين ستحل هذه القدرة، ما هي المهمة التي ستستنزفها؟ لا بد لي من استنفاذ قدرتي في عمل وإلا تعفَّنتُ. أين هي مهمتي؟ لا ليست إشباع حاجاتي، بالتأكيد ليست هي. أين هي إذًا؟ ليس السؤال إذًا: لماذا ما زلتُ غاضبًا؟، بل السؤال هو: لماذا لا يعطل الغضب جُبني وترددي ويحطم حدودي وحدود الآخر لي، لماذا غضبي لا يُوجد لي هدف سواي؟ هل فعلًا أنا غاضب منِّي؟ لا بد أن أكون مشارك، ولكن كيف ذلك وأنا مستكثر عليَّ المشاركة، كيف ذلك وأنا أطلب المشاركة لا لشيء غير استنفاذ وقتي في عمل ما لكي أبرهن لنفسي وجودي! لماذا لا يُشرِّع لي كل هذا الغضب الذي في داخلي الجريمة؟ أهو الحب السبب في ذلك؟ لماذا لا يُولِّد الغضب الكراهية والحقد فيَّ؟ هل هو غضبي منقذي، وسبيلي للحفاظ على إنساني؟ هل أنا غاضب باستمرار لأنني محب باستمرار؟ لربما لو كنت كارهًا لما وجد لدي كل هذا الغضب. كيف بإمكاني أن أكون كارهًا حاقدًا، راغبًا بالانتقام؟"

رفع رأسه محاولًا تأمل السماء ليهدأ ولكنه سرعان من أزاغ بصره عنها من شدة الغضب، ثم عاد يتساءل: "لماذا عليَّ أن أفاضل بين حصارين، لماذا عليَّ القبول بجحيم من الجحيمين؟ كيف يعقل أن لا يكون لإنسان خيار أفضل من خيار! لماذا ألفيت في كل لحظة أملك حلمًا جديدًا، لماذا في كل لحظة تمضي تقترب أحلامي أكثر من المساس بأبسط أساسيات حياتي؟ هل لتسارع هموم الحياة في فرض نفسها على واقعي هذا الأثر الكبير والسريع في تغيير أحلامي وآمالي؟ لماذا لا أحيا بحلم وأموت عليه إذا لم يكن بالإمكان الوصول إليه؟ لماذا تستوطن حاجاتي أحلامي، لماذا بعيدة تلك الرفاهيات والكماليات عن أحلامي؟"

ثم على حين فجأة، ثارت ثائرته وانفجر يصرخ في وجه من حوله:

- اللعنة عليكم أيها الجبناء، تبًا لي ولكم لانجرارنا وراء ما يريده منا الجدار.

وأخذ يكرر ذلك في وجه من تجمهروا حوله متعجبين من حاله في أحيان وساخرين في أحيان وشاعرين بالحزن عليه في أحيان.

وفي أثناء ثورة غضبه الشديد وانفعاله العنيف، إذ بيد من خلفه تربت على كتفه على حين فجأة وصوت يهمس في أذنه قائلاً " ألم نتعاهد بأن نترك للمستقبل أن يأتي بحلوله كما يأتي بمشاكله أيها اللئيم الناقض لوعده؟"

وبدون التفات للوراء أدرك أن الصوت صوت صديقه إبراهيم، الذي خرج بصعوبة شديدة بأموال عمه الثري وتوجيهاته وتوصياته ومعارفه في رحلة علاجية من مرضه المميت إلى أحد البلدان المتقدمة في الطب.

وقف مصدومًا للحظات ثم التفت إليه وأخذ ينظر كل منهما للآخر كأن كل منهما يحاول لملمة صورة أخرى للآخر بكل جديدها وقديمها، ثم تعانقا عناقًا شديدًا حتى كادا يعتصران بعضهما، عناقٌ التصق فيه قلباهما ببعض حتى أصبحا قلب واحد ينبض لكل منهما.

لقاء اعتصر ما في قلوب البشر من سعادة ليغمرهما بها، لقاء كلقاء رمال الصحراء لمياه المطر، كلقاء حبر القلم بالورق، كلقاء الشاعر بالكلمات، كلقاء الفيلسوف بالأفكار، كلقاء الروائي بقصته، كلقاء المنهك براحته، كلقاء الضال بطريقه، كلقاء المؤمن بجنته، كلقاء الحواس باللذيذ، كلقاء الروح بالجليل، كلقاء المضلل بالحقيقة.

بعدما فرغ إبراهيم من السيطرة على عواطفه المنتعشة باللقاء ومن التفاعل مع عمر، أخذ يُطمئن الناس الذين التفوا حول صديقه بالقول وهو يطلق الضحكات:

- لا تقلقوا، أنا الآن سأتعامل مع هذا المجنون الغاضب.

ليتفرقوا وهم يضربون أكفهم ببعضها تعجبًا وتذمرًا من مثل هذه المشاهد التي تكرر رؤيتهم لها بين سكان المدينة بسبب الحصار وهم يرددون: "لقد امتلأت البلاد بالمجانين" "كان الله في عونه" "عافانا الله".

كان عمر قدسكت عنه غضبه، واختفت جميع تلك التساؤلات المزعجة، كأنها هربت فزعًا من رؤيتها إبراهيم، فاستشعرت حواسه كل ما هو جميل، لقد استحضرته لا من الذاكرة بل من مكان بعيد، من مكان وصفته له الكتب التي عوَّضته عن فقر وحرمان مدينته، فالألوان التي لم تكن موجودة حوله بدأ يراها، وروائح الأزهار التي لم يرها يومًا في مدينته بدأ يشمها، وتصفيق ورق الأشجار التي حالت الجدران وضيق المساحة دون زراعتها بدأ يسمعه.

كانت لحظات استشعر فيها كل ما هو جميل، كأن العالم لم يحتوي إلا على ما هو جميل، كأن القبح انتفى من عالمه أو كأنه انتفى لعالم أخر لا يحتوي إلا الجميل. لقد انبجست في دماغه المرهق صور لم يكن لها التقاء سابق مع حواسه بشكل مباشر، ودفق قلبه الطافح بالحزن بمشاعر وأحاسيس كان يتصف بالبلادة لعدم حلولها فيه وتعبير ملامح وجهه عنها، واستشعرت روحه المقيَّدة ببؤسه وغمه بحرية فاقت تلك الحرية التي تمنحها الأجنحة للملائكة والطيور.

كانت لحظات تحوله العجيب تلك لحظات تحول لا تليق ببشر، لحظات تحول يصعب استيعابها، لحظات تحول متعجب كيف أنها لم تفسد قدرته على المشاركة العاطفية، لحظات تحول متعجب كيف أنها لم تنفه عن آدميته، لحظات تحول يفسرها فقط حب للآخر تفيض به فقط قلوب الآلهة، لا قلوب البشر الضعيفة العاجزة، حب تفيض به فقط قلوب محبة لا قلوب تحب وتكره، حب تفيض به قلوب تعطي بدون أن تأخذ.

بعد الجلوس وتبادل الحديث الطريف عاد فاجتاحه قلق شديد، بعد تذكره موعد عودة إبراهيم الذي كان من المفترض أن يكون بعد ثلاث أسابيع، والذي كان من المخطط فيه أن يذهب مصطحبًا ميار التي تشاركهما الأبحاث والاهتمامات والأهداف، لاستقباله عند الحاجز الوحيد الذي يسمح منه بالرشاوي والانتظار الطويل والمعاملة السيئة الدخول والخروج فقط للحالات المرضية الخطيرة لدوافع استخباراتية في أحيان وتنازلًا لإلحاح مؤسسات حقوقية في أحيان أخرى، فسأل وهو يتملكه القلق الذي ارتسمت علاماته على وجهه:

- ما سبب عودتك المبكرة؟

قال إبراهيم فيما كانت عيناه تلمعان وعلى وجهه مرتسمة ابتسامة تحاول ببراءتها إخفاء خبر مؤلم:

- ها قد بدأ كثير الأسئلة بطرحها ...

قاطعه بعدما لاحظ ابتسامته الفاضحة التي عظمت من قلقه وخوفه، ليكرر السؤال الذي كان يتمنى لو لم يكن مضطرًا لطرحه، فرد إبراهيم وهو يطلق الضحكات:

- ألهذه الدرجة مزعجة لك رؤيتي المبكرة، ألهذه الدرجة غيابي كان مريحًا فتمنيت أن يطول؟ ثم لماذا تعطي نفسك دائمًا الحق في السؤال أولاً، ألم يكن الخطر عليكم أنتم من عايشتم الحرب أكبر من الخطر الواقع عليَّ؟ إذًا دعني أسأل واكتفي أنت بالإجابة. كيف هي أحوالك وأحوال عائلتك؟

بعد المحاولات المتكررة للتهرب من الإجابة والتي لم يعهدها عمر منه من قبل لتنازله الدائم له مراعاة لحاله، شعر بهول ما يخفي عنه، ليكرر السؤال الذي كان نتيجة فضوله لا رغبته المطرودة بالخوف، ليجد إبراهيم نفسه بدون مخرج تحت طائلة هذا

الإلحاح والقلق المتعاظم جرَّاء المماطلة والتهرب، فأرخي ساقيه وأسند ظهره على مقعده، وأخذ بالإجابة وهو ينظر للسماء وعمر محدق فيه:

- لم أحصل على علاج لمرضي يا صديقي، فلقد كان الوقت قد فات بسبب تصريح الخروج المتأخر. باقي لي كحد أقصى ستة شهور كما أخبرني الأطباء.

كلمات تسببت لعمر بصدمة عنيفة خطفت منه كل شيء، فلم يكن له لسان لينطق، ولا عين لتدمع، ولا قلب ليحزن. لم يكن قادرًا على التفاعل مع الخبر لثقله عليه، فلقد غاب غيابًا كليًا، غاب حيث المكان الذي لا يستشعر به بوجوده، غاب حيث كل شيء فيه وفي المكان معطل، غاب حيث لا يمكن للبشر أن يكونوا بشرًا. لقد كان اعتراف يحمل خبرًا حتى تشاؤمه كان عاجز عن إدراجه في قائمة أسوأ توقعاته، خبر عاجز عقله على إدراكه، خبر عاجز قلبه عن استقباله.

بقي للحظات على تلك الحالة، ثم التفت إليه إبراهيم وسدد له صفعة أعادت بعض منه وأخذ يقول:

- أيها اللئيم، أحقًا نسيت ما كنت تقوله لي عن الموت؟ ألم تكن تقول: (لما كل هذا الرجاء السخيف بطول العمر من قِبل البشر! الموت هو ذلك الذي يمنحنا فرصة عدم التقاعس في أداء أهدافنا من الوجود، هو ذلك الذي يُقدِّم لنا خيار إتاحة الفرصة لغيرنا للقيام بوظائف كنا مقصرين بأدائها من دون أن يعد ذلك انسحابًا أو هزيمة أو فشلاً، هو ذلك الذي يُتيح لنا الراحة بدون جهد مبذول لنيلها، هو ذلك الذي يخلصنا من عالم لم توجد لنا فيه وظائف أو وجدت وسلبت منا أو وجدت ونحن لم نوجد لها. نعم الموت أحق بحبنا من الحياة. يخافون من الموت والحياة أجدر منه بخوفهم، يرجون الحياة والموت أجدر منها برجائهم. ما هو الموت؟ هو ذلك الحليف الذي يخلصنا من عداء الحياة لنا الذي لا ينفيه حبنا لها، هو ذلك الذي يخلصنا من الغدر والخيانة واللاحليف. أه كم نظلمك أيها الحليف، أه كم تجعلنا صغارًا بعطائك وكرمك معنا ونحن بدون استحقاق. ما هو الموت؟ هو ذلك الذي يُلبسنا درع تصوننا من سكاكين الغدر التي تتخذ من أجسادنا وأرواحنا غمدًا لها، والتي لم تكن طامحة في إزاحتنا كعثرة في طريق من يشحدها ويدببها، بل كانت تطمح في ألا يأكلها الصدأ بالإهمال. ما هي الحياة؟ هي ذلك التناثر الذي كان نتيجة الانفجار، حتمًا أيها الموت أنت النقيض. كم هو عظيم شوقي للقائك يا حليفي! لن أقول لك معاتبًا فيما تريثك ولربما توقفك، فلربما أنا المتريث أو المتوقف. حتمًا سنطرد الشوق قريبًا باللقاء)، ألم تكن هذه كلماتك؟ يا صديقي بحزنك هذا إما أنَّك واقع في حب الحياة التي تحاول دفعها لتغار عليك من الموت الذي احتكر أوصافك الجميلة، وإما أنك خبيث لمستوى يدفعك إلى تمنيه لنفسك فقط، فإذا كنتَ الأول، فأنا وجدت في كلماتك صدق وحقيقة وجمال لا يمكنني التغاضي عنه حتى لو تمكنت أنت من ذلك، ولهذا منحني الخبر سعادة

كبيرة، وأما إذا كنتَ الثاني، فسأبقى مصاحبًا لك حتى أُميتك غيظًا بما تمنيته لك وحدك.

ثم أخذ يطلق الضحكات كمجنون، فارتسمت ابتسامة حزينة على وجه عمر، سرعان ما لحقها دمعة حارقة سالت من إحدى عينيه التي استسلمت لاختناقها إثر غرقها، ثم قال بصوت مختنق:

- لقد كنتَ مستمعًا جيدًا أيها اللئيم.

كان حينها قد أعادت الصفعة والكلمات له بعض منه، فكان قلبه يتقطع حزنًا وروحه تختنق بؤسًا، ولسانه ملجوم بقيود يصعب تحطيمها.

أخذا بالنظر إلى السماء الصافية بصفاء لا يلائم أرضها محاولين سرقة شيء من صفائها لأرواحهم الغارقة في الضجيج، وبعد مرور دقائق أخذ إبراهيم يقول وهو ينظر إلى السماء:

- يا صديقي لقد حظيت بقدر كافي من السعادة في هذه الحياة، وأيضًا بقدر كافي من البؤس والألم. يا صديقي لم أعد أحوز إلا مقدارًا قليلاً من القدرة على الابتسام في وجه قسوة الحياة، ولهذا الموت قريب منِّي بقدر هذا المقدار المتبقي. يا صديقي أنا مرهق بقدر أستحق عليه الراحة. دعني أعترف لك، أنا لست بقدرتك على تحمل المزيد من الألم والبؤس ولربما قديمًا كنت بقدرتك ولكن وحدها ابتساماتي وضحكاتي في وجه قسوة الحياة من أرهقتني واستنفذت قدرتي، لربما تفاؤلي هو من قضى عليَّ وجعلني بهذا القدر من العجز عن المسير. نعم يا صديقي تشاؤمك وعبوسك طيلة الوقت وصرخاتك المسموعة من بعيد هم سبب عدم استنفاذ قدرتك على المتابعة. لقد كنتُ أحاول قهر الحياة وإماتتها غيضًا بابتساماتي في وجه قسوتها ولكنني في اللحظة ذاتها كنت أستنفذ قدرتي وطاقتي. كنتُ طيلة حياتي هكذا، ولهذا الموت قرر منحي خاتمة مخلصة لمسيري، لقد قرر ألا يراني أحد متشائم وعبوس. لست نادمًا يا صديقي، بل إنني أكاد أكون غير مستشعر بخطئي، لربما لأنك مصيب، لربما لأنك منحتني يقينًا بأنك قادر على المواصلة بدوني حتى لو لم تشأ أن تعترف بذلك. إنك تملك إرادة يا صديقي، إن فيك حماسًا، مُنحت إياه للتغيير، نعم هذه هبة وليست نقمة كما تعتقد. لقد اعتدتُ على الابتسام والتفاؤل، بالرغم من قسوة الحياة وأرغب بشدة في الاستمرار بدون كسر هذه العادة، ولأنني على وشك أن أصبح عاجزًا الموت قريب ليحقق لي رغبتي. الموت يا صديقي هو عفريت أمنياتي، الموت رحيم عطوف. هناك عدل في هذا الكون يا صديقي، فقسوة الحياة تقابلها رحمة الموت.

توقف للحظات بدون أن يوقف تأمله للسماء، ثم عاد يقول:

- يا صديقي أرجو منك ألا تخبر أحد بمرضي، فأنا لا أريد أن أعيش ما تبقي لي من أيام بنظرات تعاطف ممن حولي، لا أريد أن أكون مصدر حزن للناس الغارقة في

الهموم والأحزان، لا أريد أن أكون سبب استشعار المانح بمنحه بحيازته لقوة هو في الحقيقة لا يحوزها، ولا أن يستشعر بضعف هو في الحقيقة لا ينتمي إليَّ. أريد أن أسعل بدون أن يسألني الناس عن صحتي، لا أريد أن يعاملونني إلا بما سأكون قادرًا على معاملتهم به، لا أريد اهتمام بي كمريض أو فقير أو ضعيف أو حبيب، أريد اهتمام بي كإنسان فقط، أريد أن يبادلني الناس ما أن قادر على مبادلتهم إياه. يا صديقي الناس لا تطلب إلا من حيث تُعطي ومع ذلك يعتقدون أنهم يتصدقون، ولهذا أرجو منك ألا تظهر اهتمام بي أكبر لكيلا تلفت الأنظار وتثير التساؤلات، فإذا رأيت أحد يشتمني أو يضربني ممازحًا فشاركه بذلك، وإذا رأيتني أطلب من أحد ما مساعدة، فلا تحقد عليه إذا لم يقدمها لي أو تطلب منه عندما أدير ظهري أن يفعل ذلك.

اهتزت مشاعر عمر من كلماته، فلقد عرَّت له ألامه وأحزانه وشقاءه الذي تخفيه ضحكاته وروحه المرحة واهتمامه المستمر بمن حوله وحرصه الدائم على راحتهم، وكشفت له عن انكسارات وهزائم وسقطات وتعثرات كان قد أخفاها عنه.

كانا ما زالا يتابعان السماء، فقال عمر وقد تراجع أثر الخبر المؤلم عليه، وبعدما قرر التماسك أمام حزنه بعدما بان له عظيم حزن صديقه المكابر:

- لك ذلك يا صديقي.

وبعد لحظات تأمل صامتة، اعتدل في جلسته، وقال بصوت يملأه الحماس، بان منه عظيم تحوله:

- حدثني عن آخر الكتب التي طالعتها وآخر القضايا التي شغلت اهتمامك وحازت على وقتك.

فأجاب إبراهيم وقد انتقل إليه الحماس بالرغم من اعتياده على سرعة تحولات عمر العاطفية:

- لقد تولَّدت لدي رغبة كبيرة في الآونة الأخيرة بمطالعة الروايات بالرغم من إحساسي بالتطفل عند قراءتها وشعوري بالذنب لطغيان التسلية على الفائدة، وقد وقع اختياري فيها على روايتين، الأولى هي "ألام فيرتر"[1] لجوته، والثانية هي "هكذا تكلم زرادشت"[2] لنيتشه.

كان مما اعتادا عليه في حال ذكرا اسم كتاب، تحدي بعضهما في تحليل بعض من نصوصه المزدوجة المعني أو المعقدة، وفي حال ذكرا اسم رواية ما يكون التحدي بينهما بالاقتباس، فمن يستمر إلى أن يعجز الآخر يكن الفائز.

قررا البدء ب"آلام فيرنر"، فاقتبس إبراهيم:

- "أجل أيتها الطبيعة البسي ثياب الحداد، فطفلك وصديقك وعاشقك يدنو من نهايته!"

رد عمر مقتبسًا:

- "لا بد لمنبع سعادتنا أن يكون أيضًا ينبوع شقائنا"

- "ولكن أوان فنائي قد اقترب، لأن العاصفة التي ستذبل أوراقي وتسقطها باتت وشيكة القدوم، وغدًا سيأتي المسافر، سيأتي ذلك الذي في نضارة الجمال، وسوف يبحث عني في أرجاء الميدان ولكنه لن يجدني"

- "هذا قدرنا يا فلهلم! ولست أتذمر منه، فأزاهير الحياة ليست إلا رؤى عابرة سريعة الزوال"

- "أخشى كثيرًا أن تكون استحالة الحصول علي، هي التي تجعل رغبتك في بهذه القوة"

فرفع عمر يديه مستسلمًا لعجزه عن استحضار اقتباس ثم قال:

- لقد كان غوته عظيمًا في التصوير في هذه الرواية، فلقد كنت أشعر أنني موجود في المكان الموصوف، وأنني مشارك في الأحداث ومستشعر بكل حواسي بالمعاناة والحب والألم.

فوافقه إبراهيم هازً برأسه وشاركه بعض الملاحظات على الرواية ثم انتقل للاقتباس من رواية "هكذا تكلم زرادشت"، فقال مقتبسًا:

-- "كل إنسان تعجزون عن تعليمه الطيران علموه على الأقل الإسراع في السقوط"

بعد مضي وقت طويل دون أن يرد عمر على الاقتباس باقتباس، قال بعدما بانت على وجهه علامات الانزعاج وعدم الارتياح:

- اعذرني يا صديقي على المقاطعة، فليست لدي الرغبة للاقتباس لنيتشه.

أخذ إبراهيم بالضحك، ثم قال:

- بالتأكيد ستكون كذلك.

فقال عمر مندهشًا من شدة معرفة صديقه به، وطامعًا بإجابة:

- لماذا برأيك؟

- أرجح أن يكون سبب عدم ارتياحك له وقدرته على استفزازك بالرغم من حبك له، هو تحديده القوة كأحد الغايات الإنسانية. قد لا توافقني الآن، ولكن في المستقبل أرجح أنك ستفعل.

- لربما يصح قولك أيها العراف. اسمح لي بملاحظة على اقتباسك. هل لمن فشل في تعلم الدرس الأول النجاح في تعلم الدرس الثاني؟ أنا شخصيًا أجد الدرس الثاني أشد استعصاءً على المتعلمين.

- ملاحظة جميلة ودقيقة أيها الحذق، أحسنت. حقًا لقد أُوتيت موهبة الملاحظة وفكاهة لاذعة لا أعرف لها سبب غير مزاجك المتعكر باستمرار، وثورتك التي لا تنطفئ، ونفسك الحزينة وضميرك المرهف وتشاؤمك الحاد ورهافة شعورك ورِقة عاطفتك. هذا الخليط المتجانس فيك أشد ما يُميزك، وأكثر ما يجذبني إليك ويحببني فيك أيها البائس.

تخليا عن الكلام وأخذا بالنظر إلى السماء مجددًا، فلقد كان النظر إليها عادة يلجأ إليها كل منهما باستمرار في كل لقاء بينهما مرات عديدة.

لقد كانا بالنظر إلى السماء ينتزعان بعض من الحرية لأبصارهم التي قيدتها كثرة الجدران. لقد كانا يتركان جسديهما على الأرض ليلتقيا أرواحًا فيها، ليستعيرا بعض من الهدوء لأنفسهم المرهقة بضجيج عالمهم. لقد كانا شديدي الإعجاب بها لعجزها عن احتواء الجدران كأرضهم التي تحتويها بعطف.

عند التأمل هما بدون شوق ولا حزن ولا ملل ولا ألم ولا بغض ولا جوع، ولكن في لحظة التوقف تتزاحم هذه الأحاسيس والمشاعر لتستوطنهما، كأن التأمل صوم لهما عن المعاناة. كانا يشعران بأنهما بدون تأمل أشياء مملوكة، ولكن بالتأمل هم لا شيء في طور التكون ليصبح شيء بإمكانه أن يَملك بدون أن يُملك. التأمل بالنسبة لهما، قراءة بدون كتاب، وكلام بدون عتاب، واستدلال بدون سراب. كانا يشعران أن الزمن في لحظة التأمل لا يحتاج سوى لمسة واحدة لإيقافه، هذه اللحظة كانت بالنسبة لهما كحدث أو شخصية أو حكمة علقت في ذهن القارئ لرواية ما زالت تقدم أحداثها وشخوصها ودروسها، هي كمشهد أوقف مسرحية ما زالت تقدم عروضها، هي كتفصيل صغير في وجه شابة جميلة يخطف الناظر بالرغم من التفاصيل الكثيرة المُبهرة التي يحتويها. لحظة التأمل بالنسبة لهما هي تلك القلة التي لا يوجد أقل منها، وهي في ذات الوقت تلك الكثرة التي لا يوجد أكثر منها، هي كل شيء فيما يعتقد أنه شيء أو لا شيء، هي إمساك للكل في البعض. هي لحظة بالنسبة لهما توجد النقائض فيها بدون صراع وتصادم، متجاورة بسلام، هي لحظة بالنسبة لهما تمنح بدون أن تسلب.

لقد كانا يحوزان كل شيء في لحظة التأمل ولكن فور عودتهم إلى مدينتهم كانا يفقدان كل شيء، ولهذا كانا بحاجة إلى العودة باستمرار.

بعد نصف ساعة من تأمل السماء، قررا الذهاب للجلوس في مكتبة الجامعة ليحتميا من أشعة الشمس الحارقة، التي تمكَّنت بعموديتها من أن تطال جميع الزوايا، ليستعينا بالكتاب للهرب.

(2)

وصلا إلى المكتبة، وأخذ كل منهما بالتجول منفردًا بين ممراتها بحثًا عن الكتب التي لها علاقة بأبحاثهم غير الأكاديمية المشتركة بينهما في الفلسفة السياسية وفلسفة الأخلاق. كانا ينبشان الرفوف عن تلك الكتب التي في مجال اهتمامهم، التي يفتشان فيها عن تلك النصوص التي تمنح أقلامهم حبرًا للكتابة، عن تلك التي تبني لهم رأيًا وموقفًا وتمنحهم حجة وتبريرًا، عن تلك التي في أحيان أكثر تمنحهم قدرة على بناء رأي مخالف وموقف مضاد وحجة داعمة. لقد كان الهدوء الذي يستوطن المكتبة لخلوها الدائم من الزائرين أحد مؤنساتهم القليلة والذي لا يجدونه في مكان آخر.

لم تكن أجواء المكتبة الخانقة قادرة على طردهم ولا الغبار الذي يغطي كتبها ورفوفها وطاولاتها قادرًا على إزعاجهم، فالقراءة بالنسبة لهما لا تحتاج إلى حافز ولا تشترط راحة جسدية ونفسية، ولذلك كان الإزعاج الوحيد لهما فيها هو فقرها وفوضويتها، فلا كتب لمعاصرين، ولا جهود لنقل الجديد بالترجمة، ولا سلاسل كاملة لنتاج أبرز المفكرين، ولا نظام تصنيف جيد للكتب، فإذا وجدت الأقسام غابت الفروع، ولهذا كانت مكتبة تناسب من يبحث عن الثقافة لا ذلك الذي يبحث عن التخصص، وبالرغم من ذلك كانا يلجئان إليها، فلا بديل لهما أفضل ولا حتى أسوأ.

بعدما انتهيا من التقاط بعض الكتب التي استهدفاها، وفي أثناء الاستعداد للجلوس في أحد الزوايا المفضلة لهما، فاجأتهم ميار بظهورها، وقد كانت عائدة لإرجاع كتب كانت قد استعارتها لإنجاز أبحاثها.

في أثناء سيرها باتجاههم قال عمر وهو ينظر إليها بانبهار:

- ها هي صاحبة العقل الجميل.

فردت عليه بابتسامة رقيقة، تبعها إبراهيم بالقول بعد العناق الذي حاولوا به إطفاء شوقهم لبعضهم:

- الشباب يقولون دائمًا ذات الوجه الجميل.

- هي حائزة على الاثنين، ولكن لأن وجهها محتكر جميع المدح آثرت أن أنصف عقلها.

- ها قد اجتمع المتزوج الشقي بالبائس الذكي مجددًا.

- وصفكِ له بالذكاء، وصف غير مباشر لي بالغباء، أليس كذلك يا عمر؟

ثم أخذت ضحكاتهم تقفز بين الكتب كأطفال لاهية بدون أن تجد اعتراض يوقفها لخلو المكتبة المعتاد.

ثم أردف بعد الجلوس:

- انظري لِما حدث لذلك الموظف العجوز عند رؤيته لكِ، لقد قاوم ليل رأسه نهاره، وحارب استواء وجهه هضابه وجباله، وهزم قرب رأسه من السماء قرب رأسه من الأرض. انظري لقد بعثي فيه الشباب من جديد.

ثم تعالت ضحكاتهم مجددًا.

لقد كان عمر في تلك اللحظات بالرغم من تفاعله الذي يظهر ثباتًا وصمودًا يتراقص ارتباكًا من الداخل، لقد كان يُحدِّث نفسه قائلاً: "أنا بحاجة إلى أكثر من عينين للإحاطة بكل هذا الجمال. لا، لا، فلو كان لي ما أطمع به من إحاطة بهذا الجمال لكان مصيري كمصير ذلك الجبل الذي انهار أمام عينَي موسى عندما تجلت له بعضًا من عظمة ربه. نعم عجزي عن الإحاطة بكل هذا الجمال المتجلي هو رحمة لا عذاب، هو عطاء لا منع، هو حليف وليس عدو، هو حب لا كره طالني."

لقد كان جانبا وجهها له بمثابة إلهين، فهي إذا التفتت يسارًا اختفى عطاء إله اليسار، وإذا التفتت يمينًا غاب عطاء إله اليمين، ولهذا وجهها كان يلزمه بسجدتين.

كانت إن جلست يمينه أنَّ شماله وإن جلست شماله عاتبه يمينه، ولهذا كان باستمرار يُغيِّر مكان جلوسه ليقابلها، لكي يكون منصفًا لجانبيه، لكي يجعل الظلم الواقع عليه بقرارها هي في الاستدارة بوجهها يمنة ويسرة، لا بقراره هو.

معظم الشباب يذهبون إلى تبني آراء وتأييد أحكام من هم مولعون بهن من النساء، ولكنه كان متخذًا لتوجه مخالف، فلقد كان يخفي إعجابه الشديد بها بآراء مختلفة وغالبًا ما تكون مخالفة في المناسبات التي يكثر فيها الحضور.

لقد كان يعاديها بالمخالفة وذلك ليس بهدف احتكار الحديث معها، ولا بهدف أن يكون الوحيد الذي تفكر في مناهضة آرائه وأذواقه ومعارفه، بل لشعوره بإلزامية مخالفتها وسط المثقفين لكي تنفي عنهم ثقافتهم بعظيم ما تحوزه من ثقافة، لكي تخلصهم من عجرفتهم بسعة اطلاعهم بسعة اطلاعها، وفي أحيان ليست بالقليلة ليساعدها في نفي إعجابهم بجمال وجهها فقط.

كان يرى أنها تستحق أن تخالف، فبالمخالفة يتكشف المزيد من جمالها الذي يخفى منه الكثير عن العيون العاجزة، وبالمخالفة أيضًا يستدعي قدرتها العظيمة على التعبير

عن منطلقاتها وأهدافها ومرتكزاتها، وبالمخالفة أيضًا يقدمها للناس بصورة أفضل وأشمل، وبذلك يمنح الجميع شعورًا بالدُّونية يُساعد في الاستغناء عن الطمع.

كان بمخالفتها يحاول تحطيم الجميع وإفقارهم،ليجعلهم عاجزين عن التجرؤ بالشعور باستحقاقها. كان يحاول نفيهم بل نفيها، لا بل تسليط الضوء على المسافة الكبيرة التي تفصل الجميع عنها.

قليل من الرجال يتجنب الوقوع فيما وقع فيه الكثيرون منهم، أولئك الذين يميلون إلى ما تميل إليه الجميلات، ونتيجة لذلك كان لهم محاصصة اهتمامهن وإعجابهن، فالقليل يريدون شيئًا من الجميلات لا يحاصصونه ولا يشاركونه مع غيرهم، حتى لو كان هذا الشيء هو العداء والكراهية.

ولكنه لم يكن لا من القليل ولا من الكثير، وكذلك كانت هي، فهو يعلم أنه ليس مثلها من تعادي وتكره للمخالفة وتحالف وتحب للموافقة.

كان بعد كل لقاء بها بحاجة إلى الابتعاد ليتعافى، ليلملم بقاياه، وليعيد تجميع ما تكسر فيه، لكي يرجع أمامها مدعيًا الثبات ومخفيًا الحب وفي أحيان التوافق.

كانت روحه بعد كل لقاء بها تطرد شوقها إلى السلام المتسببة به الحرب الضروس التي كان يخوضها. لقد كان الالتقاء بها ثقيلاً عليه أكبر من قدرته على الاحتمال، كأنه لقاء بين إنسان ممتلئ بالذنوب ومدمن على المعاصي ومتمرس على الخطأ، وإله يمتلك وسيلة العقاب ويفضل المغفرة.

لقد كان بها مستشعر بعظيم عجزه، يسمع ضجيج ضعفه بالإعلان عن نفسه، بدون أن يسمع حتى همسات لقوته، كأن لا وجود لها. إنها امرأة منحت لضعفه صوت وأبكمت قوته بل أثبت له أنه لا يحوزها.

كان بثقافته الواسعة، في حضورها يسعى باسمرار إلى تحويل النقاش الهزلي إلى نقاش جاد، وتحويل الموضوع الذي يتطلب حضورًا ذهنيًا بسيطًا إلى موضوع يتطلب حضورًا ذهنيًا معقدًا، ليستعين بالبحث والتحليل في وجودها، لينشغل عن جمالها المُربك، ليتفادي ظهور غير متزن وغير متماسك، ليتجنب إفصاح آثار تناثره عن أسراره. لقد كان في حضورها يهرب باستمرار، ولكنه هارب بسلاسل سرعان ما تثبت له التفافها حول عنقه عند وصوله إلى أقصى حد لامتدادها.

بعدما تبادلوا طمأنة بعضهم البعض على أحوالهم، وتبادل التهاني على السلامة، وضعت أمامهما مجموعة من الورق ثم قالت:

- هذه نتائج آخر أبحاثي. لقد منحني الفراغ في وقت الحرب فرصة لإنهائه بسرعة. اطلعوا عليها، وقدموا لي تعليقاتكم. سأمنحكم أسبوعًا فقط أيها الكسالى، وأعتقد أنه سيكون مدة كافية، لتقديم أفضل المقترحات وأدق نقد.

كانت تقوم بإعداد الأبحاث في مجال علم النفس بدون هدف أكاديمي يخدم مسيرتها الأكاديمية، وإنما بهدف رغبتها المستمرة في الإبداع والابتكار، فكان كل منهما لا يتوانى عن تقديم المساعدة التي كانا قادرين على منحها إياها، سواء كان ذلك بإبداء الآراء أو في توزيع الاستبانات على الجمهور المستهدف من أبحاثها، أو بمساعدتها في إيجاد الحالات المرضية التي تستهدفها.

تعجبا من تفانيها في العمل، وسعيها الدائم لخدمة تخصصها الذي اختارته عن حب وإمكانيات لديها متوفرة له، وذُهلا من قدرتها العظيمة على الاستمرار بالبحث بدون راحة، وبخططها الدائمة لأبحاث جديدة، وبعجز الظروف والعوامل المحيطة على التأثير على مزاجها للعمل.

بعدما منحاها وعدًا بالاطلاع الجاد والسريع على البحث، قال إبراهيم:

- انظر يا عمر، جميلة حتى بعد الحرب، جميلة حتى بعد الانتهاء من بحثها.

فقالت وابتسامة على وجهها:

- ها قد عاد لنا المشاغب ولكنها عودة بجرعات أكبر.

ثم انفجروا بالضحك.

وبعد تبادل قصير للحديث في أحوال مدينتهم بعد الحرب، وقفت وأخذت تسير بين الممرات لإرجاع الكتب التي استعارتها إلى رفوفها، وبعدما عادت إليهما، اعتذرت منهما على اضطرارها للانصراف معللة ذلك بخوفها على والدها السيد شوقي من تداعيات القلق عليه في حال تأخرها، فلقد كان الوضع الصحي له غير مستقر لتقدمه في العمر ولأمراضه القلبية.

وفي أثناء وقوفها للانصراف، أخذت بالتذكير بالساعة السادسة صباحًا كموعد للالتقاء في اليوم التالي بمنزلها لمساعدتها في تهيئة المكان لاستقبال الضيوف وإعداد الضيافة بجانب تبادل النقاشات في أبحاثهم المشتركة والعديد من القضايا التي تشغلهم، كما هو الحال كل أحد، حيث يعقد فيه الساعة العاشرة الصالون الأدبي للسيد شوقي والذي يحضره عدد من المثقفين والسياسيين والفنانين والأدباء والعلماء.

قال إبراهيم بعدما لاحظ شحوب عمر وذعره ويأسه وإحباطه في أثناء متابعته لها وهي تبتعد والافتتان يسطع في نظرته:

- أقسم أنه عشق وليس مجرد إعجاب. متى تستسلم وتصرح بذلك؟ ماذا كنت ستفعل لو لم أكن موجود؟ إلى متى ستبقي متكلاً عليَّ في إخفاء ما تعجز عن إخفائه بالرغم من المحاولة؟ إلى متى سأبقى أساعدك في إخفاء اضطرابك في حضورها؟ عليك الاعتماد على نفسك يا صديقي، لكي تعتاد بسهولة على غيابي القريب. أقترح عليك مصارحتها، فباعتقادي هذا العلاج الأفضل للتغلب على اضطرابك..

فرد عليه عمر بدون التفات كأنه كان يتصورها أمامه بصوت فيه رومانسية وشكوى وألم وعجز:

- إنها امرأة مهيبة. يا لقدرة الله في حضورها! إن وجودها يزيد من إيماني. بها يا صديقي أصل إلى أعلى حد في تصور قدرة الله، بها أحطم جميع الحواجز التي أعاقني ببنائها جهلي في تصور قدرة الله وعظمته. يا صديقي، في وجودها ينتفي ما للمكان من امتداد مجهول بعلم ما لجمالها من امتداد غير محدود. أرتحل في امتداد جمالها ارتحالاً نفى عن كل ارتحال مشقَّته. هي كفنانة تعجز ستائر المسرح عن القيام بوظيفتها تجاهها. لقد حصرت فيها الأمنيات باحتكارها المستحيلات. هي موجة لا يوقفها انحدار شاطئها. إذا النجوم في السماء تلألأت، وعلى أمواج البحر تكسرت، وعلى أسوار عكا قد تمردت، وفي ساحات الطين قد تعثرت، فهي في مرآة عينيها قد تزينت. هي كقمر بدر اقتبس من الشمس غروبها، فرسمت لنا أنواره بحر مشتعل، يطلب نجدته بإطفائه. يا صديقي، لا تليق بها مجالسنا بل تليق بها مجالس الشعراء فهي أعظم إلهام لهم. هي نظم الشعراء ونثر الكتاب وفكر المفكرين وفلسفة الفلاسفة ولوحة الرسام وسيمفونية الموسيقي. هي كل شيء، هي الايمان في طمأنينيته، والكفر في لذته، والنهار في معاشه، والليل في لباسه، هي السماء في صفائها والأرض في بهائها. هي واقع أجمل من خيال، هي واقع حتى في الخيال لا ينال، هي أكثر مما أطلب وأرتضي. هي كما البرق ولكن لها ما ليس له من الاستمرارية، هي كصاعقة ممنوحة للقلوب لكي تحيا. هي معجزة لمعاند وضوح الحق. هي أعظم مكافأة لواحد وأعظم عذاب لمن سواه. لا معنى للسلب والعطاء إذا لم يُشيرا في تحديدهما إليها. هي كل المفاجآت. يا صديقي، البرق مقتبس من لمعان عينيها والصواعق مقلدة لخصلات شعرها التي تتطاير على وجهها. نعم، كل ما في هذا العالم ملهم من جمالها. هي كسفينة لا تصل بأمواج البحر إلى شاطئها بل تصل أمواج البحر بها إلى شاطئها. يا صديقي، إن تواجدت في مكان،توقفت الفراشات عن فرد أجنحتها، وتوقفت البلابل عن الغناء، وتوقفت آلات الموسيقى عن إخراج ألحانها، وتوقفت الأزهار عن نثر روائحها، وعجزت ضحكات الأطفال وشقاواتهم عن إشعارنا ببرائتها، وتوقفت السماء عن إشعارنا بصفائها، بل توقف الزمن عندي وانتفى المكان لدي وبقيت هي الحاضرة فقط، بل بقي الحضور فيها فقط.

كان ما يزال ينظر إلى الطريق الذي سارت فيه مغادرة، كأن خطواتها فيه كانت ترسم له صورًا ثابتة لعينيه التي كانت تلوِّح لها مودعة كطفل صغير متعلق كل التعلق.

لقد كان لانقطاعه عن الالتقاء بها لفترة طويلة تسببت بها الحرب، الأثر العظيم في نفسه، فلقد كان فاقد بسبب الغياب فاعلية جميع وسائل هروبه في حضورها، فاقد لكل الخبرة التي اكتسبها من صراعه الطويل في إخفاء حبه، فاقد للاستعداد، ولهذا انهار أمام إبراهيم واعترف له بحبه لها.

لطالما كان ينتحب فوق كتف إبراهيم وهو يبوح له بمعاناته وآلامه ويشتكي له من ظروفه، ويفضي له بمشاعر، ويصور له عواطفه التي تضطرم داخله مُشعلة فيه نار تعجز روحه عن احتوائها فيظهر ذلك في حركته المضطربة المرتبكة وفي تصرفاته الرعناء وحركاته الخرقاء وانفعالاته الحادة، ولكن وحدها مشاعر الحب من كان يحاول إخفاءها عنه، والتي باح بها أخيرًا واعترف بوجودها في لحظة ضعف شديد. كان يُسر له بكل دخائل نفسه، ويقدم له اعترافات تحمل من الإبانة عن ضعفه وانكساره وتحطمه ما يترفع عن تقديمها لغيره. كان مكتفيًا قبل التعرف عليه بالتمني بوجود شخص قادر على البوح له، ولكنه وجد من هو قادر على منحه أكثر من التفريغ والشكوى، وجد من هو قادر على منحه العلاج، وجد من هو قادر على احتوائه وترويضه وتقديم النصائح التي تمنح الغضب الذي يملأه فرصة ليكون سبب في غرس نبتة وتفتح وردة.

كان الاعتراف صادمًا لإبراهيم لا بما يحمله من خبر هو مكشوف له، بل بالجرأة والانهيار والانكسار الذي تسبب به، بحالة الضعف التي كان عليها والتي حطمت الإصرار العنيد على إنكار الحب طوال سنوات ثلاث، فقال مدهوشًا:

- لم أكن أعلم أنك ماهر في استعمال الكلمات في الوصف وفي التعبير عن مشاعرك إلى هذا الحد أيها اللئيم.

- أه يا صديقي كم أعبد الكلمات لتمنحني مدلولات كافية أعبِّر فيها عن إعجابي بها وصورتها في عينيَّ، وبالرغم من ذلك لا أجد منها إلا خذلانًا. لا عتب على الكلمات، فقد حق لها أن تخذلني، فعبادتي لها كانت عبادة لهذا الجمال المُتجلِّي أمام ناظري.

- ألا تعتقد أنك مُقصِّر في حق نفسك في الاستمرار بإخفاء حبك لها، ومُقصِّر في حقها كصديقة بعدم الاعتراف لها بما تُكنِّه من مشاعر تجاهها. تحلى بالشجاعة يا صديق، وصارحها بحبك.

- يا صديقي هي كشجرة لا يستحق أن يجني ثمارها ولا أن يتفيأ بظلها أحد، ولو كان لها ما يكون لغيرها لقلة حياء الطامعين فلن ينقصها ذلك، بل ستنقصهم بذلك. هي عقاب لنا على فعلة أدم وستكون نعيمًا لأقربنا إلى الله، لا بل لن تكون، فنحن حتى

بالقرب لا نستحقها. هي جنة علمنا برؤيتها استحقاقنا للجحيم. كنتُ أعتقد أننا أنصاف بالحب نكتمل، حتى قابلتها، فعلمت أنها كل لا نصف يُكمِّلها. كلما رأيتها أراجع جميع ما في سنين حياتي مفتشًا عن استحقاق ولكن بدون أن أجد، ولهذا يا صديقي طلبي لحبها مُنتفي بحالي وإجلالاً لحالها.

كان إبراهيم يستمع إليه كأنما يستمع إلى نغمات حزينة لكمان، ثم قال بحزم بهدف دفعه للانكسار أكثر ومساعدته على التعبير عن مشاعره المكبوتة ليمنحه استقرارًا مؤقتًا:

- إذًا لا تنظر لشيء يعجز فيه عقلك عن إقناع قلبك أنه قد يكون غير مناسب لغياب استحقاقك به.

- أنصح نفسي بعدم الالتفات، ولكن بظهورها أعود لأنصحها بعدم الالتفات لنصحي. كيف الهرب والرحيل متاحًا لي وأنا المكبل بجمالها، كيف تكون المحاولات مدفوعة بالأمل، وهي الأمل، كيف يكون الرحيل عنها أو الهرب منها ممكنًا ومتاحًا وقد اجتمع المكان والزمان فيها! أضع مسافة بيني وبينها لا كحد لها بل كحد لي، فمن أنا لأضع أمامها الحدود، ولكن كلما رأيتها شعرت أنها بما هي عليه، تضع مسافة بيني وبينها كحد لها ولي. يا صديقي الخيارات ليست متاحة بوجودها، نعم، بوجودها خيار واحد متاح وهو أن ننظر إليها ثم ننهار إعجابًا.

- إنك يا صديقي تنتقم منها بالحب مخالفًا حصر الناس الانتقام بالكراهية. ألا تعتقد أنك مستحق لحبها بحبك، ألا تعتقد أنك تستحق التفاتة مواساة منها على هذا القدر من الحب الذي يحمله قلبك لها.

- نحن حمقى إذا اعتقدنا أننا بحبنا نُمنح استحقاق حب من نحب. ليت الحب يمنح الاستحقاق يا صديقي، لوجدتني أكثر المستحقين، ولكن للأسف، هو عاجز عن ذلك. حيث هي مُنتفية بإعجاب الجميع وحبهم الجشع، سأتبعها بنفي نفسي، هناك حيث سألقاها بالتظاهر بأنني بدون حب.

- إذًا يا صديقي، حاول السيطرة على مشاعرك وضبط نفسك في حضورها والسيطرة على اضطرابك الذي يحاول فضْحك.

- أتساءل: أذلك أنا حقًا في حضورها؟ أبحث عن انتباهي للقول وكلما وجدته، عاد ليهرب مني لدعم انتباهي للصورة. كم رجوت يا صديقي ألا يُوجَّه سؤال لي، أو طلب بإبداء رأي في حضورها، ولكن من دون تحقق. كم كنت سأنفجر في وجه طالبي حضوري معهم في حضورها صارخًا في وجوههم " لا تطلبوا بعضي في حضورها لكي أعوضكم بكلي في غيابها" ولكن وجودك بجانبي يدفعني للتراجع وتحمل حماقاتهم وسعيهم للإضرار بي. يا صديقي، تضيع مني عاداتي برؤيتها ولا أتعرف على جديدي ولا أحاول ذلك، فمالي ولجديدي كي أتعرف عليه بوجودها،

ولهذا تجدني أؤجل مهمة التعرف لانشغالي فأعذر لنفسي اضطرابها. يا صديقي، هي مليئة بخيارات جميعها تكون الخسارة بالاختيار منها، هي مليئة بخيارات تكون الفرص الضائعة بعملية الاختيار عظيمة التكلفة، هي مليئة بخيارات لا يستطيع بشر احتواءها، ولهذا تكون عملية التخيير، لهذا تكون الخسارة دائمة، لهذا تكون الحسرة وتأنيب الضمير وعتاب النفس والعقاب، لهذا يكون الارتباك والقلق والخوف.

- إنك تحوز قلب يعرف كيف يحب أيها اللئيم.

تناول كل منهما كتاب من الكتب التي التقطاها عن الرفوف، وأخذا بالمطالعة وتدوين الملاحظات. لقد كانا ينتقيان المشاكل والأسئلة الفلسفية الأشد تعقيدًا والتي أرهق الإنسان على مدار التاريخ في محاولة إيجاد حلول وإجابات لها بدون أن يقترب حتى ولو قليلاً، لكي يغرقا في صعوبة وتعقيد أشد جذبًا وإرهاقًا وإشغالًا لهما من صعوبة وتعقيد المشاكل التي تحل في واقعهم المرير. كانا يهربان من جحيم فرض عليهما لجحيم وقع اختيارهما عليه حتى لو كانت نيرانه أشد سعيرًا، لكي يُشعرا نفسيهما بالحرية والاستقلال.

بعد ثلاث ساعات من تدوين الملاحظات واستخلاص النتائج وتبادل الآراء والتوجيهات، قاما بتجميع أوراقهم المنتشرة على الطاولة ونهضا لإرجاع الكتب إلى رفوفها ثم عادا بعد ذلك للجلوس.

سأل إبراهيم والقلق يعتريه:

- أما زلت مضطرًا لمخالطة زملائك والتعامل معهم.

- للأسف، نعم.

- وضعك يزداد سوءً كلما ازدادت فترة مكوثك بينهم، فبهم يزداد الصراع في داخلك شراسة. انفعالاتك أصبح من الصعب السيطرة عليها.

- أعلم ذلك، ولا خيار أمامي.

- لو كنتُ مكانك لأصابني ما أصابك، ولهذا عذرك موجود. من يخالطهم يا صديقي، يطَّلع على الصورة التي خلقها الحصار في أعظم تجلياتها.

- الفرص الشحيحة يا صديقي، أكثر الشياطين تضليلاً واغواءً. إن مجرد التفكير بها بدون سعي لنيل فرصة قد يطيح بالالتزام بالقانون الأخلاقي. انظر إلى الحياة الجامعية على سبيل الذكر لا الحصر، لقد أصبحت نتيجة الفرص الشحيحة مستنقعًا مليئًا بالغدر والخبث واللؤم والوشايات والسرقات والحقد والكره والإضرار والتآمر والخداع والعداء. لقد أصبحت ساحة لحرب لا يخرج منها أحد منتصرًا. الطالب عدو للطالب، والمحاضر عدو للطالب، والإدارة عدو للمحاضر، والمُلَّاك أعداء للإدارة. إن الحياة

بسبب الحصار أصبح يليق بها توصيف هوبز "حرب الجميع ضد الجميع". يا صديقي لقد انحطت أخلاق الجميع بسبب الفرص الشحيحة. لم يعد بمقدور أحد أن ينال فرصة بدون أن يكون على درجة محددة من الانحطاط تؤهله لها. لم تعد الفرص متاحة لأولئك الذين يُصرُّون على التمسك بالالتزام بقانونهم الأخلاقي. إنني يا صديقي عاجز عن التوقف عن التساؤل عن السبيل المتاح لهؤلاء للاستمرار بالتزامهم بقانونهم الأخلاقي، وبالرغم من ذلك عاجز عن إيجاد حل وإجابة.

- ستزداد الفرص شُحًا يا صديقي، وسيزداد الصراع احتدامًا، ولهذا كما أخبرتك في وقت سابق، إنه لكي نحافظ على هدوئنا الذي نحن بحاجته باستمرار، ينبغي علينا تفادي استشعار وجود هذا الصراع، وتفادي أن نكون أطرافًا فيه، وتفادي البحث عن فرصة من تلك الفرص القليلة المتاحة لضمان استمراره، علينا التوقف عن البحث عن فرصة حتى لو كلفنا ذلك حياتنا.

- كيف ذلك يا صديقي وجميع البشر وكل الظروف تدفعك لاستشعار ذلك الصراع، وتحثك على التدافع لنيل فرصة. متبقي شهر على تخرجي، ماذا سأفعل أمام جميع العقبات التي أمامي والتي تتعاظم؟ إذا كان هذا ما يحدث قبل العمل، فأنا عاجز عن تصور البيئة التي سيوجدها العمل لمن وجده. إذا كانت الرغبة في العمل أحدثت كل هذا الانحدار الأخلاقي، فما هي الدرجة من الانحدار التي سيكون على العامل الوصول إليها للمحافظة على عمله ووظيفته؟ لقد ابتلينا بحياة يا صديقي فيها كل نهاية تستدعي التزامات أكبر وتُرهق بمسؤوليات أعظم وتتطلب جهودًا أكثر وتدفع للخوض في صراع أشرس. لا يليق بالنهايات إلا الجنازات، ولكن للأسف يا صديقي، نهاية وحيدة تحظى بالجنازة وتُترك النهايات الأخرى للاحتفالات.

- ما يُحزن يا صديقي أننا نُخيَّر بين خيارات لا نرغب باختيار أحد منها، وما يُحزن أكثر هو ظن الغالبية أنَّ الاختيار هو الحل، وهو أداة التغيير، وما يحزن أكثر فأكثر هو عدم معرفتنا أن هناك خيارات لا تعرض علينا، يجب علينا انتزاعها ووضعها في عملية تخيير أوسع، تكون عادلة ولا أفضلية فيها لخيار إلا من منطلق حر.

- العيش في عالمنا هذا يا صديقي مهمة صعبة للغاية. أنستطيع حقًا الاستمرار في تجنب المشاركة في صراع اقتناص الفرص هذا؟

- ها نحن نحاول، فدعنا نستمر بالمحاولة، بدون أن نتنبأ بتوقيت اللحظة التي نتوقف فيها، دعنا نستمر بتفضيل الشعور بإنهاك المحاولة حتى تحين لحظة عجزنا عن مقاومة إكراهنا على استشعار إنهاك التوقف.

- لقد كنتُ جالسًا مع زملائي قبل رؤيتك، وقد كانوا يتحدثون عن مكاسبهم من الحرب، فوجدت أحدهم قد اعتبر فقدان بعض من أفراد عائلته مكسبًا لتحصُّله على ممتلكاتهم، ووجدت آخر يعتبر هدم منزله مكسبًا لتجديد بنائه من أموال المساعدات

ولتوفير بعض من الأموال عن طريق تعظيم الأضرار والمبالغة في تقدير الخسائر، ووجدت آخر يعتبر نسف محافظات بأكملها مكسبًا لتوفيرها فرص عمل أكثر عند إعادة بنائها، وكان البعض يرى تلوث المياه والهواء فرصة جيدة لحصد الموت مزيدًا من الناس وبالتالي أعداد سكان أقل مع أنهم لم يتعرفوا على مالتوس، ووجدت البعض يعتبر الحرب مكسبًا لجلبها المساعدات الدولية والتعاطف الدولي، ووجدت البعض يعتبرها فرصة لتخفيف الحصار والسماح بتوريد المستلزمات، ووجدت البعض يرى أنها فرصة جيدة لتساهل بعض الدول مع طالبي الهجرة واللجوء. لقد أصبحت يا صديقي الحرب التي تندلع كل ثلاث سنوات مطلبًا شعبيًا بسبب الحصار، فتأخرها يعني ركود تام وضياع فرصة الزواج وحيازة العمل لجيل كامل. كيف يا صديقي يمكن للمرء أن يرى كل هذا الظلم حوله ولا يقرر الانحياز لطرف في الحرب، ليمنحه التأييد والدعم، كيف يمكن للمرء أن يكون حياديًا في حرب هو أكثر المتضررين منها، كيف يمكن للمرء أن يكون عادلاً عندما يختار أن يكون طرف في حرب الجميع فيها مضلل، الجميع فيها غير مدرك لمصلحته، الجميع فيها وسيلته غير شرعية وغير أخلاقية، الجميع فيها توضع العراقيل أمامه للقبول بحلول سلمية عادلة؟ كيف بإمكان الإنسان أن يبقي متمسكًا بتصديق الحقيقة التي صدقتها قلة ويستمر بتجاهل الزيف الذي صدقت به الغالبية؟

- دعنا نستمر بالبحث عن وسيلة نحل بها السلام بدون أن نكون أطرافًا في الصراع، حتمًا ستُكافأ جهودنا، ولكن طريقنا طويل، فدعنا نسير بدون أن نجعل الوصول هدف لنا، دعنا نجعل المسير هدفنا لكي نستمر فيه بدون أن يحرقنا الشوق ويمزقنا البعد.

لقد تسبب الإخفاق الذي يتلوه إخفاق والوسيلة التي رغبا بها، والتي لم يُجدي بحثهم الطويل والمستمر عنها بإيجادها، لهما بالانزعاج والغضب وبالخوف والقلق واليأس في بعض الأحيان. لقد كانا تائهين في صحراء لا ليل لها، فقط نهار يذيبهم بحرارته المرتفعة وبشعاعه المتناثر في كل اتجاه فقط لتذكيرهم ببعدهم وبخداعهم بأن لا طريق أمامهم، لكي يمنحهم يأس يردهم إلى المشاركة في الصراع.

شعر عمر باختناق شديد من الموضوع المثار، فأراد تغيره، فقال:

- ما هو سبب تأخرك طالما لم تتحصل على علاج؟ هل هي مغامراتك الشقيَّة مع الممرضات؟

فأخذت ضحكاتهم التي لا تفلح بمحاصرة أحزانهم بالانطلاق، ثم أجاب إبراهيم:

- بسبب أموال عمي وتوصياته ومعارفه قرر الأطباء تحت ضغط الإدارة إبقائي ومتابعة حالتي والاستعانة بمزيد من الفحوصات والبحث عن حلول، وأيضًا بسبب انتقائي لهدية لك ستحظى بإعجابك الشديد. وأيضًا بسبب الحواجز المنتشرة وتصاريح الدخول المتأخرة، ففي يوم اندلاع الحرب، كنت قد اجتزت جميع الحواجز ولم يتبقى

أمامي سوى حاجز وحيد، عند وصولي إليه بدأت بإفراغ حقائبي لتفتيشها وفحصها من قبل الجنود كما هو الحال عند كل حاجز، وبعد مرور ساعة من التفتيش، قاموا فجأة باحتجازي ثم قادوني إلى أحد الغرف الاسمنتية وأخبروني بأنني سأبقي فيها لمدة طويلة لحيازتي أسلحة ولكن بعد مدة علمت أن احتجازي كان بسبب اندلاع الحرب.

- إننا يا صديقي، نعيش في عالم لا يناسبنا، عالم وجدنا فيه لكي نتخلى عن انتمائنا للإنسان. إنني سعيد لك يا صديقي لأن الموت وجد فيك استحقاقًا له، إننا مُستحقون لحزنك علينا وأنت مستحق لفرحنا لك. لم أكن مدرك أيها اللئيم أنك واصل إلى هذه الدرجة من استحقاق قرب الموت منك.

- حتى أنا متفاجئ من هذا.

ثم أخذا بالضحك كمجنونين. كانت ضحكاتهم تحمل الشعور ونقيضه تحمل الفرح والحزن واليأس والأمل والغضب والهدوء واللذة والألم والراحة والإرهاق في آن واحد. ثم قال إبراهيم:

- أما زالت أحلام بعض أفراد عائلتك ورغبة البعض بانفراجة مُعلقة عليك.

- الأحلام تزداد والرغبة تتعاظم مع اقتراب تخرجي.

- يا صديقي، لا تسعى لأن تكون مصباح علاء الدين ولا تسمح لأحد بأن يطلب ذلك منك، لا لأنك لن تكون، بل أولاً لكي تتخلص من توهمك بأن الجميع بحاجتك وأن أحلامهم واقفة على مساعدتك، وثانيًا لكي يعرف غيرك بأن أهدافه له ليسعى في سبيل تحقيقها لا لتسعى أنت في سبيل ذلك. يا صديقي لا أحد في حاجتك سواك. وحدهم من يطلبون بأن تكون لهم مصباحًا ويسعون لحكك إذا كنتَ لهم كذلك، هم الكسالى الذين لم يكتفوا بإهدار حياتهم فطمعوا بحياة غيرهم. لا تطمع يا صديقي بأن تكون ذلك العفريت الأسير لرغبات الناس. لا تفهم من كلامي يا صديقي أنني أحثك على عدم تقديم المساعدة، لأنني أحثك على تقدمها ولكن وأنت تسير في طريقك فقط، أما تلك المساعدة المطلوبة منك باختيار طريق آخر أو بتوقفك عن المسير في طريقك الخاص ارفض تقديمها. حياتك ليست امتداد لحياة والديك، لذلك لا تسمح لهما يا صديقي بأن يكون هدفهم من إنجابك هو زيادة أعمارهم لتتناسب مع كثرة أطماعهم ورغباتهم. يعيشون حياة طويلة عنوانها الفشل، وفي النهاية يستخدمونها كحجة لسلب حريتنا، عالم وقح.

- إنَّك محق. أرجو أن أحوز القدرة والجرأة يومًا على فعل ذلك، قبل فوات الأوان.

قال إبراهيم بعد لحظات صامتة وقد ارتسمت على وجهه تعابير الحزن، والتي نادرًا ما ترتسم على وجهه:

- سيكون مؤلمًا لي أن يجبرني الموت على تركك تحلم وحدك، وتسير في طريقنا الذي اخترناه معًا وحدك.

- أولًا كيف يكون وحيدًا من اتخذ من الوحدة صديقًا له، وثانيًا من قال إنني سأسير وحيدًا! يا صديقي إن قرأت سأقرأ كتابين واحد لك وثانٍ لي، إن اعتزلت سأعتزل فترتين واحدة لك وثانية لي، إن خطوت فسأخطو خطوتين واحدة لك وثانية لي. سأتقاسم معك يا صديقي دقات قلبي لكي نسير معًا، لكي نشعر بالإرهاق معًا لكي نفنى معًا. يا صديقي من طبع الأجساد الغياب ولكن من طبع الأرواح الحضور، يا صديقي لن يكون بيننا التقاء كما كان دائمًا، فالالتقاء لمن هم فقط بحاجة للغياب، لأولئك الذين هم بحاجة للابتعاد لكي يبقوا على مشاعرهم وعواطفهم تجاه الآخرين بدون تبدل وتغير، لأولئك الذين يجددون حبهم ووفاءهم وإخلاصهم بالشوق.

بعد لحظات حزن صامتة وقفا وغادرا المكتبة، وكانا قد قررا التجول، ولكن بعدما لاحظ عمر علامات الإرهاق على وجه إبراهيم، واستنتج منها أنه لم ينل استراحة من سفره لتوجهه مباشرة للقائه قال:

- سأدعك الآن تذهب لتريح جسدك وروحك من سفرك ومن إزعاجي، وللقاء زوجتك لكيلا تحقد عليَّ وتضطر لقتلي يومًا ما، وسآتي إليك غدًا صباحًا لنذهب معًا للقاء ميار.

كان بحاجة للابتعاد عنه والانفراد بغرفته ليكون بمقدوره أن يحزن، ليكون بمقدوره التفاعل مع الخبر المؤلم الذي سمعه، ليكون بإمكانه منح الإنسان الذي بداخله فرصة للإعلان عن نفسه، فلقد كان إبراهيم بروحه المرحة وبمبرراته للمرح التي لا تنفذ، تقف عائقًا دون استشعاره بمعاناته وحزنه وبؤسه بالقدر الكافي.

(3)

وصل عمر إلى غرفته الخانقة بحرارتها المرتفعة، وبأنفاسه المتراكمة في أجوائها لعدم احتوائها على النوافذ، وبجدرانها التي تكاد تتلاصق ببعضها والتي فسد دهانها.

كان موقع غرفته جزءًا من صالون استقبال الضيوف الواسع، وهو موقع لا يصلح لاحتواء غرفة مستقلة، ولكن نتيجة لرغبته الشديدة بالاستقلال عن شقيقيه اللذين كانا يشاركانه غرفة واحدة، تمكَّن من إيجاد حيلة هندسية لحيازتها، فكانت منعزلة عن باقي غرف المعيشة، وبابها يكاد يكون ملاصق لباب الشقة، فكان لا يُعلم تواجده فيها من عدمه.

لقد ساعدته غرفته وموقعها في بناء حياة مستقلة يشعر بها بمساحته الخاصة في عالمه، في بناء حياة يكون فيها قادرًا على المطالعة والدراسة بدون انقطاع تحت ضغط أعباء العلاقات الاجتماعية، في بناء حياة منعزلة يكون فيها أقل احتكاكًا مع أفراد عائلته.

استلقى على فرشته المهترئة وكان جسده بالطعنة التي تلقَّاها كجثة هامدة. كان يحدق في السقف ولكن بينما كان ينظر إليه لم يكن يراه، فلقد داهمته حالة الغياب مجددًا التي كانت نتيجة الخبر الصادم الذي تلقَّاه من إبراهيم. كان بسببها غير مستشعر بوجوده ولا بوجود شيء حوله، كان بدون حاضر ولا ماضي ولا مستقبل، كان حيث لا زمان ولا مكان. لم يكن يناسب حالته وصفها بالضياع، فالضياع هو وجود في مكان مجهول.

استمر غيابه إلى أن حل منتصف الليل الذي عاد له فيه بعضًا من وعيه. كان في حالة اضطراب نفسي شديد تسببت بعجز النوم عن اختطافه إلى عالمه، وبعجزه عن استحضار النوم بالرغم من المحولات العديدة التي بذلها.

كان يتقلب يمنة ويسرة ويغير وضعيته ومكان واتجاه استلقائه وموضع رأسه وقدميه ويديه لاستحضار النوم ولكن بدون جدوى، فكان بعد فشله لا يقوى على الاستقرار في ركن واحد، فيأخذ يطفق يسير في غرفته طولًا وعرضًا محاولًا تحصيل تعب يدفعه للنوم ولكن بدون جدوى أيضًا، ليقنع نفسه بعد الاستسلام بالتجول في شوارع المدينة بأمل التمكن من سرقة سكون لروحه المضطربة من سكون الليل.

نهض من فراشه وأغلق بالمفتاح باب غرفته كما يفعل في عادته لضمان عدم دخول أحد من أفراد أسرته لتنظيفها ويقوم نتيجة لذلك ببعثرة الأوراق والكتب التي رتَّبها

بما يخدم وصوله السريع للمعلومات ومصادرها وبما يخدم إنجازه لأبحاثه بشكل أسرع وأدق وأكثر إحاطة.

في أثناء نزوله على السلم الذي أخفت ظلمة الليل درجاته أصابه دوار خفيف سرعان ما أكمل مسيره بعده، وهو يحدث نفسه قائلًا: "السقوط والنزول في حياتنا كالسقوط والنزول على هذا السلم، فنحن فيها لا نسقط وننزل باتجاه واحد، بل بجميع الاتجاهات ليكون الدوار الذي يُصيبنا عائقًا أمام إدراكنا أننا نسقط وننزل".

بينما كان يتجول في شوارع مدينته البائسة، كانت خطواته أثناء المسير غير متزنة، فلم يكن نور القمر قادرًا على تحذيره من جميع الحفر التي أمامه، ولا من جميع الأحجار المتناثرة جراء القصف الذي طال الكثير من المباني، وبالرغم من ذلك كان يفضل المسير في الليل، فلقد كان له بمثابة مسير في مقابر أحاديث الناس ومقابر مواضيعهم التي حازت على اهتمامهم، كان يتيح له فرصة الاستماع إلى صدى أصواتهم وهمساتهم، وتجنيبه الاستماع للأصوات مباشرة، فكان له بمثابة طبيب نفسي يساعده في أن يكون أقل انفعالاً مما هو عليه وأكثر تحكمًا بمشاعره ليكون قادرًا على نفى معظم ردود فعله غير اللائقة التي قد تصدر منه اعتراضًا على ما يشغل الناس من قضايا غير مهمة وعلى ما يجري على ألسنتهم من أحاديثهم يراها غير مثمرة.

لقد كان يفضل التجول في الليل لقدرته على إخفاء الخراب والقبح والازدحام والمعاناة والبؤس. لقد كان يشعر أن ظلمة الليل أكثر عمقًا من ضياء النهار، فهي تمنح نطاق لبصره أعمق، وامتداد غير مشوش بمحيط قذر، ولهذا كان تفضيله للوحات ذات الخلفية السوداء.

بعد تجول طويل في الشوارع التي لا يُفلح التجول فيها بالتنفيس عن النفس، فلا أشجار فيها، ولا رسومات على جدرانها المتصدعة، ولا نظافة تميزها، ولا استواء لأرضها، ولا أضواء تزينها، شعر بالإرهاق، فقرر الجلوس على أحد المقاعد الاسمنتية المتواجدة على رصيف الشارع المطل على البحر الذي تحول لونه للون الأسود جراء امتلائه بمياه الصرف الصحي التي لا مكان لتصريفها فيه ولا كهرباء لضخها إليه ولا إمكانيات لإعادة تكريرها.

بعدما جلس أخذ يُلقي بصره إلى أبعد نقطة كان قادر على أن يطالها. لم تكن الرائحة الكريهة التي تحملها نسمات الهواء قادرة على إزعاجه بسبب اعتياده عليها، ولم يكن الصوت المزعج لطائرات الاستطلاع المنتشرة في الأجواء بدون مغادرة، والتي ترصد كل حركة وسكون، قادرًا على نزعه من استشعاره بعمق ظلمة الليل، ولكن وحدها أضواء الزوارق الحربية التي لا تبعد عنه أكثر من ثلاثة أميال، من كانت تزعجه، لا لشيء إلا لأنها كانت تقف كحد لبصره المنطلق في عتمة الليل محاولاً أن يسبر أبعد نقطة.

انتقل بعد غوص في الظلمة لم يفلح في الوصول فيها عميقًا إلى تأمل السماء، وأخذ يُحدِّثها بعدما ضايقه جمالها قائلًا: "أيتها السماء التي لا تليق بأرضنا، انتفي أو انفي نفسك إن شئتِ، دعي سماء غيرك تحل مكانك تذيقنا ما عجزت عن إذاقتنا إياه. اتركي مكانك لسماء تذيقنا مرارة رغباتنا أو حلاوتها. لا نريد مرارة تختلط فيها الحلاوة، لا نريد لذة يختلط فيها الألم. نريد سماء تمنحنا كل العطف أو كل القسوة، كل العطاء أو لا شيء منه. لا نريد تقلب بين اللذة والألم كي يعذبنا الشوق، نريد أن نعذب بالملل واللذة أو بالملل والألم، لا نريد عذاب بالشوق."

ثم انتقل بعد ذلك لتأمل القمر، وبعد تأمل طويل هدأ بسببه من استفزاز السماء له، أخذ يُحدِّث نفسه مجددًا قائلًا: "ألا يمل القمر من وحدته؟ لربما ما يؤنس وحشته الأعين الناظرة إليه والألسن المُتغزِّلة به، فماذا يؤنس الحكام في تفردهم بمصير الشعوب؟ لا بد أنها دعوات الناس بسخط الله عليهم وإنزال عذابه بهم."

وفجأة قاطع تأمله وتساؤلاته رجل عملاق كجدار ملثم الوجه مدجج بالسلاح، وقف أمامه، ثم قال بصوت غليظ مُنفِّر وقح:

- ماذا تفعل في هذا التوقيت المتأخر هنا؟

لاحظ عمر بدون التفات وقوف شخصين خلفه، كان ضوء مصباح أحد المنازل المحتجب قد أبان عنهما وعن البنادق التي يحملونها والتي يوجهون فوهاتها نحوه.

لم يلاحظ اقترابهم منه لانسجامه في تأملاته وتساؤلاته، فرجح أنهم خرجوا له من أحد الأنفاق المنتشرة في كل مكان والتي يستخدمها المقاتلون لإخفاء تحركاتهم عن طائرات الاستطلاع وفي الهجوم بالصواريخ على ما خلف الجدار، ليفرضوا معادلة الجدار بالجدار.

كان حفر الأنفاق وإطلاق الصواريخ والرقابة المستمرة والممنوعات الكثيرة، تبرر كوسائل لإنهاء الحصار ولكن هذا التبرير لم يكن قادرًا على إقناعه لا بسبب أنَّ هذه الوسائل تزيد الحصار بتكلفتها الباهظة والتي تكون على حساب الحاجات الأساسية لسكان المدينة، ولا لأنها تستخدم كذريعة من قبل من يصنف كعدو لاستهداف جميع المرافق المدنية بدون سابق إنذار مما يوقع خسائر بشرية ومادية هائلة، ولا لأنها عاجزة عن دفع من يصنف كعدو لرفع الحصار الذي يفتك بكل شيء، ولا لأنها لا توازي القوة التدميرية لصواريخ من يصنف كعدو، ولا لأنها تستخدم كذريعة لحصار أفتك وقيد أقصر، بل لأنه كان مناهضًا للسلاح أيًا كان حامله.

لقد كان يؤمن أن العنف لا يدفعه العنف والحرب ليست سبيلاً للسلام، فالسلام وسيلته السلام فقط. ولهذا لم يكن قادرًا على الانتماء لجميع أطراف الصراع وكان انتماؤه الوحيد للإنسان.

لم يكن شاعرًا بالحزن لأن شعبه الذي ينتمي إليه صدفة لا اختيارًا هو الواقع عليه الظلم بكافة أشكاله في هذه الحقبة من التاريخ، بل كان حزينًا لجهل الناس وتغافلهم عن معرفة أن الاستمرار بالصراع أثبتت التجارب البشرية بأنه يمنح المظلوم فرصته لإيقاع الظلم بالظالم، كان حزينًا لأن البشر ما زالوا غير قادرين على إدراك أن الصراع لا يمنحهم فرصة لدفع الظلم بل لاستمراره أيًا كان طرفه، كان بائسًا لأن البشر قبلوا باستمرار الصراع تبادل دور الظالم والمظلوم، كان بائسًا لأن البشر قبلوا باستمرار الصراع أن يكونوا خسارى دائمًا حتى في تلك اللحظات التي يعتقدون فيها أنهم حققوا نصرًا.

وقف وهو يحاول بكل جهده إظهار ثباته وثقته بنفسه والادعاء بجرأته صلته بأحد القيادات، فلقد كان يدرك أن ارتباكه وتنازله بدون مقاومة عن بعض حقوقه التي ستُبذل محاولات لنزعها سيوقعه في دائرة شكهم التي ستقودهم إما إلى تحقيره في المعاملة باستخدام الضرب أو الشتم أو الاحتجاز، ثم قال بلهجة جافة:

- تريد إجابة أمنحها لصديق أم لشخص فضولي أم لضابط أمن؟

- أريد الإجابات جميعها.

- الإجابة التي أمنحها لصديق هي أنه من الصعب عليَّ ترك ما يحمله الليل من سكون وهدوء وجمال لصرصور الليل فقط ليتمتع بهم، أما الإجابة التي أمنحها لشخص فضولي هي أنَّ لا شأن له في ذلك، أما الإجابة التي أمنحها لضابط أمن هي أنني لم أجد في الدستور قانونًا يمنع التجول ليلًا أو تعليمات تحظر ذلك.

- هذه منطقة فيها نشاط عسكري ويحظر عليك التواجد فيها، ثم إن هناك إمكانية لتجدد الحرب.

- أليست جميع المناطق مناطق نشاط عسكري؟ ثم متى لم يكن هناك توقيت لم يكن هناك احتمالية فيه لاندلاع الحرب مجددًا! لو كانت مبرراتكم التي تقدمونها لطردي مُقنعة لأحدهم، لتسببتم له بالبقاء في بيته بدون حتى الخروج لقضاء حاجاته.

كان هدوؤه وبرودة أعصابه في الرد وسخريته مستفزة للملثم، وفي ذات الوقت ملزمة له بكبت مشاعر الغضب خوفًا من إمكانية أن يكون من أمامه بثقته متنفذًا أو على صلة بقيادات عُليا.

قال الملثم:

- بتواجدك أنت تشكل خطر علينا.

- لست أنا من يحمل الكلاشنكوف بل أنت من يحمله، ولم أكن أنا من يراقبك بل أنت من كنتَ تراقبني.

- أنت تضع بجلوسك في هذا التوقيت نفسك في موضع اشتباه.

- لم أكن أعلم قبل اليوم أن التجول ليلًا يضع الفرد في موضع اشتباه!

اشتعل الملثم غضبًا وكاد يفقد قدرته على كبته، فكان في تلك اللحظات لو علم بعدم وجود نفوذ للواقف أمامه لانهال عليه بالضرب، ولربما لأفرغ رصاصاته في جسده.

بعد اكتفائه بنظراته الغاضبة ونبرة صوته الخشنة الوقحة، قال محاولًا الاستعانة بحجة أخرى:

- أتعلم أنك تُعرِّض نفسك بالتجول ليلًا لخطر الاشتباه بك كعنصر من عناصرنا من قبل العدو وبالتالي استهدافك.

- لا يهمني ذلك. لقد سلبت إرادتي وقدرتي من كثير من الأشياء المرغوبة والمطلوبة، ولهذا لن أجعل خوفي يسلبني ما تبقى من المتاح لي.

كان الحوار بينهم سريعًا، فلقد كان الملثم لا يجادل في إجابات عمر التي كانت كضربات قاضية ولهذا كان يبدأ في كل مرة ينطق بها من جديد محاولًا تغيير أسلوبه وحججه.

لاحظ الملثم وجود دفتر بيد عمر، وقد كان هذا الدفتر يستخدمه في تدوين الحلول التي تتاح له لبعض المعضلات الفلسفية أثناء تواجده خارج غرفته، فقرر تحقيق نصر لنفسه بانتزاع الدفتر من يده، فقال:

- أعطني الدفتر الذي تحمله لأتأكد من عدم احتوائه على ما يضر بنا.

- بطلبك هذا أنت تقوم بالاعتداء على خصوصيتي وانتهاك حقوقي.

ونتيجة لإصراره على التمسك بحقوقه بعدم السماح بالاطلاع على دفتره، قال الملثم بإلحاح وبعناد بعد محاولات شعر بالخوف من إصرار عمر الذي زاد من شكه بصلته بأحد القيادات:

- إذًا فلتقرأ شيئًا لنا من صفحاته نحدده لك نحن.

- لن تفهم ما سأقرأه عليك، فأنا أدون ما يصعب على غير المتخصص فهمه.

شعر الملثم بالإهانة وقال بلهجة أكثر حدة:

- ماذا تقصد، تأدب وإلا ...

فقال عمر مقاطعًا ببلادة مستفزة:

- أنا لن أكون قادرًا على تفكيك سلاحك وإعادة تركيبه في حين أنت قادر على فعل ذلك في ثوانٍ معدودة، ولهذا لا يحق لك الغضب من ردي وليس من المنصف اعتباره إهانة، فكل في تخصصه.

شعر المُلثَّم بإشارة عمر لقدرته على تفكيك السلاح وتركيبه بسرعة بأنه تمت الإشارة إلى إحدى حسناته، فشعر أنه تلقى مديحًا، ليمنحه ذلك شعور باستمرار سيطرته على الموقف أمام أتباعه، فكان نتيجة هذا الشعور أنه عاد للإلحاح عليه بقراءة نص من دفتره، وعندما لاحظ عمر بأن لا وجود لفرصة أمامه لتفادي ذلك، قرأ نصًا صغيرًا كان قد حُدد له رقم صفحته، ليحدث ما حذره منه وهو عدم فهمه لشيء مما سمعه.

قال الملثم بلهجة ازدادت خشونة وجفافًا وصرامة، محاولًا استرداد سيطرته على الموقف أمام أتباعه بعدما أعجبوا بثقافة عمر وركوزه وثباته وردوده السريعة والتي حالت دون الشك بأنه ليس متنفذًا وقادرًا على المحاسبة:

- غادر على الفور، وأرجو أن تتفهم إصراري فهذا لحمايتك.

- في سبيل ادعائك حمايتي لا يجوز لك سلب حريتي، فالحماية أحصل عليها من حريتي لا من قيدي.

- غادر من فورك، هذه منطقة وتوقيت فيهما نشاط عسكري.

- عدم قدرتكم على توفير وسائل تغطية لنشاطكم العسكري لا يمنحكم الحق في سلب حريتي بالتنقل والتواجد في أي مكان أشاء التواجد فيه.

كان الملثم في تلك الأثناء يُحدِّث نفسه قائلًا: "شخص في مرتبتي القيادية يُخاطب هكذا، ويتلقى كل هذه الإهانة! لا، هو لم يخطئ معي. لا، بل أخطأ بعدم استسلامه لي ومنحي النصر عليه أمام أتباعي. أرجو أن يقع في خطأ أجد عليه مبرر لتحطيم رأسه يُنجيني من المحاسبة. لا بد أنه يحوز سلطة كبيرة وإلا ما كان سيُخاطبني بهذا الأسلوب الوقح غير المرتبك. لربما يحوز معارف متنفذة وإلا ما كان سيجرؤ على فضحي كمخطئ وعاجز بهذا الشكل أمام أتباعي."

شعر الملثم أنه في حال استمر بتقديم المبررات لعمر لإجباره ولإقناعه بالمغادرة فسيلقى منه مزيدًا من الردود التي ستجعله مهزوزًا أمام أتباعه. لقد أدرك أن استمراره بتقديم المبررات يعني استمراره بتلقي مزيد من اللكمات والركلات الحوارية، مزيدًا من الهزائم، ولهذا أنهى الحوار بالقول:

- غادر على الفور وإلا فأنا مضطر لاعتقالك.

فقال عمر وكان قد اشتعل غضبًا وهو يغادر:

- على الأقل كفوا عن الادعاء بأنكم تدافعون عن حريتنا التي تشاركون في سلبها.

شعر الملثم بالانتصار لمثوله لأوامره وخضوعه لتهديده، وأخذ يتباهى أمام أتباعه ويُحدِّثهم بتعالي كمعلم وهم ينهالون عليه بالمديح بدونية كقدوة لهم، وأخذ يُسمعه وهو يبتعد مغادرًا ضحكاته المستهزئة والساخرة، والتي كادت تفقد عمر كل الهدوء الذي حصَّله من التأمل والتي كادت تدفعه للالتفات إليهم ورميهم بأبشع النعوت وأقبح الشتائم.

بعدما ابتعد عنهم، أخذ يُحدِّث نفسه بغضب قائلًا: "لماذا على الإنسان دائمًا إلزام بتبرير قراراته الحرة، لماذا وحده الخضوع من لا يحتاج أحد لتبريره لغيره؟ لماذا غادرت؟ لماذا لم أقف متحديًا لتهديده؟ عليّ أن أعود. لا الآن أنا مرهق. غدًا سأعود وسأقف متحديًا لسلطته" ثم أخذ يحاول تهدئة نفسه بمنحها انتصار وهمي أو على الأقل هزيمة لا خسارة له فيها بالترديد: "حسنًا فعلت بانسحابي، فأنا لا ينبغي لي أن أسعى لنصر لا يستحق من هو أمامي عليه الهزيمة"

في أثناء تجوله عائدًا إلى غرفته، لم يخلو شارع من الشوارع التي مر بها من بيت لم يسمع منه أصوات لشباب يلعبون الورق، فقد كان معظم شباب المدينة نتيجة الحصار بلى عمل لكي يُريحوا له أجسادهم ليلاً وينهضوا له بنشاط صباحًا، ولذلك كانوا يمضون وقتهم في لعب الورق طوال الليل وينامون طوال النهار، ولم يخلو شارع من الشوارع التي مر بها من بيت لم تعلو منه أصوات لنزاعات بين آباء وأبنائهم أو أزواج وزوجاتهم.

كان سكان المدينة يعيشون يومهم كل يوم، فالأمس يطابق اليوم والغد، فلا يوم جديد لهم. الأيام تتلاحق متشابهة بل متطابقة رتيبة بائسة بدون حتى حزن أو ألم أو ضيق أو غم مختلف بسبب الحصار الذي أوجد فراغ لم يكن متاح لهم إلا ملأه بكل ما يجعلهم بلى أثر في التاريخ، والذي أوجد لديهم مشاعر الحقد والحسد والغضب والرغبة بالانتقام، والتي لم يستطيعوا تفريغها بمحاصرهم لقوته وضعفهم فقاموا بتفريغها ببعضهم. لقد دفع الحصار سكان المدينة بقوة من الخلف إلى الانحطاط والتخلف والانحراف والعنف بدون أن يترك لهم خيار للاختيار. لم يكن سكان المدينة قادرين على توصيل معاناتهم للآخر بالمقارنات، فهم يجهلون الآخر والآخر يجهلهم، لم يكونوا قادرين على الوصف فذاكرتهم لا تحوز صور وأصوات وروائح وأذواق ولمسات، لم يكونوا قادرين على التعبير فهم لا يملكون مفردات كافية للتعبير، فلقد كانت لغتهم فقيرة ومواضيعهم محدودة وموصوفة بالتفاهة من قبل أولئك الذين يخالفون من يصفونها بالبساطة مجاملة. كان حصار لا يريد من سكان المدينة الإفصاح عن وجودهم في مسيرة التاريخ، ليحتكر الإفصاح للمُحاصِر، لكي تتوفر الحجج التي تدعم دعايته العنصرية، التي على أساس الدين تارة وعلى أساس العرق في أحيان وعلى أساس اللون في أحيان أخرى.

لم يكن بمقدور أحد من سكان المدينة الطموح لكتابة رواية، فكل من فيها كان يطمح لذلك، كان يجد نفسه أمام حدث واحد يتكرر كل يوم، ومشهد واحد يظهر مع كل شروق، وموضوع واحد محتكر لجميع الألسنة، وكلمات قليلة متكررة لا تصلح للتعبير والوصف، ومكان واحد لا سبيل للانتقال منه، وشخصية واحدة محتكرة كل الأدوار، كان يجد نفسه عاجز لأن خياله معطل بسبب حواسه التي لا توفر له مواده التي يخلق منها، كان يتخلى عن طمعه لأنه لا بدايات جديدة، ولا نهايات سواء كانت حزينة أم سعيدة.

كان وهو يسير يُحلل ويُعلِّق على ما يسمع، فكان يُعلق على إمضاء الشباب وقتهم في لعب الورق قائلًا: " كيف لمن لا يرى كل يوم سوى أرقام من واحد إلى عشرة وثلاث صور أن يدرك شيء غير ذلك! لا، لا، هم بحاجة إلى لعب الورق فهو المصدر الوحيد للتقلب السريع لمشاعرهم وعواطفهم، وبالتالي هو الوسيلة الوحيدة لطرد رغبتهم بالانتحار والإبقاء على رغبتهم بالمواصلة. لعب الورق هو مصدرهم الوحيد للأمل والشوق والترقب والنصر والهزيمة.". وكان يُعلق على تهديد بالطرد وجَّهه أحد الآباء لأبنائه إذا لم يلتزموا بسلطته وأوامره، قائلًا: "الآباء يطلبون من أبنائهم البحث عن مكان آخر للعيش فيه إذا لم يخضعوا لسلطتهم، وكذلك تفعل الدولة. ألا يحق لنا التساؤل عن هذا المكان المتاح للأبناء والمواطنين الذين اختاروا الحرية والاستقلال؟ ألم يعلموا بعد أن سلطة الكل على الكل أخضعت الكل، ولم يتبقى لأحد مكان للجوء إليه لتفادي الخضوع لسلطة ما!".

وفي أثناء مروره بأحد الشوارع في طريق عودته، سمع غناءً مؤثرًا كان يتردد على لسان معظم شباب مدينته، فاستند على أحد الجدران ليستمع، ثم أخذ يردد مع الصوت المنبعث:

ممنوع من السفر[3]

ممنوع من الغنا

ممنوع من الكلام

ممنوع من الاشتياق

ممنوع من الاستياء

ممنوع من الابتسام

وكل يوم في حبك

تزيد الممنوعات

وكل يوم بحبك

أكثر من اللي فات

وأخذ بالترديد طوال الطريق، وتعابير الحزن ظاهرة على تقاسيم وجهه، إلى أن وصل إلى غرفته.

استلقى على فراشِه وكان الظلام شديد، فأخذ يُحدِّثه والحزن يسحقه سحقًا، قائلاً: "حقًا أيها الظلام أنت التجلي الأكثر تشابهًا لما هي عليه حياتنا، بل أنت صورة طبق الأصل لها".

كان حينها كزهرة محرومة من ليل رطب يحمل لها قطرات من الندى بعد نهار حارق، ذابلة لا ألوان لها ولا رائحة، كشجرة لا ظل لها ولا ثمار منبوذة مستثقل وجودها، كأجنحة طير يحلق في بحر لا يابسة له، مرهق كإنسان برسالة وبمهمة إلهية.

أغمض عينيه ولكنه لم يشعر أن اختلاف حدث، فالظلمة كما هي بذات الدرجة، ثم عاد لفتحها بعدما تذكر المحادثة التي جرت بينه وبين الملثم، فأخذ يُحدِّث نفسه بهدوء شديد قائلًا: " ماذا لو كنتُ حقًا أحوز سلطة أو لدي صديق يحوزها؟ ألم أكن سأسعى للانتقام بشدة من ذلك المُلثَّم؟ ألم أكن بذلك الغضب الذي اعتراني لحظة إكراهي على المغادرة سأرتكب في حقه جريمة أشد بشاعة من تلك التي ارتكبها بحقي؟ حقًا وحدها لحظة تعرضنا للإهانة أو لضرر ما، هي اللحظة التي نعترف بها بصدق بأن السلطة التي نحوزها على غيرنا هي مسببة بإنزالنا ردًا غالبًا لا يوازي الإهانة أو الضرر الذي لحق بنا. أن أحوز سلطة على غيري، يعني أن أفقد فرصة العد قبل التصرف، يعني أن أفقد القدرة على ضبط انفعالاتي، يعني أن أبالغ في ردود أفعالي، يعني أن أفقد الرحمة إلا عندما أشفق. كم هو بشع أن يكون ما يمنع الاستمرار في رد الإهانة أو إيقاع الضرر هو شعور الشفقة الذي يباغتني بعد الإيغال في أذية الآخر ورؤية انكساره وضعفه. ما أقساني بالسلطة وما أحلمني وأعقلني وأرحمني بدونها. نعم حيازة السلطة يفقدنا القدرة على تقييم المواقف بشكل موضوعي وعادل، لأنه ينزع منا الوقت ويحثنا على الإسراع بتطبيق قرارات انفعالاتنا العنيفة التي ترفضها حالة عدم حيازة السلطة بمنحنا الوقت الكافي لإدراك أهمية إنسانيتنا. لا أحد يستحق السلطة لأن الجميع عاجزون عن السيطرة على أنفسهم بحيازتها، لأن لا أحد بإمكانه أن يكون إلهًا. حقًا إننا لسنا آلهة، نحن بشر نصيب ونخطئ. نعم خطأ السلطة مكلف وخطأ حائز السلطة يصبح بها ليس خطأ فرد بل خطأ جماعة، ولهذا بوجود السلطة يستحيل تدارك الأخطاء والتعويض عنها. إذًا لكي أدرك مدى إجرامية امتلاك السلطة على الغير، عليَّ أن أكون صريحًا مع نفسي بالإجابة عن سؤال "ما هي عواقب ونتائج حيازتي سلطة تُمكِّنني من إجبار الآخر على تنفيذ كل ما أرغب به في جميع أحوالي النفسية وتقلباتي المزاجية؟" حقًا إنني لن أكون أفضل ممن يحوز السلطة لو

قُدِّر لي حيازتها، نعم تبجحي سابقًا بأنني سأكون أفضل منه كان نتيجة جهل. لن تكون قراراتي بحيازة السلطة أفضل من قرارات حائزيها الآن، ولا أفعالي أفضل من أفعالهم، سأكون بالسلطة مثلهم تمامًا. نعم السلطة تفسد حائزيها والطامحين لها مهما تحلوا بالخيرية والصلاح"

ثم قال وعيناه تغمضان وبعد ابتسامة ارتسمت على شفتيه عبرت عن شعوره بالراحة وبالسعادة بما توصل إليه "استنتاجات جميلة، استنتاجات جميلة...."

ثم خطفه النوم مقاطعًا إيَّاه.

(4)

استيقظ بعد ثلاث ساعات كان فيها على حدود اليقظة والنوم، فقد كان عاجز كعادته عن استحضار نوم عميق قادر على نزعه من تفكيره المستمر في شؤون حياته وظروفها المعقدة، وفي الفلسفة وعلم النفس الذي حفَّزته ميار على زيادة الاهتمام به.

بسبب عجزه عن استحضار نوم يريح عقله من العمل المتواصل، كان كثير وسريع النسيان، ونتيجة لذلك كان يستعين تعويضًا عن ذاكرته الضعيفة بقلم ودفتر ملتصقين بيده في كل وقت ومكان، يحتفظ بهما بكل ما يشغله من قضايا، وكل ما يمنحه اجتهاده وصبره وتفانيه من حلول وأفكار.

كان يتمنى لو كان باستطاعته حيازة قلم ودفتر في أثناء نومه ليتمكن من التقاط بعض الأسئلة والحلول والأفكار التي كان عقله يجود بهم أثناء النوم، فلحظة فتحه لعينيه، كانت لحظة لهروب وإفلات أكثر من نصف ما توصل إليه أثناء النوم، ليجد نفسه بعد كل استيقاظ متحسرًا على ما لم يتذكره.

التقط ساعة المنبه التي كانت بجواره وأضاء مصباحها الصغير المخصص للإبانة عن موقع عقاربها، ليجدها تشير إلى الرابعة والنصف، فنهض من فراشه وجلس إلى مكتبه الصغير المحشور في أقرب زوايا غرفته للباب، وارتدى نظارته وأمسك بقلمه ودفتره وأخذ يُدوِّن بسرعة ما داهمه من أسئلة وإجابات أثناء النوم مستعينًا للرؤية بضوء ساعته الخافت الذي لم يخصص لمهمة كهذه.

بعد مرور نصف ساعة من التدوين، وبعد الانتهاء من تهيئة نفسه، خرج متوجهًا إلى منزل إبراهيم للذهاب معًا للقاء ميار.

كانت الشمس آن ذاك تلقي تحيتها على الجميع ولكن ارتفاع الجدران كان حائلًا دون وصولها لكثيرين، وأجواء الشوارع مليئة بالغبار المتصاعد جراء عمليات إزاحة الركام، وروائح الدم والمواد المتفجرة تقتحم أنوف المارة سالبة منها ما استرقته أنفاسهم من هواء نقي، والخيام مصطفة أمام كل منزل مهدم مستضيفة بقدراتها المتواضعة أصحابه الذين غالبًا ما كانوا يتساءلون بحزن ويأس وغضب عن الوسيلة التي ستمكنهم من توفير الأموال لإطعام أطفالهم وإلباسهم، والتي ستمكنهم من سداد دفعات قروضهم التي لم تكن تبني لهم بيوتًا بل ذكريات لقصص فيها.

كانت خطواته في أثناء المسير باتجاه بيت صديقه سريعة، فلقد كان يحاول الفرار من الصور المؤلمة والقاسية التي تلاحقه في كل اتجاه، ومن اختناقه، لكيلا يدفعه حزنه وغضبه لترك حياده الذي بدل من أجله جهودًا كبيرة للحفاظ عليه.

لقد كانت الحياة البائسة التي يعيشها سكان النذر العاجزة، وحدها كفيلة بدفعه لعداء الآخر وبغضه والعمل على إلحاق الضرر به من دون الحاجة إلى تحريض وتحفيز من جهة معينة. كان الأجنبي المحايد لبُعده وعدم تضرره في حال سُمح له بالدخول للمدينة وهذا ما كان نادرًا، يُقر بعد الاطلاع على معاناة السكان وبعد التعرف على قسوة ظروفهم بأن من العدالة على الأقل إلحاق ضرر بالآخر مساوي للضرر الواقع من الآخر في حال الإصرار على الاستمرار، على خلاف عمر الذي كان يعتقد أن الإضرار بالآخر ليس سبيلاً لدفع الضرر، وأن خيار الإضرار بالآخر انتقامًا أو قصاصًا يتسبب بدفعه بعيدًا عن خيار عدم الانحياز، يدفعه بعيدًا عن انحيازه للإنسان فقط، يدفعه للانغماس في الانحياز للنطاق الضيق المتمثل بالعائلة والحزب والدين والوطن والقوم واللون والدولة. لقد كان يُحدِّث محيطه المُعادِي لتوجهاته والمُعترض على خياره بعدم الانحياز باستمرار قائلًا: "يجب أن نتوقف عن تبادل دور الظالم والمظلوم، يجب أن نعود لدورنا الرئيسي، يجب علينا تأدية دور الإنسان فقط"

عند وصوله لمنزل صديقه حاز على راحة من صراعه. خرج له إبراهيم بعدما سمع طرقه ولم يكن وقتها قد تجهز للخروج، فأدخله لانتظاره إلى حين الانتهاء من ارتداء ملابسه.

في أثناء جلوسه منتظرًا التقى زوجة إبراهيم مدام نانسي، وقد تهيأت للخروج لعملها، فقد كانت تعمل طبيبة في أحد المستشفيات الخاصة. رحبت به وقدمت له كأس من القهوة وبعض من الحلويات التي أعدَّتها، ثم طلبت منه رأيه فيها بعدما نالت تقييم سيئًا من إبراهيم الذي كان يتولى مهام المطبخ، لتجد استحسانًا ومديحًا وشكرًا، لترد عليه بعدما عبرت له سابقًا عن مقتها لعبارات الشكر:

- لا تشكرني على شيء تحتم طبيعتي البشرية عليَّ فعله، بل اشكرني على شيء خارج عن حدود طبيعتي البشرية، اشكرني إن كنت إلهًا في عمل ما.

- حسنًا أيتها النسوية. بالمناسبة، كيف هو أداؤك في الحراك النسوي الآن؟

- أكثر نشاطًا وأوسع نطاقًا، فأنت على علم أنه باشتداد الحصار، يزداد واقع المرأة بؤسًا، فالتفريغ وردود الأفعال تطال دائمًا الجانب الذي درج تصنيفه على أنه الأضعف، وحددت له أدوار للإبقاء على هذا التصنيف.

- أوقتكِ يسمح لي بتقديم ملاحظات ترفع من كفاءة الحراك النسوي وتسهم بتجنيبه العداء من بعض النساء.

- بالتأكيد تفضل. حرية المرأة هي قضيتي الأساسية، فكيف لا أجد لها وقتًا.

- لقد أبان الكفاح النسوي لكثيرين مظللين أن الادعاء بأن قيد المرأة لحمايتها ينطوي على خطأين، الأول هو أن المرأة عاجزة عن حماية نفسها، والثاني هو أن القيد حماية. ولقد ساهم النشاط النسوي بتراجع كثيرين حصروا الفعل الأخلاقي بعلاقة الرجل بالمرأة.

- أحسنت القول.

- ولكن الحراك النسوي الآن أجده يتعامل مع تراكمات تاريخية ومع مصادر هذه التراكمات لدرجة ألهاه وأشغله عن التعامل مع تراكمات الحاضر التي تشكل عبئًا خطيرًا على المرأة. الحركة النسوية للأسف في بعض نشاطاتها تحاول نيل استحقاقات للمرأة من الماضي البعيد أكثر مما تحاول نيل استحقاقات للمرأة من حاضرها. باعتقادي هذه النشاطات تبعثر الحماس النسوي في محاربة الأجساد المريضة والتي تم هزيمتها، لتخرج للنساء بانتصار لطالما لم تبدي نساء الحاضر اهتمامًا به، لانعدام أثره على واقعهن. إن حاضر المرأة باعتقادي أخطر على حريتها بكثير من ماضيها ولهذا الانشغال بالماضي يجعل الحركة النسوية دائمًا متأخرة ودائمًا تمنح انتصارات لا عائد منها. من الصواب إغلاق الصنبور قبل إفراغ الإناء مما فيه أو على الأقل إزاحته من مكانه. مصادر قيود المرأة في الماضي تشكلت بصبغة عصرها وبأيديولوجياته، ولهذا قيود عصرنا على المرأة متشكلة بصبغته وأيديولوجياته، فعصرنا تفرد كما جميع العصور بذلك، ولهذا كان له قيوده المختلفة. إن القيود الجديدة على المرأة تفرض حداثتها عدم وجود التجربة النضالية الملائمة والكافية عند النساء لتحطيمها ومواجهتها، ولهذا الدور المهم الذي يقع على عاتق الحركة النسوية هو تزويد المرأة بما يسرع من حيازتها لهذه التجربة. لقد خرجت المرأة من استغلال لا لاستغلال ومن قيد لا لقيد.

- ملاحظات جميلة. فعلاً يجب تزويد المرأة بمكان آمن قبل مواجهة مخاطر الماضي عليها.

- فلنلتفت إلى معايير الجمال التي تفرض على المرأة في عصرنا، سنجدها مرهقة لها ومكلفة ومؤلمة. وهذا باعتقادي أحد القيود الخبيثة المفروضة من الرجل على المرأة. إذا لم تسعى الحركة النسوية لتطوير وتجديد آليات كفاح المرأة فستصبح بلى جدوى، فبعض الرجال يطورون باستمرار من وسائل اعتدائهم على المرأة بدون أن يعرضهم ذلك للمساءلة.

- صحيح، صحيح.

- دعينا نعود بالزمن للوراء قليلًا، جميعنا يعترف أن ثورة الحركة النسوية على الكل مكّنت المرأة من تحطيم كثير من القيود، ولكن قليل منا من يعترف أن هذه الثورة

أيضًا أوقعتها في قيود جديدة. ولهذا على الحركة النسوية المعاصرة أن توجد تحديثًا على الأسلوب والأداة التي استخدمتها الحركة النسوية في بداياتها، لأن أداة وأسلوب الحركة النسوية قديمًا قد تشكلت بظروفها وبصبغة عصرها.

- أؤيدك.

- أرى من الضروري التخلص من النهج الدكتاتوري اللاديني لبعض النسويات اللاتي كن مضطرات له لمواجهة الدكتاتورية الدينية. إن الحرية لا تكمن في لباس، بل تكمن بالقدرة على اختيار أي لباس، والجمال لا يكمن في ملامح بل بالقدرة على اختيار أي ملامح، نعم الحرية لا تكمن في فعل محدد بل في القدرة على اختيار أي فعل، ولا في اعتقاد معين، بل بالقدرة على اختيار أي معتقد. المرأة لم ترفض لباس أو عادة أو معتقد أو تقليد أو قاعدة لتختار أخرى تلزمها بالتمسك بها لتفادي عقابها بوصفها بالرجعية.

- نعم أعترف أن هناك أساليب ووسائل ينبغي للحركة النسوية التخلص منها.

- اسمحي لي بملاحظة أخيرة، باعتقادي ينبغي للحركة النسوية الالتفات إليها. في المجتمعات الدينية كمجتمعنا، والتي تكون العلاقة الجنسية مشروطة فيها بالزواج، أرى أنه ينبغي على الحركة النسوية أخذ سن الزواج للرجل والمرأة بالاعتبار، فطالما للرجل الحق في الزواج بالمرأة التي تصغره سنًا، فالمرأة ستبقى تحت ضغط المجتمع وبالتالي فقدانها للحرية في الاختيار، فطالما كان سن الزواج للمرأة أحدث من سن زواج الرجل، ستبقى مسلوبة الحرية والوقت في السعي لتحقيق أهدافها التي قد يُعيقها الزواج. يجب ألا تُحتكر حرية الاختيار للرجال. إن سن الزواج الأحدث للمرأة يشكل عائقًا أمام اختيار المرأة لمن يعجبها وتحبه وتراه مناسبًا لها من الرجال، أي بذلك تكون مسلوبة القدرة على الرفض والقبول بحرية. أنا لا أطالب بالقصاص والتعويض للإناث بل أطالب فقط بالمساواة كما فعل ويفعل أصحاب البشرة السوداء، فلقد أُعتقد وما زال يُعتقد إلى الآن أن أصحاب البشرة السوداء تم ويتم تعويضهم بإحلال المساواة، وهذا الاعتقاد خاطئ فالتعويض هو إرجاع ما تم سلبه ومعالجة الأثار الناجمة عن ذلك، أي أن يُمنح أصحاب البشرة السوداء حصة أكبر من حصة أصحاب البشرة البيضاء، ولأنه من المتعذر فعل ذلك إلا بظلم الأجيال الحالية من أصحاب البشرة البيضاء، اكتفى أصحاب البشرة السوداء بالمساواة كرمًا منهم، وهذا الاكتفاء ينبغي أن يقابل بالاحترام والعرفان والامتنان وأيضًا السعي في تحقيق المساواة.

- هذه قضية مهمة غفلنا عنها، لا بد من العمل عليها.

بعدما أثنت عليه وعلى اهتمامه بحرية النساء، فرغ إبراهيم من التجهز وأخذ يقول:

- لم يضع الرجال القيود على عقول النساء إلا لكيلا يبدو سذجًا أمامهن وبالرغم من ذلك يفشلون.

ثم اخذ يهتف بصوت مرتفع:

- الحرية للنساء، الحرية للنساء.

خرجوا ثلاثتهم من المنزل منطلقين إلى وجهاتهم، ثم قالت نانسي وهي تبتعد مفارقة لهما:

- لا تنسوا نقل تحياتي لميار. كان الله في عونها في احتمال جنونكم وحماقاتكم أنتم الذكور بالسلطة التي تدعون أن لكم الحق بحيازتها.

كان عمر في أثناء مسيره مع إبراهيم يشعر بالارتياح حتى في تلك المناطق الأشد بؤسًا، كأن بوجوده معه يتحول حزن الناس فرحًا، ومنازل الفقراء قصورًا، والشوارع الميتة إلى حية. لقد كان لإبراهيم أثر عظيم على روحه المتلمسة لكل بؤس وعلى حواسه المحتضنة لكل ألم، فلم يكن مضطرًا للإسراع هربًا، ولا بحاجة إلى الاختباء والتخفي من الضوء في عتمة غرفته، ولا بحاجة إلى الاختفاء عن عيون الناس وأحاديثهم. لقد كانت الأخطار عاجزة عن التلويح له لكي يأخذ حذره منها، ليجد نفسه بلى عدو وبدون خطر يتهدده.

في أثناء مسيرهم في الحي الراقي الذي تسكن فيه ميار والذي يضم منازل وشقق لأثرياء المدينة، التقى إبراهيم بزميل قديم له في الدراسة، بان من هيئته انتماؤه إلى عائلة ثرية، وقد كان عائدًا من نشاط رياضي يمارسه صباحًا. بعدما تصافحا قال إبراهيم بحماس موجهًا حديثه لعمر وقد كان فرحًا بالتقائه بجزء من ماضيه:

- يا صديقي، هذا هو صاحب ألمع عقل في دفعتنا.

كان إذا التقى بأحد ما يسارع بالتعريف عنه لعمر بأهم ما يميزه بحماس يبرهن على الحب والشوق الذي تسبب به غيابه وعزلته.

بان على زميله لعمر من ترحيبه وتحكمه بأثر سعادته ومن حركاته ومظهره نضوجه، ولقد بان له واسع التجربة لم تفسده ثروة عائلته ورفاهية عيشه، شاب مهيب يوحي بالاحترام، في وجهه رصانة.

قال زميل إبراهيم بعد التعرف على عمر متوجهًا بكلامه لإبراهيم:

-ما زالت روحك مرحة كما عهدناك، بالرغم من الظروف الصعبة التي نعيشها. لربما الكتب هي السبب. أخبرني أما زلت إلى الآن مدمنًا على مطالعتها.

- كنتُ وما زلت وسأبقى. فنحن بدون مطالعة في بحر متلاطمة أمواجه، تدفعنا غريزة النجاة والرغبة في البقاء لدفع الجميع إلى الأسفل، حتى أولئك المقربين لنحتكر لأنفسنا النجاة.

- كم هو جميل حبك للكتب. ليتك مخلص للبشر بقدر ما أنت مخلص لها.

التقط إبراهيم من كلماته رسالته المعاتبة لتخليه بعد التخرج عن التواصل معه ومع باقي زملاء الدفعة، فرد عليه:

- لك الحق في العتاب، ولكن لي الحق بأن تعذرني، فأنت عالم بانشغالي بالمطالعة والبحث.

- أنت معذور بالتأكيد.

- وصلتني أخبار أنك أكملت تعليمك في إحدى الجامعات بالخارج.

- أخبارك صحيحة. لقد حصلت على شهادة الدكتوراة وعودتي إلى هنا لم يمضي عليها كثيرًا.

فهنآه بإنجازه الذي كانا في قرارة نفسيهما لا يحسبانه إنجازًا لنظرتهم السلبية للتعليم الأكاديمي الذي يرياه نافيًا للإبداع والابتكار، ومٌقتصر طلبه وتقديمه على البعد المادي، ثم قال إبراهيم:

- عودتك توحي بأنك على استعداد لتحاضر في إحدى جامعات مدينتنا.

- هذا صحيح، ولكنني لست متعجلًا للقيام بذلك.

فقال عمر مستسلمًا لنظراتهم التي تحاول إشراكه في الحديث:

- حسنًا تفعل، فتحصيل درجة علمية أكاديمية يُلزمك بتحصيل درجة من الثقافة موازية.

- أتفق معك، فالثقافة هي أداة إيصال العلم.

ثم قال إبراهيم محاولًا إضافة مزيد من التوضيح:

- صحيح وأيضًا الشعوب المثقفة حتى لو لم تكن متعلمة خير من الشعوب المتعلمة ولكن بدون ثقافة.

ثم سأله زميله مستغرباً بعدما وافقه:

- إلى أين وجهتك في هذا الحي؟ لا تقل لي أنها لمنزل عمك فلطالما لم تبدي اهتمامًا به رغم اهتمامه بك.

- صحيح، هي في الحقيقة لصديقة لنا تعيش فيه.

- لا تمانعان إذا أطلعتماني على اسمها، فلربما تعرَّفت عليها؟

- بالتأكيد لا نمانع، اسمها ميار.

- سمعت أنها آنسة واسعة الثقافة، لقد قابلت والدها البارحة بعدما عرَّفني والدي عليه، ودعاني لحضور صالونه الأدبي الذي يعقد اليوم. إذًا هي من وجَّهت الدعوة لكما.

- نعم، هذا صحيح.

- أتذكر أن السيد شوقي أعلمني أنَّ الصالون يبدأ في العاشرة، فلماذا حضوركم المبكر؟

- لمناقشة بعض الأبحاث المشتركة مع ميار وبعض القضايا والمواضيع التي نتشارك الاهتمام فيها، ولمساعدتها في التجهيز لاستقبال الضيوف.

- جميل جدًا. إذًا سألبي دعوة والدها لألتقي بكما هناك وأتعرف عليها وعلى بعض الحضور.

- نلتقي هناك إذًا، وأضمن لك أن تستمتع بوقتك.

أكملا المسير باتجاه وجهتهم، وفي أثنائه، سأل إبراهيم محاولاً إخراج عمر عن صمته:

- ما رأيك فيه؟

- لم أتعرف عليه كفاية بعد لأحكم بإنصاف.

- ألم تلاحظ إعجابه الكبير بإنجازه؟

- لاحظت ذلك.

- يا صديقي تلهينا معارفنا المُتحصَّلة بسهولة عن البحث عن كثير من المعارف التي تتطلب مجهودًا كبيرًا. إننا نوقف معرفتنا بمعرفتنا. نغتر فنمنن فنستكثر فنجهل. ولهذا يا صديقي تلزمنا باستمرار قاعدة "لا تمنن تستكثر" في جميع شؤون حياتنا.

- بالفعل هي قاعدة جميلة ومثمرة. إنَّ ارتدادات الاستكثار لا تتوقف عند حدود المُستكثِر في الإضرار به بل تمتد لتطال الآخر الذي تم استقلال وتحقير جهوده المبذولة.

- وأيضًا هو لم يُصدِقنا القول عندما أخبرنا بأنه لا يرغب بالاندفاع للعمل كمحاضر، فلدي أخبار تؤكد أنه وقَّع العقود قبل أن يختتم الدراسة وسيبدأ من الفصل القادم.

- لقد أصبح الجميع بسبب الفرص الشحيحة متخوف من الجميع، هذا هو سبب الإخفاء. لقد أصبح سؤال "كيف أحوالك؟" يُتهم طارحه بالفضول والتطفل وبحمله

مشاعر الحسد والاعتراض. إذا كان السؤال والإجابة معترض عليهما، لماذا لا تسقط إلزامية الزيارات في الغُرف طالما يتم رفض الحديث فيها! كيف يمكن تمضية وقتها طالما لم تسقط إلزاميتها!

- يا صديقي، عدم مقاومتنا للحساسية المفرطة تجاه تعبيرات الآخر وأسئلته، التي غالبًا ما تكون عفوية ولا مقصد من ورائها إلا الاطمئنان، كفيل بإيجاد مشاعر حب وكراهية شديدين ليس لوجودهما مبرر عقلي. إن هذه الحساسية تجاه تعبيرات الآخر وأسئلته وحركاته وألفاظه، تُوجد حالة من عدم الاستقرار، قد يصاب فيها صديق مخلص بعداوة لا يستحقها، وقد يصاب بها عدو لئيم بصداقة لا يستحقها، وفي الحالتين خاسر من لا يقاوم حساسيته. إننا يا صديقي غالبًا ما نحاول البحث عن واقع أو خيال ترسمه لنا ظنوننا عن الآخر لا لتخوينه بل لتبرير خيانتنا له، فالقائم بالخيانة يشعر بالراحة بخيانة متبادلة من الآخر، فإخلاص الآخر مرهق له.

وفجأة في أثناء حديثهم اعترض مسيرهم رجل دين طاعن في السن، أشيب الشعر، شاحب الوجه، ضعيف الجسد، ملابسه مهترئة، أخرق الحركات، قد بان أن عقله أصابه عطب ما، ثم قال بعدما توقفا وألقيا عليه التحية استجابة له:

- اقبلا مني هذه النصيحة. تقسو القلوب عندما يكون طلبها من الله كشرط وكذريعة للقبول بالصلاح والهداية والرشاد، لا لشعور بحاجة أو رغبة، فالمساومة ضارة بالمساوِم لا بالمساوَم. لذلك استمرار عطاء الله لك أكثر من غيرك، موجب لاحتراسك أكثر من اطمئنانك، ولخوفك أكثر من راحتك، ولربما لحزنك أكثر من فرحك.

ثم أكمل مسيره بدون أن يتعرف عليهما ويتعرفا عليه، كأنه لم يتوقف، فأخذا بالنظر إليه وهو يبتعد عنهما بتعجب ودهشة وذهول مما سمعاه منه، ثم قال إبراهيم بعدما أكملا المسير وبعد صمت التزما به ليُحيطا بجمال ما سمعاه:

- لقد نطق بكلام جميل.

في تلك اللحظات وصلا إلى منزل صديقتهم. طرقوا على بابه، وبعد لحظات فتحت لهم الباب وكانت مرتدية لنظارتها وممسكة كتاب في يدها كان الطرق قد أوقفها عن متابعة مطالعته.

كان وجهها كزهرة كاملة التفتح، فالتفت إبراهيم إلى عمر وقال:

- الجميلات في عصرنا للأسف لا يطالعن إلا صورهن المعروضة على المرايا، ولكنها جميلة وتطالع الكتب.

قالت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة أضافت إليه مزيدًا من الكمال:

- يبدو أنَّ معاييري للجمال عالية، لهذا تجدني أطالع الكتب، ومعاييرك متدنية ولهذا تراني جميلة.

- أيرضيك يا عمر؟ إنها تتهمني برداءة فكري، فهي تعلم جيدًا أن الذوق السليم في الفكر السليم.

فتعالت ضحكاتهم، ثم رحبت بهم وأدخلتهم إلى الصالون وأخذت تقول بنبرة متأسفة بعدما جلسوا:

- الجمال في عصرنا في مأزق، لربما لأن الفكرة الجمالية في عصرنا مضطربة.

سأل إبراهيم:

- هل الطبيعة مسرفة في نثر الجمال أم أن حواسنا متقاعسة عن التقاطه وعقولنا عاجزة عن إدراكه والتعرف عليه؟

قال عمر بعدما استعاد بعض من عقله المسلوب بجمالها:

- يا صديقيَّ، ليس الجمال من تراجعت قدرته على الجذب، بل هو الوقت من تراجعت قدرته على الاحتواء.

بعدما وافقاه على ما قاله، انهالت عليهما بأسئلة عن ارتدادات الحرب على أفراد عائلة كل منهما، وبعد نيلها الإجابات المُطمئنة، وجهت بتردد بعض الأسئلة لإبراهيم عن صحته، فطمأنها بالادعاء بأنه تعافى من مرضه، بدون أن يظهر عليه أثر عدم صدقه وبدون تأثر بنظرات عمر المتوسِّلة إليه بإعلامها بالحقيقة لتجنيبه الوقوع في مأزق الإخفاء عنها.

أسرع إبراهيم لتغيير موضوع الحديث وكانت ميار مستسلمة لذلك، فلقد كانت تتجنب التعمق والإلحاح في أسئلتها المتعلقة بمرضه، محاولة منها بتفادي إشعاره بضعف أو اختلاف حل فيه، غيَّر من أحاديث جلساتهم، فقال بحماس:

- ما هذه الروائح الزكية التي تنبعث في هذا الصباح الباكر.

فنهضت وتوجهت إلى المطبخ المقابل للصالون، والمفتوح عليه، وطلبت من عمر مساعدتها في التقاط ما أعدته من عصائر طبيعية من الثلاجة، بعدما تناولت أطباقًا من المعجنات كانت قد أعدتها قبل قدومهم، ثم قالت لإبراهيم إجابة عن سؤاله:

- هذه رائحة الفطور.

بدأوا بالأكل بعدما شغلت إحدى سيمفونيات متزارت، ثم عاد إبراهيم لمغازلاته بعدما أعجب بمهارتها في إعداد المعجنات، فقال:

- جميلة وتحسن إعداد المعجنات.

- ألا تنزعج نانسي من شقاوتك؟

- لم تُعجب ولم تَقبل بي إلا لهذا السبب.

ثم انفجروا بالضحك.

كسر عمر صمته فقال محاولًا إضفاء الجد على الجلسة ليتمكن من السيطرة على اضطرابه:

- حدِّثينا عما تستدعين للبحث فيه بعد إنجازك لبحثك الأخير.

أجابت وقد طرد ما حل في الجلسة من جد كل حديث هزل:

- لقد بان لي في الفترة الأخيرة أن عامل الجذب في الجماعة خطير على سلوك الفرد أكثر مما هو على معتقده وقناعاته، فسلوك الفرد يجد تبريره بسلوك الجماعة الذي بدوره يشوش على المبررات التي يسوقها المعتقد في نهيه عن هذا السلوك. إن معتقد الفرد أكثر رسوخًا من سلوكه لأن المعتقد يحتاج مبررات عقلية أكثر.

- أي أن السلوك الفردي يتكون بمبرر كمي أكثر مما يتكون بمبرر عقلي، ولهذا عامل الجماعة في تكوين السلوك الفردي أكثر فاعلية من عامل المعتقد الفردي.

- بالضبط، فجميعنا تقريبًا عندما نخطئ نجد أنفسنا نبرر ذلك بشيوع الفعل، وهذا التبرير حتى لو لم يكن مقنعًا لنا بشكل كبير، إلا أنه يخفف من عتابنا لأنفسنا وبالتالي محاسبتها.

قال إبراهيم:

- وعليه فالسلوكيات الخاطئة لحاملي المعتقدات التي تلزم بالسلوكيات الصائبة تبررها جاذبية السلوك الجماعي.

أكملت ميار بعدما هزت رأسها موافقة:

- بالضبط، وهذا يقودنا إلى القول بأن القياس النفعي وحده ينهار أمام جاذبية السلوك الجماعي، وهذا يقودنا للتأكيد على أهمية أخلاق الواجب.

- هناك خطر كبير أيضًا ينبغي عليك التركيز عليه وهو وسائل الإعلام الموجَّهة. فالجماهير إذا شعرت بها أن سلوك ما شائع، فقد أوجد ذلك المبرر لها لإتيان هذا السلوك، وبالتالي إكساب السلوك الذي يروج له شيوعًا واقعيًا.

- الفعل الخاطئ أسرع من الفعل الصائب في تطوير وإيجاد وسائل جذبه، ولكل منهما مقدار الشوق المتساوي عند الترك، ولكن للفعل الصائب مقدار من الندم أكبر عند الترك، ولهذا أعتقد أن السلوك الجماعي هدفه هدم ما يتفوق به الفعل الصائب.

- إن التعلق الشديد بالجماعة يُفقد الإنسان أثر معتقده في البداية، ثم معتقده في النهاية.

فقال عمر بصوت يملأه اليأس:

- حقًا يا صديقيَّ، إنه يتم اصطيادنا بالإنارة كما يتم اصطياد الأسماك ليلًا. أحسنت يا صديقتي إنه موضوع مهم يستحق التعمق في دراسته. إنها استنتاجات جميلة حتى قبل البدء.

ثم عاد إبراهيم لمغازلاته فقال:

- فليبن لكِ كل ما هو جميل فلن يفوق اندهاشكِ اندهاشنا، أتعلمين لماذا؟ ذلك لأننا نراكِ. نعم يحق لنا التعجب من اندهاشكِ من جمال بان لكِ، فكل جمال محاولة لمحاكاة جمالكِ.

ثم عادت ضحكاتهم لتغرد من جديد.

في أثناء انشغال ميار وإبراهيم بالحديث كان عمر يُحدِّث نفسه قائلًا: " مسافة كبيرة بيننا، بل لا وجود للمسافة، فمن أنا لتكون بيني وبينها مسافة، من أنا لتكون عندي نقطة البداية وعندها نقطة النهاية. حقًا لا وجود للمسافة بيننا، أنا حيث البداية والنهاية بعدم استحقاقي وضعفي، وهي حيث البداية والنهاية باستحقاقها وقوتها، هي وأنا حيث البدايات والنهايات لا تلتقي. كيف لخيالي الجموح كغيري، وأنا بهذه المعرفة الكبيرة لقدري وقدرها! لن أذهب يومًا للاعتقاد بأن نظراتها إليَّ نظرات إعجاب وحب، سألزم نفسي بأنها نظرات عفويَّة، نظرات متحدث إلى مستمع أو مستمع إلى متحدث أو نظرات غير مقصودة. من أنا لتنطلق هي منها إليَّ. لا لن أذهب إلى ما يذهب إليه غيري عندما تطالهم نظرة من إحداهن، لن أمنح كغيري تلك النظرات والكلمات التي لا دلالة لها ذلك الاهتمام الناجم عن رغبات في النفس، والناجمة عن الاستسلام لجموح الخيال، نعم لن أُحملها معاني ودلالات مُضمرة، سألزم نفسي بالتواضع، سأُذكِّر نفسي دائمًا بمن أكون وبمن تكون. لن أقبل لك يا إعجابي بها بطلب المبادلة، سأبقيك يا إعجابي بها فيَّ وحيدًا، بغير أنيس. كم أخاف أن أفشل في إخفائك يا إعجابي فيُعتقد أنِّي طالب المبادلة، كم أخاف أن يُقبل طلب إعجابي منها أو يرفض. أطيلي النظر أو قصِّري أو حتى استرقيه، سأظهر لكِ واقفًا ولي منهارًا، سأظهر لكِ شامخًا ولي ذليلًا، سأظهر لكِ شجاعًا ولي جبانًا، سأظهر لكِ هادئًا ولي قلقًا مضطربًا، سأظهر لكِ متمردًا ولي خانعًا، لن تجدي فيَّ أثر منكِ، لن تجدي فيَّ انكسار وحزن وتوله وشوق وألم. لن أطالب ضعفي بضعفك كما يفعل طالبو مبادلة الحب والإعجاب. كيف لهذا الضعف الذي ينتمي إليَّ أن يجد بجانب القوة التي تنتمي إليكِ

ضعف. هذه القوة فيها لا بد أن تكون طاردة لها في مكان موحش. سأتركك يا ضعفي هناك حيث المستأنسون بقوتها، وسأذهب إليها حيث هي وحدها هناك بغير إعجاب وحب ينفيانها، حيث أنفي نفسي. سأبقى معكِ كغريق لا يمدد يديه إلى أيدي ممدودة لنجدته، كغريق يكابر، كغريق يظهر تلذذه بموته."

كان يُحدِّث نفسه متألمًا بنوع من أسف يمازجه ازدراء. التفت إليه إبراهيم وكان قد علم أنها سبب في شروده، فقال بنبرة يسهل اكتشاف السخرية والتلميح فيها:

- يا كثير الشرود، أين ذهبت؟

فرد عليه بسرعة محاولاً ثنيه عن إلقاء تلميحات يعلم جيدًا أنها قادرة على التقاطها، بالقول:

- لم أذهب لمكان، أنا معكم.

في تلك اللحظات، قاطعهم السيد شوقي بتحيته بعدما استيقظ من نومه. بعد الترحيب بهم جلس معهم يتناول المعجنات ويحتسي العصائر، ثم قال بعد لحظات صمت فرحًا برؤيتهم:

- سعيد برؤيتكم، يا مناصري المثال على الواقع.

رد عمر بعد شعوره بنبرته الاعتراضية:

- لربما نحن كذلك، لأن الواقعية هي رسم فنان قبيح اسمه العجز. إن ما هو واقعي مرتهن بتمسك الإنسان بما يراه واقعيًا.

ثم قال إبراهيم:

- يا سيد شوقي، الإنسان لا يكون واقعيًا إلا بطلب المستحيل، لهذا تراني دائمًا أردد ناصحًا عمر "كن واقعيًا بطلبك المستحيل"

سأل السيد شوقي ببرود بعد استماع لأقوالهم:

- ومتى كان الواقع يتَّسع للمستحيل؟

فأجاب إبراهيم بحماس:

- عندما كان هناك إيمان وعمل. لن ننتقل إلى عالم أجود واقعًا ما لم ننتقل إلى عالم أجود فكرًا وخيالاً والعكس صحيح. إن الواقع الذي استجاب للفكر الأقل قبحًا، دافع إلى البحث عن فكرة تخرج من نطاق القبح إلى نطاق الجمال، ومن نطاق الجمل إلى نطاق المثال.

ثم قالت ميار:

- صحيح، فكلما تقدمنا اكتسبنا الخبرة للتقدم والتطور، وكلما تخلفنا اكتسبنا الخبرة للتخلف والتراجع.

قال السيد شوقي محاولًا إلجامهم وتوريطهم:

- دعوني أسمع تحديدكم لما هو واقعي ولما هو مثالي.

فقال إبراهيم بعد صمت استعان به لانتزاع الإجابة الأفضل:

- ما هو واقعي هو ذاته المثالي الذي وجد مقدار الملل الكافي والمناسب لطلبه وانتزاعه، وما هو مثالي هو ما لم يجد بعد الملل الكافي لطلبه وانتزاعه. إنَّ ما هو واقعي يا سيد شوقي، ليس ما هو ممكن، وما هو مثالي، ليس ما هو غير ممكن. أعتقد أنه علينا أن نعظم قدرتنا على استحضار الملل لكي ننقل ما تم تصنيفه على أنه مثالي إلى ما هو واقعي. وحده الملل ما يفتقد الإنسان القدرة على احتماله، كما أخبرتنا ميار، ولهذا الملل هو الذي يشكل الوعي والطلب والثورة. إننا في أحيان كثيرة نحتاج إلى الملل ليدفعنا للمسير، وأحيانًا أكثر نحتاج إلى المسير ليدفعنا للملل. إن جيلك يا سيد شوقي لم يستحضر مقدارًا كافيًا من الملل لكي يُعظِّم قدرته على الطلب.

فقال السيد شوقي بعد إعجاب بجوابه:

- لقد استيقظت للتو أيها الشباب، بل إنني ما أزال نائم، وإنني أعترف أن النقاش معكم يتطلب مني حضورًا بكامل قواي العقلية. أعترف أنني سمعت كلامًا جميل منكم، لهذا دعونا نؤجل موضوعنا الشيق والمثير هذا إلى جلسة أخرى. إنني أيها الشباب أخاف عليكم من حماسكم الكبير هذا. لقد علمتني الحياة أن أحاول دائمًا تجنب تبني أفكار ملطخة بغبار العجلة، ولهذا نصيحتي لكم لا تتسرعوا في تبني الأفكار، وأنا بدوري لن أتسرع بالحكم على ما سمعته من ردود جميلة منكم، ولهذا سأمنح لنفسي الوقت للتفكير فيها وسنعود للنقاش لاحقًا.

فقال إبراهيم بعدما أدرك أنهم أثقلوا عليه واختاروا توقيتًا غير مناسب للنقاش معه في موضوع جاد:

- نعتذر، لقد أخذنا الحماس الزائد والشوق لأحاديثك الرائعة على اختيار الوقت غير الملائم.

- لا داعي للاعتذار.

ثم عاد إبراهيم ليقول كاسرًا صمت الإحراج الذي تسبب به خطأهم ومحاولاً تلطيف الأجواء:

- أجبنا يا سيد شوقي بصراحة، جمال ميار هدية منك أم من أمها؟

- بالتأكيد مني، ألا ترى النساء لا يتوقفن عن معاكستي والتغزل بي.

فانفجروا بالضحك، ثم رجع يقول بنبرة رومانسية فيها شيء من الحزن:

- بالتأكيد هو جمالها أمها. تلك امرأة ليست كباقي النساء. لقد تسربت في لحظة نفي أدم إلى الأرض نفحة جمال فردوسية تخللت روحها وجسدها. كنت قد رأيتها أول مرة في أحد المقاهي، وفي تلك اللحظات سلبت عيناي مني كل طاقتي لتستطيع استيعاب كل جمالها، ولهذا لم أجرؤ ولم أمتلك القدرة للتقدم خطوة واحدة باتجاهها للتعرف عليها، ومن سوء حظي لم تظهر بعد ذلك لفترة طويلة، فأخذت أبحث عنها في جميع المقاهي وأطاردها في كل الشوارع أملًا في إيجادها ولكن من دون جدوى. وأنا في حالتي البائسة تلك كنت أجلس في المقهى الذي رأيتها فيه طوال اليوم آملاً بدخولها يومًا. لقد كنت أُحدِّث أصدقائي عنها باستمرار، فكانوا يثورون عليَّ والغضب يملئهم صارخين بوجهي: (إما أن تثبت وجودها أو تكف عن توهُّمه)، لأرد عليهم بغضب بالقول: (إما أن تثبتوا وجودكم بها، أو تكفوا عن إنكار وجودكم بإنكار وجودها). وفجأة في أحد الأيام وأنا على وشك فقدان الأمل من ظهورها مرة أخرى، رأيتها، ومن تلك اللحظة بدأت حكايتنا. كنتُ كلما التقيت بها أقول لها (شوقي إلى اللقاء لا لقاء يُبرِّده وحبي للبقاء لا حياء يُبدِّده)، فكانت ضحكاتها على حالتي وكلماتي هذه تنفيني إلى جنة عجز عن رسمها خيالي. كانت كلما ظهرت أُبصر وكلما تختفي أتحسس وجهي بحثًا عن عيوني فلا أجدها. لقد تحول قلبي دمًا يدفق نفسه في حبها. لقد كانت صباح لا مساء يتبعه. كانت إن طلبتني لا أذهب إليها انطلاقًا من مكاني بل من مكانها لمكانها. لقد ملت مراياي من أسئلتي عن توافق مظهري مع الجمال الذي تبحث عيونها عنه.

ثم توقف اختناقًا وكانت عيناه قد ترقرقت بالدموع، فقال إبراهيم بحماس بعدما رفع كأسه:

- تبًا لتلك المرايا التي لا تتوافق مع عيون من نحب.

فتسببت حيويته وحماسه في إعادة الحياة للجلسة ومن فيها، فاعتدل السيد شوقي بعدما طرد حزنه، وقال:

- دعوني أروي لكم قصة ظريفة كاعتذار مني على إظهار حزني لكم. في أحد الأيام كنتُ أصفها لأحد أصدقائي فقال لي: (المبالغة في جمال النساء من طبع الرجال). وبعد دقائق مرت من أمامنا، فأشرت له عليها، فقال بعدما تحرر لسانه الملجوم بجمالها: (أنا الآن أشك في كونك رجلًا).

غرقوا في الضحك حتى كاد من يراهم يقول بأن الأحزان لم تباغتهم يومًا. ثم عاد السيد شوقي للرومانسية، فقال:

- أيها الشباب، إن في كل طلوع شمس وغروب، وفي كل صلاة عابد وسجود، تأييدًا للحب، فأقبلوا عليه.

ثم نهض وأردف:

- اعذروني الآن أيها الشباب، أريد الذهاب إلى مكتبي. لقد استمتعت بمجالستكم. أراكم عند حلول موعد حضور الضيوف.

كان السيد شوقي كاتب روايات ومفكر ترجمت كتبه للعديد من اللغات وكان يحرص على القراءة والكتابة بشكل يومي كل صباح حتى حلول الليل، دون أن يثنيه تقدمه في السن وأمراضه القلبية عن هذه العادة.

رغم انصرافه، كانت لكلماته الأخيرة أثرها على الجلسة، فكانت لحظات غارقة في الصمت، ليقول عمر في محاولة لتبرير صمته:

- إنها موسيقى جميلة.

استمر الصمت، فبكلماته منح لميار وإبراهيم مبرر للتمسك به وإطالته. وبعد مرور بضع دقائق لم يكن فيها صوت إلا للموسيقى قال إبراهيم بتأثر موجهًا كلامه لميار:

- لقد أحبها حبًا صادقًا بالفعل. لقد عرف كيف يحب.

- صدقت، ولولا وجودي لما كان له سبب يدفعه للاستمرار بالحياة.

فرفع إبراهيم كأسه، وقال:

- بصحة السيد شوقي.

ثم قال عمر لميار وكان ما زال متأثرًا:

- وجه السيد شوقي وروحه المرحة لا تدل أبدًا على ما في قلبه من حزن.

- إننا نستجوب الوجه وهو أبكم ونترك القلب وهو مفصح.

- حقًا، إن الدمع من القلب لا من العين منهمر والصبح للعين لا للقلب منسدل.

وبعد لحظات عادوا فيها للصمت مجددًا، عاد عمر يقول كأنه يريد الانتقام من الحياة بكشف سرها:

- إن السعادة إن وجدت، فلن يكون ذلك إلا لكي نتوهم أننا حائزون عليها. إن قائمة عروض عالمنا لا تخلو إلا من تلك الحياة التي نود أن نعيشها. إننا يا صديقيَّ لا نحصل من النوم إلا على قدرة استقبال أكبر لآلام أفتك.

قالت ميار محاولةً منح عمر العلاج:

- لا وسيلة أفضل لتسكين آلامنا من إلقاء الغموض عليها.

نهض إبراهيم بعدما نفض حزنه وقال بحماس رجال الدين:

- أنتما يا صديقيَّ عاجزان عن رؤية ربيع عامنا هذا لانشغالكما بانتظار وتوقع ما سيكون عليه ربيع السنة القادمة. يا لها من سكينة تمنحنا إيَّاها هذه اللحظة المليئة بالسعادة لو منحناها مجرد التفاتة. إنَّ حكمنا على حياتنا بالبؤس في فترة نكابد فيها الهموم، مثل حكمنا على لوحة عظيمة الحجم بالقبح لعدم إعجابنا بجزء متناهي الصغر منها. يا رفيقايَّ، تمتعوا بأشد أوقاتكم بؤسًا فلربما لن تتكرر، ولربما هي ما تطلبوه من أهدافكم. لقد عزمت منذ زمن بعيدة على التوقف عن تناول ثمار تلك الشجرة التي نفيت معنا إلى الأرض، للتَّمتُّع بهذه الجنة التي لم ولن يُسعفنا العمر في اكتشاف جميع ما تمنحه من ملذات وسعادة لكي أطمع في غيرها أو في أبديتها. أنا أصدق دوستويفسكي عندما قال في رواية الشياطين على لسان كيريلوف "الإنسان شقي لأنه لا يعرف أنه سعيد". إنني سعيد، وأعشق كوني سعيد، وسأبقى سعيد، ولن يستطيع أحد أن يُقنعني أنني لست كذلك، و...

فقال عمر مقاطعًا بعدما شعر بالاستفزاز:

- بل أنت تتوهم أنك سعيد.

- وما الضير في ذلك، طالما أنَّ هذا يريحني. ومع ذلك أنا سعيد، وهذه حقيقة.

- عدم قدرتك على تقبل الحقيقة أو إدراكها لا يخرجها عن كونها حقيقة.

ثم عاد يقول ساخرًا بعدما توقف مختنقًا:

- أحيانًا يا صديقي يقع علينا إلزام بالنظر إلى الحقيقة مرة أخرى، فضوئها الساطع في أحيان قد يتسبب لعيوننا بالنظرة الأولى بالعجز عن الرؤية.

- حسنًا سأجاريك جدلًا. إذا لم تنفعني الحقيقة ومعرفتها، فأنا أريد تبني ما هو زائف على أنه حقيقة، لا لشيء إلا لكي أحيا وأستمر بالحياة كما أريد وأرغب. إذا كان الظلام الحالك موجودًا حقًا، فإنني أريد توهمه جدارية أرسم عليها أفكاري وخطواتي من نور.

- الحقيقة لا يمكن إلا أن تكون نافعة، وكذلك معرفتها، ولهذا الإقرار بأننا بؤساء هو الفعل الصائب.

فقالت ميار موجهة كلامها لإبراهيم:

- إنني أعتقد أننا نحن البشر أضعف من أن نراكم أحزاننا وآلامنا ولذلك نستبدلها. ولهذا أعتقد أنك تستعين بعملية الاستبدال هذه لتتوهم أنك سعيد.

- قد يكون ذلك صحيح. لربما أكون أحمق في اختيار طريقتي ولكنني لن أكون كذلك بعدم المسير بها. يا صديقيَّ الاعتقاد بإمكانية حيازة السعادة أو حتى توهم حيازتها يسهم في جعل الموت وحده من يمنعنا من الارتكاز والاستناد على أقواسنا ونحن ننظر لأهدافنا وهي مصابة بسهامنا.

فرد عمر وابتسامة ساخرة على وجهه:

- يا صديقي، إنَّ أهدافنا أسرع بالابتعاد عنا منا بالاقتراب منها، لهذا لا تعول على السعادة في دفعنا للمسير أسرع لها، ولا تعول على أهدافنا بمنحنا السعادة.

- لربما ذلك صحيح، ولكن دعني أصارحك. إنني أخاف أن ينتظرني هدفي فأتجاوزه بسرعة انطلاقي، ولهذا المطاردة تحفظ لي أهدافي، وفي هذا سعادتي.

قالت ميار بعد ضحكات أطلقتها هي وعمر سخرية من رد إبراهيم:

- كم تعامل نفسك بخبث! أنا لا أفضل أسلوبك يا صديقي.

- إذًا ستموتين قهرًا.

فتعالت الضحكات

عادوا للاستمتاع بسماع الموسيقى، وبعد لحظات دقت الساعة مُعلنة الثامنة، فأخذوا بإعداد المكان لاستقبال الضيوف، فغيَّروا موضع الأثاث ليتناسب مع جلوس الحضور متقابلين، وطلبوا الحلويات والعصائر، وبعد وصولها قاموا بتنسيقها للتقديم.

بعد مرور ساعة من العمل فرغوا فيها من جميع مهامهم، استأذنت ميار وذهبت لتجهيز نفسها وأبيها لاستقبال ضيوفهم، وأخذ عمر وإبراهيم في تلك اللحظات بالاستماع إلى الموسيقى التي حرمهم منها الانقطاع المتواصل للتيار الكهربائي بسبب الحصار وسياسة العقاب الجماعي.

(5)

كانت الساعة تشير إلى العاشرة معلنة وصول المدعوين فرادى وأزواجًا وجماعات، لينشغل السيد شوقي وميار في استقبالهم والترحيب بهم.

كان هذا الاحتشاد مربك لعمر الذي التصق بإبراهيم كطفل متشبث بذراع أمه، على الرغم من حضوره لهذه المناسبة في كل أسبوع على مدار ثلاث سنوات.

كانت العزلة التي دخل فيها لسنتين قبل أن يتعرف على إبراهيم وميار ما زال أثرها في نفسه فاعلًا، فكل احتشاد كان يسلبه قدرته على احتواء نفسه، ولكنه بعد التعرف عليهما تعافى من بعض آثارها، فلقد وجد لديهما المساعدة التي يحتاجها، وجد فيهما السند والدعم، ولكن كان لأثر اعتزاله لفترة قصيرة هي فترة الحرب، عودة لأثر عزلته الطويلة.

لقد كان يُحدِّث محيطه بعد خروجه من عزلته قائلًا: "العزلة لها القدرة على قتل طالبها ثم إعادة إحيائه، فهي تلعب دور الإله في سلب الحياة وبعثها من جديد، فمن امتلك القدرة على تحمل عذاب الموت البطيء المؤلم، والقدرة على احتواء الخلق الجديد فله أن يُقدِم عليها".

لقد كانت كلماته هذه التي تتردد على لسانه في كل حديث عن العزلة، اعتراف غير مباشر منه بأنه لم يكن يمتلك القدرة على احتمال ذلك العذاب وتلك المسؤولية العظيمة، وبأنه ليس هو من اختار العزلة لنفسه بل ظروفه واعتراضه ورفضه المستمران.

كان قبل عزلته ضمن مجموعة مكونة من ستة أفراد جمعتهم صداقة متينة امتدت سنوات سبع، كانوا طوال هذه المدة الطويلة يجتمعون بشكل شبه يومي في أحد المقاهي المتهالكة يلعبون الورق على الطاولة التي خصصت لهم في أحد الزوايا.

لم تكن طاولتهم الأقدم سنًا وبالتالي لم تكن الشموع على قالب حلواها الأكثر عددًا، ولهذا كانت الشموع الست الماضية تطفأ بأنفس خجلة متسللة بهدوء على عكس الشموع الثلاثين والأربعين المُنتصبة على قوالب حلوى الطاولات المجاورة لطاولتهم.

لم تكن الأنهار تجري من تحتهم ولم تكن السماء تمطر من فوقهم، وبالرغم من ذلك لم يتعكر صفو مزاجهم يومًا. كانوا يجتمعون كأنهم لن يفترقوا، وكانوا يبدؤون باللعب

كأنهم لن ينتهوا. كان عقرب ساعتهم يرقد في سباق، لم تحدد له نهاية بكل رشاقة وبأقصى سرعة، وكانت النقود التي في جيوبهم بالكاد تكفي ثمنًا لكؤوس الشاي على طاولتهم، وبالرغم من ذلك لم يشعروا بتقصيرها يومًا لاستكفائهم بالالتقاء ورؤية بعضهم.

كانت لقاءاتهم غير مجدولة، ولم تكن وسيلة التواصل بينهم إلا القلب، فلقد كانوا يشعرون بعزم بعضهم البعض على الالتقاء. لقد كان شوقهم لبعضهم يبدأ في لحظة التفكير بالانصراف.

في أحد الليالي وهم يعزمون على إطفاء الشمعات السبع التي تزين قالب الحلوى المتواضع الذي يحتفلون به بالذكرى السنوية السابعة على تكوُّن صداقتهم، انقطع التيار الكهربائي، كعادته في مدينتهم، وعم الهدوء المكان لمدة قصيرة، إلى أن أعادته المولدات الكهربائية بضجيجها. في لحظة تجديد العزم، صرخ عمر مستوقفًا أصدقاءه عن إطفاء الشمعات السبع، كأنه تلبَّسه شيطان، فبُهت الذي سمع صرخته، وأوجس في نفسه خيفة مصدرها الحرص على جمالية اللحظة والاندهاش من عفوية وفجائية الصرخة.

تلى الاستجابة لصرخة الاستوقاف التي أطلقها، نظرات حادة، ناقمة، حزينة، غاضبة وفي ذات الوقت مُستكفية، كان يتزامن معها نظرات أصدقائه لبعضهم، يتخلل تلك النظرات الحائرة والخائفة، تساؤلات عن حالته التي لم يُدرك بعد سبب فجائية تحولها، فظن أحد أصدقائه أنه تلبَّسه مارد شيطان، ومال لهذا الظن البعض، وظن آخر أنه أخلف بالعهد، واتهمه بأن نوبة تفكير اجتاحته، فحبست أنفاسه المُطفأة لسنين حياته، ومال لهذا الظن البعض.

وما بين تصارع وتدافع الظنين وتزاحم وتسابق أدلة الفريقين، كان هو في حالة يصعب وصفها على عكس تمثيلها الذي قد يسهل، فحالته مشابهة لحال تلك السفينة التائهة في بحر لُجي، جنت ليلته، اتخذت سبيلها في البحر عجبا، وفجأة وجدت نفسها محاطة بمنارات قويت إضاءتها وصوبت إلى أعينها حتى كادت تفقدها بصرها.

وبعد مرور تلك الدقائق التي تشبعت بالشك والحيرة، اختار أصدقاءه التخلي عن تساؤلاتهم والإجابات المتوقعة لتلك التساؤلات، واستسلموا لنظراته التي تحولت من حالتها لحالة ترجموا واقعها وكلماتها التي لم تنطق، بالفعل الذي تمثل بالكف والاستسلام لما هو آتى.

أخرج النقود التي كانوا يبقونها معه للدفع، ووضع الحساب على الطاولة التي لم يتسنى لهم شرب كؤوسها وتناول أطباقها، وهم بالخروج من المقهى بسرعة متوسطة، مخافة من ضباب دخان أراجيله الذي قد يعرقله، متوجهًا الى الشاطئ

القريب من المقهى، وتبعه أصدقاؤه بكل جد، حتى كادت أقدامهم تتماثل مع سرعة أقدامه وتسبقها على مكان وطئها.

وفي لحظة وصولهم لشاطئ البحر، حيث كانت الرمال دافئة، والأمواج هادرة تطرد ما حل فيه من قاذورات، خلع ملابسه ثم ركض إلى البحر وأخذ بالسباحة، ليشاركه أصدقاؤه في ذلك. استمروا في لهوهم إلى أن أوقفهم الإرهاق الشديد الذي أنساهم الحالة التي كانوا عليها في المقهى وجميع تلك التساؤلات والإجابات التي تخللت تلك اللحظات.

بعدما خرجوا من البحر واستلقوا على رمال الشاطئ الدافئة والتي كانت تحميهم من البرد القارص، تماطرت عليه عبارات المديح والشكر على إدخاله لهم في تلك الأجواء التي كسرت روتين احتفالات السنوات السابقة، ليوقفهم صمته ونظراته الجادة.

قال بصوت حزين بعدما أسكتتهم عودته لحالته الماضية:

- هدفي أيها الأصدقاء من جلبكم إلى هنا ليس ما قمنا به بل ما سنقوم. أنا اليوم عازم على التحرر من العهد الذي ربطنا لفترة الشمعات السبع، لقد تركتُ الشمعات اليوم لتذوب بدون أن تطفئها أنفاسنا لأعلن بداية جديدة.

وبعد سكوته للحظات اختناقًا، بدأ لسانه ينطق بصوت غير صوته، وكلمات غير كلماته، ومعنى غير ما يعنيه في عادته، وبحماس غير ذلك الذي كان يُبديه، وبثورة وتمرد لم يبدوا عليه سابقًا:

- لقد أدركت يا أصدقائي أن العادة يستحيل أن تجعل الإنسان يتلذذ ويتمتع ببؤسه، ولهذا لم أعد قادرًا على الوقوف أمام رفضي واعتراضي، نعم لم أعد قادرًا على لجمهم. لقد اهترأت أقدامنا من الركض حفاة الأقدام في طريقنا الذي امتلأ بالشوك، فما آن لنا الاستعانة بعقولنا لإقناع أنفسنا بضرورة ارتداء الحذاء ونزع القبعة، وإذا كان الأمر عسيرًا، أليس الألم الذي ذقناه كافٍ لفعل ذلك؟ الحرية يا أصدقائي تُنتزع بقدر الطلب، وحق الوقت استغلاله فيما يُكسب العتق. لن أسمع لأحد بعد الآن أن يصنع من عقلي خزانة لأحذيته. يقولون تشرق الشمس وتغرب، وفي الحقيقة نحن من نشرق ونغرب. كيف ما زلنا إلى الآن نقبل أن يسلب الإنسان الذي ننتمي إليه أدواره على هذا المسرح. هيا بنا نقذف أنفسنا يا رفاقي في السماء لربما يخلق الحماس والشغف بالتغير والشجاعة أجنحة نستطيع بها التحليق، وفي حال الفشل في خلق الأجنحة لربما يكون سقوطنا كسقوط الشهاب القاصف المُزلزل لراحة الفاسدين. إذا استمرينا كما نحن عليه يا أصدقائي لن تكون هناك قصص ترويها تجاعيد وجوهنا ولا حكمة تجود بها شيبة رؤوسنا. سنكون وإذا فشلنا أن نكون لن نفشل في ألا نكون،

ستبقى خطواتنا خياراتنا. هيا بنا يا أصدقاء، نفكك هذه الصداقة اللعينة، اللاعنة لحياتنا، فلكم طريقكم ولي طريق.

وافترقوا دون رغبة في معاودة اللقاء، وبلى مصافحة تحتضن بها أكفهم بعضها.

وبعد مرور أسابيع كان يعاني فيها من الفراغ والتخبط والتيه والجهل واللاطريق، كان قد اعتاد على تمضية بعض ليله الذي لم يكن قادرًا على إغرائه بالنوم على شاطئ البحر وحيدًا كالقمر، يتأمل للهرب من بؤسه الذي يطارده.

كان يراقبه من بعيد رجل طاعن في السن، غزى الشيب رأسه واحدودب ظهره، بان عليه بأنه شخص عرك الحياة وخبرها، وفي أحد الأيام التي كانت حالته البائسة شديدة التجلي على مظهره، اقترب منه المُسن بعدما استشعر معاناته وتذكر به ماضيه.

سأل المُسن بعدما تبادلا التحية وكان يقف بعيدًا عنه بما يقارب الأمتار الثلاث:

- أيضايقك جلوسي هنا؟

- لا بالتأكيد، تفضل.

بعد لحظات صامتة، قال المسن على حين فجأة بعد تردد:

- لا أرغب في التعرف عليك ولا بتعريفك عليَّ، ولكن ربما سأكون مفيدًا، إذا أطلعتني على معاناتك.

- وما أدراك أنني أعاني؟

- كُلك مفصح عن ذلك، أنفاسك ووجهك وخطواتك، ونظراتك، وشرودك، وانفرادك، حتى سؤالك مفصح كذلك.

بعدما تفحص عمر العجوز وبعدما أحس بمشاركته الحياة البائسة والعذاب والشقاء، ارتاح له بالرغم من أسلوبه الغريب، وأمل أن يكون الحل لمشكلته، فقص عليه حكايته بدون أن يتكلف اسلوبًا ويصطنع زخرفة، ثم قال بصوت يحمل حزنه وعذابه وآلامه:

- جعلتني حياتي هذه، أفعم الناس بالهم قلبًا، وأشدهم كربًا. إنني بماضي لا انظر إليه إلا مُكرهًا، فما في الحاضر أمل أتعلق به منشغلًا، ولهذا ما الحاضر لي إلا ذاكرة تعرض شريط مصور ممل، مخزي، محبط، لا حياة فيه ولا معنى ولا قيمة. ما أعجب الناس يشتكون من أمالهم وأهدافهم وما يجدر بهم الشكوى. نعم أعجب منهم، فكيف للإنسان أن يشتكي من مؤنساته. إنني لا أعجب من أمالهم حتى لو كان يلزمها المعجزات، وحتى لو كانت جسدية الملذات، وحتى لو غلبت عليها التفاهات، بل أعجب من تذمرهم بحيازتها والسعي في سبيل تحقيقها، حتى في حال كانت النتيجة غير مأمونة العواقب مسبقًا، ومهما كانت لا تجلب منفعة ولا تدفع مضرَّة. نعم لا بد

أن يكون السعي لتحقيق الآمال والأهداف مفرحًا سارًا مبهجًا مريحًا أو على الأقل ملهيًا وشاغلاً، فوجود طريق يمكن السير فيه، يوقف عرض ذلك الشريط الذي يُعرض باستمرار، سواء كان ذلك الإيقاف لحذف من مقاطعه أو لإضافة. إن أتعب خلق الله من بات غير أمل، فلا ليل يطالبه بإراحة جسده للغد، ولا صباح يُطمعه بالصحو فيه، فلا هناء له بصباح ولا مساء. إن عيون غير الآمل تطرق متسولة، بابي القلب والعقل، فتستعطف القلب بكلماتها قائلة: ألم يأن لك أيها الرحيم أن تعطف عليَّ بتعلقك بشي؟ ماذا حدث لك، من أين لك القسوة وأنت مصدر للرحمة، من أين تعلمت التجافي والإهمال وعدم الاكترات وأنت منبع التعلق والهيام! أين تلك الرغبات التي كالإعصار فعلًا وكالرعد صوتًا؟، وتطرق باب العقل، لا مُستعطفة، فالعطف ليس من سماته، وإنما قاصفة إياه بكلمات حكيمة، بالقول له: إذا لم يكن لحكمتك لحظة، ألا يفترض أن تكون هذه هي؟ ما نفع حكمتك إذا لم تكن في الشدة قبل الرخاء، وفي القنوط قبل الرجاء؟، هيا أعطني، يا من تعودت منه المنع والحرمان، هيا تشجع يا من تعودت منه الجبن، هيا تمرد يا من تعودت منه الخضوع. إذا لم يكن لك سلطان على القلب في ضعفه، فهل سيكون ذلك في قوته! هيا يا من أحببته بلى عمل لاستحقاق المبادلة، هيا يا من بايعته على الطاعة والنصر، فلا طاعة قدمت ولا في نصر عاونت. هيا أعطني لا بأمر مني، فأنت سلطاني، وإنما بأمر حكمتك التي قادتني إليك ذليلًا. فلا عقل يجيب ولا قلب يرحم.

مسح بعض من دموع القهر التي أحرقت خدَّيه، ثم عاد يقول:

- والآن بعدما رويت لك حكايتي، وأطلعتك على مشاعري ومعاناتي، هل أجد عندك لمحة لطريقي؟

أجاب المسن بعد استماع طويل بغضب:

- يا لك من أحمق، هل اعتقدت حقًا أن في هذا العالم حكمة قادرة على منحك هذه اللمحة؟ أيها الأحمق، هذه اللمحة يعيش الناس حياتهم كاملة في البحث عنها مُضحين بأوقاتهم وأصدقائهم وملذاتهم وأموالهم وعلاقاتهم وصِلاتهم، وكل ما يحوزون، وأنت تطلبها ببضع كلمات. اذهب أيها الأحمق، وابحث عنها بعيون الصقور، لربما تجدها في قمم أحد الجبال الشاهقة، اذهب وابحث عنها في عمر حوت البحر لربما تجدها في أعماق تاريخه أو أعماق محيطه، اذهب وابحث عنها بتفحصك لكل قطرة ماء فربما تجدها في مكان ولادة إحدى القطرات، اذهب وتأمل الصحراء لربما تجدها في ترحال رمالها، اذهب وتحدث إلى إنارة غرفتك وعتمتها، فلربما تبوح لعينيك بها، اذهب وتأمل تجاعيد قوام إحدى النخلات فلربما تجدها هناك متخفية، اذهب وتأمل القمر بدرًا، ستجد في بعض أجزائه عتمة، لربما تجدها متخفية هناك. انطلق أيها الفتى في حياتك طامحًا بتلك اللمحة، فلربما تكن الحياة أكثر كرمًا معك من كثير من الطامعين. لا تخشى إصدار الضوضاء في بحثك واجتهادك فالقلب في اجتهاده

يصدرها. لا تكترث لمن يتأذى من انفجارك، فالبركان لا يأبه للضرر الذي يحل به. احمد الله يا فتى أنَّك لم تقل (لربما تريني طريقي) لأنك لو تجرأت على قولها، لانقلبت صداقتي لك عداوة، وحبي كره، وتعاطفي غضبًا وشماته.

قال عمر متعجبًا مما سمع، ومحاولاً إنكار الصعوبة ليوقف تعاظم بؤسه:

- أتعتقد يا سيدي، أنني سأكون راضي في حال كانت اللمحة فقط مكافئة الحياة لي بدون أن تريني طريقي كاملاً وتدعني أسير فيه للنهاية!

- أيها الأحمق، تكمن سعادة الناس في جعل هدفهم هو سعيهم، لا في جعل سعيهم لهدفهم. أيها الفتى، الناس لا تطالبهم أهدافهم بغير المسير، ومن جهلهم لا يطالبون من أهدافهم غير التحقق ولا يطالبون من أنفسهم غير الوصول، والنتيجة أن لا لقاء. ولهذا استمر بالمسير حتى في حال لم يكافئك بحثك عن الحقيقة باكتشافها وتبنيها، فإنه على الأقل سيكافئك بنفي توهمك بحيازتها. لربما أنت غير قادر على البحث لنفسك عن هدف لأنك لم تبحث من قبل عن نفسك كهدف. حياتنا أيها الفتى، رحلة صيد للحيوان القابع في نفوسنا. اصعد واستعير من نار جهنم بعضًا من لهيبها، لربما يساعدك ذلك في الإسراع بحرق ذواتك التي لم تساعدك برودة نار الدنيا على حرقها. أيها الفتى حماسك ويأسك وبشاعة عالمنا سيدفعونك للسعي في محاولة تغيره، وأحذرك من الإقدام على فعل ذلك قبل إحلال التغيير فيك. عليك تقوية نفسك لتتفادى أن تُصنع هويتك من قبل ظروفك، فلا يكون الجوع خالقًا للجائع فيك ولا يكون التشرد خالقًا للمتشرد فيك. يجب أن تعزل ظروفك عن عملية الخلق، يجب ألا تكون هويتك رد فعل. أيها الفتى، إننا نتشارك هدف الخلق لكن لا نتشارك وسيلة التحقيق فاسعى لاكتشاف وسيلتك. اقتحم الحياة لا منتظرًا لعطائها، فالحياة لا تعطي إلا لتأخذ. عش لنفسك، واعلم أن معظم البشر يعيشون لغيرهم، لا لأنهم لطفاء بل لأنهم عاجزون عن العيش لأنفسهم. موجود القمر ليُعلمنا كيف نعتزل، فلنترك له المجال للقبول بك أنيسًا له.

- يا سيدي كلماتك تتماطر عليَّ كما تتماطر مطرقة على مسمار لم يستهدف شيئًا لاختراقه. كم سرقت كلماتك ما تبقي لي من ثقة ببعض ما أعلم، وكم أدخلت من شك بكفاية ما تبقى من حياتي لرؤية هذه اللمحة!

قال المسن وهو يهم بالانصراف:

- تذكر أيها الفتى، قد يكون معظمنا ساهم في البناء من حطام الأخرين، ولكن قليلون أولئك الذين استطاعوا البناء من حطامهم.

وأخذ بالابتعاد بدون التفات وبدون رضوخ لتوسلات عمر له مزيد من الإيضاح والنصح، وهو يُحدِّث نفسه بصوت بالكاد يكون مسموعًا قائلًا "لقد أكثرت النصح، لقد أثقلت عليه، لقد دفعني حماسي للخطأ"

جلس عمر بعدها يقلب في رأسه كل ما سمعه من كلمات ألغزت وبينت نطق بها المسن، وقرر حينها الدخول في عزلته التي امتدت لسنتين والتي كان لها أثر عظيم على حياته ومعتقداته وسلوكياته ونفسيته ومزاجه واهتماماته، والتي كان خروجه منها لصدفة أوقعته في صداقة مع إبراهيم وميار، والتي بدروها أيضًا أحلّت مزيدًا من التغيير الذي أحدثته فيه عزلته.

***

فرغ السيد شوقي وميار بعد خمس عشرة دقيقة من الاستقبال والترحيب، وجلسوا مع ضيوفهم الذين كانوا يتحدثون مع بعضهم أزواجًا وجماعات في مواضيع عديدة، فكانت تلك اللحظة بمثابة اتفاق من الجميع على الاجتماع على موضوع واحد، يُبدي فيه الجميع آرائهم وتطرد به الأحاديث الجانبية.

كان النقاش والحوار المثار آن ذاك هو محاولة للإجابة عن أسئلة عديدة منها "كيف يمكن الحيلولة دون أن يكون توسع اللغة بمفرداتها وأساليبها وتراكيبها مؤثرًا بشكل سلبي على الإنجازات الأدبية والفكرية والعلمية التي اعتبرت لغتها بأسلوبها ومفرداتها وتراكيبها قديمة؟ كيف يمكن الحيلولة دون أن يكون الموروث فاقدًا لقيمته وعناصر جذبه وللاهتمام الذي يستحق؟"

توصلت الغالبية بعد طول نقاش وموازنة للعواقب وتبادل في الحجج والبراهين، إلى أنَّ الثبات على الأساليب والمفردات والتراكيب الكلاسيكية، كأسلوب للحفاظ على الموروث أثبت فشله، بل كانت أيضًا نتيجته عكسية، وذلك بنفور أسرع للناس من القديم. ولهذا رأيت الغالبية أن الخيار الوحيد المتاح هو الإسراع بنقل الخلاصات من الموروث المهدد بلغته، سواء كان الأدبي أو الديني أو السياسي أو الفكري أو العلمي، بأساليب وتراكيب ومفردات معاصرة تحفظ بذلك جهود السابقين المبذولة في خدمة البشرية، وتجنبهم أن تكون لغتهم سبب في ضياع جهودهم. ولقد استنتجوا أنه بنبذ اللغة الكلاسيكية أصبحت القيم جميعها بحاجة إلى التأسيس والكشف عنها من جديد، وعليه فاللغة المعاصرة لغة بحاجة إلى نقل القيم التي تم الكشف عنها باللغة الكلاسيكية، فالحاجة المتزايدة لكثير من المفردات إلى التعريف، جعلت الحاجة متزايدة إلى كثير من القيم والتعاليم والعلوم والفلسفات والأفكار والتجارب، إلى الكشف عنها من جديد.

ثم انتقل الحضور بعد ذلك إلى الاستماع إلى بعض القصائد الحديثة للشعراء الموجدين بينهم، والتعليق عليها، وما إن انتهت هذه الفعالية حتى نهضت ميار ومعها صديقاها وأخذوا بتقديم العصائر والقهوة والحلويات، وما إن فرغوا حتى عادت الأحاديث الجانبية بين الحضور وانحل اجتماعهم على موضوع واحد، فانشغلت ميار بالحديث مع من قامت بدعوتهم من زملاء، وانشغل إبراهيم بالتعرف على جديد زميله، وغرق السيد شوقي في نقاشات محتدمة مع أصدقائه.

كان عمر جالس وحيدًا في أحد الزوايا، وقد تمكن من السيطرة على اضطرابه، يستمع لأحد الحضور الذي كان يشتكي لرفيقه متأففًا ومتذمرًا بالقول: " تسألهم عن إنجازاتهم فيشيرون إلى أنهم يأكلون أفضل المأكولات، ويقيمون في البيوت ذات التصميم الأحدث، ويمارسون الجنس مع الأجمل والأغنى، ويقتنون ما يرغبون ، ويدخلون قوائم الأجمل والأكثر متابعة، ويحصِّلون أموالاً أكثر، فتكرر السؤال ظنًا منك أنه أسيء سماعك، فتلقى ذات الإجابة، ثم تكرر السؤال بصيغة أسهل للفهم ظنًا منك بغموض سؤالك، فتلقى مجددًا نفس الإجابة، ثم تصحب السؤال بذكر أصحاب الإنجازات كمثال وكمسار مرشد للإجابة، فتلقى منهم سؤالاً مصحوبًا بالتعجب والنفي هدفه، فترتسم تعابير الصدمة والحزن على وجوهنا، وعندما يقابلوننا صدفة مجددًا يسألوننا عن سبب حزننا. ما أبشعك وأوقحك أيها الجهل!" فتسبب استماعه للتذمر والتأفف والآهات التي كان يطلقها من يجاوره في غضبه وتعاظم استشعاره ببؤسه وحزنه، ليترك مكانه ويذهب للجلوس بجوار أحد النوافذ بعيدًا عن الحضور باحثًا عن السماء ليستنجد بها. لقد كان سريع التأذي، أقل الكلمات وأبسط الأحداث قادرة على التأثير فيه وتجييش عواطفه وتعظيم استشعاره ببؤسه وآلامه ومعاناته.

كان إبراهيم في تلك اللحظات قد عرَّف زميله على ميار، وكما هي العادة وكما غيره، أعجب بها إعجابًا شديدًا. بعد التعرف ساعدته شخصيته على الانسجام معها ومع زملائها في الحديث..

بعد مرور وقت على تلك الحال، اقتنصت ميار عمر وهي واقفة بين الجمع الذي التف حولها، وهو جالس بمفرده، فاعتذرت ممن حولها على اضطرارها لمقاطعتهم بانصرافها، ثم اتجهت نحوه، وعند وصولها إليه وضعت يدها من الخلف على كتفه وهمست بأذنه قائلة:

- محظوظة تلك السماء بنظراتك وباهتمامك.

فوقف بسرعة وقد اجتاحه اضطراب شديد بوقوفه معها بمفرده، ولخطئه غير المقصود بعدم الوقوف لاقترابها منه نتيجة انسجامه بتأمل السماء، ثم قال:

- أعتذر، لم ألاحظ اقترابك.

- لا داعي للاعتذار يا صديقي.

- هي وسيلتي للهروب، لذلك أنا محظوظ بها وليس هي المحظوظة بي.

- من ماذا تهرب يا صديقي؟ إذا كان هناك ما يخيف، لماذا لا تقاوم؟

أربكه سؤالها الأول فتفادى الإجابة عنه، وأجاب عن السؤال الثاني قائلًا:

- الهروب هو وسيلتي المتاحة للمقاومة الآن، أرجو أن أحوز غيرها لاحقًا.

- أرجو لك ذلك. السماء يا صديقي، أجمل في حال لجأ الإنسان إليها مطمئنًا.

- لا بد أن تتاح لي الفرصة يومًا ما لتجربة ذلك، حينها أعدك ألا أفوتها.

ثم جلسا متجاورين وأخذت تتأمل السماء معه.

كان في تلك اللحظات يُحدِّث نفسه بل كان يُحدِّثها بدون أن يُسمعها، فيقول: "في كل خطوة ستخطوها قدماكِ، وفي كل حركة تقوم بها يداكِ، وفي كل منظر تلاحقه عيناكِ، لن يعلم أحد أنني أتبعك، فأنت أمامي ولا أحد خلفي، فشهيقي وزفيري لم يتركا للمتلصصين ما يعتاشون عليه، فلقد تركت لهم الموت اختناقًا، وتركت لنفسي الاختناق والموت حبًا"

بعد دقائق قليلة من التأمل معه قالت:

- هي جميلة أيضًا بالهروب.

أخذ قلبه يخفق في صدره خفقانًا من قوته تكاد تكون دقاته فاضحة لمشاعره تجاهها، فسأل محاولاً تغيير الموضوع لكيلا يضعف بحديثه عن السماء، فتفلت منه إشارة تُفهم منها أنها أحد أسباب هروبه:

- ما رأيكِ في المواضيع التي نوقشت والشعر الذي تم إلقائه؟

- لقد كانت المواضيع مُلحَّة، والنقاشات مثمرة، والشعر مُطرب، والحضور جميعهم في مستوى النقاش، وترتيباتنا موفقة.

كان إبراهيم قد لاحظ انفرادهم بعدما سأله زميله، عما إذا كانت العلاقة بينهما مقتصرة على الصداقة أم ممتدة إلى الحب. بعدما أكد له أنها مجرد صداقة وتحجج أن الانفراد مجرد نقاش في حلول لعائق يشغلهما في بحث مشترك، توجه إليهما بسرعة، وعندما اقترب ارتكز بكتفه على أحد الجدران، ثم قال:

- هذه خيانة، هذه خيانة.

فالتفتا إليه، ليُشعر حضوره عمر بالأمان، ثم قالت ميار:

- لربما أنت تستحقها.

- قد يكون ذلك، وسنناقش هذا فيما بعد، ولكن الآن هيا بنا نقف مع الحضور، فتركهم والوقوف جانبًا يثير تساؤلات بين كثيرين أنا لست متواجد بينهم لدرء ظنونهم وإخبارهم بالحقيقة، وأيضًا ترك الحضور والوقوف جانبًا تصرف غير لائق.

شعرا بالحرج، ثم نهضا بسرعة، وانطلقوا للاختلاط بالحضور ومشاركتهم الحديث.

عند اقتراب الساعة من الواحدة كان الصالون يفرغ من الحضور تدريجيًا بعدما استنفذ جميع فعالياته، وعندما أعلنت الساعة عن الواحدة كان الصالون قد فرغ من معظم الحضور وبقي فيه قلة مقربة من السيد شوقي منهم مدير دار النشر الذي ينشر فيها السيد شوقي أعماله ومحرره وصديقه المقرب للتشاور والتفاوض معه حول إجراءات نشر روايته التي أعلمهم بأنه أوشك على الانتهاء من كتابتها.

كانت ميار وصديقاها جالسين في أحد الزوايا تاركين للسيد شوقي وأصدقائه شيء من الخصوصية في مناقشة أعمالهم، وكان يتواجد معهم زميل إبراهيم الذي كان دافعه للبقاء التعرف على ميار أكثر، والذي قرر الانصراف بعدما أحس بخطئه وشعر بالإحراج. شكر ميار على حسن ضيافتها وعلى دعوة أبيها له، وأخذ يجامل عمر بالادعاء بسعادته بلقائه، ثم اصطحب إبراهيم معه لإيصاله إلى عتبة البيت حيث يتبادل الناس الأحاديث الطريفة قبل الافتراق، وبعدما ابتعدا بحيث لا يمكن سماعهم أخذ يطلب من إبراهيم مساعدته بالالتقاء بميار مجددًا عن طريق دعوته لإحدى اللقاءات القريبة لهم معها، وبعدما وافق إبراهيم وبعد تلميحات وممازحات استهدف منها اعتراف بنواياه، أقر له بوقوعه في حبها وبرغبته بالتقدم للزواج منها.

عاد إبراهيم للجلوس مع ميار وعمر، بعد وعود قطعها لزميله ببذل أقصى الجهود، ثم قال مغازلاً ميار:

- جميلة بالرغم من الإرهاق البادي على وجهك، جميلة بالرغم من ليل تقضينه في البحث.

- لا شيء سيغيرك، ستبقي مشاغبًا طوال حياتك.

- انظر إلى يدها يا صديقي وهي تمسك الكأس، إنها كفوهة بركان قابضة على حممها ولكن بدون إحاطة.

ابتسمت ابتسامة مليئة بالرقة، ثم رجع وقال بلؤم وقد أشرقت نظراته:

- لا توجد مرآة تعكس صورتك بذلك الجمال، أكثر من عينيَّ وعينَي من بجواري، وعينَي ذلك العجوز.

أحس عمر بحرج شديد بعدما أشار إليه، فتعاظم قلقه واضطرابه، وبسرعة أزاح نظره عنها مخافة من التقاء عينيه بعينيها، فتبوحان بكل شيء. كان يتمنى في تلك اللحظات لو كان بمقدوره الاختفاء عن ناظريها، ودَّ لو أن الأرض تنشق فتقوم بابتلاعه.

لقد شعر بتلك اللحظة أن إبراهيم أفصح لها بهذا التلميح الخبيث، بحبه لها، شعر أنَّ سرَّه تم إذاعته، وتكتيكاته أصبحت غير نافعة، شعر كشعور عبد واقف أمام ربه يوم الحساب.

كانت تلك محاولة ملتوية من إبراهيم للفت انتباه كل منهما لمشاعر الآخر ونظراته، فلقد كان متحررًا من الإحراج من مغازلتها بزواجه وشخصيته العفوية أما عمر فقد كان متقيد بعزوبيته وبافتقاره للجرأة وبنظراته التي تحسن تعظيم صور من حوله وتبرع في تحقيره.

شعر إبراهيم بما تسبب به لصديقه فَرَقَّ لموقفه الذليل الغارق في الضياع، لكن لم يكن بمقدوره تدارك الأمر، فالرصاصة كانت قد انطلقت، ولكنه قرر ألا يستسلم من ألا تكون الرصاصة قاتلة، فقال مسرعًا محاولاً تغيير الموضوع:

- هل تكون الرواية القادمة للسيد شوقي عن الحب؟

أجابت ميار:

- أرجح أن تكون عن الحرب والحصار.

قال عمر بدون تفكير بعدما شعر بأنه مُحاصر بنظراتهم المطالبة بإجابة، محاولاً الإسراع في منحها لهما لتفادي ملاحظتها لأثر كلمات إبراهيم عليه:

- عن تحطيم القيود

ولكن إجابته لم تمنحه ما كان يستهدفه، فلقد أطالت نظراتهم إليه.

قال إبراهيم:

- لقد تنبأت أن تكون عن الحب لحديثه معنا اليوم عنه، وتنبأت ميار بأنها ستكون عن الحرب والحصار لأن مدينتنا تعاني منهما، والسؤال هنا: لماذا تنبأت أنها ستكون عن تحطيم القيود، وأنت تعلم أن الأدب ابن بيئته؟

أجاب بعدما أسند ظهره على مقعده محاولاً التظاهر بالثبات ومصطنعًا الهدوء:

- كانت إجابتي عفوية، لا أعلم سببها.

فقالت ميار مسرعة وكان قد ارتسم على وجهها ابتسامة منتصر:

- لربما هي ليست كذلك. فلربما لديك شعور يخفى عنك أن الحب والحرب والحصار جميعها قيود.

فانفجروا بالضحك، ثم قال إبراهيم:

- كم أنت ماهرة في قراءة البشر.

في تلك الأثناء كان أصدقاء السيد شوقي قد وقفوا للانصراف، فوقفت ميار ومعها إبراهيم وعمر مودعين إيَّاهم بعدما تلقوا إشادات منهم على ثقافتهم الواسعة وآرائهم المُقنِعة بالرغم من حداثة سنهم، وبعدما قدموا لهم بعض التعليقات والنصائح التي كانت تجاربهم تؤهلهم لتقديمها.

شرعوا بعد ذلك في عمليات التنظيف، وترتيب الأثاث، وكان السيد شوقي قد جلس على مقعده الهزاز في أحد الزوايا يقرأ جريدته التي حال جلوسه معهم في الصباح دون قراءتها، وما أن فرغوا، استأذنا بالمغادرة بعدما كانت علامات الإرهاق مرتسمة على وجه السيد شوقي وميار، ولكنهما قررا البقاء وتناول طعام الغذاء تنازلًا لإصرار السيد شوقي الذي كان قد طلب الطعام من أحد المطاعم قبل أن ينتهوا من مهمة التنظيف والترتيب، كي لا يترك لهم خيار غير البقاء.

وبعد دقائق قليلة، وصل الطعام، فتناولوه بهدوء نتيجة الإرهاق وهموا بعدها بالانصراف.

أخذ عمر بمعاتبة إبراهيم على الإحراج الذي تسبب له به، ليأخذ إبراهيم بالتحجج بعدم تعمده، بابتسامة ارتسمت على وجهه كابتسامة جندي راجع إلى وطنه بالنصر، ثم أخذ يهدد بعد تقديم الحجج التي لم تفلح في الإقناع قائلًا:

- إن بقيت على ما أنت عليه من الإصرار على عدم التقدم خطوة للأمام، فلتعلم أنني سأدفعك يومًا ما من الخلف.

- لن تجرؤ على ذلك.

- فلتحاول اختباري وسأثبت لك مدى جدِّيتي.

ثم أخذا بالتعجب والضحك من إحراج تسببت فيه ميار لأحد الشباب الذين حضروا الصالون، حين ردت عليه بحزم بعدما أثنى بسذاجة على جمالها، قائلة: "أعرف ذلك، فلدي مرآة لحسن حظي في غرفتي. ألديك موضوع مفيد نناقشه؟"

لقد كانت شابة هادئة رقيقة صبورة معطاءة متواضعة إلى أقصى الحدود، وفي ذات الوقت، ماهرة في وضع الحدود وتتقن فن النظرات التي تحمل لهجة اعتراضية على أولئك الذين يظنون أنهم حازوا الحق برفع الكُلفة بينها وبينهم، من مشاهدتهم لها تمنح صديقيها ذلك الحق.

ثم أخذ عمر يقول محاولاً التنفيس عن روحه المختنقة بقيود عاجز عن تحطيمها:

- يا صديقي، هناك جمال يُخزِّن في ذاكرة مستشعريه سعادة برؤيته، لكي يُستعان بها لحظة غيابه أو اختفائه من أمام العيون، أما جمالها فلا يخزن في ذاكرتنا مثقال ذرة من سعادة برؤيته، ليس فقط لأنه واثق من بقائه، وليس فحسب لأنه يسلب من ذاكرتنا قدرتها على التخزين، بل أيضًا لأنه واثق من قدرته على منح السعادة برؤيته من جديد. إن ثقة جمالها بنفسه، هي مصدر جحيمنا. إن عينيَّ برؤيتها تتجاهل المهام المُوكلة إليها من ذاكرتي، لتوفير طاقتها للإحاطة وعلى الرغم من ذلك تفشل بها أيضًا، فتجدني أتعذب بفشلها بالإحاطة وبذاكرة فارغة من سعادة يمنحه جمالها. جمالها يا صديقي ريشة رسام، وإزميل نحات، وقلم شاعر، وآلة عازف، يُشكِّلون همي. هي نور كنور النار للفراشات. كيف لكل هذا الخير، أن يكون سبب في إحلال كل هذا الضرر. احتراقي يا صديقي كاحتراق نجم لم ينل شعاعه ما ينيره.

في تلك الأثناء، طلب إبراهيم من عمر الدخول إلى بيته بعدما وصلا إليه، ليُشغله عن حزنه ويُخفف عنه استشعاره ببؤسه، ولكنه بعناد رفض ذلك، وأكمل مسيره إلى أن وصل لغرفته.

(6)

جلس عمر في غرفته يحاول إطفاء النيران التي أشعلتها ميار فيه، يحاول الفكاك من استشعاره الشديد ببؤسه ومعاناته، فكان تارة يمسك كتاب ليقرأ، فيجد نفسه لا يقرأ، وتارة يمسك فرشاته ليرسم فيجد نفسه لا يرسم. كان في اضطراب شديد، فكان قلبه كبركان عاجز عن احتواء حممه، كنيران لا تهدأ بالرغم من استنفادها ما تلتهمه، كسد عاجز عن احتواء مياهه، كأساس عاجز عن احتمال بنائه.

صمت بلسان ملجوم وجمال لاجم، وقلب متمرد يأبى إلا أن يُعبّر، فتغرق الكلمة بالصمت وتحترق بالقلب، فيتلقفها قلمه الذي كان محاولته الأخيرة للفرار مقتولة بقاتلين، ليدفنها في أوراق دفتره. لم تجدي الكتابة في مساعدته على الفرار. كان كتائه في صحراء يريد الحركة ولكن لا اتجاه له يتحرك فيه.

كان يبحث عما يحتويه، عما يُقيّده، عما يُغيبه، عما يُطببه، عما يقتله، عما يشغله، ولكن بدون أن يجدي البحث. كان كمن لا إله له ليرحمه، ليعطف عليه، ليمنحه. كان كأن الآلهة لم تعد تحوز شيء لتجود عليه، كأنها قد أفلست.

كان يتهم الزوايا ووضعياته وحركاته وتنقلاته في استمرار حالته، والتسبب في عجزه عن الفرار، فكان يتنقل بين زوايا غرفته محاولاً الانشغال وعندما لا يفلح ذلك معه في شيء، يأخذ بالاستلقاء هنا وهناك، ثم يجلس بوضعيات مختلفة، ولكن بدون جدوى.

كان كل شيء غائب عنه وهي وحدها الحاضرة، وبحضورها لا شيء بإمكانه الحضور، كأنَّ مكان الحضور ضيق، لا يتسع إلا لها. كان يحاول، ثم يحاول، ثم يحاول، ولكن لا تنجح المحاولات، وبالرغم من ذلك لا يتوقف، فعذاب المحاولة والفشل أهون عليه من عذاب حضورها. لو كانت محاولاته هذه في شيء غير الفرار منها، لوصل إلى كل ما يريد وحقق كل ما يرغب، ولكان إلهًا، ولكن لأن المحاولات لا تكون إلا بالفرار، بقي إنسان، بقي عاجز عن الوصول.

بعد ساعات أربع من العذاب، طرق إبراهيم على باب غرفته وأخذ يقول له من خلف الباب بصوت مرتفع:

- افتح أيها البائس.

فتح الباب بسرعة وعانقه، كأنه لم يلتقي به منذ سنين طويلة، وكان إبراهيم معتادًا على هذه الاضطرابات، فبادله المشاعر وتفاعل معه بكامل قدرته، وكان متفهمًا لتلك الاندفاعية التي كان يُبديها محتملًا لارتداداتها العنيفة التي كان يحاول احتواءها وتخفيف آثارها..

كانت الساعات الأربع التي أمضاها في غرفته يتعذب، مؤثرة على إدراكه للوقت من شدة العذاب، فشعر أنها سنين أربع. لقد ساهمت عواطفه المكبوتة والمتأججة بتشويش ملكاته العقلية تشويشًا حادًا. كان إبراهيم قد عاد لرؤيته بعدما شعر بالندم الشديد على تركه في حالته الصعبة، وبعدما تعاظم قلقه عليه، وأخذ خياله يرسم له مصائب ستقع. لقد كان يمنحه في حالات اضطرابه الشديدة، موضوع أو سؤال أو قضية فلسفية ينشغل بالتفكير فيها عن استشعار ألمه وتلمس بؤسه.

جلس إبراهيم معه في الغرفة وكان قد تعاظم قلقه عليه عندما رآه، فقد كانت حالته تزداد تدهورًا مع الوقت، واضطراباته تزداد حدة وعنف. فتعاظم ندمه على تركه وشعر أن وصوله كان حائلًا دون وقوع أمر خطير، شعر أن تأخره لدقائق كان سيكون كفيلًا بدفعه للإضرار بنفسه.

رأي إبراهيم أن دفع حواس عمر لاستقبال صور أكثر، قد يساعده في إخراجه من حالته، فأصر عليه على الخروج معه من غرفته التي تُميت الحواس، واصطحبه معه إلى شاطئ البحر، ليُعطي بصره مدى للانطلاق فيه، ناقلًا إياه من أمام جدران مدينته وغرفته التي أفقدت البصر وظيفته، وليمنح لسمعه أصوات الأمواج، وليمنح حاسة الشم لديه رائحة البحر التي تهرب في بعض الأحيان من الرائحة الكريهة لمياه الصرف الصحي التي امتلأ بها البحر، وليعطي لحاسة اللمس لديه بضع لطمات من نسمات الهواء الباردة، واستشعار بحرارة الرمال، وليمنح حاسة الذوق لديه طعم الذرة المشوية.

بعد مضى وقت ليس بالطويل على الجلوس على رمال الشاطئ الدافئة، بدأ عمر يستعيد بعض من عافيته، ولكي يتقدم إبراهيم في تحصيل مقدار من العافية أكبر له، أخرج من حقيبته رقعة شطرنج، وأخذ يقوم بترتيب أحجارها الإثنين والثلاثين، ثم بدآ بتحريكها على مربعاتها الأربعة والستين ببطء شديد نتيجة التفكير الطويل في التخطيط للهجوم والدفاع، والذي كان بسبب الانقطاع الطويل عنها.

لقد كانا يمارسان الشطرنج كثيرًا قبل التراجع عن ذلك والاتفاق على ممارستها يوم واحد في الشهر بعدما بدأت تبخل الممارسة عليهما بالدروس بالرغم من الوقت الطويل الذي يمنحانه لها، وأيضًا لانشغالهم في أبحاثهم الفلسفية.

بعد ثلاث ساعات كانا فيها غارقين في التفكير بالخطوات الصحيحة، استلقيا على الرمال وأخذا بتأمل القمر بدرًا فقد كان الطبق الذي يتناولان منه فاكهة الجنة وكان

لهما بمثابة ريشة رسام ترسم غيومًا كقصاصات ورق تحترق من أطرافها بشرر ممسك بها.

ثم أخذا بتأمل السماء والنجوم تملأها، فقال إبراهيم بعد انبهار بجمالها وعيناه ما زالتا تتابعانها:

- من يرى كل هذا التناثر يَهُن عليه التناثر الذي في حياته. إن عالمنا نحن البشر يا صديقي حائز على جزء صغير من الحقيقة بالتقليد. إن لهذه العزلة المطلقة للحياة الأرضية، الكثير من الرسائل الموجهة لنا نحن البشر، ولكن تجدنا نغفل عنها وأحيانًا نتغافل.

- كم هو جميل كلامك يا صديقي!

- انظر، على الرغم من انتصار النجوم في الإبقاء على شعاعها المُلوّح في النهار، إلا أنها لا تفصح عن نصرها إلا في الليل، هذا درس تمنحه السماء لنا في إعلان انتصاراتنا.

- كم أنت بارع يا صديقي في التقاط الرسائل الموجهة للبشر من غيرهم!

- ليس أكثر منك يا صديقي.

- الآن أنت تجامل.

اعتدل إبراهيم، ثم أخذ يحاول قراءة رسائل البحر، ثم قال:

- ما هي الأمواج غير تورمات تظهر على جسد البحر، جراء عقاب الريح. إن البحر لا يمل الخطأ لأن الريح لا تمل العقوبة.

- بؤسنا سببه أننا اخترنا أن نكون كالبحر والريح. البحر مثلنا نحن البشر، بالعقوبة يتعاظم خطؤه.

في تلك اللحظات كانا يتأملان كل شيء حولهما، يحاولان استنطاقه، كانا يبحثان عن أسرار الله في خلقه، يبحثان عن رسائل وجود الأشياء، يبحثان عن أسباب الوجود.

قال إبراهيم بعد لحظات عادا فيه للصمت بنبرة فيها الحزن والفرح واليأس والتفاؤل، كأنه كان راضي وغير راضي في آن واحد:

- هل نحن من اخترنا الاشتغال بالفلسفة أم الفلسفة هي من اختارتنا؟ كيف يمكن لمجال أن يبلغ هذا القدر من الاتساع! كيف لكل هذه الجهود المبذولة ألا تصل بأصحابها لبعيد!

- إن المشتغل في الفلسفة طوال مسيره، كالسابح في بحر متلاطمة أمواجه ليلته لا نجوم فيها ولا قمر، مياهه لا يابسة لها، يسعى لبناء زورقه فيه من حطام السفن التي لم تصمد بين أمواجه، وفي لحظة الانتهاء من بناء زورقه تظهر له السفن العملاقة، ويكون عندها، مخير إما بالركوب فيها، وتعظيم فرص النجاة، وإما المجازفة والمثابرة ببناء سفينته الخاصة.

- أحسنت الوصف يا صديقي. في الفلسفة الجهد الواجب بذله في دراسة قضية يؤكد على صعوبة اعتبار قضية ما مدروسة.

- خطر اليقين، أنه يمنحنا انتماء مطالب نصره، ولذلك لا أشقى من ذلك الذي بعثر يقينه في كل قضية ورأي وحكم ومعتقد. أنت وأنا يا صديقي نفضل شقاء الشك على شقاء اليقين، لهذا اختارتنا الفلسفة، والشك يا صديقي لم نقم باختياره، إلا لأنه يمنح انتماء غير مطالب بالانتصار له. هذه أجمل عطايا الشك التي جعلتنا نفضله. الفلسفة وحدها من تمنحنا الشك، الفلسفة مهمتها يا صديقي هي تحطيم اليقين الذي نبعثره في كل مكان.

- حقًا، لا يوجد أجمل من انتماء لا يطالب صاحبه بالدفاع ولا الهجوم انتصارًا له.

- إن الفلسفة هي هبة الله للإنسان.

- حقًا هي كذلك. لربما يا صديقي كانت ظروفنا أشد حكمة منا باختيار مساراتنا.

كانت النجوم المتناثرة في سماء تلك الليلة منتشرة بكثافة وتكاد تتلاصق ببعضها على غير عادتها، تكاد من شدة تقاربها لا تترك المجال لهما للتجول بينها، وكان القمر شديد التوهج، فكانت ليلة مستغنية عن ظلمتها، ليلة ليست كباقي الليالي، ليلة فريدة.

قال إبراهيم وقد أصابه عمر بالعدوى بحزنه:

- كم أود أن أخلع ملابسي وأنزل في هذا البحر القذر كباقي الأطفال. لقد كبرنا يا صديقي، بقدر لم يعد متاح فيه اصطيادنا من قبل اللحظات الصبيانية، فهل شخنا يا زمان؟

- بالفعل لقد شخنا يا صديقي. لقد جعلتنا ظروفنا مسنين بقدر كافي لرفض تسلية طفولية، نعم لقد اختفى الطفل الذي بداخلنا. ولهذا يا صديقي ينبغي أن ندرك أن ما نفاخر به بانتصاره على قدرة الأيام على سلبه منا، لم نعد في الحقيقة نحوزه.

- انظر يا صديقي، انظر، كأن المستقبل يترقب ما ستؤول إليه قراراتنا، لينقضَّ علينا بالتأنيب والعتاب والعقاب.

- لربما تكمن يا صديقي، قسوة الحياة فقط في تخييرها لنا. نحن عاجزون عن طلب كأس من الماء لذلك تمنحنا رغبتنا بالكثير، نهر متدفق يروي ظمأنا بالاستمرار بإسقاطنا من أعلى إلى أسفل. نحيا في عالم لا تحسن آلامنا العد فيه، في لعبة الغميضة، لهذا لا تلبث في اكتشاف مواقعنا التي تعجز ملذاتنا في الوصول إليه لإيجادها العد. ما هي اليقظة يا صديقي؟ هي وسيلة الإنسان لمعرفة عبثية أحلامه، وما هي الأحلام؟ هي وسيلة الإنسان في التعرف على عبثية أحداث يقظته. ما نحن يا صديقي، سوى لملمة لحطام السابقين وحطام للاحقين يُنتظر أن يتم البناء منه. إن الإنسان يكاد يكون ممتلئ بالقدرة على تدمير نفسه، وفي ذات اللحظة فارغ من القدرة على إصلاحها.

كانا هناك يبحثان في الكلمات عن فراغ يسير فيهما جارفًا كل ما يعتريهما، كان كل منهما يتمنى لو كان بمقدوره حيازة كل ذلك الفراغ الذي في الفضاء ليُدخله فيه حاصدًا معه كل المعاناة والبؤس والألم الذي بداخله. كان كلاهما يُحاول الكشف عن معاناته للآخر لعلها بالكشف تنتفي.

لاحظ إبراهيم أنه انزلق بأحزانه في ظرف غير ملائم، وأن الحوار انحدر لمستوى خطير يهدد بفتح الجروح، فقال بحماس محاولًا إعطاء دفعة معنوية لصديقه ببعض النصائح:

- أنت كالحالم باكتساب كل شيء والخائف من فقدانه. إن رغبتك هي سبب خوفك. اجتنب الحيرة يا صديقي في اختيار ما تريده لاجتناب خبث نفسك في المطالبة بكل ما هي مخيرة بالاختيار منه. تذكر يا صديقي، أن صدمات عدم النجاح تكون لتُعْلمنا أن جهودنا لم تكن كافية، وبالتالي فهي لإيقاظنا من توهمنا بالقيام بالمطلوب. انظر إليَّ مثلًا يا صديقي، فعلى الرغم من امتلاكي صفرًا إلا أنني بخلاف الناس أعترف وأفخر به، لانطلاقي منه لحيازة إنجازي الأول. علينا التعلم من تلك الغيمة الصيفية التي لم تتوقف يومًا عن تقديم خدماتها، ولم تضجر للحظة من عدم نيلها حقها من المديح الذي احتكرته الغيمة الشتوية. فشلك بالخضوع يا صديقي عوّضه بنجاحك في أن تكون حرًا، وتذكر عواصف نحن إن شئنا أن نكون. يجب علينا أن نهتف: هيا أيتها العثرات نحن مستعدون لاستقبالك، اغمرينا بقسوتك لكي يدفئنا الوصول بحنانه.

ابتسم عمر ابتسامة اعتراض وعدم موافقة، ثم قال:

- لربما جميعنا لم نخلق لنصل، بل لنحاول الوصول فقط.

- لربما سعادتنا في ذلك. ما هو الوصول، غير أنه نهاية للمتعة والكفاح والعمل. أليس الفشل فيه أسلم منه للنفس، أليس الفشل يُبقي أهدافنا بحيازتنا؟ اجعل نظرتك إيجابية لاستنتاجاتك، كثيرًا ما نصحتك بذلك. ستقل لي بأن ذلك خداع للنفس، وسأرد عليك كما العادة، بأنه لا ضير من ذلك طالما العائد أكبر.

ثم غرقوا بالضحك الذي كاد يخنقهم.

وفي أثناء تبادلهم الحديث حول السعادة،جذبهم مشهد لسيدة طاعنة بالسن تدعوا ربها، واقفة بالقرب منهما وهو تبكي من شدة خشوعها، وكان يبدو أنها لم تنتبه لوجودهما، فقال عمر معلقًا:

- عجيب زماننا على المؤمنين فنيلهم لنعيم الآخرة أصبح أيسر عليهم من نيلهم لنعيم الدنيا.

ثم عادا للضحك ولكن هذه المرة كانا يحاولان كتم أصوات ضحكاتهم مراعاة لقدسة المشهد القريب منهما، ثم قال إبراهيم:

- استقلال بعض رجال الدين تضحيات بعض المؤمنين، ناجم في الأصل عن استكثار المستقلل لتضحياته، واستقلال بعض المؤمنين عطاء الله لهم، ناجم عن استكثار المستقلل لعبادته. ولهذا كما قلت لك سابقًا يا صديقي اجعل "لا تمنن تستكثر" قاعدتك التي لا تزيغ عنها أبدًا.

- هي قاعدة جميلة بالفعل.

- للأديان يا صديقي فائدة عظيمة، ففي المقاومة الداخلية التي لها مرجعية دينية ضد بعض الأفعال التي تصنف كرذائل ومعاصي، ليس المهم الانتصار ،بل المهم المقاومة بحد ذاتها.

- تقصد أن هذا يتيح الفرصة للعودة لمقاومة الفعل المنهي عنه حتى في حال الاستسلام لمغرياته.

- بالضبط. إن الأديان تصارحنا بإعلامنا أن لا شيء أكثر ألمًا من تعاقب مستمر للذة، ولكن تجد الكثير من يغفل ويتغافل عن نصيحتها هذه. إنَّ الأديان تخبرنا بأن جاذبية الشهوة وإلحاحها ليس بالضرورة دعوة لنا لإشباعها، بل أحيانًا تكون دعوة لنا لمقاومتها، للإبقاء على استشعارنا باللذة.

- بالفعل، للأديان رسائل كثيرة نغفل عنها. جميلة حقًا الأديان.

- ولهذا يجب أن نتقبل ما هو ليس جميل بنظرنا فيها أو خارجها، أو إن كنا كرماء، نوجد لها مبرر تاريخي، لكيلا ينال بعض الجميل الذي خفي عنا الرفض. إن الجميل يستحق منا هذا التقبل لوجود ما نراه ليس جميلًا، وإن الحقيقة تستحق منا تقبل وجود ما يتصف بالزيف، مخافة من تصنيف خاطئ يُلحِق بعض الحقائق في قائمة الزيف.

- صحيح. وبالنتيجة يا صديقي، فتحديدي لما هو خاطئ من المفترض أن يمنعني لا أن يمنع غيري من إتيان الفعل، وكذلك الحال مع الجمال والحقيقة، فلكل فرد تحديده الخاص.

كانا مدمنين على التعليق على الأحداث والظواهر التي حولهم، والولوج إلى أبعادها وعواقبها ودوافعها، وعلى ربط أبحاثهم ونتائجها بكل حدث تقع عليه أعينهم. لم تكن هناك مساحة كافية في وقتهم للتحدث في مواضيع لا عائد منها، ولا دفع لخطر من مناقشتها، ولا إجابة عن سؤال في تناولها. كانا يصلحان بعضهما بتبادل النصح والمعلومات والملاحظات ونتائج الأبحاث. كانا إذا التقيا، التقيا بمخزون من المعرفة جديد، ليتبادلانه. كانا روح واحد بجسدين.

بعدما عادا لتأمل السماء وهما في قمة انسجامهم، مر مسرعًا فارس بحصانه من خلفهم ورشقهم بزخات من الرمل، أضحكت إبراهيم وأغضبت عمر، الذي قال بعدما هدأ قليلًا:

- لو أن الناس تركوا أجسادهم في منازلهم وقضوا مشاغلهم بظلالهم لعم السلام الكون.

فتسببت كلماته بضحكات أخرجت بضع دمعات من عيون إبراهيم، عجز أمامها عن عدم المشاركة في الضحك.

قال إبراهيم وهو ينفض عن وجهه الرمال:

- تحكم في نفسك يا صديقي، وتذكر أنَّ لا شيء في هذا العالم يستحق تأخيرنا عن صعود درجة أعلى من التزامنا بقانوننا الأخلاقي. لا تتح لنفسك التأثر بحادث بسيط في ظل تزاحم الحوادث التي تهدد الإنسان.

كان إبراهيم يدرك أن اندفاع البعض للغضب من حوادث لا داعي فيها للغضب، سببه عملية الكبت في الحوادث والظروف التي يكون فيها داعي للغضب، لذلك كان متفهمًا لاندفاعيته، ويحاول بقدر المستطاع احتواء ارتداداتها.

قال عمر بعد لحظات هدأ فيها تمامًا:

- إنك محق. عجيب سر هذه الروح الجميلة التي لديك أيها اللئيم!

- يا صديقي، ليس هناك ما هو أجمل من أن يتجنب الإنسان الشعور بأنه مظلوم ويبقي على استشعاره بأنه ظالم. أتساءل عن مظلومي لأداويه، وفي كل مرة أجد نفسي، فتجدني أداويها بإكسابها شعور الظالمة، فتبيت متشوقة ومتحمسة للغد الذي خُطط فيه توزيع الحب وتعويض الناس.

فقال عمر متعجبًا:

- في حياتي لم ولن أجد أحد يستطيع التعامل بخبث مع نفسه بقدرك.

- يا صديقي يقع على عاتق كل إنسان مسؤولية إيجاد حديقة خلفيَّة يُفرِّغ فيها ارتدادات ظروفه القاسية، فالحديقة الأمامية حديقة البسمات والأحاديث الطريفة والتسليات وشرب الشاي وتناول الحلويات، هي حديقة ليس من اللائق أن تكون مسرحًا للتقلبات المزاجية. يا صديقي في حياتنا هذه، هناك أشياء لا تستحق منا الصمود أمامها، ولكن هناك أشياء يكن الصمود أمامها هو الحياة بحد ذاتها.

- ما أصعب التمييز بينها يا صديق.

ثم نهضا للمسير على الشاطئ. كانت أمواج البحر تُقبل أقدامهم قبلة استحياء ثم تعود إلى الفرار كطفل، ورمال الشاطئ تبتلع أقدامهم ثم تعود لتلفظها بدون هضمها، وكانت بكثافتها تساعد جاذبية الأرض بإبقاء أقدامهم على الأرض ومنعها من الارتفاع، وكان ضوء القمر يمسح على رأسيهما مسحة استرضاء، ونسمات الهواء تداعبهم كأطفال، والأرض التي يمشون عليها واضعة لهما بين كفيَّها كحامل شمعة يحيطها مخافة أن تنطفئ، والسماء مُعلنة أنها سماءهم وحدهم.

أخذ إبراهيم يقول بعدما مر مجموعة من الأطفال بجوارهم:

- الأطفال هم صورتنا التي نعجز عن رؤيتها، ونتغافل عن رؤيتها فينا أحيانًا أكثر. نحن كالأطفال تمامًا رغبتنا بالشيء نفقدها لحظة الحيازة، ولهذا تلزمنا أحلام وأهداف لا نصل إليها أبدًا، تحقيقها يكون مستحيلًا.

فقال عمر بنبرة تبريرية حزينة:

- نعم هناك أهداف وأحلام كثيرة في هذه الحياة لا نرغب إلا بالتمتع بالتطلع إليها مع حذر شديد وعمل عنيد في تفادي تحققها، ففقط متعة التطلع تكفينا وترضينا. هناك أحلام وأهداف ينبغي ألا تتحقق أبدًا، لأن كونها حلم لم يكن إلا لأنها مستحيلة. هذه هي الأحلام التي أفضلها وأرغب بحيازتها دائمًا، هذه هي الأحلام التي تدفعني للمسير بدون انتظار عائد. إن سعينا الذي لا نفسده برغبة بالعائد، وحدها عيون الناس من تفسدنا بجعلنا نرغب به.

أدرك إبراهيم إلى من يشير للأحلام التي لا ينبغي أن تتحقق، فقال مسرعًا:

- لا، لا أوفقك.

- لماذا وللتو كنت موافقًا؟

- نعم فعلت، وها أنا أتراجع، فلا عيب في هذا. إنَّ أبرز احترام يظهره العقل للفكرة هو تقبلها عند تلقيها ورفضها بعد قليل من التفكير. يجب أن نحافظ على الطفل الذي في داخلنا وتدريبه على التمسك بدل نفيه. نحن بحاجة إلى أهداف فقط لنا القدرة على أن نصل لها. يا صديقي، جميعنا حدد له يوم للالتقاء بأهدافه، ولكن قليلون من يصرخون بوجه أهدافهم ويقولون: عذرًا لن ننتظر لأننا سنأتي....

التقط عمر سبب تراجعه فقال مقاطعًا:

- أيها المحتال، لن تنطلي عليَّ خدعتك.

ثم أخذ يضحك، فقال إبراهيم محاولًا تفاديه، متظاهرًا بأنه لم يسمعه، منتقلًا إلى نقطة أخرى أشار إليها في كلامه:

-ولكنني أوافقك على ضرورة السعي بدون عائد. يا صديقي، إن معظم الناس في عصرنا يرون أن الهدف من الحياة هو تحصيل الأموال وإنفاقها، وهم بنظري جميعهم مُستهلَكون، لذلك استمر بأقصى استطاعتك بتفادي أن تكون مُستهلَكًا في أحد الأيام.

في تلك اللحظات قرَّرا المغادرة لكي يتمكنا من النوم مبكرًا ليجددوا طاقتهم لأبحاث قد قرروا الشروع في إكمالها بدءًا من اليوم التالي.

في الطريق قال عمر:

- أحيانًا أشعر أنَّ الحالمين بغد أفضل، وحدهم من كان يومهم أسوء من أمسهم.

- إذًا أتمنى أن تزداد أيامك القادمة سوءًا، لتنال حلم أجمل وعمل أكثر في سبيل تحقيقه.

ثم غرقا في الضحك.

بعد الوصول إلى حيث يذهب كل منهما باتجاه، حددا الساعة السادسة صباحًا موعد للالتقاء للشروع بإكمال البحث المشترك بينهما، ثم تعانقا وسار كل منهما باتجاه.

التفت إبراهيم إلى عمر وأخذ يقول وهو يسير مبتعدًا بظهره:

- لا تظن أنني نسيت هديتك، إنني فقط أحاول العثور على طريقة لإدخالها وتقديمها إليك.

أكمل عمر مسيره بعدما أشار بيده غير آبه، وعندما وصل إلى غرفته استلقى على فراشه واستطاع النوم اختطافه بدون أدنى مقاومة.

***

بعد ساعات نهض منتفضًا من نومه فزعًا من أحلام مزعجة راودته تسببت لخياله باضطراب شديد ولقلبه بانقباض ثقيل وغم عنيف من فرط الجزع والذعر غير المبرر، كأنه أوجس شرًا سيقع في المستقبل، سرعان ما هدأ بعدما أخذ في تحليلها والبحث عن أهدافها والولوج إلى مقاصدها وتلميحاتها وأسبابها ومصادر صورها ومشاهدها بإرشادات وملاحظات فرويد. نظر إلى الساعة فوجدها تشير إلى الخامسة، فاستسلم لصعوبة التحليل وعجزه، ثم أخذ يرتدي ملابسه وبعدما فرغ تناول فطوره وخرج متوجهًا إلى منزل إبراهيم.

كانت أشعة الشمس القادمة من الشرق تحمل تحية الإنسان الشرقي كما هو الحال مع أشعة الشمس الآتية من الغرب والتي تحمل تحية الإنسان الغربي. كانت الشمس تُحصِّل دفء شعاعها بمروره على شوق الإنسان لأخيه الإنسان الذي أعاق التقاءهم الجدار، وكانت السماء رحيمة بمن هم تحتها بطردها للغيوم التي تقف كجدران أمام أبصارهم، وكانت الشوارع مليئة بالحطام والركام، كأنها تخبر الإنسان الذي يسير فيها بأن مصير الجدران التحطم، ولكن رائحة الإسمنت كانت تُكذِّب الشوارع وتُخبره بأن مصير من يتحطم من الجدران أن يتم بناءها مجددًا أكثر طولًا وأشد صلابة.

كان يتساءل وهو يسير متأملًا في أحوال الناس قائلًا: "لماذا لا يرفضون ويعترضون! هل عجزهم يُكسب ما يكرهونه حبًا؟ أيُعقل أنَّ رغبتهم بالحب والرضى لم تجد لها شيئًا متاحًا، فقررت أن تحل في الأشياء التي يكرهونها، لكي تُبقي على قدرتهم على الحب والرضى، لكيلا تتحجز قلوبهم من عدم إيجاد الحب شيء يحل به؟"

في تلك الأثناء وصل الشارع الذي يتواجد فيه منزل إبراهيم، فوجد الناس متجمهرين أمام باب منزله، فركض كالمجنون باتجاههم ليستعلم عن سبب تجمهرهم، وعندما سمع منهم خبر وفاة إبراهيم طلب المساعدة من حائط بجواره، ثم انهار ساقطًا على الأرض، جامد البصر، ساكنًا سكونًا تامًا، لا تكاد أنفاسه تُسمع، شاحب الوجه منقلب الهيئة غائب غيابًا كليًا.

كان الخبر صاعقًا له، فعملت ذاكرته كما تعمل مع من ينازع الموت، فلقد سردت له شريطه معه دفعة واحدة من لحظة الالتقاء أول مرة إلى آخر عناق، لتحميه من آثار الخبر المفاجئ. لقد خارت جميع قواه، ولقد شعر أنَّ شيئًا انتسف في داخله، وباختلاف كبير حل فيه، فلم يتعرَّف على نفسه. لم يستطيع التفاعل مع الخبر بالدموع والنحيب والولولة، فلقد استبد بقلبه كآبة هدَّته وبؤس حطمه وأسى فتته، فكانت روحه الوحيدة المتفاعلة بتمزقها، بدون أن يكون لجسده خيار أو فعل أو وجود.

تقدم نحوه أحد الأطفال وهو ممسك بزجاجة ماء، ثم فتحها وأخذ يمسح بمائها له وجهه ورأسه بيديه الصغيرتين، وساعده في شرب القليل.

لقد منحت أهوال الحرب الجميع صغارًا وكبارًا دروسًا في كيفية التعامل مع أهل الفقيد وأصدقاءه، وكان هذا الطفل كمعظم أطفال الحي الذين يحظون دائمًا بالسكاكر والحلويات والألعاب منهما.

ذهب الطفل بعد تقديم المساعدة التي لم تفلح، ليستنجد برفاقه، فجمعهم والتفوا حول عمر وأخذوا بمحاولة التخفيف عنه، ودموعهم منهمرة على فقدان صديقهم وعلى حال صديقهم الآخر الذي فتك به الخبر.

بعد دقائق وفجأة تحول عمر تحولًا، عجيبًا، مقلقًا، مخيفًا، فلقد كان قد طرد انهياره وحلت فيه قوة خفي مصدرها أنهضته، ثم تقدم نحو جثمان صديقه الممدد على فراشه، وراح ينظر لوجهه، المُشرق المُتفتح والذي ترتسم عليه ابتسامة تحمل سلام الكون، ثم أخذ يهمس في أذنه وهو يبتسم ابتسامة لم تمتد فيه شفتاه كثيرًا، كتلك الابتسامة التي تكون نتيجة خطط قد أُعدت بإحكام ولم يتبقى سوى تنفيذها الذي كان الشعور بالانتصار قبله، قائلًا:

- أيها اللئيم، ألم تقل أنَّ المتبقي لك ستة أشهر. لا بأس، أنا لست بحاجة إلى شهور ست، لكي أُشبع عينيَّ وقلبي وروحي منك. ألم أكن سأطمع بشهور ست أخرى، فلماذا أطلب ما لا يُشبع، وما لن أقنع بالحصول عليه. أموتك هو هديتك لي، أخلاصك مني هو هديتك؟ سألحق بك أيها الهارب قريبًا، وسنلتقي حيث أنت، حيث لا منفذ لك للهروب مني مجددًا، وحيث لا يمكنني أن أفقدك. تبًا للموت ومعاييره التي بها استحقاق نيله. لقد منحتُ نفسي استحقاق الموت بموتك، ولذلك لا داعي لأن يتأخر الموت في طلبي، لأنني أنا من سيطلبه.

بعدما منحه قُبلة على جبينه، ذهب يجلس في أحد الزوايا وأخذ ينظر بدون تعاطف للدموع المُنهمرة من أعين الناس، الذين يحيطون بصديقه، فكان كأنه ينظر إلى لوحة من أعمال رفائيل، وأخذ يستمع لعويل ونحيب الأطفال والنساء والرجال، كأنه يستمع إلى سيمفونية لموتزارت.

كان موت إبراهيم حدثًا صاعقًا، أفرغه من كل ما فيه من عواطف وأحاسيس وأفكار ومشاعر. لقد سُلب منه عقله وقلبه، فكان لا يستطيع أن يثوب إلى رُشده وأن يسيطر على نفسه، يتحرك بشكل لاإرادي.

في تلك اللحظات، كان لديه شعور بأن هذه المشاهد التي أمامه، تستحق أن تُقدَّم كلوحة والأصوات تستحق أن يستلهم منها مقطوعة موسيقية. لقد أحس أنه امتلك قدرة الرسام على إطفاء شهواته وعواطفه، وجميع حواسه إلا حاسة البصر، لكي يستطيع التقاط جميع الصور والتفاصيل الصغيرة ليُكوّن منها لوحة عظيمة كاملة المعالم، وشعر بأنه امتلك قدرة مؤلف الموسيقى على الغياب إلى عالم آخر ليلملم منه أصوات لمقطوعته الموسيقية، لكي يوجدها في عالمه البائس.

ثم أخذ يُحدِّث نفسه وهو ضامم إلى صدره قدميه، وواضع عليها يديه التي يسند بها وجهه الذي اختفى نصفه بين كفتيه قائلًا: "كم أنت عظيم أيها الموت! حقًا إنك لا تكف عن إبهاري وإدهاشي! إنك لأكثر الرسامين إبداعًا وأرق وأكمل الموسيقيين عملًا. إنك مدرسة لا تنضب دروسها. لا، لا تظن أنني أتملقك لتمنحني استحقاقًا بك، لأنك في الحقيقة فوق الوصف، نعم أنت مُتجلِّي عن الوصف، بل إنَّ وصفي ينقصك، لهذا هو مسحوب."

في تلك اللحظات الممتعة، شعر فجأة برغبة شديدة بالنوم، فنهض وبقي واقفًا لوهلة، كان يحاول فيها استراق آخر النظرات لوجه إبراهيم وجسده الممدد على السرير، محاولاً أن يمحي بخياله جميع من يلتفون حوله يبكونه ويعانقونه مودعين، ويعيقون رؤيته له، وبعدما نجح في لملمة أجزاء صورة حاول إكمالها بخياله، غادر متوجهًا إلى غرفته.

في أثناء مسيره في طريق عودته، شعر برغبة بالهروب، فجلس على رصيف أحد الشوارع، وأخذ ينظر إلى السماء، حينها لأول مرة شعر ببعدها عنه وبعده عنها، شعر بوجود خيانة متبادلة بينهما، شعر أن بينه وبينها مسافة لا يمكن قطعها، شعر أنه لا يحلق، أحس أنه واقف في مكانه عاجز عن الانطلاق منه، شاعر بما حوله.

كان عاجز عن الشعور لأول مرة بأنه أكسب بصره بعض من الحرية، كانت روحه لأول مرة تتعلق بجسده كأن حبًا كبيرًا نشأ بينهما فجأة، لأول مرة لم تكن لروحه القدرة على المغادرة، لأول مرة شعر أن أشد المطارق صلابة ستكون عاجزة عن كسر القيود التي تُكبله، لأول مرة شعر بأن عزلته مستحيلة فالازدحام يُلاحقه في كل مكان.

أخذ يتساءل قائلاً: "أيعقل أن ذلك اللئيم، بموته سرق قدرتي على الغياب، أيعقل أن يكون بتلك القسوة، وأنا بذلك الضعف والتعلق الشديد به؟"

ثم نهض وأكمل مسيره عائدًا إلى غرفته.

في أثناء صعوده سلم البناية، كان شقيقه ينزل متوجهًا إلى جامعته، فتوقف عندما شاهده في حالة إنهاك وذبول شديدين، ووجه قاتم، وإرهاق دفعه للاستناد على الحائط في أثناء صعوده، فحاول تقديم المساعدة بإسناده وحمل حقيبته، ولكنه تَلقى دَفعة مُستوقِفة لم تفلح في زحزحته لطوله الفارع وجسده الممتلئ وأكتافه العريضة.

تراجع عن تقديم المساعدة بدون أن يُلح في تقديمها لعلمه بما عليه عمر من عناد شرس ومزاج حاد وما يبديه من غضب عارم وبغض للجدال في قراراته، ثم قال له بنبرة غير مبالية متناسبة مع شخصيته البليدة بلادة حشائش على ضفتي نهر، وغير المتفاعلة في معظم الوقت مع الأحداث:

- ماذا بك، ماذا حدث، لماذا هكذا حالك؟

فأجابه عمر بعدما التفت إليه التفاتة لم يفلح في الوصول بها لعينيه، وكان يبدو عليه أنه فريسة لانفعال عنيف:

- مات إبراهيم.

فاجأه الخبر، ولكنه لم يفلح في التأثير على ملامح وجهه وتعابيره التي لا تحسن التفاعل أيضًا.

كان شقيقه بالرغم من السنوات الخمس التي يصغره بها، له بمثابة صديق أكثر من شقيق قبل اعتزاله وصداقته لميار وإبراهيم، فلقد كانا يتشاركان الأصدقاء والجلسات والحوارات والمنافسات الترفيهية وغرفة النوم، لتكون هذه الصداقة سبب في لحاقه بثقافته واهتماماته ليفقد عامل السن تأثيره على علاقتهم وتواصلهم وتفاهمهم، وليكون بذلك أحد أفراد صداقة الشمعات السبع. لقد كان بصداقته لشقيقه شديد الحرص على ألا يكون توافق بينهما في قضية أو رأي أو حكم أو اختيار، فكان مرتاحًا ومطمئنًا بمخالفته له، فلقد كان يريد لتطوره السريع، ألا يكون تطور مطابقة بل تطور من منطلق مستقل، فكان في معظم الأحيان يرفض تقديم المساعدة له، لتفادي أن تكون وسيلته وحلوله هي الوسيلة ذاتها والحلول نفسها التي يستخدمها، ونتيجة لهذا كانا على درجة عالية من التناقض، حيث كان يندر أن يلتقيان في اتجاه أو يجتمعان على رأي أو يتشاركان مصدر ما.

قال شقيقه بمشاعر غير مهتزة، كأنها مُقيدة ومُنتفية بحكم العقل، وفي أحيان كأنها مشاعر مُتوقِعة لما سيحدث، والتي كان عمر قد عبر له في وقت سابق عن إعجابه بها وغبطته عليها:

- رحمه الله، لقد عاش كصديق رائع حتى مماته، أرجو أن يكون حظِّي كحظِّه.

سكت لوهلة، كان يتأمله فيها، ثم عاد يقول ببرود شديد:

- غدًا تعتاد على غيابه أيها العاطفي. لقد فقدت كثير من الأصدقاء، ثلاث منهم في إحدى الليالي دفعة واحدة، ولم أفعل فعلك. ماذا يعني أن تفقد أحدهم؟ يعني أنك تخلصت من أعباء المشاركة العاطفية المُرهقة، يعنى أنك بدأت تحوز وقتًا لنفسك، يعني أنك غير مضطر لتلك التنازلات التي كنتَ تقدمها، باختصار يعنى الراحة والهدوء.

نظر عمر إليه نظرة كلها إعجاب، نظرة شعر بها بدونيته وعظمة من أمامه، نظرة كنظرة من هو واقف في الأسفل إلى من هم واقف في الأعلى ولربما يحلق، ثم أخذ يُحدِّث نفسه قائلاً: "هذا هو الإنسان الذي كان ينبغي أن أكونه"

قال شقيقه له متجاهلًا كل ما هو عليه من الإنهاك والانهيار:

- بما أنك عائد، أرجع حقيبتي معك، فوجهتي الآن تحولت إلى وداع من وددت أن أتخذه صديقًا لي.

ثم أكمل مسيره نازلًا.

أخذ عمر يُحدِّث نفسه في تلك الأثناء قائلًا: "أحملني حقيبته وأنا بهذه الحالة من الانهاك بدون تعاطف! إنه بحق إنسان". فزاد إعجابه به. لم يكن في تلك الأثناء متعجبًا من قدرته على استحضار ذلك القدر من الإعجاب في ظل حالته الصعبة، فلقد كان مقتنعًا أنه أمام إنسان عظيم. أخذ بالصعود مستندًا على الحائط، ولكنه توقف بعدما سمعه يُنادي، وأخذ يقول مُحدِّثًا نفسه: "يبدو أنني تسرعت في الحكم".

قال شقيقه وهو يبعد عنه بضع درجات وكان قد ألقى إليه بسترته:

- يبدو أن الجو معتدل اليوم، لذلك لا حاجة لي بها، أرجعها معك.

وبعدما نزل بضع درجات التفت إليه مجددًا، وقال:

- هل ستأتي لحضور مراسم الدفن؟

- لا أعتقد ذلك.

ورجع يقول مُحدِّثًا نفسه بعدما أكمل صعوده: "لا، لم أكن متعجلًا".

وصل غرفته، ثم استلقى على فراشه وعاد يُحدِّث نفسه بغضب قائلًا: "أيُعقل أنَّ كثرة الموت من حولنا هي من صنعت شخصيته، أم هي الطبيعة من منحته إياها؟ لا، لا. شخصيته هذه بجهده، هذه إنجازه. ماذا كنت أفعل طوال هذه السنين؟ لماذا كنت لاهيًا، في حين هو منشغلًا، لماذا ..."

كان واضحًا أنَّ وعيه الغائب لا يستطيع أن يستقر على شيء، فغط في نوم عميق، نزعه من حالة اللاوعي التي كان عليها.

(7)

استيقظ بعد ساعة غيَّبه فيها الحزن الشديد لحمايته من الكآبة الشديدة التي استبدت بنفسه الغارقة بالمحن في ظلام قاتم. كان النوم حينها قد منحه ذلك الحزن الذي بإمكان البشر احتماله، فمنحه عينين تنهمران منهما الدموع وأنفاس متقطعة وقلب يفيض بالحزن وروح مستشعرة لبؤسها. لقد منحه النوم الحضور، منحه مكان وزمان، وقصة حزينة، وشخصية بارعة في أداء دورها على هذا المسرح الذي لا جمهور له.

كان بود السماء آن ذاك لو كان باستطاعتها أن تربت على كتفه مهوِّنة عليه أحزانه، وكان بود الأرض لو كان باستطاعتها أن تضمه إليها كطفل رضيع تهزه لتطفئ بكائه، وكان بود الجدران أن يكون بإمكانها التراجع عن قسوتها عليه لكيلا تشاهد إنسان بتلك الحالة.

آن ذاك كانت الحياة تشعر بالندم على قسوتها عليه، تشعر بأنها ظلمته، تشعر بأنها تستحق العقاب، تشعر بأنها أخذت منه ما لا يمكنها تعويضه عليه.

كانت الكتب التي حوله تتمنى لو كان بحيازتها حكمة قادرة على تخفيف حزنه أو إطفاء بعض من حواسه للتقليل من استشعاره بالألم والحزن والبؤس، وكان قلمه المستلقي على ورقه يتمنى لو كان بإمكانه سلب الحزن منه ونقله إلى الورق.

كانت الملابس التي عليه تأن وتشكو فتقول: صنعنا ليلبسنا الإنسان لا حزنه وبؤسه، وكانت الدموع المنهمرة من عينيه تشكو فتقول: وجدنا لتمسحنا الأيادي، أما من أيادي باقية؟ إذًا فلماذا نوجد؟، وكانت أنفاسه المتقطعة تقول: وجدنا لنُميت البشر، لا لنُحييهم في حزنهم.

كان قلبه يقول: لعلي لم أوجد في هذا الإنسان لأفيض بالحب، بل لأفيض بالحزن، وكان عقله يُحدِّث نفسه قائلًا: وجدتُ لأمنح الحلول للمشاكل، فلماذا أنا الآن مشكلة لا حل لها؟ وكان جسده يئن ويقول: صنعت لأتحمل حزن البشر، فلماذا حزن الآلهة فيَّ؟

كان الكون يتساءل: وجد التناثر الذي أنا عليه لكي يوصل رسائل للبشر، فلماذا تناثر هذا الإنسان يُوصل رسائله إليَّ؟

كان الماء الذي بالزجاجة التي بجواره يتساءل: وجدتُ ليُجعل مني كل شيء حي، فلماذا ليس بمقدوري أن أمنح الحياة لهذا الإنسان؟

كانت الكلمات على دفتره تقول: هذه هي الحقيقة، نحن مجرد زيف وكذب وخداع. كانت عقارب ساعته تتساءل بألم وغضب: ما نفع الأرقام، ولماذا نسير عليها، ولماذا نوجد لهاتين العينين؟ فكادت تعلن تمردها.

كانت الشمس تتساءل بغضب: كيف يكون هناك إنسان لا يستفيد من شعاعنا، كيف يمكن أن توجد هذه الظلمة التي لا يخترقها أكثف شعاع؟ فكادت تغرب في غير موعدها، بنية عدم الشروق مجددًا.

كان الميزان قد لعن كفتيه وأعلن أن لا عدل في هذه الدنيا.

كان قد بقي له في تلك الأثناء منه بعضه، فاستجمع بعض وعيه، ثم استجمع بعض مما بقي لديه من طاقة، ونظر إلى ساعته، ثم نهض بسرعة ليلحق بمراسم الدفن.

وصل إلى المقبرة وبينما كان يمشي بين القبور محاولًا الوصول لمكان دفن صديقه، كان يُحدِّث نفسه قائلًا: "كل هذه قبور، جميع هؤلاء موتى، جميعهم نالوا استحقاق الموت! أه كم أنت قاسي عليَّ أيها الموت، أه كم تظلمني. لماذا لا تجعلني استثناء، لماذا لا تخطفني بدون استحقاق وترحمني"

بعدما وصل مكان الدفن، وجد الجميع كما هي العادة من ساعة الحرب يرتدون الأسود، بل الأسود يرتديهم. كان مصدومًا من المشهد الذي أمامه وأخذ يُحدِّث نفسه قائلًا: "ماذا حدث لعيون الناس، لماذا لا تبكيه بالقدر الكافي! ماذا حل لقلوبهم، لماذا ليست مفجوعة بموته كما يجب! لماذا عقولهم غير مُدركة أنه غاب عنها نورها!"

كان سكان المدينة في تلك الأوقات لم يمضي طويلًا على خلاصهم من حرب لم تُبقي ولم تذر، حرب سقط لكل عائلة فيها على الأقل قتيل، حرب لم تُبقي للعيون مزيدًا من الدموع، حرب فيها أصوات الانفجارات لم تُبقي في القلوب مساحة لغير الخوف الذي استوطن كل مكان كان متاح للحزن، حرب أزاغت العقول وتركتها بلى إدراك لما يدور حولها.

وقف بعيدًا عن الجميع، وفي أثناء الاستعداد لإنزال جثمان إبراهيم إلى القبر، أخذ يقول بصوت غير مسموع وعيناه مغرورقتان بالدموع "أنزلوه بهدوء، وأنتِ أيتها الأرض استقبليه بهدوء، احتضنيه بحنان، حافظي عليه من كل أذى. كم أنتِ أيتها الأرض محظوظة بصحبته!"

كان في تلك اللحظات قلبه يتقطع حزنًا، وروحه تختنق بؤسًا، فصورت له حالته إبراهيم وهو يتم إنزال جثمانه إلى القبر واقفًا يُلوِّح له، مبتسمًا ابتسامة كلها سلام، ووجه مرتسمة عليه علامات الارتياح.

فقال بعدما بادله التلويح بيده "وداعًا يا صديقي". فكان كل حرف نطق به يغرس في قلبه سهمًا ويزرع في عينيه نهرًا، ويصنع لروحه قيدًا.

بعد الدفن، وقف أحد أقاربه المتدينين بجانب القبر على مكان مرتفع، وبدأ يعدد أمام الحضور خصال إبراهيم الحسنة، ويُذكِّر بأعماله الخيِّرة، ويثني على ما قدمه في السنين القليلة التي عاشها، ثم أخذ بعد ذلك بلسان ديني يُحذِّر الناس قائلًا:

- أيها الناس، إننا ندخل إلى هذه الحياة ونحن لا نملك شيئًا، ونخرج منها بدون أن نحوز شيئًا مما طلبناه وحزناه فيها. انظروا إلى أصحاب هذه القبور، تفاوتت ثرواتهم في الدنيا، وها هم متساوون الآن في قبورهم. أيها الناس، العمل الصالح وحده ما يبقى لكم، فأكثروا من أعمالكم الصالحة، أحبوا بعضكم، ساعدوا بعضكم وتعاونوا وتضامنوا، فلن يبقى لكم شيء مما ترغب به أجسادكم البالية التي بها تتصارعون على كل لذة. حياتكم هذه حياة اختبار، فاعملوا لتنجحوا. أنتم تعيشون حياة مليئة بالنعم، فاحمدوا الله قبل أن يدرككم الموت. نحن بشر نخطئ ونصيب، لذلك لا تبرروا لأنفسكم بأخطائكم الاستمرار بارتكاب الخطأ بحجة أن هذه طبيعتكم وأن الجحيم قد كتب عليكم قبل ولادتكم. لا أيها الناس، الله لا يصنع مساراتكم، بل أنتم من تصنعونها، الله خيركم وهذا التخيير وحده من لا تستطيعون الفرار منه، ولهذا أحسنوا الاختيار، وإذا لم تفعلوا، عودوا لتحاولوا ذلك من جديد، فالله يحب من عباده أكثر، أولئك الذين يقاومون أكثر من غيرهم. أيها الناس إني أرى ما في هذه الحياة من شرور مبالغًا في وصفها، ما هذه الشرور إلا كظل متسببة به شمس عمودية، فخجلوا من ذنوبكم التي بلغت عنان السماء ولم تقابل إلا بذلك الظل"

ثم اعتذر للناس على الإطالة في نصحه لهم، ليأخذوا بعدها بالمغادرة تدريجيًا متوجهين إلي بيت إبراهيم لتقديم واجب العزاء.

بعد دقائق لم يتبقى غير ميار واقفة بجوار القبر، فتقدم عمر من الخلف ثم توقف بعيدًا عنها ببضع أمتار والدموع تترقرق من عينيه، وقال بصوت مختنق متألم فيه شكوى واعتراض معبر عن مرارة عميقة وظلمة حالكة وبؤس جاثم على الروح:

- لقد رحل بخبث، أليس كذلك؟

التفتت إليه، وكان كل منهما يحاول حبس دموعه، وقد ارتسمت على شفاههم ابتسامة تحمل من الحزن ما كاد يلغي كونها ابتسامة، تقدم نحوها وتعانقا، ثم جلسا بجانب القبر.

بالرغم من الحروب المتكررة والتي تحصد الآلاف من القتلى في وقت قصير، كانت القبور عاجزة عن دفع حدود المقبرة المُقيَّدة بدورها بمساحة المدينة الصغيرة وبالازدحام فيها، مما تسبب بتبعثرها وعدم انتظامها بخطوط طول وعرض وبتلاصقها وتداخلها، ليكون هذا سبب يدفع زوارها للمسير فوقها بدون قصد في أحيان، وبقصد في أحيان أخرى بهدف الوصول إلى وجهاتهم، فلم يكن لهم مسارات للمسير فيها. كان أحياء المدينة ينتصرون على إمبريالية أمواتها، فلا مساحة تكفيهم ليغُضوا الطرف عن طمع الآخر.

لم يكونا ينطقان بكلمات، ولكن كانت بينهم شكوى خفية متبادلة من حالهم لبعضهم البعض. كانا يتساءلان عن سبب قسوة الحياة عليهما، يبكيان بحرقة، يطلبان الرحمة. لقد كانت لحظات غارقة في الصمت، فقط أحزانهم وآلامهم من كانت تتكلم.

قال محاولاً كسر الصمت:

- من كان يظن أنَّ كل هذه الروح المرحة وكل هذه الفكاهة، ستكون سبب في كل هذا الحزن!

- لا أحد، بالتأكيد، لا أحد.

ارتسمت على وجهيهما ابتسامة ساخرة من الحياة، ثم قال:

- لم أكن أعلم أن له نكات محزنة.

- حتى بموته لئيم.

- انظري إلينا، لا أعتقد أن أحد سيقع بصره علينا بدون الاعتقاد بأننا متسولان.

ثم أخذا بالضحك، فاستغلت الدموع التي كانت محبوسة في عيونهم تلك اللحظة وانهمرت منها.

أردف بعدما مسح الدموع الهاربة بسرعة:

- كان سيقول لو كان بيننا الآن: انظر يا عمر، حتى في حزنها جميلة.

ثم عادا للضحك، وبعد ذلك رجعا للصمت.

كان عمر يشعر أن إبراهيم جالس معهما، فلم يكن معتاد بعد على رؤيتها وحده، فخلق له خياله صورة له بجواره. كانت لحظات وجودها أكسبه فيها قدرة على النسيان والتجاهل قادرة على نفي أحزانه لمكان وزمان بعيدين، قادرة على إيهامه بأنه عاش حياة مليئة باللحظات السعيدة فقط.

بعد لحظات من الصمت أحست ميار بتعب شديد، فساعدها على النهوض وخرجا من المقبرة،ثم استقلا إحدى سيارات التاكسي، عائدًا بها إلى بيتها، وعندما أوصلها واطمأن عليها استأذن منها للانصراف، بعدما قطع لها وعدًا بالعودة مجددًا في المساء، لكي تأذن له بذلك.

كانت بطلبها منه البقاء بالرغم من حالة الإنهاك الشديد التي كانت فيها والتي جعلتها عاجزة عن الجلوس وتبادل الحديث معه، تهدف إلى إبقائه بجوارها تحت عينيها لتضمن عدم فقدانها لصديقين في يوم واحد، فلقد شعرت أنه في حالة شديدة الخطورة عليه، قد تدفعه للإضرار بنفسه.

غادر متوجهًا إلى غرفته ليتفرد بأحزانه وتتفرد به، وبعدما وصل أمسك كتاب كلن لم ينهي قراءته بعد، ثم أخذ يقرأ، حيث كان في حالة قد أصبح بها قادرًا على الهرب بالقراءة، وبعد مرور دقائق أنهى سطورًا، وبعد مرور ساعات أنهي فصولاً، ثم نهض محاولاً الوفاء بوعده، وانطلق متوجهًا إليها، وما إن وصل حتى فتح له السيد شوقي الباب ولم يكن من عادته القيام بذلك، فبانت علامات القلق على وجهه، ليلاحظها السيد شوقي ويُسرع بطمأنته عليها، ثم الترحيب به وإدخاله.

كانت ميار جالسة في أحد زوايا الصالون، مقابل إحدى النوافذ، وكانت تتأمل السماء، فتعرَّف عمر على سبب عدم سماعها لطرقه وعدم ملاحظتها لوجوده، فاقترب منها من الخلف، وقال باسمًا:

- هناك من قال لي، أنني سأجد السماء أجمل في حال لجأتُ إليها مطمئنًا بدلًا من هاربًا، ولكنني أجده اليوم يفضلها هاربًا.

فقالت بعدما التفتت إليه متفاجئة بوجوده:

- لقد كان حينها مخطئًا.

- لربما لم يكن، فهذا الوقت يناسب الهروب لا البحث عن الجمال.

- بالفعل، هذا الوقت يناسب الهروب.

وأخذا بالضحك. ثم قال عمر:

- لا تقلقي لن أسألكِ مما الهروب، ولن أقول لكِ أن من الأفضل المقاومة.

- لقد أوقعت بي.

ثم عادا للضحك، وشاركهم السيد شوقي في ذلك على الرغم من عدم فهمه لسبب ضحكاتهم، فزال عنه قلقه على ابنته التي كانت غارقة في حزن لم يرها عليه يومًا.

لاحظ عمر على الطاولة التي أمامها أحد الكتب التي كان يبدو أنها لم تكمل قراءتها، فأمسكه وتعرف عليه بعدما قرأ عنوانه، ثم أخذ يناقش معها بعض من الأفكار التي يطرحها الكتاب، فلقد كان قد اطلع عليه من قبل، ثم ناولها إياه بعد نصف ساعة وقال:

- الآن فلتتركي السماء وشأنها، فلقد أثقلنا عليها، واستعيني بالقراءة للهرب.

ثم نهض للانصراف، فقالت:

- لم نجلس بعد.

ووافقها السيد شوقي على ذلك، فقال عمر:

- الآن اقرئي، ثم اذهبي للنوم مبكرًا، لأنني سآتي غدًا في الصباح وأصطحبكِ للذهاب لتقديم العزاء لنانسي، ومواساتها إذا كانت تجدي المواساة. أرجو أن تساعدها في ذلك يا سيد شوقي.

- بالتأكيد، بالتأكيد سأفعل.

رافقه السيد شوقي في خروجه، ثم قال عمر بعد التوقف عند عتبة باب المنزل:

- أرجو أن تكون خدمة الهاتف قد عادت بعدما توقفت بسبب الأضرار التي لحقت ببنيتها في الحرب. سأحاول الاتصال للاطمئنان.

- لا تقلق ستكون بخير، فرؤيتك خففت عنها.

- أرجو ذلك.

ثم أكمل مسيره عائدًا إلى غرفته.

***

استيقظ في صباح اليوم التالي بحزن ينخر في جدران قلبه محاولًا تمزيقه وبكآبة ثقيلة تجثم على صدره، وأخذ يحدق في صورة معلقة على إحدى جدران غرفته، جمعته بإبراهيم وميار، ثم راح يبكي منتحبًا على ما لحق به من خسارة وعلى ما آلَ إليه من بؤس وشقاء ووحدة قاتلة موحشة تستنزف قواه، وأخذ يقول بصوت متقطع مختنق: "لماذا أصبحتَ ذكرى أرجع إليها لأخفف بها استشعاري بقسوة الحياة، ذكرى تطوف في خيالي لترسم ابتسامة مرهقة بالحزن على شفتيَّ بدلًا من تلك الابتسامة المطمئنة التي كان يمنحها لي وجودك بجواري؟ لماذا عليَّ الآن أن أتذكرك بدلًا من التذكر معك، لماذا جعلتني أتعامل معها كأنت وأنا في ذات الوقت؟ لماذا أثقلت عليَّ بمهام لا طاقة لي باحتمالها؟ لماذا عليَّ أن أبحث وحدي، وأتابع وأحلل وأستنتج وحيدًا، وأصفق لنفسي بنفسي؟ لماذا عليَّ أن أضطرب وأقلق وأعالج اضطرابي وقلقي

بنفسي؟ لماذا عليَّ أن أرى كل هذا البؤس الذي حولي وبنفسي أتجنب الالتفات، لكيلا أنحاز وبالنتيجة لا أخطئ؟ لماذا تركتني لجدران أربع تعتصرني؟"

نهض من فراشه، ثم ارتدى ملابسه وانطلق لاصطحابها، وعندما وصل كانت لم تتجهز بعد، فانتظرها مع السيد شوقي في الصالون.

قال السيد شوقي:

- أرجو أن توصلا تعازيَّ إلى نانسي، وأبلغاها أنها إن احتاجت شيئًا، فإنني كوالدها، فلتطلب وستجدني في الخدمة.

- سأفعل، إن شاء الله.

- أرجو منك أيضًا أن تحاول إخراج ميار من حزنها.

- أرجوك لا تقلق لكيلا تقلقها عليك، فصحتك لا تحتمل ضغط القلق، وأعدك أنني سأفعل ما في وسعي.

كان السيد شوقي مدهوشًا من التغيير الذي حل في عمر بموت إبراهيم، فلقد كان يشعر على نحو متقطع بأن الواقف أمامه إبراهيم، فكان هذا التحول السريع مصدر قلق آخر له.

بعدما كانت قد استعدت للخروج بعد الانتهاء من تجهيز نفسها، سمعت طرقات على الباب تعجبت منها، فهي لم تكن على موعد مع أحد وكذلك والدها، فقال السيد شوقي وهو يهرول باتجاه الباب:

- لا تقلقا، اجلسا قليلًا، فالطارق يطلبني.

وعندما عاد، وجداه قد طلب الطعام لهما، ثم قال بعدما أوقفهما عن الاعتراض:

- اجلسا، هذا أمر، حالاً نفِّذا. من البارحة لم تأكلا شيئًا.

فجلسا معه وتناولا القليل على عجل تنازلاً لإلحاحه، وبعد الانتهاء خرجا منطلقين لتقديم العزاء.

عند الوصول استقبلتهما نانسي بدموعها، فلقد كانا للمرة الأولى يدخلا عليها بدون إبراهيم، وبدون أن يكون متواجد في المنزل، ثم سرعان ما مسحت دموعها وتماسكت، وهمَّت بإدخالهما وهي ترحب بهما فرحة برؤيتهما وهي تعتذر منهما على انهيارها أمامهما.

قالت بعدما جلسوا محاولة إصلاح الموقف بعدما شاهدت تأثر كل منهما بدموعها:

- كان ينبغي عليكما أن تذهبا لتهنئته على فكاكه وخلاصه مني.

ثم أخذوا بالضحك، وبعد ذلك نهضت وناولتهم أكواب من القهوة ورجعت للجلوس معهم.

قال عمر محاولاً الاطمئنان عليها:

- كيف أنتِ الآن؟ أرجو أن تكوني أفضل حالًا.

- من لحظة موته وأنا أفضل حالًا.

وأخذت تضحك.

لقد كانت تملك روحًا كروح إبراهيم تحب الضحك والفكاهة حتى في تلك اللحظات الحزينة البائسة، وكانت مثله، تبرع في إلقاء همومها وأحزانها وراء ظهرها، فكانت حياتهم الزوجية بالرغم من قصرها مليئة بالسعادة. كانا على درجة عالية من التفاهم والتوافق، فلم يكن حب إبراهيم لمغازلة النساء الجميلات والإشادة بجمالهن يؤثر على علاقتها به، فلقد كانت على ثقة كبيرة بأن قلبه يفيض بحبها ولا يتسع لسواها وكانت محقة في ذلك.

جلسوا في تلك الأثناء يتحدثون في مواضيع عديدة، وكانت على قدر عالي من الثقافة يُمكِّنها من إبداء أراء تبهرهم لشدة ما تتطلب من إحاطة للإدلاء بها، وحيازتها. لقد تعمدا إثارة العديد من المواضيع والقضايا السياسية والاجتماعية والفلسفية، لكي يشغلاها ويريحانها من التفكير بأحزانها، وقد نجحا في ذلك.

بعد مضي ساعات ثلاث، لم ينتبهوا فيها للوقت، نهضت نانسي وطلبت من عمر مساعدتها في إعداد سفرة الطعام التي أعدَّته لها شقيقتها التي تعمل كطاهية قبل الذهاب لعملها، بعدما أصرت عليهما على البقاء لتناول طعام الغذاء معها.

في أثناء التقاطه للأطباق منها، همست في أذنه بسرعة بدون أن تنتبه ميار قائلةً:

- متى ستطلب يد هذه الجميلة؟

تفادى إجابتها وأكمل مسيره، وقد تسببت بسؤالها باضطرابه.

بعدما فرغوا من إعداد المائدة، جلسوا يتناولون الطعام، وفي أثناء ذلك كان كلٌ منهم يُحدِّث بالمواقف المضحة له مع إبراهيم، فكانوا يضحكون أكثر مما يأكلون.

قال عمر بعدما انتهوا من تناول الطعام، وكان قد تذكر كلمات إبراهيم الأخيرة له، موجهًا كلامه لنانسي:

- أَذَكَرَ لكِ إبراهيم شيئًا عن هدية ما، كان سيقدمها لي؟

- لا لم يذكر. متى أخبرك بذلك؟

- في آخِر لقاء بيننا وفي أول لقاء بعد قدومه من رحلة علاجه.

ثم قال موجهًا كلامه لميار:

- ألم يخبرك بشيء عن هذا؟

- لا أذكر أنه فعل.

- أقدَّم إليكِ هدية بعدما وصل.

- لقد أحضر لي كتاب جديد، لعالم نفس معاصر كنتُ قد أبديت له إعجابي بكتبه وأبحاثه.

قالت نانسي بحماس بعدما نهضت:

- لماذا لا نذهب للبحث في غرفة بحثه؟

فقال عمر وقد شعر بالإحراج بعدما تدارك أن التوقيت غير مناسب لذلك:

- لا داعي لذلك.

وبعد إلحاح من نانسي، توجهوا إلى غرفة البحث الخاصة به، وأخذوا بالبحث عن الهدية طويلًا بدون أن يجدوا شيئًا، ليعودوا للجلوس في الصالون ويأخذوا بالتحدث في مواضيع مختلفة.

بعد حوارات قصيرة في مواضيع مختلفة استأذنا منها للانصراف، وأذنت لهما بعد محاولات عديدة لإبقائهم. رافقتهم إلى الباب لتوديعهم بعدما طلبت منهما زيارتها وعدم الانقطاع عنها بسبب موت إبراهيم. وبعدما ابتعد عمر بضع خطوات محاولاً إعطاء الخصوصية لحديث جانبي بينهما، سألت نانسي ميار قائلة:

- متى سيطلب هذا الوسيم يدكِ؟

وكما فعل عمر، تركتها ميار بدون كلمة واحدة، فقط بابتسامة ارتسمت على وجهها، ثم لحقت بعمر وركبا السيارة.

في طريق العودة أخذت ميار في التعرف على جميع اللحظات التي تحدَّث فيها إبراهيم عن الهدية من عمر، وفي التعرف على أصغر التفاصيل، لمساعدته في اكتشاف ما

كان يخطط له إبراهيم، وبعد طول عرض وفحص وتحليل، فشلا في التوصل لحل لهذا اللغز الذي تركه لهما، فاستسلما للصمت وأخذا بتأمل البحر من النافذة.

بعدما نزلا من السيارة، أوصلها إلى باب البيت، واستأذن منها للانصراف متحججًا بشعوره بالإرهاق، فسمحت له ودخلت إلى البيت. بعد ابتعاده بضع خطوات على حين فجأة سمع صرخة استنجاد أطلقتها ميار، فأسرع عائدًا، وبعد فتحها الباب أخذت تشير إلى والدها الساقط على الأرض مصدومة، فأسرع بطلب الإسعاف، ثم ذهب لتقديم المساعدة للسيد شوقي بإجراء الإنعاش القلبي الرئوي، فلقد كان نبضه متوقف، وما هي لحظات حتى وصل الإسعاف وتم نقله للمستشفى.

لحقا بالإسعاف بسيارة أجرة بعد محاولات طمأنتها وبعد صحوها من الصدمة، وعندما وصلا المستشفى أعلمهم أحد الأطباء بإدخاله غرفة الطوارئ، فجلسا على مقاعد الانتظار بجوار الغرفة، ينتظران خروج أحد الأطباء لطمأنتهم.

كانت ميار في حالة ذبول شديد، وكانت عيناها قد تورمتا من كثرة البكاء، وقلبها قد أُرهق بسبب ما حل فيه من خوف، بجانبها عمر يحاول تهدئتها وطمأنتها على السيد شوقي، ونتيجةً لمكوث الأطباء لفترة طويلة في غرفة الطوارئ انهارت وسقطت مغمى عليها، فسارع لمساعدتها وأخذ ينادي على الممرضين لمساعدتها، فتم نقلها إلى أحد الأسِرَّة، ومنحها بعض المهدئات.

كان عمر مذهولًا من حالة الضعف التي كانت عليها، متعجبًا من كيف لظهورها القوي الثابت المتماسك والذي مُعلن فيه النصر باستمرار وبارز فيه التحدي والثقة والحزم، أن يستحيل إلى هذا الحال. لقد كان غير مُتقبل لانهيارها، يكاد يُصرِّح باعتراضه ورفضه، ولكنه تحول لمُتقبِّل بعد دقائق احترق فيها من شدة تمرده المكبوت بعدما هدأ وأخذ يفكر ويبحث بعد إحالة رفضه وعدم تقبله لنقصه وعجزه عن الإحاطة لا لسبب جديد حل فيها، ليرى بعد بحث عن مبرر، عظَمة فيها لم يكن مُطَّلع عليها من قبل مُعللًا ذلك بقصوره وضعفه، عظَمة تتمثل في القدرة على التعبير عن الحزن والألم والبؤس الإنساني اكتشف بها مصدر التعاطف والحب والتعاون الإنساني. لقد أخذ يبرر موقفها وظهورها الذي كان مُعترض عليه في البداية، بعظيم اتساع قلبها للحب وضيقه للبغض، ليجد نفسه بعد التبرير مخطئًا نادمًا على الشك فيها والاعتراض على ظهورها، متعهدًا لنفسه بالقبول الدائم منها وعدم الاعتراض على ما يصدر عنها.

كان ذهوله في محلِّه، ولم يكن من المُستبعَد بعد استعادتها لوعيها وتماسكها أن يكون ذهولها أعظم، أن تكون مُستاءة حزينة شاعرة بالذنب والخجل والانكسار وبالحاجة إلى الاختفاء لظهورها الذي تكرر بعد موت إبراهيم، أن تكون غاضبة من نفسها أشد الغضب، فارضة على نفسها أعنف العقوبات.

لم يكن عمر يشعر بالغيرة من إبراهيم ووالدها، فلقد كان يحاول تحقير نفسه وطرد خبث نفسه في إيهامه بمساواته لكل منهما عندها، كان يتساءل بخوف وتردد وحذر واستنكار قائلًا: "هل يستطيع موتي انتزاع ظهورها هذا؟"، ليرجع ويقول معدلًا ومصححًا تساؤله بحزن وألم شديدين: "هل يستطيع موتي أن ينتزع الحق بظهورها هذا؟"، ليندفع للإجابة بغضب واستحقار واشمئزاز قائلًا: "لا، لا. من أنا لأحتل مكان مماثلًا في قلبها للمكان الذي احتله إبراهيم والسيد شوقي، من أنا لأكون عندها بهذه المنزلة؟! كيف لضعيف مثلي أن يمنح لظهورها الذي يُعلن في الإله قوته وعظمته إجازة؟! أرجوكِ ألا تمنحينني أنا العاجز عن المبادلة الحب، أرجوكِ ألا تزيدي من شعوري بدونيَّتي وتذكيري بضعفي، أرجوكِ اكرهيني. لا، لا تكرهيني، فأنا لا أريد أن أكون سببًا في فساد يحل في قلبكِ. نعم، لا تحبيني ولا تكرهيني، ضعيني بين حدود الكره والمحبة، لا تمنحيني الوجود بهما، فوجودي بهما مُستشعر بعبئه، بعبثيته.

أخذ طوال ذلك اليوم المرعب، المُمتلئ بالأحداث، يتنقل بين غرفة ميار وغرفة السيد شوقي الذي نجا من الموت مع بقاء وضعه الصحي مصنف كخطير، لحاجته إلى قلب جديد، استدعى الحاجة لنقله إلى الخارج لعجز مستشفيات المدينة بسبب الحصار عن تقديم هذا النوم من العمليات. ونظرًا لمكانة السيد شوقي التي صنعتها له إنجازاته الفكرية والأدبية وصلاته مع شخصيات سياسية متبوئة مناصب رفيعة في العديد من الدول، مُنح تصريحًا بالخروج بعد يومين، وكانت هذه التصاريح فريدة من نوعها لسرعة السماح لأصحابها بالخروج، ولكنها بطيئة طبيًا لتسببها برفع نسبة الخطر على المريض وفي أحيان التتسبب بمقتله.

كانت هذه الظروف قد فرضت على عمر إجراء تغيير على شخصيته المنطوية، فكان قادرًا على التعامل مع الناس التي حضرت للاطمئنان بعدما كان يرتعد من رؤية أية حشود مهما قل عدد أفرادها، قادرًا على العناية بالآخرين والاهتمام بهم بعدما كان متكلًا عليهم في رعايته والاهتمام به، قادرًا على احتمال الإنارة القوية التي حوله والحوارات السخيفة بعدما كان عاجز عن ذلك.

لقد كانت أعداد مصابي الحرب أكبر من قدرة مستشفيات المدينة على التعامل معها، فكان المرضى والمصابين يفترشون الأرض، لعدم توفر أسِرَّة كافية، ولكن نظرًا لمكانة السيد شوقي وصلاته خُصصت له ولميار أسِرَّة في غرف الطابق الخاص بالشخصيات المهمة.

قبل منتصف الليل بقليل توجَّه مدير القسم إلى عمر حيث كان يجلس بجوار سرير ميار، وطمأنه على صحتها وأعلمه بوضع اسمها كمرافق لوالدها، ثم أخذ بالتأكيد له على قدرتها على القيام بذلك، بعدما حاول الاعتراض على قراره بسبب حالتها.

عاد للجلوس بجوار سريرها بعدما ذهب المدير، وأخذ ينظر إلى وجهها نظرة أخيرة مُثقلة بالحزن، يحاول سرقة صورة لها لذاكرته، لكي يطبب بها نفسه في فترة غيابها.

كان يُحدِّث نفسه قائلًا: " بأي ذنب استحققت هذا العذاب؟ كيف يكون بمقدور كيان ضعيف تافه مثلي استفزاز الإله بهذا القدر الذي يدفعه لإلحاق بي كل هذا العذاب! لماذا أُجِّل الجحيم للبشر لبعد مماتهم وأُوجد لي قبل مماتي؟ كيف بإمكان هذا الجسم الصغير الذي في صدري احتواء كل هذا القدر من الحزن! كيف بإمكان هذا الجسد احتمال كل هذا القدر من الألم وهذه الروح احتمال كل هذا القدر من البؤس! لماذا تقع عليَّ السماء وحدي، وهي واقفة لغيري بدون عمد؟ لماذا تبتلعني الأرض وخطواتي عليها كدبيب النمل بينما لا تفعل ذلك مع من خطواتهم مُرعِدة ثقيلة! لماذا لكل إنسان شعاع يخترق عتمته، وأنا لي عتمة لا يخترقها أشد شعاع كثافة؟ لماذا عقرب ساعتي كلما تقدم نقلني إلى نار أشد سعيرًا؟ ما هو الهدف من هذا؟ لا، لا وجود للهدف، هي محض عبثية، هي محض فوضى."

استيقظت ميار من نومها وكانت المهدئات قد أنجزت مهمتها ثم قالت:

- كيف هو الآن؟

- لا تقلقي هو بخير، ووضعه الصحي مستقر. لقد خرج من دائرة الخطر.

- عمر، أنت لا تجيد الكذب، فأخبرني بالحقيقة.

- هو بخير الآن، فهدئي من روعك واطمئني بالًا وتماسكي لأن لديك مهمة غدًا.

- أسيحتاج للسفر للخارج؟

- نعم.

حاولت النهوض، للذهاب للمنزل لالتقاط ما سيحتاجانه، ولكنه أسرع فأوقفها، فقالت:

- اتركني أرجوك، لا وقت لدي.

- أنتِ الآن ارتاحي، واتركي مهمة تجهيز احتياجاتكم عليَّ. فقط اكتبي لي ما تريدينه وأنا سأحضره من المنزل.

- لن تستطيع.

- أنا أقوى مما تعتقدين، ثم إنها مهمة يسيرة مقارنة بمهمتكِ التي ستحتاجك قوية. أرجوكِ ارتاحي لتستعيدي كامل عافيتكِ.

- حسنًا أعطني ورقة وقلم، لكي أكتب لك.

ناولها ما طلبت، ثم جلس يتابعها وهي تكتب.

قالت وهي تكتب وعيناها على الورقة:

- أعتذر على ما سببناه لك من إزعاج.

- كم هي جارحة كلماتكِ يا صديقتي، ولكنها مغفورة لكِ بما أنتِ عليه. إنكِ تزعجينني عندما تحتاجين المساعدة ولا تطلبينها مني.

بعدما انتهت من الكتابة، طلبت منه تناول القائمة التي أعدتها، وفي أثناء محاولته سحبها من يدها وجدها قابضة عليها، فنظر إليها وهو ممسك بطرف الورقة وهي بالطرف الآخر، فالتقت عيونهم ببعضها، وبذلك الالتقاء كانت مشاعر كل منهما قد تعرت وتكشفت للآخر، ثم قالت بعدما أحست بارتباكه:

- شكرًا لك.

- لا داعي للشكر، الآن استلقي وعودي إلى النوم، لتنالي قدرًا كافيًا من القوة لمهمتكِ.

استمعت له كطفل مُطيع بعدما لم يتح لها فرصة للاعتراض حتى ولو بكلمة واحدة، وسرعان ما غطت في النوم الذي عادت المهدئات لتلعب دور فيه.

انطلق لإتمام مهمته، وعندما وصل البيت التقط بسرعة ما وجده في القائمة ليرجع إليها قبل استيقاظها، وفي أثناء استعداده لمغادرته، وقف وأخذ ينظر إلى الصالون الذي كان يجمعهم، ثم قال والحزن يُقطع قلبه والبؤس يُمزق روحه: "وداعًا أيها الصالون. لن أنسى لحظاتك الرائعة ما حييت، سأبقى محتفظًا بذكرياتك، بحنانك وعطفك وترحيبك وكرمك وجمالك"، ثم انطلق عائدًا إلى المستشفى بسرعة لقلقه المتعاظم عليهما.

بعد أن أمضى ساعات متنقلًا فيها بين غرفة كل منهما، كان فيها يحاول لملمة صورة للمستقبل القاسي، كانت قد حانت ساعة فراقهم، فقالت وابتسامة حزينة على شفتيها وقد كانت سيارة الإسعاف تستعد للانطلاق:

- سأشتاق لك يا صديقي.

- سأكون بانتظار عودتكِ. اهتمي بذلك العجوز جيدًا.

- سأفعل. أتمنى أن تُتاح لنا وسيلة للتواصل.

- أتمنى ذلك أيضًا.

تعانقا بعدما أُعلما باكتمال الاستعداد لانطلاق سيارة الإسعاف، فكاد يهمس في أذنها بحبه لها، ثم صعدت في سيارة الإسعاف وجلست بجوار والدها.

في أثناء وقوفه وهو يتابع سيارة الإسعاف تبتعد باتجاه الجدار، كان قلبه يتقطع حزنًا وروحه تختنق بؤسًا وتركض خلف سيارة الإسعاف مُلوّحة لميار مُودعة إياها راجية لها عودة سالمة قريبة. لقد فقد بسفرها كل فرح في القلب وكل بشاشة في النفس.

عاد إلى غرفته وما إن وصل واستلقى على فِراشه كجثة هامدة، حتى استبد به غضب جنوني، أخذ الدم يغلي في عروقه وأوداجه بالانتفاخ على إثره، غضب لا تمنحه الآلهة للبشر لكيلا يفنيها ويفني نفسه، غضب لا سبيل لإفراغه، غضب لا خلاص منه إلا بالموت. كان يلوم نفسه على قدَرِه القاسي البائس الذي جمع له جميع أصناف العذاب وأنواع الشقاء وضروب الأحزان والهموم، والذي كان بقراره بالخروج من عزلته الماضية، قراره الذي كان سببًا في تعرُّفه على أناس أحبهم ليفقدهم.

بعد انقضاء مدة ليست بالقصيرة بدون تراجع غضبه الذي كان ينهش في جسده وروحه، والذي أخذ يتعاظم كتعاظم أمواج تعجز الحواجز والسدود عن صدِّها، قرر معاقبة نفسه والحكم عليها بعزلة مطلقة تمتد لبضع سنين على جريمته التي ارتكبها.

اختار العيش بين جدران أربع يفصل بينها بضع أمتار على العيش بين جدران أربع يفصل بينها بضع أميال، اختار غرفته على مدينته.

الفصل الثانـي

جدران أربع يفصل بينـها أمتار

(1)

مضت سنوات سبع، احتوته جدران أربع بكل قسوتها وبغضها، واحتواها بكل حنانه وحبه، احتوته بالرفض واحتواها بالقبول، احتوته بقتله واحتواها بإحيائها. سنين اعتادت عليه الجدران بعد مقاومة، سنين تحول فيها لجدار ألفت وجوده الجدران الأخرى، فأصبح معها يقاوم نفسه، يقاوم ماضيه وحاضره ومستقبله، فشكَّل وإيَّاها عصابة فتَّاكة يتآمر بها على نفسه، يحارب بها جميع ذواته وذكرياته وعواطفه ومشاعره ورغباته وشهواته. سنين كان فيها هو والجدران الأربعة يتناوبون على جلده، فكلما أرهق جدار سلَّم السوط لجدار آخر.

سنين سبع لم يخطو خارج باب غرفته خطوة واحدة. كان مفتاح غرفته الذي أغلق بابها قد فقد جدواه فتنازل عن اسمه بفقدان وظيفته، وباب غرفته بانغلاقه الدائم قد أعلن أنه امتداد لجدار، وساعته فقدت جدواها فأعلنت عقاربها إجازتها.

لقد خنق غرفته بأنفاسه التي لم تجد منفذًا لها، وكان فراشه قد استثقله من طول مكوثه عليه، سواء كان قارئًا أو نائمًا أو متأملًا، لا من وزنه فقد نحل نحولًا شديدًا حتى برزت عظامه، فأمسى بجسد هزيل وعينين غائرتين ووجه شاحب شحوبًا شديدًا.

كانت حواسه قد تعطل بعضها، وفقد المتبقي قدرًا كبيرًا من قدرتها على الاستشعار والتقاط الصور، فلقد أصابها العطب من إهمال استخدامها في أحيان، ومن سوء ظروف استخدامها في أحيان أخرى، وكانت روحه قد تمردت على جسده وتركته لعذابه وخرجت تتجول بين سطور الكتب معلنة حريتها من جسده المُقيَّد. لقد كان يأتيه الموت من كل مكان ولكنه ليس بميت، كأنَّ الموت وجد فيه أرواح عديدة.

كان كتابه وقلمه وأوراقه قد استحوذوا على جميع اهتمامه، كأن الكون لم يحتوي غيرهم ليُمنح شيء من الاهتمام. لقد كان يحاول امتصاص الكلمات من اللغة والأفكار من العقول والحب من القلوب ليكوّن خليطه، يحاول الاطلاع على جميع التجارب الإنسانية محاولا استخلاص العبر والدروس.

كان في السنوات السبع قد اكتشف أنَّ غرفته تحوز الكثير، فهناك خطوط تفصل بين البلاط، وهناك خطوط بين كل لون، وهناك حواف لمكتبه، ولاحظ أن للجدران التقاء دائم ومساندة وتعاطف لدرجة أن سقوط جدار يعني سقوط الجدران كافة، صداقة وأخوَّة كان يتهم الجدران بأنها سرقتها من البشر وتركت لهم الصراع والحروب والفرقة.

كان في لحظات يأسه يقف يبكي بحرقة أمام الجدران ويُحدِّثها قائلًا: "هل عليَّ أن أقبل بكم كل القبول لكي أرفضكم كل الرفض؟ ها هم معظم البشر قد قبلوا بكم كل القبول، فلماذا لم يتمكنوا من الرفض؟ نعم، لقد تم خداعنا، والحقيقة أن الرفض من الإرادة لا من القبول، كان ينبغي أن نرفضكِ ثم نرفضكِ ثم نرفضكِ حتى يجدي الرفض.".

كان حقده على الجدران يتعاظم في كل شهيق وزفير، كلما أدرك مزيد من تضليلها وخداعها له وللبشر، مُتمنيًا لو كانت تحوز روحًا خاصة بها ليسلبها منها، ولكن لأنَّ روحها هي روح البشر المسلوبة وحياتهم، كان واقف أمامها يملأه العجز والإحباط، رافض التقدم لإلحاق الأذى بها، مخافة دفعها البشر أمامه كدرع لها، مُتراجع باستمرار عن خططه للتقدم، فكان في كل مرة ينسحب فيها يجدد توسلاته للبشر بعدم طاعتها والانقياد لتضليلها، ولكن بدون جدوى كأنَّ حائلًا بينهم وبينه، فلا يصل صوته ولا نظراته المُلمِّحة ولا دقات قلبه المُفصِحة.

كان يسأل نفسه عما يجدر به أن يفعله ليفعله، كان يتسلل مقتربًا من الجدران بحذر مخفيًا وجوده بالمسير على أطراف أصابه وبكتم أنفاسه وبتقليص جسده، لكي يتعرف على خططها وتدابيرها لمعاركها القادمة، فيعود فرحًا بما حصَّله من معرفة ليبني خططه عليها وعندما يحين أوان التنفيذ وتبدأ المعركة يجد أن جميع خططه فشلت، لتُلحق به هزيمة أخرى ليكتشف أنها كانت ملاحظة لوجوده أثناء تسلله وأنها كانت في تلك الأثناء تمنحه الهزيمة لا النصر، ليدرك أنه كان معها عليه.

كان لا يمل من المحاولة ولكنَّ الفشل لا يمل منه. كان يحاول التعرف على كيفية إقناعها للبنائين ببنائها وللبشر بأن يصبحوا جنودًا يَقتلون ويُقتلون دفاعًا عنها، وللبشر بأن يصبحوا سياسيين يخدعون ويخونون إنسانيتهم، بادعاء ضرورتها، وللبشر بأن يصبحوا مواطنين يرفضون الإنسان الخائف والمعذب والمرهق والمطارد والباحث عن مسكن وطعام وعمل.

كان يؤمن أنَّ البشر أذكياء، من دون أن ينازع يقينه هذا الشك ولو لمرة واحدة، ولكنه كان يتعجب من أحوالهم، كان يتعجب من وسيلة الجدران التي تضلل هذا الذكاء وتجعله محصورًا في نطاق خدمتها لا خدمة صاحبه.

كان يحاول التعرف على كل شيء، ليلحق هزيمة بالجدران ولو لجولة واحدة لينطلق منها فيما بعد للانتصار عليها في المعركة.

كان قد نسي الله في عزلته ولكنه لم ينسى أن يناجيه بأن يمده بالقوة والصبر على تحمل الهزائم المتتالية التي تلحق به، لكي يُحصِّل نصرًا للإنسان الذي ينتمي إليه وحده، بعدما تخلى عن كل انتماء يقف عائقًا أمام انتمائه هذا.

كان يبحث عن وسيلة يمنح فيها خبرته في مقاومة الجدار لأخيه الإنسان من دون أن تكون هذه التجربة والخبرة عائقًا أمام أخيه الإنسان من تحصيل الخبرة والتجربة الخاصة، من اختيار الطريق الملائم والخيار المناسب، فلقد كان يبحث عن وسيلة لا تهدد استقلال الإنسان، عن وسيلة يكن فيها النضال ضد الجدار من أجل الإنسان جماعي ولكن بدون أن يكون العمل الجماعي محدد لوسيلة الأفراد وأساليبهم وطريقهم الخاص.

لقد كان يدرك أن الوصول سيتطلب وقتًا قد لا تكون السنوات المتبقية له كافية، فجعل المسير هدفه، ولهذا لم يكن شيء قادر على إيقافه أو إغرائه بالتراجع، وكيف يكون ذلك وقد تخلى عن جميع رغباته، فلم يعد يحلم بوظيفة تحفظ له حقوقه ولا بمشروع خاص به، لم يعد يسعى لهجرة يرتاح منها من حصار مدينته الفتَّاك لحصار أقل فتكًا، لم يعد يحلم بأن يملك منزلًه الخاص، لم يعد يرغب بالزواج، لم تعد تجذبه الحياة العائلية، لم يعد يريد شيئًا في حياته إلا رؤية الجدار منهارًا ورؤية الإنسان إنسانًا.

كانت أجواء غرفته مُدمرة لصحته التي تراجعت. لقد كان يسعل باستمرار وفي أوقات ترميه الحرارة المرتفعة في فراشه لأيام كجثة هامدة، فكان يحيا بمعجزة، وأحيانًا بإصرار على التمسك بالحياة لكي يُحصِّل وسيلة للإنسان يهدم بها الجدار. كانت الظروف القاسية والهموم والأحزان وضروب الإخفاق تلاحقه باستمرار، فكان يتآكل كما تتآكل قطعة من الحديد أصابها الصدأ بل كما تتآكل قطعة من الخشب أصابها التسوس.

في السنين السبع كان قد عاد حبه للحياة بعدما كان شديد الرغبة بالموت، ولكن كان حبه لها مشروطًا بأن يكون سعيه فيها فقط لإسقاط الجدار. لقد قبل أن تكون مهمته فيها غير محققة لاختياره مهمة صعبة لا يسعفه ما بقي من حياته لإنجازها، بدلًا من أن يسلبه الموت من مهام سهلة يكون فيها مُقصِّرًا وبالموت لا يكون كذلك. لقد اختار مهمة ولربما اختارته مهمة لا يكون الموت مانحًا له في محاولة إنجازها مهرب من تهمة التقصير والتقاعس عند الفشل.

كانت الكتب متناثرة في كل مكان في غرفته، منها المغلقة ومنها المفتوحة ومنها المُعلَّقة ومنها التي تفترش الأرض ومكتبه ومنها المُرتبة داخل الرف المهترئ الذي يكاد من شدة ازدحام الكتب فيه يسقط على رأسه. كان قد استعان بالجدران الأربع في احتواء وعرض أوراق أبحاثة الغير منتهية وفي التخلص من رسوماته التي لم يستخدم فيها سوى اللون الأسود بدرجاته المختلفة، والتي كان يهرب بإنجازها من هزائمه، فكانت غرفته توحي باحتوائها مجنون.

بقراءته المستمرة كان يرجع إلى بحوثه المنجزة ليعلن أنها غير منجزة. لقد كان يطارد أفكارًا تبرع في الهروب. كان كلما حاز شعورًا بالنصر بامتلاكه فكرة وحلًا ما، يرجع ليكتشف أنه لم يكن نصرًا بل وهمًا، عندما يحاول ربطها مع الأفكار التي

كان متيقنًا بانتصاره بحيازتها، إما لتناقضها أو عدم توافقها. لقد كانت أبحاثه وأعماله كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، بسبب القراءة المتواصلة التي تفقد أعماله السالفة قيمتها. كان يحتاج قدرة ربط ووصل عالية ليضمن عدم التناقض بين أفكاره، يحتاج قدرة محترف شطرنج، ليقول "مات الملك" بدلًا من "كش ملك".

كان يتساءل كلما كان ينتمي قائلًا "ماذا لو كان انتمائي خاطئًا؟"، بدون أن يوقف تساؤله طول أمد انتمائه، فكانت انتماءاته بقديمها وحديثها سواء كانت فلسفية أم دينية أم علمية مُحتفظ لها بقدر من الشك، للإبقاء عليها خاضعة للفحص والتمحيص، ولهذا السبب لم يكن يحوز انتماءً إمكانية الاستغناء عنه غير واردة، محتفظًا لنفسه بذلك بحق الدخول والخروج متى شاء.

"ماذا لو كان انتمائي خاطئًا؟"، تساؤل كان يستعين به لكي يتجرد من جميع ما يُعتبر أخطاء وزلات من عدم الانتماء للتوجهات والمعتقدات والأفكار المختلفة أو المخالفة، لكي يبقي لنفسه فرصة للتصحيح عند الخطأ. "ماذا لو كان انتمائي خاطئًا؟"، تساؤل كان يستعين به لنيل حريته واستقلاليته. "ماذا لو كان انتمائي خاطئًا؟"، تساؤل كان يُنَفِّر منه الجميع، فليس هناك من يرغب به تخوفًا من تحولاته المفاجئة، وبالرغم من ذلك لم يثنيه ذلك عن التمسك بتساؤله. "ماذا لو كان انتمائي خاطئًا؟"، تساؤل كان ينزعه من راحة مفسدة وعمل فاسد ولذة مشتهية. "ماذا لو كان انتمائي خاطئًا؟"، تساؤل كان يتسبب له بالبحث باستمرار وبدون توقف. "ماذا لو كان انتمائي خاطئًا؟"، تساؤل تسبب له بانتماءات لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة. "ماذا لو كان انتمائي خاطئًا؟"، تساؤل جعله محايدًا وبدون خيار في أحيان كثيرة وبدون انخراط في عملية التخيير. "ماذا لو كان انتمائي خاطئًا؟"، تساؤل جعله متمردًا، وثوريًا على جميع الخيارات التي تتوفر في عملية التخيير، تساؤل جعله يسعى في البحث عن خيارات جديدة يطمح إلى إدخالها في عملية التخيير. "ماذا لو كان انتمائي خاطئًا؟"، تساؤل كاد يجعله بدون انتماء وفي ذات الوقت كاد يجعله منتميًا لجميع الخيارات، للخيار ونقيضه.

لقد كان يبحث لنفسه في السنوات السبع عن طريق يمنح لنفسه فيه تلك الدفعة الخلفية التي تمنحها طاقة الشباب لمرة واحدة في الحياة، ولهذا كان متأنيًا أشد التأني، وحريصًا أشد الحرص، ومدققًا أشد تدقيق. كان يحاول تفادي إهدار تلك الدفعة في طريق يكون مخطئًا في اختياره، فكان يفضل إهدارها بعدم استخدامها على استخدامها في طريق ليس اختياره أو في طريق غير متيقن في السير فيه أنه الطريق الحق. لقد كان يرى في تلك الدفعة قداسة لا ينبغي تدنيسها، قداسة تلزمه بإحسان الاختيار، يرى فيها قوة لا ينبغي منحها إلا لما هو متيقن منه. لقد كان متخوف من تلك الدفعة أشد التخوف، ففيها العواقب تتعاظم لأن الانقياد يكون طاغيًا على القيادة، ولم يكن يحصر مفهوم الانقياد بالتبعية للغير بل كان يعني به أيضًا التبعية لعواطفه ومشاعره وشهواته. لقد كان متخوفًا من هذه الدفعة التي لا تطرح له طريق للعودة عند إدراك

أن الطريق الذي وقع عليه الاختيار لم يكن صائبًا، بل إنها لربما لا تمنحه استشعار بخطأ اختياره، وذلك لشدة وسرعة الانطلاق بها. لقد كان متخوف من هذه الدفعة لأنها هي الدفعة الوحيدة التي تكون عكس تيار الحياة، لأنها وحدها تكون من الخلف للأمام، من أسفل لأعلى، على عكس دفعات الحياة التي جميعها من الأمام للخلف، من أعلى لأسفل. لقد كان متخوفًا من تضليل الحياة له، فيمنحها تلك الدفعة، ليكون حينها خسر أمله الوحيد بالانتصار عليها بتغييرها أو تشكيلها كما يجب أن تكون.

لقد كان يحاول الهرب من ماضي يستمر بالمطاردة، ويبحث في المستقبل عن مُكتسب يُريحه من الهروب، مُكتسب يمنحه صداقة مع الماضي بدل العداء، مُكتسب يمنحه مسيرًا متأنيًا، مُحترسًا فيه من الألغام التي فتَّته، مُكتسب يُريحه من انتكاسات العجلة، مُكتسب يُريحه من الأخذ بدون بحث كافي، مُكتسب يُريحه من التغافل عن شكه المُلتصق بكل خيار.

لم يكن يحتمل تحقيق أفضل النتائج من نظام حياة واحد مهما عظمت مكتسباته فيه وقلت خسائره، ولهذا كان في بحثه لنفسه عن أنظمة حياة مختلفة يحقق منها نتائج أفضل، يتعثر بأنظمة حياة يُحقق منها نتائج كارثية، ولكن بدون أن توقف بحثه المستمر.

لم يكن يستطيع السير في طريق مزدحم حتى في حال كان قصيرًا وإمكانية الوصول به كبيرة وسريعة، ولهذا كانت رغبته بالمسير في الطرق الخالية حتى لو كان وصوله فيها محالًا.

كان يرفض الالتزامات التي لا تكون من تحديده بل من تحديد عالمه له، كأنه يريد أن يقول لعالمه "أنت وأنا لسنا واحد، أنت كيان وأنا كيان آخر، أنت لك الحرية في وضع القيود وأنا لي الحرية في تحطيمها، أنت لك الحرية في المطاردة وأنا لي الحرية في الهرب، أنت لك الحرية في الإغراء وأنا لي الحرية في المقاومة.". كان يرفض أن تشكله الحياة بل أيضًا يرفض أن يشكله الموت الذي احتكر حبه. لقد كان يريد أن يُشكِّل نفسه كأنه إله لنفسه وحدها بدون أن يكون إلها لغيره، لقد كان يريد أن ينال من الوهيته استقلاله وحريته وفردانيته. كان يريد أن يكون واحد لا صفر قبله ولا اثنين بعده، كان يريد أن يكون واحد ولكن بدون أن يكون ضمن سلسلة رقمية، واحد لا شيء فيه ولا شيء خارجه، لا شيء أمامه ولا شيء خلفه، لا شيء أسفله ولا شيء فوقه، كأنه يريد أن يتلاشى فلا زمن يحيط به ولا مكان، بل كأنه يريد أن يحتويهما. كان يبحث عن ذاته لذاته فقط.

كان يمقت التعلق بشيء، حتى لا يحس به أنه امتداد له، أو جزء منه، أو أنه واقف استمراره عليه، كان سريع التحرر من تعلقه، فكاد يكون بدون تعلق لو لا تيقنه بوجود الحرية.

كان استمراره بالمقاومة نتيجة رغبة شديدة باللامقاومة التي لم تتح لأحد من قبله، كان يستمر بالمقاومة لعلَّه باعتياد لذتها يفقد قدرته على تلذذها فتتاح له لذة اللامقاومة، يستمر بالمقاومة ليُميت أحاسيسه، وفي أحيان ليُميت عقله الذي كان يُقدم له أدلة على استحالة وجود إنسان بدون مقاومة. كان يشعر أن الحرية الحقيقية موجودة في تلك الأجواء التي لا مقاومة فيها، كان لا يرغب في حياة يقول فيها "نعم"، ولا حياة يقول فيها "لا"، ولا حياة يقول فيها الاثنين، بل كان يرغب في حياة تكون فيها "لا" ليست نقيض ل"نعم"، وتكون "نعم" ليست نقيض ل"لا"، حياة ليس فيها ل"نعم" أفضلية على "لا" ولا العكس، حياة ليس فيها مكتسبات وانتكاسات لكلاهما، حياة ليس فيها انحياز لذاك وهذا أو حتى حياد.

كان يحاول طوال السنين السبع، تجنب بذل أي جهد فيها ليس له فيه اختيار، ويتفادى بكل عزم أي صراع على الضرورويات التي يحاول عالمه تدنيسه بها، يحاول بكل جهده تحدي عالمه الذي يحاول دفعه للخضوع كما البقية، وذلك بتعزيز قناعته بأن للحرية ثمن لا يستطيع العالم دفع مقابله مهما أغرق الخاضع بالملذات ومهما حقق له من رغبات. لقد كان يصارع الحياة برغبته بالموت، يرفضها ولكنها مع ذلك لا ترفضه، بل تقبله كل القبول ولكن بشرط أن يخضع أو يتعذب بالمقاومة. لم تكن تريد الحياة له الموت بالموت بل الموت بالمقاومة لتغريه بها حتى يأخذ استراحة.

لقد كان يبحث عمّا يُحسن به استضافة إلهامه، فلا يجد غير البؤس، ولهذا كان يتساءل بغضب وباستمرار قائلاً: "أما آن لنا نحن البشر أن نسعى لنوجد في أسواقنا غير هذا الصنف من الضيافة؟"

كان يحاول طوال السنين السبع إعادة التقاط ذلك الوقت المتسرب من بين أنامله القابضة، سواء كان في النوم أو في قضاء ضروريات أخرى، فيحاول بقدر استطاعته الجمع بين تلك المهام التي يشعر بأن وقته مهدور فيها، وبين تلك المهام التي كان يرى أنها ينبغي أن تستحوذ على جميع وقته. كان يطلب الكمال لكي يكون ما يفعله كما يطلبه لا كما تطلبه حاجته وشهوته. لقد كان يتمنى حيازة قدرة تمكنه من الخروج من حلقة الزمان والمكان، ليقوم بتشكيل فعله فيهما كما يطلب، لكي يرجع للوراء ويتقدم للأمام بدون عجز. لقد كانت مهمة الوقت لغيره دفعهم إلى الإسراع في تحصيل ما يفاخرون به أمام الناس أو أمام ربهم، ولكنه كان عاجز عن أداء وظيفته، ولهذا كان الوقت شاعر بعدم جدواه وبأنه بدون وظيفة معه. لقد كان طريقه الذي لا يبعثر بالمسير فيه خطواته في مسارات وطرق أخرى، حائز كل الاهتمام، كأن لا طرق ولا مسارات غيره.

كان في سنوات عزلته الأولى قد زاد تعاطفه مع المصابين بالتوحد، فلقد كان من قله النوم شديد الحساسية للأصوات، فكان يثور غضبًا حتى من تلك الأصوات التي بالكاد تكون مسموعة. بسبب قلة النوم انخفضت قدرة عقله على تجاهل الأصوات التي

تجاهلها يحميه، وعلى الرغم من ذلك اكتسب قدرة على التحليل والربط كبيرة. لقد استنتج من هذه التجربة التي صاحبته في سنين عزلته الأولى أنَّ مشكلة المصابين بالتوحد هي عدم قدرة عقولهم على النوم ولهذا قدرتهم على التركيز منخفضة في ظل عمل حواسهم، وفسر أن هذا هو سبب غضبهم وانفعالاتهم العنيفة، واستنتج منها أنَّ علاجهم يكمن في منح عقولهم قدرة على النوم أو في منح حواسهم قدرة استقبال أقل. كان مع مرور السنين قد أخذ جسده بالتأقلم مع قلة النوم فكانت انفعالاته أقل حدة والظروف أقل قدرة على تعكير مزاجه، ولكن بقي وجهه يزداد عبوسًا وتجهمًا يومًا بعد يوم.

كان في غرفته طوال السنين السبع بسبب فقر أسرته وعمله الذي لا عائد له منه والذي يوصف به بالعاطل، يحصل على وجبتي طعام في اليوم من أصناف لو كان يحوز مالًا وشهوة ما اقترب منها. كان كثيرًا ما يقبل بواحدة فقط، لا اعتراضًا ولكن لفقدانه الشهية، فلقد استحوذ البحث على جميع وقته طاردًا كل رغبة وشهوة تحل فيه. كان حتى في أثناء تناوله لوجبته لا يترك الكتاب والقلم والورقة من يده، فلا يتذوق مأكولاتها ولا مشاريبها.

كان يخاف من النوم لشعوره بعداوته له، فكان ينام فقط عندما يعجز عن المقاومة، ولكن كان يستيقظ بعد ساعة أو ساعتين فزعًا على وقته. كان يعتقد أن النوم عادة درج عليها الإنسان وليس حاجة، فكان يقول آسفًا في كل مرة يستيقظ فيها "انطلت عليَّ الخدعة. لقد تم تضليلي"، ولربما ما صور له ذلك هو رغبته في قطع أطول مسافة في طريقه وتحصيل أطول وقت لحربه مع الجدار. لقد كان حماسه لا يفتر، وقوته لا تضعف، وعمله لا ينقطع، وعزمه لا ينفل، وهدفه لا يضيع، وقلبه لا تتباطأ دقاته.

طوال السنين السبع لم يُقدِم على الاستماع لموسيقى موتزارت التي كان يجد متعة كبيرة بالاستماع إليها لتفضيله متعة القراءة، فلقد كان يتجنب الجمع بين متعتين في آن واحد، يرفض الجمع بين عملين لإعطاء كل عمل حقه من التركيز والانتباه، ولهذا احترامًا للموسيقى قرر التنازل عن متعتها. كان يُحدِّث نفسه متعجبًا متألمًا قائلًا: "كيف يمكن لإنسان أن يجمع بين لذتين في وقت واحد! لا، لا وجود لإنسان قادر على ذلك بدون أن يكون عاجز عن التلذذ باللذتين. نعم لا وجود للتركيز الازدواجي، والقائل بوجوده هو ذلك الذي يستهدف إيجاد الوهم عند الآخر، هو ذلك الذي يريد من الآخر عدم حيازة لذة أو متعة، هو ذلك الذي يريد إفقاد جميع الأعمال قيمتها، هو ذلك الذي يريد للإنسان الطلب بدون أن يكون له القدرة على الحيازة، هو ذلك الذي يريد للإنسان أن يكون سلة مثقوبة عاجز عن احتواء شيء."

كانت عائلته بعدما دخل عزلته وفشلت جميع محاولات إخراجه منها، قد علَّقت آمالها بإيجاد حلول لديونها وبدرجة معيشية أفضل تُقدم لهم إشباع حاجات أكثر، على شقيقه

الذي يصغره، وقد نجح في تحقيق لهم ذلك، بعدما تخرج من جامعته وساعدته الحرب الجديدة التي اندلعت خلال السنين السبع بإيجاد وظيفة بالفرص التي أتاحتها.

كان جميع من يحيط به سواء كانوا من أفراد العائلة أو من الأقارب المقربين أو من الأصدقاء القدامى الذين ما زالوا محافظين على صداقهم مع شقيقه أو من الجيران، جميعهم يصفونه تارة بالمجنون وتارة بالحالم وتارة بالهارب وتارة بالغبي الساذج بسبب عزلته، أما الأوصاف التي كانوا يطلقونها على وضعه المالي فهي كثيرة، منها "صاحب الجيب الفارغ" "المُعدَم" "الفقير".

كانت عائلته تشعر بالندم على قرار اتخذته منذ وقت طويل، وهو قرار منحه غرفة له وحده بدل من إشراكه مع شقيقه في غرفة واحدة، فلقد كانوا يشعرون أن استقلاليته ساعدته على اتخاذ قراره بالاعتزال، يشعرون أن موقع الغرفة المنعزل عن باقي الغرف وصغر حجمها وعدم احتوائها على نوافذ تجدد هواءها ساهم في ذلك أيضًا. كانوا يحاولون التمسك بأسباب كثيرة لاعتزاله، لينفوا عنه لأنفسهم بعيدًا عن مسامعه صفة الجنون، ليتمكنوا من احتوائه بينهم.

في السنة الأولى والثانية من عزلته كان متساهلًا مع مطالب عائلته منه بالخروج للترحيب والالتقاء بضيوفهم في الأعياد فقط التي كانت تلزمه بثلاث لقاءات سنويًا. كان الضيوف في هذه اللقاءات الثلاث يسمحون لأنفسهم بكل وقاحة بإصدار الأحكام القاسية على اختياراته في الحياة، فكانوا يشاركون أفراد عائلته في معارضتهم عليها ورفضهم لها، يُحقرون أهدافه ومساعيه وأفكاره. كان يَلقى من اللوم والاستنكار والتعبير عن الاستياء من قراراته ما لا يلقاه أحد. كان في لقاءات السنة الأولى يدافع عن خيارته ويُحقِّر ما يرونه نجاحًا، وينتفض في أحيان بذوق قائلًا: "لكل إنسان تحديد معين للنجاح، ولأننا للأسف لا نستطيع تلبية كل هذه التحديدات، فنحن عاجزون عن إرضاء الجميع، ولهذا الأولى إرضاء أنفسنا بالسعي لتحقيق تحديدها الخاص للنجاح"، وكان في أحيان أخرى ينتفض محاولًا رد وقاحتهم بوقاحة حيث كان يتفق له بسبب هذا الهجوم العنيف في كثير من الأحيان أن يفقد حس الاعتدال، قائلًا: "لكل إنسان حياة واحدة ليعيشها وليثبت فيها صواب خيارته، بل ليعيشها فقط، فلماذا يسعى للإثبات فيها. نعم له حياة واحدة ليعيشها فعيشوا حياتكم واتركوكم من حياة غيركم. إذا رغبتهم بإصدار الأحكام، فأصدروها على خياراتكم في حياتكم التي تملأها العبثية والفوضى، قيّموا خطواتكم العشوائية، ولكن لا تعبثوا بحياتي. حياتي لي وحدي أنا لكي أعبث فيها لكي أحطمها إن شئت ذلك. لكم تحديد يخصكم عن النجاح فطبقوه على حياتكم لا على حياتي، فأنا لست امتداد لكم، أنا غيركم، أنا لست أنتم". ومع كل محاولاته لثنيهم إلا أنهم كانوا يستمرون في وقاحتهم. لقد كانوا يُحدِّثونه عن تحصيل الأموال، وكيف أنها معيار النجاح بالرغم من أنهم بالكاد يستطيعون تحصيل أموال تكفي لسداد حاجتهم من الطعام. لقد كانوا يستمرون في جعله موضوع لحديثهم بالرغم من محاولاته المتكررة لثنيهم بمحاولة طرح مواضيع فلسفية واجتماعية ودينية

وسياسية للنقاش، ليدفعه فشله في ذلك لإحالته في أحيان لنقص ثقافتهم وتارة لطمعهم الذي أعماهم وتارة لسعيهم لاستفزازه ومضايقته والتفاخر أمامه هو الذي لا مال لديه بما لديهم من أموال على الرغم من عجزها عن الإيفاء بحاجاتهم. لقد كانت لقاءات السنة الأولى تضايقه بشدة وتتركه غاضبًا لفترة طويلة. كان كلما عاد لغرفته تُخاطبه نفسه قائلة "ألم أقل لك، عند المطالبة باعتذار تفادي المُغالاة في معاملتهم بذوق والثقة في قدرة عقولهم على التقاط تلميحك لأخطائهم المرتكبة في حقك، لأن الفشل سيكون حليفك". في لقاءات السنة الثانية لم يكن يكترث كثيرًا لكلامهم، ولم يكن يتخذ وضعية المدافع والمهاجم إذا لزم الأمر، كأنه رفع الراية البيضاء لهم، فكان يجاريهم ويسايرهم في أحكامهم، ويشعرهم بالانتصار عليه بالإشادة في أحكامهم وإعلامهم بعزمه على تنفيذ نصائحهم. كان قد مل من مقاومتهم، فكان يمنحهم الانتصار بدون أن يطلبوه، أو بشكل أدق قبل أن يطلبوه، فكيف لأمثالهم أن لا يطلبوا الانتصار! لقد كانت لقاءات السنة الأولى والثانية سبب في عدم خروجه في السنوات الخمس التالية للقاء أحدهم، تاركًا لعائلته مهمة تبرير وقاحته وقلة ذوقه للبعض، وللبعض الآخر تعاليه عن لقائهم، تاركًا لهم مبررات غير مقنعة في أحيان كثيرة يسوقونها لضيوفهم الذين ظلموه بما ظنوا أنه سبب لعدم خروجه.

لم يكن طوال السنين السبع يصارع الجدران وحدها، فلقد كان يصارع مناصريها أيضًا، يصارع عائلته وأصدقاءه القدامى وجيرانه وأقاربه، في أحيان بصفتهم جنود الجدران وفي أحيان أخرى بصفتهم الجدران بحد ذاتها. كان يتعجب من قدرة الجدار الإسمنتي على خلق جدار بشري، فكان يبحث عن وسائل إقناعه للبشر وعندما يجدها كان يُفاجأ بأنها غير مقنعة، فيأخذ بالتساؤل عن كيفية انسياق البشر بهذه الوسائل الرخيصة ليصبحوا جدران. كان يبحث عما إذا كان له عدو غير الجدار هو من يتولى هذه المهمة.

كان أحيانًا يجلس باكيًا يائسًا في أحد زوايا غرفته بعد أن يجد أن بحوثه التي اعتبرها منجزة لم تكن أبدًا كذلك ليتَّهم رغبته بالانتهاء من البحث بأنه تساند الجدار. كان يتساءل بتعجب عن قدرة الجدار على الدخول فيه وتحويل رغباته لجدران، خائفًا من الاكتشاف ذات يوم أنه جدار، وأنه لم يكن يسعى لهدم الجدار بل للإبقاء له. كان في أحيان كثيرة يشك في جميع خطواته، يبني لنفسه محاكمة يكن فيها هو القاضي والمتهم، يعزل بعضه عنه بتهمة الخيانة والتقصير والغباء والجهل.

كان طوال السنوات السبع يُحدِّث نفسه، فتارة يُحدِّث ذلك الواقف في أحد الزوايا، وتارة ذلك الجالس على المكتب، وتارة ذلك الواقف بجوار الجدران، وتارة ذلك المُستلقي على فراشه، وتارة ذلك الذي يعتني بالأوراق المفروشة وتلك التي تغطِّي الجدران وتلك التي تستلقي على المكتب، يستدعيهم أحيانًا جميعًا للمشاورة لإبداء رأي أو لتصويت، يُناظِرهم في أحيان ويتنزه معهم في أحيان أخرى بين سطور كتبه، وفي أحيان أخرى يشاركهم البكاء والنحيب.

لقد جعلت منه عداوته للجدار إنسان آخر، إنسان عاقل بجنونه في أحيان ومجنون بعقله في أحيان أكثر. لقد تمرد بسبب هذه العداوة على ضعفه وكسله وغبائه وجهله، لقد تمرد على الإنسان الذي بداخله لا ليصبح إلهًا بل ليصبح إنسان أفضل، إنسان قادرًا على حب البشر واحتكار العداوة للجدار فقط.

لقد كان في كل سنة من سنوات عزلته يدخل إلى أعماقه أكثر، فيكشف لنفسه عن عظمة الإنسان، كان يبحث عن الضعف والقوة فيه، فيجد أن تحديد البشر لما هو ضعف وقوة لم يكن صائبًا. لقد اكتشف أن الإنسان إما حائز على القوة فقط وإما حائز على الضعف فقط، وكان يرجح أنه حائز على الضعف فقط. لقد كان يشعر أن الضعف هو الذي يحدد الإنسان، فالإنسان إنسان بضعفه لا بقوته أو بادعائه بحيازته للقوة. لقد اكتشف أن الإنسان ضعيف لحاجته إلى موجود آخر غيره. كان حينها قد توصل إلى أن جميع حديث الناس عن القوة لا معنى له، فجميعه حديث مدعين للمعرفة. لقد أحب ضعفه واتخذ من حبه ذلك وسيلة لحب الإنسان. لقد اكتشف أن الإنسان يحب القوة لا لأنه يحوزها بل لرغبته بحيازتها، ولأنه ليس بمقدوره حيازتها، ولأنه يحب الله الحائز عليها. لم يكن يعترض على حب القوة فالحب والكره ليس اختيار الإنسان بل اختيار قلبه الذي لا سلطان لأحد عليه، ولم يكن يعترض على الرغبة في حيازتها فكذلك الرغبة ليست بيد الإنسان، بل كان يعترض على طلبها فلقد كان يرى أن الطلب بإرادة الإنسان. كان يتعجب من الناس بطلبهم ما لا ينال، نعم لقد كان الناس باعتقاده يطلبون بأن يكونوا آلهة بطلبهم للقوة. لم يكن يطالب بحب الناس لضعفهم ولا رغبتهم فيه رغم الحيازة بل كان يطلب منهم مزيدًا من طلب معرفة أنهم ضعفاء. كان يطلب منهم فقط أن يصرخوا بأعلى أصواتهم ويقولون بفخر وبدون خجل: "نحن ضعفاء، نحن ضعفاء، نحن بشر".

كان في غرفته يسأل "ماذا يريد؟" لكي يتفادى الوقوع في فخ تنفيذ ما يُراد له تنفيذه، كان يبحث عن استقلاليته، يبحث عن كونه واحد لا جزء من واحد، كان يحاول التشبُّه بالإله بالقدر التي تسمح به قدرته البشرية متفاديًا التشبه به بدون التفات للقدرة كما تفعل الغالبية. لقد كان يسعى أن يكون إلهًا بضعفه لا إلهًا بقوته، بل كان يسعى أن يكون إله الضعف لا إله القوة. لقد كان يتجنب منافسة الإله لذلك استسلم له.

سبع سنوات مضت عليه بين جدران غرفته كان الجحيم فيها يطلب عونًا لتعظيم ألم وعذاب وبؤس هذا الذي يأبى الشعور بذنبه والاعتراف به، هذا الذي يتحداه صارخًا ومتحديًا "هل من مزيد؟". لقد كان إصراره على التقدم مستفزًا للجحيم الذي كاد يعترف بأنه مخطئ بالاعتقاد بأن هذا الإنسان الذي بداخله قد ارتكب خطأ، كان الجحيم قد بدأ يشك في براءته حتى كاد يلفُظه إلى الجنة تعويضًا عما سببه له من أذى.

كان يستعين بغيابه على حضوره، وبحضوره على غيابه، يهرب من هذا إلى ذلك، ومن ذاك إلى هذا، ولكن بدون أن ينفعه الهروب الذي كان وسيلته الوحيدة بدون أن يكون وسيلة، وخيار بدون أن يكون اختيار. كان يتألم، يعاني، ينكسر، يتحطم، يتناثر، يتعذب، ولكن كان يقف، ثم يقف، ثم يقف، ويبدأ بالمسير.

كان في أحيان يضع أذنه على الجدار ليستمع له، وتارة أنفه ليشمه، وتارة لسانه ليذوقه، وتارة يده ليلمسه، ودائمًا عينيه ليراه، على أمل أن يعلم من حواسه هذه التي بلى جدوى شيئًا عنه، لعلها تُسرب له معلومة يجهلها، لعلها تطلعه على خطة يرسمها، لعلها ترشده إلى طريق لم يسلكه، أو إلى فكرة كان غافلًا عنها، أو إلى وسيلة لم يستخدمها. كان يريد أن يعرف كل شيء عن الجدار، كل خباياه وأسراره وخططه وطموحاته ووسائله. كان بحواسه يريد أن يُرضي نفسه بأنه حصَّل معرفة أكيدة عن الجدار، معرفة لا يثبت عدم صحتها لاحقًا، معرفة تُعوِّضه عن خيباته السابقة في نيل معرفة عنه.

كان يقف أمام الجدار باكيًا منكسرًا يخاطبه بصوت منطفئ شاكي مكتوم، قائلًا: "لماذا أنت عنيد بهذا القدر؟ لماذا أنت قوي بهذا القدر؟ لماذا خططك تمنحك النصر باستمرار؟ لماذا تهزمني باستمرار؟ لماذا لا تقع عليَّ لنموت سويًا إذا لم ترغب برؤيتي منتصرًا؟ لماذا أقف عاجز أمامك وأنت لست بإله؟ لماذا تغذيني بكرهك وبالعجز عن الانتقام منك أو حتى القصاص؟ أه، ثم أه، ثم أه، ما أكثر آهاتي! فلترحمني يا إلهي ولتمدني بضعف أكبر يُعظِّم من حبي للإنسان واصراري على الكفاح في سبيل حريته."

كان يرغب بالصراخ في غرفته بأعلى صوته، ولكن كان يمنعه تفاديه إعطاء محيطه مؤشرات بانفعالات وردود أفعال تعطي تأكيدات على جنونه لكي يتجنب محاولات أكثر للوقوف في وجه عزلته، فكان يمنح لروحه مهمة الصراخ عند إفلاتها من جسده ليضمن ألا ينفجر. كان يشكي ويبكي بحرقة على تآمر من حوله عليه مع الجدار، ولكن كان في أحيان مسرورًا من هذه المعارضة، فلقد كان يستدل منها على صواب قراراته وخطواته، مُدرك من اطلاعه على تاريخ الأفكار أن الحقيقة دائمًا ما تقاوم وتُحارب، ومقتنع بالإثبات الذي تقدمه التجربة الإنسانية على أن العقل لا يُحلِّق في فضاء لا مقاومة له فيه. كان بوجود الجدار ضده وبمساندة الكل للجدار يشعر باستقلاليته، وبكونه فرد له وجود منفصل عن الآخر، كان نصره الوحيد الذي يفاخر به، نصره الذي ساعده فيه الآخر بالوقوف ضده مع الجدار. ولكنه في ذات الوقت كان حزين بهذا الانتصار فهو لم يكن يريد من الجدار لا نصرًا ولا هزيمة، لقد كان يريد تحقيق انتصاره مع الإنسان وحده، متفاديًا ذلك الانتصار الذي يحققه الآخر له. كان يريد من الإنسان تقبل اختلاف الآخر، لكي يَحسُن للجميع تحقيق النصر بدون أن يكون هناك مهزوم.

كان يضع رأسه على الأوراق متمنيًا لو كان بإمكانه تفريغ كل ما فيه دفعة واحدة بدون وساطة، بدون أن يكون القلم الذي اهترأت منه يده وسيلة لذلك. لقد كان يفرغ ما في رأسه حرف بحرف، وكلمة بكلمة، وسطر بسطر، وصفحة بصفحة، وهذا لم يكن كافيًا له، فلقد كان يريد إفراغ كل شيء دفعة واحدة بدون ألم، بدون عذاب، بدون أن تكون الكلمة مكتوبة بدمه، بدون أن تكون عملية الكتابة عملية تذكر وإعاقة لما سيأتي لاحقًا، بدون أن تكون الكتابة موقفة لمطالعته ودراسته للكتب، كان يطمع بالمزيد ثم المزيد ثم المزيد، لم يكن قادرًا على كبح جماح نفسه، كان يريد كل شيء بدون توقف للحيازة لهذا كان كثير العتاب لقلمه وكثير الشكوى لأوراقه منه.

كان يتذمر باستمرار من دوافع إقباله على الكتابة التي توقفه عن الاستمرار بالمطالعة التي بها ينال المزيد، ولكنه كان يرجع ويعترف بأن الإنسان يستحق أن يُكتب له، بأن الإنسان يستحق أن نتوقف مؤقتًا عن القراءة له، بأن الإنسان يستحق امتلاك المعرفة. لقد كان يحاول اقناع نفسه باستمرار بالتوقف عن القراءة التي يرغب بها بتحصيل أكبر إحاطة يقدمها للإنسان، بتذكيرها بأنه ليس الوحيد الذي يرفض وبأن هناك من يساعده في الرفض، وبتذكيرها بضرورة التوقف ليكمل غيره المسير معه أو بدونه، فهناك الكثير غيره يسعى بصدق وذكاء ووعي لخدمة الإنسان، بتذكيرها بضرورة التوقف لكيلا يقع في فخ عدم التوقف، بضرورة التوقف لكيلا تموت معرفته وإحاطته وأفكاره بموته، بضرورة التوقف لينال الإنسان بعض منه يكن له معونة في سعيه لنيل الحرية. كانت لحظة التوقف هذه مُرهقة له، فكان في كل يُخاطب نفسه قائلًا: هذه هي، يرجع ليقول بقي القليل بعد، ثم يعاود الكرة في كل مرة، كأن القليل هذا لا ينتهي، كأن القليل والكثير عنده واحد. كانت لحظة تتعذب بها روحه أشد العذاب، لحظة الوداع فيها يمتد لبضع سنين. كان يتحجج بتأجيلها بالقول: أن الإنسان يستحق إحاطة أفضل وأوسع، معرفة أكثر، أفكار أجود، فتنجح حججه في إقناعه فيستمر ويستمر، ويستمر بالقراءة، كأن الاستمرار لم تحدد له لحظة للتوقف للكتابة. كان يتمنى لو كانت له حياتان ليمضي واحدة بالقراءة والأخرى بالكتابة، ولكنه في الحقيقة كان يخدع نفسه بهذه الأمنية، فلو كان لأمنيته هذه سبيل للتحقق، لكان قضى حياته الأولى بالقراءة وحياته الثانية أيضًا بالقراءة.

كانت القراءة تُفجر في نفسه أفكار ومشاعر تُحطم تلك القيود الصلبة التي وضعها على أفكاره ومشاعره القديمة التي كانت نتيجة انتماءات تُحاصِصه تستهلكه تستنزفه، كانت القراءة تفجر في نفسه أفكار ومشاعر الجهد المبذول في احتوائها لا يبقي له جهد لاحتواء نفسه ليظهر مضطربًا قلقًا مرتبكًا طوال الوقت.

كان يُحدِّث نفسه باستمرار بغضب واعتراض، قائلًا: "هل ظلمنا الله بجعل إلزامية شكره على نعمه في حياة واحدة مع حاجاتنا للقراءة؟ هل من العدل أن أقطع قراءتي بحلول موعد صلاة مفروضة؟ هل من العدل الشكر على حاجة غير مشبعة وعلى لذة غير مُتحصِّلة؟ لماذا وضع الله كل هذه اللذة في القراءة التي لا يمكن إطفاء رغبتنا

فيها وإيقاف سعينا في طلبها بالرغم من احتكارها لكل وقتنا؟ لماذا هي ليست كباقي الملذات لها وقت محدد لطلبها والرغبة بها، وجهد محدد لنيلها؟ لماذا لها كل هذه الجاذبية التي لا تحطمها الدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين؟ هل هي غواية شيطان أم هي هداية الله؟ إذا كانت غواية الشيطان، فلماذا منح الرب الشيطان النصر عليَّ، وإذا كانت هداية الله، فلماذا أقطع طلب الهداية بالشكر؟ نعم، أنا آثم بالتوقف عن طلب الهداية، لا بتجاهل الشكر. لربما قراءتي هي صلاتي وشكري، بل هي بالفعل صلاتي وشكري، فأنا بالاستمرار بتقبل عطايا الله، أمنحه شكري وحبي وعظيم امتناني."

كان يستجدي حبه للإنسان المُلِح عليه للكتابة بتوقفه عن القراءة، قائلًا: "أرجوك، كف عن الإلحاح، كف عن الطلب، فليس المهم أن يقرأ غيري لي، بل المهم أن أقرأ لغيري. كفاك تطالبني بانتزاع عائد أيها الحب كما يفعلون، فأنا لست من أولئك اللاهثين وراء العائد، أنا لا أريد شيئًا في حياتي سوى القراءة، أنا مُتنازل عن كل شيء، متنازل عن كل ما يمنحه الله لغيري بطيب خاطر، مُتنازل عن جميع ما يربطني بغير الكتاب، مُتنازل عن أمي وأبي وأخي وصديقي وحبيبتي من أجل الكتاب. انتزع منِّي جميع جنان الإنسان واترك لي جنة كتابي، أنا مستعد للتنازل للطامع بأكثر مما أحوز وبما سأحوزه في الحياة الأخرى، ولكن أبقِي لي كتابي. أبقيني أيتها الحياة، وأنت أيها الموت حيث يوجد لي كتاب أطالعه. وأنتِ أيتها السنين الراكضة كفِّي عن التلويح لي، وفِّري جهودكِ، فأنا بالقراءة بدون طمع ولا خوف."

كانت صراعاته كثيرة، كأنها لن تنتهي حتى بانتهاء حياته. كان يصارع على جميع الجبهات، كأنه أكثر من واحد، كأنه البشر جميعهم في آن واحد، كأنه وجد ليُعلن به أن للإنسان مقاومة، بأن للإنسان صوت وفعل وصمت ضد الجدار وأعوانه. لو وقفت الجبال في طريقه لكان أخذ بإزاحتها صخرة صخرة من أمامه، ولو وقفت البحار في وجهه لكان أخذ بنقلها من أمامه قطرة قطرة، ولو وقفت الصحراء في طريقه لكان أخذ بإزاحتها من أمامه رملة رملة.

لقد كانت تدور في سنين عزلته السبع معارك طاحنة بين الشك واليقين، كان الشك يخرج منتصرًا في غالبيتها إذا لم يكن في جميعها. لقد كان يعتقد أن الاقتناع التام بفكرة ينقلها من الموضوعية إلى الذاتية، وكان شديد التخوف من هذا النقل، ويرى أنه لا يكون إلا لجهل أصابه أو لمصلحة ذاتية يطلبها أو لعلم مطلق بكافة جوانب الفكرة وهو ما كان دائمًا مقتنع باستحالته، فكان يرى أن الذاتية تُحوّل الفكرة إلى موقف شخصي التنازل عنه أو التشكيك فيه تشكيك بحامل الفكرة ووجوده وبكامل أفكاره. لقد كان يُحدِّث نفسه قائلًا: "لا تسمح لذكائك بإعطاء الإذن لغبائك بالسيطرة على عقلك" كان يحاول الهرب من تهمة اللاموضوعية، بنفي نفسه والتضحية بها وبحقوقها في سبيل خدمة ذلك.

لم تكن البدايات ولا النهايات قادرة على إشباع فضوله. كان يسعى وراء كل بحث اعتقد أنه سيمنحه نصرًا على الجدار، فكان يبدأ وما أن ينتهي حتى يبدأ من جديد. لقد كانت النهايات لا توقفه، بل توصله ببدايات جديدة، والبدايات لا تريحه بل تدفعه لنهايات جديدة، فكان يدور في حلقة لا نهاية لها.

كان يغامر في كل طريق يوصله لرؤية الجدار منهارًا. لقد توصل إلى معرفة أنَّ المغامرة ليست طلب ما لم يوجد له ووجد لغيره لأن نفوس أخرى أقدر عليه وجدت للقيام بذلك، وإنما هي التمييز المُبكر بين ما وجد له ووجد للآخر، ولهذا كان يبحث عن مهمته في إسقاط الجدار، لا مهمة غيره التي لن يستطيع إنجازها. لقد أدرك أن لكل إنسان مهمته فكان متقبل لمهمة واحدة بالرغم من تذمره.

كانت لديه أسئلة كثيرة تشغل باله وتعذب نفسه عذابًا مريرًا، وإجابات قليلة وتكاد تكون معدومة. لقد كان رأسه يفيض بالأسئلة التي من كثرة ترديده لها يصفه من يسمعه بالجنون. كانت تُشكِّل ضجيجًا لا يستطيع احتماله فكان يردد دائمًا مُتحدِّثًا مع نفسه، بالقول: "الطريقة الوحيدة التي سأعرف بها أنني في الجنة، هي أن يعزف الهدوء لحنه"

كان طوال تلك السنين السبع حكاية تروى على من لا يجيدون الاستماع.

(2)

في صباح ذات يوم لم يمكن بإمكانه التمييز فيه في أي شهر أو عام هو فيه، نهض من فراشه بعدما احتال عليه النوم، وإذا به يجد رسالة ملقاة إليه من أسفل باب غرفته من أحد أفراد العائلة، فلقد كانت هذه وسيلتهم للتواصل معه وضمان وصول الرسالة، فمخاطبته من خلف الباب وسيلة ليس مضمون بها وصول الرسائل بسبب غيابه لحظة القراءة التي تسهم في إطفاء حواسه.

كانت الرسائل التي تصل إليه جميعها تحاول ثنيه عن الاستمرار بعزلته، تارة بالترهيب وتارة بالترغيب، فكانت مصدر غضبه وسبب في تعكير مزاجه، وفي أحيان انقطاع عمله، كانت تغرقه في قلق شديد وغم بالغ.

كانت الرسائل سلاح الجدار الأشد فتكًا والأكثر إلحاقًا للضرر به، متى ما شاء استخدمها ضده. لقد كانت تحمله على استشعار شقائه وحزنه وبؤسه إلى أن حملته بما وصلت إليه من تسلط إلى احتمال جميع أصناف آلامه وأحزانه وأنواع الحرمان التي عانى منها وضروب الفوضى التي عليها حياته، بغير تذمر وشكوى.

كانت في سنوات عزلته الأولى تصله بكثرة، ففي اليوم الواحد كان يصله أكثر من ثلاث رسائل، ولكن مع مرور السنين كان عدد الرسائل يقل شيئًا فشيئًا، ففي أوقات تصله رسالة واحدة في اليوم ثم أصبحت واحدة في الأسبوع ثم واحدة في الشهر إلى أن انقطعت بيأس أصحابها.

كان في سنين عزلته الأولى في أحيان يمسك بها لقراءتها، وفي أحيان يمزقها بدون قراءة، وفي أحيان يهملها ملقاة في مكانها، ولكن مع الوقت أتقن فن إهمالها، وبالرغم من ذلك كانت تثير غضبه لعلمه باحتوائها على مطالباتهم له بالخروج، لعلمه أنها تدخل في شؤونه واعتراض على قراراته وهتك لاستقلاليته واغتيالًا لحريته وإعاقة لجهوده وإيقاف لأبحاثه.

كان يشعر بأن وجودها في غرفته يُدنِّس أرضها ويُلوث هواءها، لذلك في أحيان كان يردها إليهم بدون فتحها من أسفل الباب بأطراف أصابعه، كأنه يمسك بشيء قذر لا يحتمل تلويث يديه به، وكانت عيونه تتجنب النظر إليها كأنها تتجنب النظر إلى منظر قبيح، وأنفاسه تزداد تقطعًا كأنها تتجنب رائحة كريهة، وسمعه يتجنب صوت إلقائها وإدخالها إليه، كأنه يتجنب أصوات مزعجة.

أخذ ينظر إلى الرسالة من بعيد وهو راقد في أحد الزوايا ساكن لا يتحرك، كأنه ينظر إلى وحش يتهيأ لافتراسه، يُحدِّث نفسه بغضب شديد يكاد يصطحب معه بغضًا عنيفًا وحقدًا حادًا، قائلًا: " ها قد أرسلوا ما يريدون به قتلي، ها قد أرسلوا ما يريدون به تعكير صفو يومي، ها قد أرسلوا إليَّ بسمومهم. ماذا يريدون مني بعد؟ ألم ييأسوا مني بعد كل تلك المحاولات؟ لماذا كل هذا الإصرار على التدخل في شؤون حياتي؟ لماذا لا ينشغلون بشؤون حياتهم؟ أليس لديهم مشاغل كافية لتلهيهم عنِّي؟ أين تلك المشاكل والضوائق التي كانت تُنهكهم؟ أليس لأوقات فراغهم تسلية غيري؟ ألم تدركهم قسوة الحياة وآلامها! أتشعرهم وجبة الطعام التي يُقدِّمونها لي وهذه الغرفة الصغيرة بالأحقية بسلب حريتي وتحديد توجهاتي ومصيري؟ ألهذه الدرجة هذه الخدمة تشعرهم بأن اعتداء كهذا هو حق! لماذا كل هذه الاتهامات لي بالعجز عن إدارة حياتي؟ لماذا منحوا أنفسهم الحق بالحرص على مستقبلي؟ تبًا لك أيها الجدار. نعم هذه أفعالك. لقد نجحت أيها الخبيث بحشدهم ضدي والوقوف معك" لقد كان كل ما يثير غضبه يُشير للجدار كمتسبب فيه، فكان في كل يوم يتعاظم حقده عليه وغضبه منه، وإصراره على نيل الوسيلة التي يسقطه بها.

كان في تلك اللحظات ما زال ينظر إلى الرسالة ولكن خوفه تحول إلى غضب شديد، كاد على إثره يقفز إليها لتمزقها. رجع ليُحدِّث نفسه قائلًا: "لماذا يعتقد الجميع أنني برفض سلطتهم عليَّ متمرد؟ أيعقل أن يكون ذلك لقبولهم بتسلُّط الآخرين عليهم؟ لماذا يستأنسون بتسلطهم على بعضهم البعض؟ لماذا يفرض الجميع سلطتهم على الجميع؟ من أين أتوا لسطتهم بالشرعية؟ نعم هم اعتادوا على ما هو خاطئ". لقد أدرك أن أصعب العادات كسرًا هي عادة امتلاك السلطة وبهذه المعرفة كان يحاول تهدئة نفسه وإسكات غضبه.

أخذ ينظر إلى الرسالة نظرة اختفى بها كل ما حوله، فلم يكن يرى سواها، كأن لا أرض تحملها، ولا سقف فوقها، ولا جدران حولها، يجلس بدون حراك لكأنه بدون أنفاس حتى. استمرت حالته هذه لفترة طويلة، كان فيها غائبًا تمامًا، فغضبه الشديد غير المُفرَّغ نقله إلى عالم آخر، عالم غاب به عن عالمه كليًا.

بعدما تراجعت شدة غضبه وعاد إلى عالمه القاسي، أخذ يُحدِّث نفسه معاتبًا قائلًا: "لماذا كل هذا الغضب؟ لماذا سمحت لهم باستفزازي وإثارتي إلى هذا الحد؟ كيف لم أعتد إلى اليوم على وقاحتهم وتدخلاتهم؟ حقًا لا داعي للغضب. لماذا أمنح اهتمامًا كبيرًا لهذه الرسالة؟ لماذا لا أتركها في أحد الأدراج أو أُلقِها في أحد الزوايا أو أردها من حيث أتت أو أمزقها بدون أن أعرف محتواها؟ لماذا عليَّ أن أفتحها لتضربني كلماتها كسهام لا تجد لها بقعة للاستقرار إلا فيَّ، ولأشرب سُمها الذي لم يجد إلا كأسي ليستقر فيه؟ إذًا لا داعي للغضب، لا داعي للغضب"، وسرعان ما هدأ بعدما نجح في تقديم تبريرات أقنعت غضبه بالانسحاب.

قرر وهو ينظر إليها عدم قراءتها وإلقائها في أحد الزوايا وتغطيتها بكتاب كي لا تلفت انتباهه، فتقدم إليها وفعل بها كما خطط، ولكن قرار تغطيتها لم يُؤدِّي وظيفته، فبالرغم من أنها غير ظاهرة لعينيه، إلا أن عينيه تراها، وأذنه تسمع ضجيجها، ويده تستشعر ملمسها، وأنفه يشتم رائحتها، فقرر إرجاعها لمكانها، فحاله بمكانها السابق أفضل.

وبعدما نهض لإرجاعها، عاد للجلوس مكانه وأخذ يُحدِّق بها مجددًا، وفجأة قرر وهو متردد أن يلتقطها ويقرأها، فلما تقدم وأمسك بها، رجع وألقاها بعيدًا عنه بدون أن يفتحها، وعاد للجلوس والرعب والحيرة يملئانه.

كانت حالته هذه ارتدادات ماضي عانى فيه من جحيم تدخلاتهم في حياته، ومن جحيم وسائلهم التي لم يكونوا يطيلوا استخدام أحدها للإبقاء عليها قادرة على إيذائه.

بعدما كان شديد التردد يُقدِم ويُحجِم، عاد يُحدِّث نفسه بعدما تذكر صراعه مع الجدار قائلًا: "إذا لم أنتصر على نفسي وأفتح هذه الرسالة فكيف سأنتصر على الجدار!" فاستعاد عافيته بكلماته هذه وتماسك وطرد تردده، وتقدم نحوها ثم أمسك بها وأخذ يقرأ: "اليوم الساعة الخامسة سيكون حفل زفاف شقيقك، وعدم حضورك سيحزنه كثيرًا. جهَّزنا لك كل ما سيلزمك لتغيير مظهرك.".

وما أن انتهي من قراءة الرسالة القصيرة مقارنة بالرسائل السابقة، حتى اجتاحه غضب أشد، كانت على إثره يداه ترتعشان، وشهيقه يكاد يبتلع كل هواء غرفته بجدرانها، وعلى إثر ذلك مزق الرسالة، ثم أخذ يتوعد الجدار بالانتقام على كل أذى ألحقه به.

كان قد استنتج من الرسالة أن عدم قبولهم بمظهره نوع من التسلط ورغبة بالتحكم. لقد شعر أن كلماتها بصقت في وجهه، ككلمات الرسائل السابقة.

بعدما هدأ، أخذ يحلل ويستنتج كما يفعل بعد كل انفعال عاطفي، فلقد كان يسعى للتعرف على جميع نقاط ضعفه التي يستهدفه منها الجدار لكي يتغلب عليها ويبطل تأثيره عليه. لقد كاد يفقد عقله من كثرة إخضاعه للتحليل بعد كل حركة ونظرة وصوت وفعل ورد فعل ومن كثرة الاستنتاجات.

بعد لحظات صعبة مرهقة عاد للخبر الذي أسعده في الرسالة وهو زواج شقيقه. كانت هذه اللحظة قد أعادت القدرة لذاكرته المعطلة منذ زمن بعيد، فأمدته بصور جميلة من الماضي معه، أخذت تعرض له تلك اللحظات التي كان يقضيها معه عندما كان يتشارك المعيش معه في غرفة واحدة، وأخذت تعرض أمامه اللحظات الجميلة مع صحبة الشمعات السبع. أخذ يتذكر كيف كانا روح واحدة بجسدين، يطرد ويُغطي كل منهما نقص الآخر وعيوبه، أخذ يتذكر كيف كان إذا أخطأ أحد منهما قام الآخر بإرشاده، وإذا أصاب قام الآخر بكيل المديح عليه، وأخذ يتذكر تلك اللحظات التي

كانا فيها شديدي الحرص على عدم تفويت أيَّة مناسبة للاجتماع عند جدهم، حيث هذه المناسبات فيها تلك الجلسات التي تزخر بحوارات سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية وتكتظ بمتحاورين بارعين وعلى قدر عالي من الإحاطة، حيث كانت هذه الجلسات يشعر كل منهما بقيمته التي لا تشعرهم فيها جلساتهم الترفيهية التي كانت شبه يومية مع أصدقائهم.

منحه الشريط الذي عرضته له ذاكرته راحة وهدوء وسكينة انعكست آثارها على وجهه، التي حالت معاركه مع الجدار لفترة طويلة دون استيطانها له لفترة طويلة، فكانت لحظات تحوله تلك كمن انتقل من الجحيم إلى النعيم.

لقد أثَّرت العزلة على مشاعره وعواطفه لكنه كان ما زال يُقدِّر تلك الأيام ولكن بدون شوق لها. لقد استنفذ طاقة قلبه فقط في كره الجدار، ففقد اهتمامه بالخلف، واستحوذ الأمام على كل اهتمامه ففيه وحده يرى انتصاره على الجدار.

حتى ذاكرته التي عادت للعمل لم تكن تحوز قدرًا كبير من الماضي البعيد ذلك الماضي الذي فيه كانت الأحاسيس والمشاعر والعواطف تتفاعل بازدحام وكان فيه إقبال على الشهوات وانجرار وراء الرغبات، فلقد استغنت عن قدر كبير مما تحمله لتكون قادرة على استيعاب البيانات التي يحتاجها لأبحاثه والتحليلات والاستنتاجات التي يحتاجها في إسقاط الجدار. لقد تنازلت ذاكرته عن الكثير لتتيح مجال أكبر لاستيعاب تجاربه في حربه.

وضعه خبر زفاف شقيقه في حيرة كبيرة، فأمضى وقت طويلًا مترددًا بين خيار الخروج وتهنئة شقيقه وبين خيار البقاء في غرفته، وبالرغم من ذلك لم ينجح في أن يميل لأحدهما.

عندما أدرك أنه أضاع وقتًا ليس بالقصير، التقط كتاب وأخذ يقرأ، متجاهلًا حيرته ومؤجلًا إياها إلى وقت ضيق يجبره على الاختيار، بدلًا من إضاعة الوقت في ذلك.

كانت أصوات الاحتفالات والاستعدادات قد بدأت تخترق جدران غرفته ولكن بالرغم من ذلك كانت عاجزة عن إعلان نفسها له، فلقد كان قد غرق في عالم كتابه، غرق لعمق لا تخترقه أشد الأصوات ضجيجًا. لم يكن بسبب انسجامه واندماجه في حال انهار العالم بجانبه سينتبه لذلك، لقد كان حيث لا يمكن لأحد أن يكون إلا إذا كان قارئًا.

بعد مضي ساعات عاد إلى غرفته من عالم كتابه، فلاحظ أن لا أصوات لأغاني ولا لتهاني ولا لتجهيزات، ولا لأطفال يلهون، فاستنتج أنَّ الجميع انطلق إلى حيث يقام الحفل. في تلك الأثناء عاد لحيرته المؤلمة، فأخذ يُقدِّر عواقب اتخاذه القرار بالخروج ويرى إذ كان بإمكانه تحملها، وبعد عناء قرر الذهاب إلى الحفل مخاطرًا غير واثق بصواب قياسه، فكان يحاول تشجيع نفسه بحثها على التصديق أن الاحتكاك بالناس

والالتقاء بهم قد يُلهمه أداة أو وسيلة أو نهج بحربه مع الجدار، ولهذا لم يكن الماضي مؤثرًا على قراره، فلقد قرر الخروج بهدف المستقبل لا الماضي من أجل هزيمة الجدار لا من أجل حبه لشقيقه، ولكنه كان يحاول تضليل نفسه بأنه يفعلها لشقيقه ليبقي على كونه إنسان، فكان يقول متأففًا: "كم هو مثقلنا ماضينا بالالتزامات، حقًا إن هذه الالتزامات عبء ثقيل. ليت لم يكن لي ماضي، ليتني لم أوجد."

كانت لحظات صعبة مرهقة له، حيث عليه إعداد نفسه وتهيئتها للالتقاء بالناس وهو الذي لم يغادر غرفته ولم يلتقي بأحد منذ سبع سنوات. كان قراره بالخروج قد أثقل عليه بمهمة تهيئة نفسه لصدمات الجديد، تهيئة نفسه والاستعداد لرؤية الجدار والتعرف على وسائله الجديدة وأثرها على الناس.

لقد كان عليه تهيئة نفسه لارتدادات عزلته الطويلة عليه في تفاعله بالكلام والمشاعر وتعابير الوجه وحركات اليد وحركات الجسد مع الناس، كان عليه تهيئتها لمجاراتهم، والتنازل لطلباتهم منه بالتفاعل معهم سواء بإبداء رأي أو مبادلة تحية أو مبادلة ابتسامة، أو مبادلة حديث.

وبعد لحظات مضت وهو يحاول محاكاة وجود الناس حوله، والدفع بمحاولات تلو المحاولات في التحدُّث والتفاعل معهم، نهض لارتداء ملابسه التي لم يكن بحاجة لارتدائها لسنوات سبع، فنفض عنها الغبار الذي لبسها وشرع بارتدائها، وما إن فرغ حتى أمسك مفتاح غرفته بخوف وأخذت يداه المرتعشتان تحاول فتح الباب لتكذيبه في إعلان نفسه جدار، وما إن خطى أولى خطواته خارجها حتى وقف ينظر إليها وهو يبعد عنها بضع خطوات مُحدِّثًا إياها، بالقول: "أرجوكِ كوني معي، رافقيني حيث أذهب، لا تتركيني وحدي"

أخذ يذرع ممر الغرف الطويل والضيق جيئةً وذهابًا محاولًا تليين عظام قدميه التي تصلبت من عدم الاستخدام لفترة طويلة، كطفل يحاول أن يخطو خطواته الأولى يترنح شمالًا ويمينًا. كانت أجواء الخارج مُرهقة له، فلقد اعتاد على أجواء غرفته الخانقة، اعتاد على مقدار قليل من الأكسجين، ولهذا شعر أن الهواء النقي يخنقه لا يُحييه.

بعدما استقر على مشية مُتَّزنة، ذهب ليقف أمام أحد المرايا، وإذا به يصطدم ويتفاجأ بالتغيرات التي طرأت على مظهره، فلقد لاحظ ظهره على درجة واضحة من الانحناء كظهر عجوز، وجسده نحيل كأجساد أطفال في بلدان المجاعات والأوبئة الأفريقية، وشعر رأسه ولحيته الأسود بياضه يصارع سواده، ووجه المشدود ها هو تملأه التجاعيد بالرغم من سنينه التي تشير إلى مكوثه في مرحلة الشباب، ولقد لاحظ شحوب وجهه بل إنه رأى وجهه في الإرهاق لا الإرهاق في وجهه، وعيناه اللامعتان اختفى اللمعان فيهما.

أخذ يتفحص كل جديد فيه، وبعدما انتهى تراجع خطوة ثم أخذ يُحدِّث صورته في المرأة، قائلًا: "ها نحن أيها الجديد المنبوذ الغير مرحب بك منهم نلتقي. إنني سعيد بلقائك. لربما حُقَّ لهم أن يكرهوك ولكن لا حق لهم في أن يرفضوك. إنك حقًا كصورة الحياة الميتة، لهذا يرفضوك، لأنك تذكرهم بما يحاولون تجاهله. أحسنت يا عمر، لقد نجح مظهرك في طرد زيف الحياة فيك. إنك يا مظهري مكروه ومرفوض لأنك حقيقة وسط الزيف والوهم الذي نصَّبوه حقيقة. ها هي الحياة متمثلة فيك على حقيقتها. كم أنا مرتاح بك يا جديدي، كم أنا فرح بك. هذا ما وجب أن تكون عليه منذ فترة طويلة يا مظهري، كم أنت جميل بقبحك!" وأخذ يبتسم ويتحسس وجهه وشعره لدقائق أمام المرآة.

بعدما فرغ من الوقوف أمام المرآة وأخذ يسير مبتعدًا، وقع نظره على معدات الحلاقة التي جهَّزوها، وعلى البدلة الأنيقة التي اقتنوها له، فأخذ يقول: "ليس اليوم يا مزيفات المظاهر والهيئات"، ورجع يمشي ذهابًا وإيابًا في الممر.

جلس بعدما وزَّع المقاعد حول طاولة كان يحاول تخيل وجود الناس حولها يتدرب على إجراء الحوارات، ولكنه في تلك الأثناء غفل عن أنَّ المواضيع التي اختارها لنقاشاته وحواراته، مواضيع ليست مطروقة من عموم الناس. بعدما انتهى أخذ يحاول إيجاد وضعية جلوس مناسبة لكي يتخذها حين جلوسه وسط الناس، وبعدما استقر على وضعية وقع نظره على ساعة مُعلَّقة على الحائط تشير إلى الرابعة والنصف، فنهض للانطلاق بعدما قدَّر أنه لم يعد يملك الوقت لتقليص مفاجئات الجديد التي ستتيح له تركيز أكبر على التعامل مع جديد الخارج سواء كان بشر أم أماكن أم تصرفات.

التقط مفتاح الشقة من مكانه فشعر بأنه التقط مفتاح الجحيم، فكانت دقات قلبه قد زاد تسارعها، وجميع ما استجمعه من قوة وثقة بقراره في أثناء فتحه الباب للخروج قد تبعثر.

كان يتساءل في تلك اللحظات قائلًا: "أأنا قادر على فعلها؟"، ثم التفت إلى غرفته التي أغلقها بالمفتاح وقال وقلبه ممتلئ بالخوف "كوني معي أرجوكِ".

بعدما فتح الباب، أخذت نظراته تسبق خطواته في استطلاع ما هو في الخارج، يتفحص كل ما هو حوله من نوافذ وأبواب ودرجات.

بعدما خطى أولى خطواته للخارج وأغلق الباب، شعر بوحدة استنزفت قواه وحدة كوحدة الكون، وحدة كوحدة الإله، وحل فيه شعور بالفقدان لا يُحلّه خسارة الوطن والمحبوب، وحده ما يكافئه شعور فقدان الصديق.

لم تكن خطواته أثناء النزول على السُلم مُتَّزنة، فشعر بدوار خفيف تمكَّن منه بعدما عاد لمشيته استقرارها في أثناء سيره في الممر الضيق الطويل للمبنى الذي يقطن فيه، لإحساسه بالسير فيه بمشابهته لطريقه الخاص الذي ألزمه به هدفه.

عندما فتح باب البناية التي يقطن فيها للخروج انهالت عليه المفاجئات التي كادت تفقده صوابه، رأى أبنية أطول وأكثر التصاقًا، رأى حيّه قد تحول لمنطقة تجارية تكثر فيها محلات بيع الملابس والأطعمة ومستحضرات التجميل. كان نتيجة الازدحام قد تعاظم اضطرابه، وبذهوله ذاك وبمظهره لم يكن من يراه سيستبعد أنه من عصر غير عصرهم.

وقف أمام الباب الذي خرج منه لعشر دقائق مصدومًا، بلى حراك كأنه تحول إلى حجر، فلقد كانت المفاجئات كثيرة جدًا عليه أكبر من قدرة عقله على احتمالها.

بعدما بدأ يستعيد شيئًا من وعيه، شعر بأنه في عالم عملاق جدًا، عالم أكبر مما كان عليه، حصار أفتك بالبشر، شعر بأنه جزء صغير جدًا جدًا جدًا، وكان ذلك الشعور يباغته للمرة الأولى في حياته نتيجة لمكوثه الطويل في غرفته.

كانت الأصوات بكثرتها وتنوعها تشعره بالضياع، تشوش عليه حضوره، تسلب منه استقراره الذي يحاول جاهدًا استرجاعه لكي يستطيع اللحاق بالزفاف، الذي كان بجهد كبير مُرهِق قادرًا على الاحتفاظ به كسبب لخروجه بسبب ضياعه، فكان الحقل كشعاع متقطع على أثر الصدمات التي تلقاها.

كان الناس في الشارع يحاصرونه بنظراتهم التي كانت كأنها تشتكي من مظهره، فكانت كجدران تعتصره. كان يشعر كأنه ميكروب تحت عدسة مُكبرة خاضع لفضول الناظرين وتطفلهم. لقد شعر بأحاسيس متضاربة في تلك اللحظات، فقد أحس بأن العالم واسع جدًا وفي ذات الوقت ضيق جدًا، أحس بالجديد والقديم، أحس بالجميل والقبيح، أحس بالحياة والموت.

بعدما استعاد قدر كافي من وعيه الذي ذكَّره بسبب خروجه، سار بضع خطوات قاطعًا بها الشارع، ثم استقل سيارة تاكسي. كانت الخطوات تكاد تكون معدودة على أصابع اليد الواحدة، ولكنه شعر بأنها أميال، فكانت مشيته فيها غير مُتَّزنة، بالرغم من الوقت الذي أمضاه في التدريب، كان كأنه لم يكن فيه، كأن جسده تُرك ليتحرك بدون أوامره. لقد كان يسمع أصوات تَحطُّمه وتناثره، لقد شعر بعنف متوحش استطاع أن يخل بتوازنه، شعر بأن لهيب من جهنَّم يلفح وجهه، شعر بحصار استنزف كيانه، فأخذ قلبه يرتجف في صدره، وجسده يرتعش وينكمش انكماش قنفذ.

كانت نظرات الناس الغير منقطعة وضحكاتهم تخترق سمعه والسخريات والنكات على مظهره كسهام لا تجد موضعًا إلا فيه.

كان في تلك اللحظات قد قرر بالرغم من اضطرابه أن يخرج منه، ليقف بجانب كل من يراه هازئًا وساخرًا ومحاصرًا بنظراته وضحكاته، ليرى صموده وانكساره أمامهم،وليتعرف على كيفية اصطياده، ليرى أثرهم فيه، وليتابع ويشاهد بحرص أثر مظهره في نفوسهم، ويتابع تفاعلاتهم مع ما يشاهدونه، ليقيس بذلك مقدار جهلهم وانتمائهم للجدار.

كان يغوص إلى أعماق نفسه ونفوس الآخرين لالتقاط أخفى خلجاتها ولسبر تناقضاتها والتعرف على أمراضها، كان يحلل ويستنتج حتى في أشد حالاته اضطرابًا، لكي يتعرف أكثر على أسلحة الجدار التي يستهدفه بها، لكي ينال خطط تمنحه النصر، لكي يُعظِّم من كرهه للجدار الذي كان يتَّخذه كحافز في بعض اللحظات لعمل أكبر واجتهاد أكثر.

بعدما استقل السيارة وأخبر السائق بوجهته، شعر بوجوده فيها أنه أكثر استقرارًا واتزانًا، أحس بأن جدران وأبواب السيارة وشبابيكها وسقفها جميعهم ساعدوه على استجماع قوته، فكأنه بحصار جدران السيارة له طرد شعوره بالحصار، كأنه بالضيق طرد شعوره بالضيق، كأنه بالاختناق طرد شعوره بالاختناق.

لقد شعر بأنه تلقى المساعدة في تقليل صدمات الجديد من جدران السيارة ونوافذها، فكان ينظر من النوافذ بثقة، كأنه في مكان مُدرَّع يوفر له حماية فريدة، فلا أحد قادر على إيذائه أو النفاذ إليه منه، في حين هو قادر على النفاذ منه إلى كل شيء. كان في السيارة يشعر بثقة كبيرة كجندي في مُدرَّعة حديثة أو في طائرة هي الأكثر تحصينًا بسرعتها وتخفيها وقدراتها الهجومية.

تذكر وهو في السيارة أنه بحاجة إلى تجميع قدر أكبر من الاستعداد والاستقرار والاتزان يكون قادرًا معهم على الصمود أمام ضرر أكبر سيتسبب به له التقاءه بالمدعوين للحفل، فتوقف عن تحدي الجديد، وأخذ ينظر إلى السماء بشكل لاإرادي بدون أن يتذكر عادته مع إبراهيم، فمنح له صفاؤها ما كان يطلبه، فكان لتلذذه بنسمات الهواء المتسربة من النوافذ التي تُركت مفتوحة قليلًا لتجديد الهواء، وبأشعة الشمس أثر أكبر مما كان يطلب ويتمنى، فحل فيه قدرًا كبيرًا من الهدوء والسكينة والطمأنينة.

لقد شعر في تلك اللحظات برغبة شديدة بالنوم، ولقد نجح النوم في اختطافه لدقائق ولربما هي لثواني، قبل أن يوقظه صوت السائق الخشن وهو يقول بنبرة تحمل تعابير الشاعر بالملل والاختناق: "ها هو عنوانك."

بعدما أعطى السائق حسابه وترجَّل من السيارة، شعر بأنه وصل لأبواب الجحيم، فكان جميع ما حصَّله من هدوء واتزان قد تناثر، كأنَّ الاضطراب لوح للهدوء بسيفه فهرب غير ملتفت لمعاناة تحصيله، لقد انتزع الخوف الذي كاد يميت قلبه منه اعتراف بأنه أخطأ في قراره بالخروج.

عندما تقدم ودخل المبنى وقف أمام البوابة وأخذ يُحدِّث نفسه محاولًا اكسابها الشجاعة: "لا داعي للخوف، لا داعي للخوف".

دفع البوابة وخطى خطوتين للداخل ثم توقف. كانت قدماه بالكاد تستطيعان حمله، وكاد من شدة اضطرابه يبكي. استجمع قوته بعدما اكتشف أن وجوده لم يُلاحظ بعد، وأخذ ينظر إلى الحضور، فتعرف على القليل ممن لم يكن التغيير الحاصل عليهم لمرور السنين مؤثرًا بشكل كبير في ملامحهم.

بعد لحظات من وقوفه اكتشف الحضور وجوده ولم يتعرَّف معظم معارفه عليه، وأخذ الجميع يستهدفونه بنظراتهم التي أحس بها كأنه مخطئ يُنفَّذ فيه حكم الرمي بالرصاص.

أصابه ارتباك شديد بنظراتهم، ولكي يُخفي ارتباكه أسقط قلم كان ملتصق بيده عمدًا ونزل ليلتقطه ولكي يطيل تجاهلهم لعلَّهم يتجاهلوه، أخذ يدَّعي بحاجته لربط حبل حذائه، وكان يُحدِّث نفسه قائلًا آن ذاك: "أنت قادر على تجاهلهم. أنت قادر على فعلها، فقط بضع خطوات وستصل لأخيك لتهنئته ثم تذهب للجلوس في أحد الزوايا بعيدًا عن الجميع وبعيدًا عن نظراتهم."

وقف وأخذ يبحث عن شقيقه ببصره ليرسم لنفسه أقرب مسار، وفي أثناء بحثه وقع بصره على أفراد عائلته ولاحظ أثار الصدمة على وجوههم التي أحس أنهم سارعوا إلى إخفائها، فقدر في تلك اللحظات أن الصدمة كانت لحضوره غير المتوقع لا بسبب مظهره، وأحس أن طلبهم بتغيير مظهره لم يكن شرطًا بل رجاءً.

أسرع شقيقه الأصغر إليه واقتاده من يده إلى حيث يتواجد شقيقه العريس الذي احتضنه بعد تلقي التهنئة منه وشكره على قدومه وقطعه لعزلته، ليشعر بتلك اللحظة الدافئة بأن دفعة كبيرة من الذكريات الجميلة له معه تُعرض أمامه في آن واحد، ليصيبه دوار كاد على إثره يسقط على الأرض مغمى عليه.

بعد التهنئة انشغل شقيقه بمهنئيه، فانسحب بهدوء وخفة للجلوس في أحد الزوايا التي وجد فيها ضجيجًا أقل. ومع مرور دقائق على تخفيه وجلوسه بعيدًا عن الازدحام شاهد أصدقاءه القدامى وبعض من أقاربه الشباب يشيرون إليه ويسألون شقيقه الأصغر عنه بعدما لم يتعرفوا عليه، فلقد كان هو من استقبله.

ارتسمت على وجوههم آثار الصدمة من مظهره، فكأنه ليس هو الشخص الذي عرفوه سابقًا، وما هي إلا لحظات حتى وجدهم يلتفون حوله يهنئونه بزواج شقيقه.

بعدما انتهوا من تقديم التهاني تناول بعض من أصدقائه القدامى وبعض من أقاربه الذين تتقارب أعمارهم مع عمره مقاعد من حولهم وجلسوا بجواره.

كان كل منهم يهدف إلى إشعاره بالأمان، فلقد لوحظ عليه اضطرابه من المخالطة ومن نظرات الناس التي لا تنفك تترصد جميع حركاته، بالرغم من إحساسهم بالأمل من تعرُّف بعض الحضور عليه.

سادت لحظة صمت بعدما جلسوا حوله، فكان يبدو على الجميع التردد في طرح أسئلتهم والاستفسار عن أحواله. لقد كانوا غير قادرين على تحديد ما يمكن الكلام معه فيه، خائفين إذا ما سألوه عن أحواله أن يغضب ويزداد ارتباكه، وإذا ما حدثوه عن أنفسهم أن يمل ويهرب راجعًا إلى غرفته، وإذا ما حدثوه عن أحوال المدينة التي تزداد خنقًا لسكانيها أو إذا حدَّثوه عن النشاط السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي فيها، أن يشعر بحاجته إلى مزيد من العزلة.

أخذ ينظر كل منهم للآخر محاولةً في حثه على السؤال أو في طرح موضوع للنقاش فيه يبددوا به أجواء الصمت المُربكة للجميع، ولكن من دون أن تجدي النظرات بينهم في دفع أحدهم، فلا أحد منهم يريد تحمل مسؤولية فتح موضوع أو طرح سؤال يكن هو السبب به في هروبه من الجلسة.

كانوا جميعهم كمن بينهم اتفاق على مراعاة حالته، والحذر من نظراتهم وحركاتهم ومواضيعهم وأسئلتهم، ولقد شك هو في وجود مثل هذا الاتفاق بينهم.

لم يتقدم أحد لكسر لحظات الصمت تلك، ليقرر هو أن يتقدم، فأخذ يوجه الأسئلة، فيسألهم عما إذا كانوا قد تزوجوا ويسأل من أجابوه بنعم عما إذا كانوا قد أنجبوا الأبناء، ويسألهم عما إذا كانوا يعملون أم لا. لم تكن أسئلته هي أسئلته بل أسئلة سكان المدينة جميعهم، فلقد كان يحاول مجاراتهم.

عندما كان يَسأل كان يشعر كل من يُوجه له السؤال أنه نال تصريح في المنطقة التي يسمح له الحديث فيها، فلا يزيد ولا ينقص.

أجابه البعض بأنهم تزوجوا وأجاب البعض الآخر بالنفي معللين ذلك بعدم قدرتهم على إيجاد مسكن أو وظيفة يستقرون فيها أو عائد منها يُمكِّنهم من تحمل تكاليف الزواج. وأجاب البعض ممن تزوجوا عن سؤال الأبناء بحيازتهم لهم وأجاب البعض بأنهم يعترضون على خطوة الإنجاب في أحوال كأحوال مدينتهم. وأجاب بعضهم عن سؤال "ما إذا كانوا يعملون؟" بأنهم يعملون بشكل متقطع وأجاب البعض بأنه يعملون فقط في الشهور التالية لكل حرب فالفرص تكون متاحة بعدها أكثر، وبأنهم يكونون عاطلين عن العمل إلى أن تحل حرب جديدة أي بعد ثلاث سنوات أو أربع.

قال أحدهم موجهًا سؤاله إليه:

- وأنت ألا تفكر في الزواج؟

- ربما سأفعل ولكن بعد عشر سنوات من الآن.

- لماذا عشر سنوات؟

- لأن الزواج ليس في قائمة أهدافي الحالية.

- لماذا؟

- لأنه قد يعيق سعيي لتحقيق أحد الأهداف فيها. إن الزواج يتطلب مني تقديم تنازلات أنا غير مستعد لتقديمها بعد.

- تنازلات غير مقتنع بها تقصد؟

- لا بتاتًا، ما أقصده تنازلات لا يسمح وقتي بتقديمها.

- حظًا موفقًا إذًا.

- ولك ذلك.

وأخذ يُحدِّث نفسه قائلًا: "أيؤمن الناس بوجود الحظ إلى اليوم، أمر عجيب حقًا!"

واستمر التمسك بأسئلة التعارف لدقائق عشر، كانت أسئلة لا تتعمق في خصوصياته، ولا تتفحص مساراته، ولا تنتقد قراراته، أسئلة كان هدف الاستمرار في طرحها عدم الرجوع لحالة الصمت الماضية.

تجرأوا بعد ذلك على طرح مواضيع للنقاش وأخذوا يتحدثون فيها بدون الإلحاح عليه وبدون إهماله أيضًا، يحاولون باجتهاد تجنب المواضيع التي قد لا تثير اهتمامه، محاولين كلما طال صمته إشراكه بطلب رأيه أو إصدار حكمه، فكان بدوره معجبًا بتطور قدرتهم على انتقاء مواضيع شيقة ومفيدة ومعجبًا بأسلوب نقاشهم وقدراتهم الحوارية، ومعجبًا بالتطور الحاصل على شخصياتهم، مُعللاً ذلك باشتداد الحصار والمعاناة في أحيان وبالثورات التي انتشرت في المحيط في أحيان أخرى.

لقد كان طوال تلك اللحظات بالرغم من مشاركته في الحديث معهم يشعر بأنه محاصر، فالأصوات والأماكن والصور والمشاعر من حوله كثيرة، كان يشعر بالضيق والاختناق ولكنه بقي يقاوم ويحاول الصمود عن طريق إدخال نفسه في غرفته بل بإدخال غرفته فيه.

بعد نقاش استنفذ الجميع قدراتهم في إثرائه عمت لحظات صمت استغلها أحد أقاربه فسأله:

- سبع سنوات، أليست كثيرة؟

تفاجأ من الرقم، فلم يكن قد أدرك بعد أنه أمضى سنين سبع في عزلته ثم قال:

- لا أعلم لربما هي كذلك.

- لم أكن أتوقع حضورك للحفل، لو علمت بنيتك للحضور لقمت بزيارتك مصطحبًا معي حلاقًا ماهر لم يكن سيتردد بالحضور معي للصداقة القوية بيني وبينه، ولأحضرت لك معي بدلة أكثر أناقة عليك. هل هناك سبب لحضورك بهذه الهيئة؟

شعر كل من حوله أن جهودهم لاحتوائه ضاعت هباءً بهذه الكلمات التي شعروا بأنها ستشعله غضبًا وتدفعه للعودة لغرفته والتزام فراشه ثم لا يبارحه بعد ذلك إلا إلى القبر. فأخذوا يرمقون المُتحدِّث بنظرات استحقار وودوا لو كان بإمكانهم إحالة السباب عليه وإمطاره بأقبح الشتائم، وطرده من جلستهم، ولكنهم بدلًا من فعل ذلك أخذوا يتهيؤون لردود فعله الغاضبة والحانقة، ويجتهدون بإيجاد الحلول لها.

بعد مضي لحظات كانت الأجواء فيها متوترة مترقبة ممتلئة بالحذر، تفاجئوا باستمراره بالاحتفاظ بهدوئه رغم الكلمات التي شعروا بأنها ستشعله غضبًا. كان في تلك اللحظات يحاول دفع نفسه لتحضير رد وقح ولكنه كان عاجز فكان يُحدِّث نفسه بسبب ذلك العجز قائلًا: "ما زلتُ كما أنا عليه، عاجز عن رد الوقاحة بوقاحة".

ثم قال بهدوء شديد:

- لن أُجيبك بأنني مرتاح بما أنا عليه كما يُفترض أن أُجيب قليلي الفهم والذوق، لثقتي بقدرة عقلك على احتمال وفهم إجابتي.

ثم توقف للحظات بان من نظراته الثابتة التي لم تكن تستهدف شيئًا انشغال باله وفكره، ثم عاد يقول:

- أرى أنه يقع على عاتق كل فرد مسؤولية تبني اختلاف سواء في المظهر أو الفكر. باختلافي أُقدم خدمة لمجتمعنا الفقير وهي جعله معتادًا على التنوع، فلربما بالعادة أُوجد لديه التقبل.

شعر الجميع من حوله بغموض إجابته، وعلى الرغم من ذلك لم يجرؤوا على طلب مزيد من التوضيح، فلقد وجدوا أن السؤال بحد ذاته لم يكن من اللائق طرحه أو من المناسب طرحه في تلك الأثناء، وحاول أحدهم اصطحاب السائل معه متحججًا برغبته في مرافقته ومساعدته بجلب بعض المشاريب، ولكنه فشل أمام إصراره على البقاء.

أخذ السائل بعدما تلقى إجابة عمر التي شعر بغموضها وعدم ارتباطها بسؤاله بمطالبته بتوضيحها، بالرغم من نظرات الجميع وتلميحاتهم التي تحثُّه على السكوت والتراجع.

قال عمر بهدوء وبسلاسة أكثر، محاولًا التوضيح تنازلًا لطلب سائله:

- بالاختلاف يوجد الخيار وبالخيار يوجد التنوع وبالتنوع توجد الحرية.

ارتاح جميع من حوله لهدوئه وعدم انزعاجه، واستغلوا ذلك فتراجعوا جميعهم عن ترددهم وحذرهم وخوفهم وتوقعاتهم بردود فعل غاضبة، وتخلوا عن نظراتهم التي تطالب السائل بالصمت، وذهبوا ليطالبوا عمر بمزيد من التوضيح والحديث بشكل مباشر.

أدرك عمر آن ذاك أنه إما بإجابته كان غامضًا وإما هم بعدم إدراكهم لمقصد كلامه ذوي قدرة ضعيفة على الربط والتركيب، فبقي صامتًا للحظات ظنوا حينها أنهم استفزوه وأغضبوه، ليأخذوا بتبادل النظرات المتسائلة عما جرى له، وبمحاولة دفع بعضهم البعض للمساهمة بتلطيف الأجواء ولكن بدون أن يسهم ذلك في مبادرة أحدهم لتغيير الموضوع، وعلى حين فجأة تخلى عن صمته وتوجه إليهم بطلب فقال:

- أرغب بشدة في التعرف على شروطكم للقبول بالاختلاف، لكي أُقدِّم لكم مزيد من التوضيح، ولكي أتمكن من الوصول إليكم وأُمكِّنكم من الوصول إلي.

أخذوا بإجابته، فقال أحدهم "الاختلاف محمود ومقبول إذا كان متوافقًا مع الدين"، وقال آخر " الاختلاف مقبول إذا كان غير مخالف للعادات والتقاليد"، وقال آخر "الاختلاف مقبول إذا كان متقبلًا شعبيًا"، وقال آخر "الاختلاف مقبول إذا كان متقبلًا قانونيًا"، وقال آخر محاولًا تجميع ما طرحه الآخرين "الاختلاف مقبول إذا كان متوافق مع الدين وغير مخالف للعادات والتقاليد ومتقبل شعبيًا وغير محظور قانونيًا"، ووجد بذلك أنه أرضى الجميع وحاز موافقتهم.

ثم نظروا إليه نظرات بان منها شعورهم بأنهم أحسنوا الإجابة، نظرات بان منها استعدادهم لنيل المديح والموافقة، ثم أخذوا ينظرون إليه نظرات انتظار واستعداد للقادم لتأخره في التعليق.

بعدما طال صمته، أدركوا حينها أنه لا يلجأ للصمت تعبيرًا عن غضب أو استياء أو عدم رغبة في التحدُّث، وإنما ليأخذ وقته بالتفكير فيما تم طرحه وفيما سيُطرح، لقد اكتشفوا أنه لا يتحرج من أخذ وقت طويل في التفكير والبحث عن إجابة تُرضيه.

قال بعدما أخذ وقته بصوت هادئ منساب بسلاسة وانتظام ساكبًا الماء البارد على حماسهم ومطفئًا ثقتهم ومغتالًا فرحتهم ومخيبًا آمالهم:

- بشروطكم هذه للاختلاف أنتم ترفضونه، والأسوأ من الرفض أنكم غير مدركين بأنكم لا تؤمنون بوجود اختلاف يمكن أن يحظى بقبولكم. نعم لا شرعية لشروطكم. إنَّ الدين يُحرِّم وإنَّ العادات والتقاليد ترفض وإنَّ الشعب يعترض وإنَّ القانون يمنع،

فمن يحفظ هذه وتلك من الاستغلال؟ كل من يدافع عن الإلزام الخارجي الذي يحاول البعض تصويره تارة كدين وتارة كقانون وتارة كتقليد وتارة كرغبة غالبية لا يقف في أنه يعتدي على المخطئ بل أيضًا يدفع المُصيب للتغاضي عن إلزامه الداخلي. إذا نظرنا لتلك المجتمعات التي حُظر فيها الاختلاف، سنجد أن المنع أوجد لديها الرغبة بتقليد الآخر التي كانت بدورها مفتاح لأبوابه التي عجزوا أمامها عن الانتقاء واختاروا الاحتواء ككل، وبذلك كان المنع والتعنت والشدة في الانغلاق سبب في إساءة الاختيار عند الوصول والانفتاح، فالانغلاق والمنع أدخل للنفوس الشعور بالحرمان المصاحب للرغبة في الإتيان، وهكذا فسدت الأذواق وتعطشت وتهدمت الحدود وتكسرت. إن حفاظكم على أديانكم وعاداتكم وتقاليدكم وشعوبكم وقوانينكم يكون بنزع الإلزام الخارجي منها. إن التردد في القيام بذلك يسهم في الإضرار بالموروث ونفيه.

كانت كلماته تتوه في مسارات لا توصل إلى مسامعهم، وحدها صورته وهو يتحدَّث من كانت تصلهم، فقال محاولًا تغيير الموضوع لتجنب الحديث فيه أكثر بعدما لوَّح له عجزهم عن الإحاطة مستوقفًا:

- ماذا تخططون للمستقبل؟

أجابه أحدهم:

- الاستمرار بالحياة.

- تقصد الاستمرار بالحياة البائسة.

- تبقى الحياة البائسة، حياة.

- لماذا كل هذا الخوف من رفض الحياة؟ ألا تأملوا برفضكم لها بحياة مُرفَّهة سعيدة؟

- إذا صبرنا على الحياة البائسة نلنا الحياة المُرفَّهة، وإذا لم نصبر كنا في عداد الموتى.

- إنكم بصبركم وخضوعكم موتى. أعجب كيف لا تدركون ذلك!

- ما هي الخيارات المتاحة لنا؟

فأجاب بغضب:

- ليس المهم ما هو متاح لكم، بل المهم ما أنتم قادرون ومصممون على إتاحته لأنفسكم.

- الموجود هو ما كنا قادرين على إيجاده، لهذا أرجوك كف عن اتهامنا بالتقصير والجبن.

- كم أود تحطيمها مراياكم هذه التي لا تكف عن تعظيمكم في تلك اللحظات التي تتطلب تحقيركم وعن تحقيركم في تلك اللحظات التي تتطلب تعظيمكم، تلك المرايا التي لا تتوقف عن إيهامكم بتناسب ما تبذلونه مع قدراتكم. الموجود في خيالاتكم وأمنياتكم هو الذي تملكون القدرة لإيجاده في واقعكم، ولهذا كفوا أنتم عن اتهام أنفسكم بالعجز. إنكم تعيشون على انتصارات أجدادكم، إنكم بدون انتصارات سعيتم فيها. نعم أنتم تفاخرون بالماضي لتقاعسكم عن القيام بما يوجد الفخر بالحاضر.

ثم عمت لحظات صمت، كانت الأفكار تتدافع وتتزاحم في عقله، فلقد أثار الحوار شيئًا فيه، فعقله بدأ يسأل ويسأل ويسأل ويتلقى بعض الإجابات، وكانت هذه الحالة رجاءه وطلبه منذ فترة طويلة، فوقف من فوره وخرج مسرعًا ثم استقل سيارة نزل منها راكضًا في لحظة توقفها بعد دفع الحساب، وصعد سلم البناية بسرعة كبيرة، وما إن دخل غرفته وأغلقها، حتى جلس إلى مكتبه وأمسك بقلمه وأخذ يكتب ثم يكتب ثم يكتب.

(3)

بعد مضي أسبوع على حفل الزفاف، اجتمع أفراد عائلته وبعض من أقاربه المقربين من العائلة وبعض من أصدقاءه القدامى في صالون شقة العائلة تنفيذًا لاتفاق تم بينهم، ليضيفوا محاولة جديدة إلى محاولات إخراجه من غرفته، وكانوا هذه المرة عاقدي العزم على النجاح بإخراجه.

كان الجميع يجلسون بالتفاف حول طاولة عليها ضيافتهم من كؤوس وأطباق ساخنة ومتدثرين بملابس ثقيلة من شدة البرد، وكانت أجواء جلستهم بسهولة ملاحظ فيها الحيرة والضياع وفقدان الوسيلة.

كان كل منهم يحاول تقديم مقترح لإخراج من لا يصفونه إلا بالجنون من غرفته التي يسمونها بالكهف لصغر حجمها وانعزالها عن باقي غرف الشقة، مقترح ينل عليه موافقة الأغلبية، مقترح يمنح الأمل للجميع بإمكانية الانتصار.

لم تنل مقترحات الجميع الموافقة بسبب اتفاقهم على تغيير أسلوب الترهيب والترغيب الذي اتبعوه معه طيلة السنوات السبع والذي جلب لهم الهزائم تلو الهزائم. لقد كان بينهم اتفاق على البحث عن أسلوب جديد يمنحهم النصر عليه، أسلوب يحررهم من يأسهم وتشاؤمهم، أسلوب يُنعش آمالهم بإمكانية تحقيق النصر، أسلوب يمنحهم الحماس لمحاولات جديدة.

لم تكن الأسئلة ترشده إلى أجوبة بل إلى أسئلة أخرى كان يعتقد أنها أجوبة في بداية اكتشافه لها. لقد طفح رأسه بها فكان يرددها بصوت مسموع عظَّم من مخاوفهم عليه والتي رجحوا بسببها أن استمرار حالته على ما هي عليه سيؤدي إلى رؤيتهم له معلقًا ذات يوم.

وبجانب خوفهم من الأسئلة التي لا يتوقف عن طرحها كان بحوزتهم دافع آخر لاجتماعهم ولعزمهم على تدشين محاولة جديدة، وهو خروجه لحضور حفل زفاف شقيقه، فكانت رؤيته حافز لهم للعودة إلى المحاولة معه من جديد، ولقد كان مطلبهم بتغيير مظهره ليس كما رجح أنه رجاء فلقد كان شرط، ولهذا كان سبب في غضبهم الذي كان أحد أسباب المحاولة الجديدة. لقد اعتقد البعض أنه بخروجه لحضور حفل الزفاف كان يستجديهم للقيام بمحاولة أخرى ليتخذها مبرر للخروج بعدما مل من عزلته وأصبحت ثقيلة عليه ومرهقة له، واعتقد البعض أنه بخروجه أيضًا كان في لحظة ضعف وشوق للخارج وجب عليهم استغلالها، وفرصة ثمينة لا ينبغي لهم

تفويتها، وكان البعض يعتقد أن البحث عن مناسبات جديدة لإخراجه ربما يسهم في اعتياده على الخروج وكسر عزلته.

لقد سيقت تعليلات كثيرة لخروجه وحضوره حفل الزفاف، كان الهدف من تقديمها إيجاد ثغرات يمكن الولوج منها إلى نقاط ضعفه والانتصار عليه. لقد كانت تحليلاتهم مجرد رغبات لديهم، ولكن حماسهم أعماهم عن إدراك ذلك.

بعد صمت طويل ساد الجلسة، تسبب به عجز الجميع عن تقديم مقترح فعَّال، نهض أحد أصدقائه القدامى وأخذ يمشي في الصالون طولًا وعرضًا، ثم قال بنبرة حذرة مُترددة وبنظرات مُتفحصة للوجوه تحاول قراءة ردود الأفعال على الكلمات ليُتيح لنفسه ابتلاعها في حال لاحظ أنها عنيفة:

- لماذا لا نخضعه لعلاج نفسي؟ لماذا لا نستعين بطبيب له سمعة جيدة في المجال؟

فكان لاقتراحه مفعول عجيب على الجلسة، فلقد بث فيها الحياة، فقرأ السائل في الوجوه ردود أفعال متباينة، فهناك المتفاجئة وهناك الفرحة وهناك الحزينة وهناك الغاضبة، فكان البعض يتبادلون النظرات المندهشة فيما بينهم كأنهم وجدوا كنزًا.

بعدما اعتدل الجميع في جلستهم واستيقظوا من حالة اليأس، قال أحد الحضور وكان ممن فرح بالمقترح:

- إنه مقترح رائع، كيف لم نفكر فيه من قبل! لربما عزلته نتيجة مشاكل نفسية تسبب بها موت صديقه وسفر صديقته.

قال أحد أفراد أسرته مترددًا خائفًا:

- ماذا لو كان لهذا ارتدادات عنيفة على نفسيته وسلوكه، ماذا لو أخرجه هذا عن سلميته وخرج لنا ليعنفنا ويوبخنا ويرشقنا بالسباب والشتائم وبأقبح النعوت. إنه اقتراح خطير.

وقال آخر كان في حيرة:

- كيف سنقنعه بتقبل العلاج؟ كيف سنقنعه بفتح باب كهفه واستقبال طبيبه، فهو بالتأكيد لن يخرج منه ويذهب بقدميه إلى مكتب الطبيب؟ لا أعتقد أن اقتراحكم هذا سيفلح معه، فأنتم على علم أنه لن توجد قوة ستكون قادرة على إخراجه ولا عقل سيكون قادر على إقناعه بذلك.

نهض أحد أقاربه بحماس عن مقعده وقال:

- تتكلمون كأنكم موافقون على هذا الاقتراح ولكنكم متخوفون من ارتداداته وتجدون أنفسكم عاجزون عن تنفيذه. إذا كنتم كذلك فلا داعي لخوفكم ولا داعي لاجتهادكم في

تنفيذ ذلك. إنني صديق لطبيب نفسي ماهر جدًا ومشهود له بمهارته وذكائه، وتشهد على ذلك أيضًا أبحاثه ودراساته التي لا تنقطع والتي تبرهن على براعته وحبه لمهنته وفعَّالية علاجه مع جميع مرضاه. إنه شخص متحمس لكل جديد، لا يترك تحديًا إلا ويخوضه ويخرج منه منتصرًا، إنه يبحث باستمرار عن أشد الحالات المرضية تعقيدًا، لكي يتعلم منها ولكي يُطبِّق عليها جديد نتائج أبحاثه ودراساته، إنه شخص كثير الاطلاع وكثير البحث عن المرضى الأشد معاناة لكي يخلصهم من عذابهم، إنه يُنادى بين الأوساط العلمية بالعبقري، إنه يبالغ في الاهتمام بمرضاه حتى إنه لا يطيق سماع تبادل النكات عنهم، يشتاط غضبًا في حال سمع أحد يقوم بإهانتهم أو بالسخرية منهم أو بالحط من قدر أحد منهم، إنه يُردد في كل مناسبة بالقول بأن مرضاه أكثر حكمة منه، وبأنهم أصدقاؤه الذين يرتاح معهم، ويتعلم منهم، وبأنهم يعالجونه أكثر مما يعالجهم، ويقول بأنهم أكثر تعقلًا منا نحن الذين يسمينا بالمرضى الغير مدركين لأمراضهم. إنه طبيب عبقري لن يشعر معه ذلك المجنون بالإهانة، بل إنني أتوقع أن تنشأ بينهما صداقة قوية، لا تخرج ذلك المجنون من غرفته فحسب، بل تضمن له أيضًا ألا يعود إليها مجددًا. كما أسلفت هذا الطبيب تجمعني به علاقة صداقة بسببها لن يرفض لي طلبي بعلاج هذا المجنون، بل إنني أتوقع منه أن يشكرني على تقدمي له حالة صعبة كحالة حبيس كهفه هذا. لن أكتفي بإقناعه للحضور فقط بل سأعمل على زيادة حماسه بالرهان على فشله في علاجه. ما رأيكم؟

نهض أحد الحضور بحماس ووضع يده على كتف صديق الطبيب، ثم قال:

- عظيم، عظيم، لقد وجدنا الحل إذًا. ها نحن نوشك أن ننتصر على هذا الأبله ونرجع له اهتمامه بمستقبله وحياته.

- إنه لأبله كما وصفته.

ثم قال صاحب الاقتراح:

- متى نبدأ بالتنفيذ؟

فأجابه صديق الطبيب:

-لا داعي إلى التأخير. اليوم سأنطلق لأخبر صديقي أنني وجدت له مريضًا نادرًا وحالته يكاد يكون من المتعذر علاجها، وستجده متحمسًا أكثر مني، بل إنني لا أستبعد أن يطلب مني اصطحابه إليه من لحظة إعلامي له. لذلك غدًا سأحضره فكونوا على استعداد.

قال أحد الحضور باندهاش:

- حقًا إن هذا الطبيب لعجيب أمره! لقد شوقتني للقائه.

فقال صديق الطبيب:

- بالتأكيد إنه لأعجوبة صديقي هذا. إنه الأمهر في مهنته.

نهض غاضبًا أحد أصدقائه القدامى، وقد كان يغبط عمر على قدرته على اعتزال الناس وقضاء وقته في القراءة والكتابة، ثم قال محاولًا ثنيهم عن إزعاجه بعدما كان صامتًا طوال الجلسة:

- ما هذا الذي تثرثرون به. إنكم بمحاولاتكم هذه تدفعونه للخروج عن طوره، إنكم بمحاولاتكم هذه ستفقدونه عقله، ستدفعونه إلى الانتحار. أتعتقدون حقًا بأنه سيكون بدون ردود فعل على خططكم! ماذا ينفعه الطبيب؟ هل تتحدثون بجد عندما تقولون أنَّه بحاجة إلى علاج! إنه يبحث فاتركوه لبحثه، إنه يتعلم فاتركوه لما يتعلمه، إنه يسعى فاتركوه لسعيه. تقولون بأنكم صبرتم طويلًا عليه، من أنتم لتعطوا أنفسكم الحق بالصبر عليه أو عدم الصبر. وقته ليس وقتكم وحياته ليست حياتكم ومصيره ليس مصيركم، فدعوه لاختياراته. اتركوه لأسئلته ولصمته وجنونه وعزلته وخياراته وانكساراته. اتركوه فإنني والله أراه أعقلنا. ماذا نحن الغارقون في ملذاتنا وشهواتنا وعواطفنا ورغباتنا أمام هذا العظيم الذي لم ييأس ولم تتكسر عزيمته ولم تغريه لذة ولم تردعه عاطفة، من نحن أمام هذا الذي لم ينكسر أمام آلامه وسقطاته وزلاته وأحزانه. ألم يُخلِّف حديثه معكم في الحفل ما يُثير فيكم عدم الرضى على نفوسكم، ما يثير الخجل لديكم من جهودكم؟ لماذا أنتم بهذه السلبية، بهذا الخمول والبلادة التي تجعل من أشد شعاع كثافة عاجز عن جذب انتباهكم، ومن جعل الحقائق الأكثر تجليًا عاجزة عن إعلان وجودها لكم، من جعل أشد الأصوات والأفكار دفعًا للتمرد والثورة والرفض عاجزة عن دفعكم لذلك! أه لو كنا حقًا قادرين على إدراك ما جاد به علينا من كلمات عندما التقينا به في حفل الزفاف، لعرفنا حينها قيمته، لعرفنا حينها من العاقل ومن المجنون. لماذا لا تسمعون صراخه ولا تفهمون ألامه؟ لأنكم كما وصفكم جبران، ضجيج الأيام يملأ أذانكم. دعوكم منه فإنه يسير وإنه لسيصل يومًا. اتركوه يا من تلهثون وراء كل لذة وخلف كل راحة مُفسدة. اتركوه فوالله إن ما تعتقدونه دواء هو داء. اتركوه يا من تفاديتم بذل جهودكم فيما هو صعب واخترتم شعور الانتصار بإنجاز السهل. ماذا يعني أنه أخذ وقتًا طويلًا؟ أهذا يمنحكم الحق في التدخل في شؤونه؟ انظروا إلى أنفسكم، ألم تسعوا لمثل ما تريدون منه السعي فيه، فماذا حققتم؟ إن معظمكم يعيش إما مع أبويه أو في مكان يستأجره بعجز تام عن امتلاك مساحته الخاصة به، وإن معظمكم غارق بالديون التي غطت تكاليف زواجه، وإن معظمكم يتمنى الهجرة، وإن معظمكم يتمنى وظيفة دائمة، وإن معظمكم يتمنى عائد على جهوده المبذولة في العمل، يسد على الأقل احتياجاته. نعم أنت فقط تتمنون ولهذا تريدون منه أن يعيش وهو يتمنى مثلكم، نعم أنتم تريدون منه أن يوقف سعيه لكي يتمنى، أنتم تحسدونه ولهذا تُعادونه. ألم يفتك بنا الجدار الذي يحاصرنا كفاية بعد؟

دعوه يبحث، فلربما هو يبحث عما يسقط به الجدار. دعوني أصارحكم: إنني أرى لآمالي وأهدافي وطموحاتي فرصة به، فأرجوكم اتركوه يحترق كما يريد.

ثم جلس وأشعل سيجارة.

كانت علامات الغضب والاحتقار مرتسمة على وجهه عندما كان يُلقي على أسماعهم كلماته، ولكنه عندما جلس وأشعل سيجارته هدأ هدوءً مخيفًا وسريعًا. لقد لاحظ أنه تفوه بما جلب له نظرات محقِّرة، وأدرك من وجوههم التي يرتسم عليها البله، أنه صارحهم بما لم ولن يفهموه، ولهذا توقع بأن يرمونه بأبشع النعوت وباتهامه بعدم الاكتراث لحال صديقه وبعدم التعاطف، بل إنه أيضًا لم يستبعد أن يقوموا بطرده وبإنهاء صداقتهم له من شدة ما قسى عليهم بألفاظه، ولهذا تمنى في تلك اللحظات لو كان بمقدوره الرجوع بالزمن إلى الوراء للجم لسانه عن النطق. لقد كان يشعر بأنه تسبب لنفسه بإحراج كبير وتهم لا طائل لها ولا حدود لقسوتها، ولقد أيقن أنه سيوبخ بعد متابعته لنظراتهم، ولذلك جلس مستسلمًا، كأنه يود الاعتذار عما صدر منه، ولتجنب ردود أفعال لا يحتملها قرر أن يوافقهم على ما سيناله منهم من نعوت قبيحة وسباب مؤلمة، ولن يقوم طوال الجلسة إن بقي فيها، بإبداء رأي مخالف لآرائهم حتى لو كان في قرارة نفسه يخالفها أشد المخالفة، ولن يتفوه بكلمات إلا تلك التي يطلبونها منه.

بعد لحظات صح جميع ما توقعه، وانهالت عليه ألسنتهم بالسباب والشتائم وألصقت به الاتهامات تلو الاتهامات، فتقبلها جميعها، وأخذ يعتذر منهم على حماقته وأخطاء قياسه، فوجد في اعتذاره وإشعارهم بأنهم على صواب ما يُسكِّن به غضبهم.

لقد كانت لحظات مليئة بالغضب والتوتر، تعكر مزاج جميع من في الجلسة بسببها، ولولا وجود المُقترح الذي نال موافقة الأغلبية عليه لانفض المجلس على خلاف وغضب.

قال أحد الحضور محاولًا الرجوع لمناقشة الاقتراح:

- بما أننا موافقون بالإجماع على الاقتراح، دعونا نجد وسيلة لتقديم الطبيب لهذا المجنون بدون أن نشعره بالإهانة.

فقال صاحب الاقتراح بغضب بعدما وجد الجميع مُجمعون على تجنب توجيه الإهانة لعمر بمحاولة إخراجه:

- مالي أراكم تتحدثون عن الإهانات كأننا لم نوجه إليه إهانة يومًا. إننا طوال السنين السبع نوجه له الاهانات ولا نلقى منه ردود أفعال عليها، فلماذا أنتم متخوفون من رد فعله على هذه الإهانة التي سنوجهها له. هذا البليد، ميت الإحساس لو كان يشعر فعلًا بالإهانات التي وجهناها له، لما تحمل البقاء في ذلك الكهف، لخرج يتوسل إلينا

بالتوقف عن تعذيبه بها، ولكن هذه البلادة التي هو عليها هي سبب عدم حدوث هذا، هي سبب هزائمنا المتلاحقة. كم أرجو أن يشعر بأننا نهينه هذه المرة، كم أنا متشوق لرؤيته مهان ومتفاعل مع الإهانة الموجهة إليه. إن رؤيته شاعر بالإهانة ستفرحني حتى لو فشلت محاولتنا هذه أيضًا. إن مخاوفكم لا داعي لها، إنه بليد، إنه لا يغضب ولا يحب ولا يكره ولا يفرح ولا يحزن، إنه ليس إنسان، إنه جماد.

لقد تسبب غضبه وكلماته في تبديد مخاوفهم وطرد ترددهم وملئهم حماسًا واندفاعًا، ليأخذوا بكل كلمة ينطقها يهزون رؤوسهم مؤيدين، وبترديد الكلمات الموافقة.

قال أحدهم:

- عدم إعلامه بحضور الطبيب للقائه هو أفضل خيار، ونحن لسنا في حاجة لإقناعه بمقابلة الطبيب، فلندع مهمة إقناعه من خلف الباب للطبيب فهو بما سمعناه عنه سيكون أقدر منا على إنجازها، ولا بد أنه يمتلك الحيل المناسبة لجذبه بسرعة إليه وأيضًا بثقافته الواسعة هو قادر على جذبه لحوار معه في موضوع يجد فيه كلاهما متعة وفائدة في طرحه. ولا تخافوا حتى لو وجهت الإهانات للطبيب من خلف الباب فهو لن يتأثر بها لأنه سيكون مُدرك أنه يتعامل مع مريض، لا مع إنسان في كامل قواه العقلية. أنا على يقين أن الطبيب سيتمكن من الدخول والجلوس معه.

فقال أحدهم بنبرة مُعبّرة عن خوف:

- يدخل إليه وحده، بينما نحن جالسون هنا في الخارج؟

بعد ضحكات أطلقها البعض أُجيب السائل:

- لا داعي للخوف على الطبيب. أمن هذا تخاف عليه! إنه لو رأى ذبابة ما كان سيجرؤ على إيذائها. للتو حدَّثنا من كان صديقه كفاية عن بلادته، فلا تقلق لن يقوم بشيء مما ترسمه مخيلتك. بالإضافة إلى ذلك، إن كل طبيب نفسي يهدف إلى الانفراد بمريضه حتى يوفر له أجواء من الخصوصية والأمان ليدفعه للإفصاح بدون تحفظ أو خجل أو اعتراض من أحد.

بعدما وافق الجميع على الاقتراح وبعدما بُددت جميع المخاوف، قال صاحب الاقتراح فرحًا:

- مقترح جميل ومخادع. إننا نصدمه، إننا نخالف توقعاته لأفعالنا، إننا نغير من اسلوبنا في التعامل معه، إننا نتخذ وسائل وخطط وأدوات جديدة بالتأكيد سننال منها نصر عليه.

هز الجميع رؤوسهم موافقين، وكانوا في قمة سعادتهم بما خططوا له، كأن النصر بما خططوا سيكون بشكل مؤكد حليفهم. كانت لحظات شعروا فيها بالنصر قبل إدراكه على ذلك الذي جرعهم الهزائم تلو الهزائم ببلادته وصمته ومجاراتهم أحيانًا.

أخذ المُعترِض يُحدِّث نفسه قائلًا: "حقًا عظيمة الأثر في نفس المُنهزم تلك الخطة الجديدة وذلك الأسلوب الجديد وتلك الأداة المختلفة، بل إنها لكذلك حتى في نفس المنتصر. يا لشدة ما يبثه الجديد في البشر من تفاؤل وحماس وسعادة. حقًا إن كل ما هو جديد يُنسي كل ما هو قديم ويبشر بقلم جديد للتاريخ."

نهض صديق الطبيب بعدما استمتع معهم بلحظات النصر غير المُدرك بعد، ثم قال:

- الآن فلتعذروني، أود الانصراف للتوجه إلى منزل صديقي لإعلامه بصيده الثمين الذي وجدته له بدلًا من إضاعة الوقت. هل من مهام أخرى يقع على عاتقي تنفيذها؟

أجاب أحد أفراد العائلة:

- فقط أن تكون مع الطبيب هنا غدًا الساعة العاشرة صباحًا.

- فليكن ذلك إذًا. إلى اللقاء.

قال أحد الحضور بعدما أمسك بيده:

- بما أننا اتفقنا على ما سنفعل، أنا أود الانصراف أيضًا. خذني معك.

وقرر الجميع بوقوف الإثنين الانصراف، فانفض المجلس، ووقف أفراد الأسرة يودعون ضيوفهم ويوصوهم بالحضور في اليوم التالي على الموعد المتفق عليه.

***

في اليوم التالي كانت السماء مُلبدة بغيوم سوداء حالت دون أن تشرق الشمس، وكانت الأمطار غزيرة، فغرقت الطرق بالمياه وفقدت صلاحيتها لسير المركبات فيها، ونال ممن يعمل من سكان المدينة إجازة، فالتقى الربع العامل بالثلاث أرباع الغير عاملين، فكان صباحهم رومانسيًا.

عندما كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحًا، كان أفراد الأسرة قد تهيؤوا لاستقبال ضيوفهم ولكنهم مع ذلك كانوا يستبعدون قدومهم لسوء الأحوال الجوية، ولكن توقعهم لم يُصب، فما هي إلا دقائق بعد العاشرة حتى سمعوا قرع الجرس، وكان من وصل هو صاحب الاقتراح، فاستقبلوه بحرارة.

بعدما جلسوا قال أحدهم:

- لم نتوقع قدومك...

- أأننا غير مرحب بي.

أخذوا بالضحك، ثم رد عليه:

- لقد تعجلت وقاطعتني، نحن لم نتوقع قدومك ولكن كنا نرجوه.

- لم أكن سأفوِّت مشاهدة هذا المجنون ونحن نلحق به الهزيمة. لا تقلقوا حتمًا سيحضر الجميع، فما يؤخرهم فقط هو هذه الأمطار والشوارع الغارقة. لا أعتقد أن أحد منهم يقل حماسه عن حماسي وحماسكم.

- نرجو ذلك.

وبعد دقائق صحَّت التوقعات، ووصل الجميع فرادًا وأزواجًا ما عدا الطبيب وصديقه، ليأخذ أفراد العائلة في تلك الأثناء بتقديم المشروبات والمأكولات الساخنة لضيوفهم ليستعينوا بها على البرد، محاولين التعبير عن امتنانهم للجميع على حضورهم في تلك الأجواء التي يلزم فيها العاقل فراشه تحت أغطيته الثقيلة.

مع مرور الدقائق كان منهم من رجح أن الطبيب بسبب الطقس أجَّل الحضور، ومنهم من توقع أنه لم يوافق على الحضور من الأصل، ومنهم من توقع أن غرق الطرقات وعدم قدرة المركبات على السير فيها هو سبب التأخير.

لم تكن لهم خطط بديلة ليناقشوها، ولهذا كانت آمالهم بالنصر مُعلَّقة على خطة واحدة فقط، خطة لم يكونوا سيسمحون للظروف بإعاقة تنفيذها، خطة كأنهم رضوا بالنصر بها لا بغيرها، بل كأنهم رضوا بها حتى الخسارة.

في أثناء تلك اللحظات التي تعاظمت فيها مخاوفهم، وكانوا على وشك فقدان أملهم بتنفيذ خطتهم ذاك اليوم، وصل الطبيب وصديقه، فكانت سعادتهم بوصولهما عظيمة لا تعكرها حتى هزيمة أخرى تلحق بهم.

بعد الترحيب بهما وبعد أحاديث التعارف، قال أحد الحضور:

- ما الذي أخركما؟ لقد كدنا نفقد الأمل بقدومكما.

فقال الطبيب:

- أعتذر لكم على ذلك، صدِّقوني هي ظروف خارجة عن إرادتي.

- المهم أنكما وصلتما.

- أين صيدي الثمين، كما تم توصيفه لي.

- إنه هناك في تلك الغرفة.

- إذًا فلتعذروني فأنا لدي عمل.

نهض بحماس وتقدم باتجاه الغرفة ووقف على بابها ثم وضع أذنه على الباب، وأخذ يسمع ما يلهج به لسان صيده من أسئلة، وبعد دقائق من الاستماع طرق بخفة على الباب وانتظر ليمنح من في الداخل وقته لاتخاذ قراره بالاستفسار عن الطارق.

لم يفلح الطرق ودقائق الانتظار في إيقاف عمر عن ترديد الأسئلة، فعاد الطبيب للطرق مجددًا بخفة وبدون إلحاح، حينها علم أن الطارق شخص غريب، فتوقف عن ترديد الأسئلة، وفكر قليلًا ثم اتخذ قرار بالتعرف على الطارق، فقال:

- من هناك؟

- قالوا لي أنك تحتاجني ولكنني كنت أقول لهم أنني بحاجة إليك.

- فيما احتياجي لك؟

- يقولون بأنك تحتاجني لعلاجك نفسيًا.

- وفيما حاجتك لي؟

- في منحي قراءتك لتجربتك طوال سنوات عزلتك السبع.

- جيد، إذا فأنت باحث مجتهد.

- هذا ما يقال عني، ولكن أعتقد أنني ما زلت لم أبذل الجهد الذي أنا قادر على بذله.

- الأغلبية ترغب في حيازة اعتراف على انفراد أو في جماعة من الآخر بضعفه سواء كان بقدرات عقلية أو جسدية لتحصيل شعور بالقوة والفوقية بمنح الآخر الحلول لمشاكله. فهل أنت من هذه الأغلبية؟

- هذا سؤال ستنالني منقصة من الإجابة عليه سواء كانت إجابتي بنعم أو لا. بنعم أكون ممن يتغذون على ضعف غيرهم وبلا أكون ممن يمتدحون أنفسهم. لماذا لا تمنحني أنت الإجابة بإعطائي الفرصة؟

صمت عمر لدقائق وتجنب الطبيب مطالبته بالكلام، ثم قال:

- إنهم مُحقون، إنني بحاجة إلى العلاج.

كانت كلماته هذه صادمة للجميع باستراقهم السمع، فكانت نظراتهم المتبادلة تتساءل متعجبة مما يجري له، فلم يكن منهم أحد قادر على تصديق ما سمعه، وقادر على

تصديق الطواعية التي عليها مجنونهم الذي كان طوال السنين السبع عنيدًا وكثير الرفض والاعتراض. كانوا متفاجئين بخطتهم التي تسير بسلاسة وبدون عقبات وعوائق. لقد شعروا بكلماته أنه خرج من عزلته، خرج مستسلمًا لهم طالبًا منهم ما يرغبون به منه لفعله وتنفيذه.

قال الطبيب بسرعة:

- لربما ليسوا كذلك.

فاجأهم رد الطبيب وكانت لديهم رغبة في تلك اللحظات بإسكاته وسحبه من خلف الباب، وكادوا يُقدمون على فعل ذلك لولا وقوف صديق الطبيب في وجههم وتحذيرهم من ردود فعل الطبيب الغاضبة في حال قيامهم بذلك.

فاجأ هذا الرد عمر، وشعر بأن الذي يقف خلف الباب لربما يكون قادرًا على فهمه، فقال:

- اليوم أنا مشغول، سأقابلك في الغد.

أخذ الطبيب بشكره، ثم رجع يجلس مع الحضور بعدما سمعه عاد لترديد أسئلته.

بعدما قدَّم أحد أفراد العائلة للطبيب مشروبًا ساخنًا، طالبه بذوق بتقديم تفسير على رده الذي أغضبهم وتوضيح لسبب عدم إلحاحه عليه بفتح باب غرفته والدخول، فقال الطبيب متفهمًا ومراعيًا لعلامات عدم الرضا المرتسمة على الوجوه:

- في البداية أنا لا أعرف مع من أتعامل، ولذلك تجنب النصر والقبول بالهزيمة هي وسيلتي الوحيدة المتاحة، ثم ما أدراني إذا كان صادقًا بادعاء اقتناعه بحاجته للعلاج، فلربما يكون هذا الادعاء إحدى فخاخه، أي أنه لربما يريد منحنا الهزيمة بالنصر. لقد رفضت النصر الذي منحني إياه، لكي يكون بمقدوري تحصيل النصر الذي أنا أطلبه لا ذلك النصر الذي هو يريد منحه. ثانيًا إذا ألححت عليه بإدخالي كنت سأتسبب بتعاظم صده لي. إنني لا أعرف عنه شيء، لا مقدار ثقافته ولا ذكاءه ولا وعيه ولا أهدافه ولا رغباته ولا مما يعاني ويشتكي. إنني أجهل عنه الكثير ولهذا لا أريد منه شيء قبل معرفته. نعم سأرفض جميع عطاياه وهداياه وصدقاته، سأرفض حتى يقول لي "ماذا تريد؟".

اندهش الجميع مما سمعوه وأدركوا حينها أنهم أمام طبيب سمعته لم يُحصِّلها من فراغ، طبيب قادر على فعل ما يريد، قادر على التلاعب بمرضاه وتحصيل كل ما يريد منهم. لقد شعروا أنهم بحضرة عبقري، بحضرة شخص لا ينبغي لأحد منهم الاعتراض على فعله أو قوله أو صمته، ثم انهالوا عليه بالمديح وأخذوا بالاعتذار منه على جهلهم الذي تسبب في أن يرمقوه بنظرات لا تليق به، وبالاعتذار من صديق

الطبيب الذي لاموه على جلبه، والذي شعروا اتجاهه بإحراج شديد بعدما أبان لهم الطبيب خطأهم.

ساعات كان الطبيب يحاول جمع أكبر قدر من المعلومات عن مريضه وعما يحمله من أفكار وتوجُّهات وأحلام وما مر به من ظروف، فيها أيضًا نجح في التعرف على جميع محاولاتهم التي قاموا بها بهدف إخراجه والتي كانوا مترددين في إخباره بها من قسوتها ووحشيتها، عن طريق إغرائهم بأن البوح سيرفع من نسبة نجاحه في مهمته.

ساعات انصرف بعدها الطبيب بعدما أوصى الجميع بتوفير الهدوء لمريضه، وحذرهم من القيام بأي محاولة لإخراجه.

(4)

حل يوم اللقاء، وكان كسابقه ماطرًا ومعطلًا لحركة سير المركبات وتم فيه تعطيل العمل. كان الجميع يصلون وهم منهكون من السير الطويل تحت المطر، وكان أفراد الأسرة فور استقبالهم يسعفونهم بالمشاريب الساخنة والحلويات الغنية بالسكر لتمدهم بالطاقة والدفء.

كان الطبيب آخر الواصلين ولقد فاجأه حضورهم، متعجبًا من فضولهم لمعرفة نتيجة اللقاء فورًا، ومتسائلًا بحيرة وقلق عن سبب انشغالهم بمريضه إلى هذا الحد المزعج لهما، ليقوم بعد جلوسه وانتهائهم من الترحيب به، بمطالبتهم بأسلوب مُنمَّق عدم الحضور في جلساته القادمة مع مريضه، مُعللًا ذلك بأن وجودهم قد يكون له أثر سلبي على مريضه، فقد يشعره اهتمامهم به بالحصار، مضيفًا أنه يريد لمريضه أجواء هادئة مريحة، ومساحة تحافظ على خصوصيته لكي يضمن شعوره بالراحة والطمأنينة وعدم احتياجه للتحفظ في البوح بما يؤرقه ولربما يخيفه، أو يرفضه، ولقد نال بأسلوبه اللبق الغير تصادمي وبحججه المُقنعة وببراعته موافقتهم التي لم يكن من السهل عليهم تقديمها له.

بعدما تقبل تواجدهم تجاوزًا مراعاة للجهود الذي بذلوها للحضور في الطقس السيء، التقط مشروبًا ساخنًا قدَّمه إليه أحد أفراد العائلة، ثم توجه لغرفة مريضه وكما في اليوم السابق لم يتم الاستجابة لطرقه في المرة الأولى وتمت في المرة الثانية.

قال عمر:

- من هناك؟

- أنا من يقال إنه طبيبك.

- ألم نتفق على أن يكون اللقاء في الغد.

- صحيح، ولهذا حضرت في موعدي.

أدرك عمر الخطأ الذي وقع فيه. لقد كان يومه كيوم كل باحث مجتهد يحوز أكثر من أربع وعشرين ساعة، فكان ليله لا يمسك بنهاره إلا بعد ثلاث أيام يقضيها بالمطاردة التي سرعان ما تتجدد لبراعة نهاره في الهرب.

قال بعد لحظات قضاها في محاسبة نفسه على خطئه:

- أمهلني قليلًا.

كانت الدقائق آن ذاك تمضي والطبيب واقف خلف الباب ينتظر انتهاء القليل، ليدرك أن ساعته غير متوافقة مع ساعة مريضه، وبأنه حضر في موعد لم يكن مريضه يقصده رغم تحديده له، لذلك وقف خلف الباب ينتظر أن يُفتح له بدون لجوء إلى الطرق عليه مجددًا أو حتى محاولة الاستفسار منه عن سبب تأخره في السماح له بالدخول.

لقد تفهَّم أن القليل عند مريضه ليس ذلك القليل المتعارف عليه، وكان بقدرة على الصبر تجعله يحتمل ذلك القليل الذي قصده مريضه، فرجع للجلوس مع الحضور وأخذ يتبادل الحديث معهم لكي يمنحه الوقت الذي يرغب فيه.

قال أحد الحضور بعد مرور وقت لا يمكن وصفه بالقليل:

- أظنه يراوغ.

فرد عليه الطبيب بأسلوب اختفت فيه اللباقة:

- في حال اعتزلتَ الناس في غرفة لسبع سنوات، أتعتقد سيكون يسيرًا عليك بعدها فتح بابها؟

- أنا أسف. إنك مصيب.

فرجع الطبيب للباقته بعدما وجد اعتراف بالخطأ، فقال:

- هو في الحقيقة لا يراوغ ولكنه عن طريق الخطأ، أعتقد أنه منحني موعد لا يناسبه ولربما موعد لم يكن فيه مساحة كافية له للاستعداد لمقابلتي.

- صحيح، صحيح، هذا هو التفسير المنطقي.

وبعد مرور ما يقارب الساعة والنصف من الانتظار سمع الطبيب مريضه وهو يدير المفتاح، فنهض بسرعة ليقف بجوار الباب.

فتح عمر الباب وصافح الطبيب ثم عاد للجلوس أمام لوحته ليكمل رسمها بعدما طلب منه الدخول وإغلاق الباب ورائه.

كان الطبيب في تلك اللحظات قد صُدم مما رأى، فاستعان بالجلوس على مقعد المكتب المجاور للباب ليستعيد بعضًا من تماسكه.

رأى على الرغم من إضاءة الغرفة الخافتة جدران وأرضية غُطت جميعها بالورق الذي احتوى أبحاثه غير المنجزة، ورسوماته الكاملة والغير كاملة التي لم يستخدم فيها إلا اللون الأسود بدرجاته المختلفة، ولقد شاهد كتب متناثرة في جميع أنحاء الغرفة منها المفتوح ومنها المغلق، وفراش مهترئ ورف صغير ممتلئ بالكتب التي بالكاد يكون قادر على حملها، وأجواء لا تصلح لعيش البشر كاد على إثرها يختنق.

كان يتفحص بنظراته المُندهشة جميع أنحاء الغرفة وزواياها محاولًا بما يلتقطه تحليل شخصية مريضه ونفسيته ومزاجه والتعرف على اهتماماته. وبعدما أخذ وقت كافيًا في التقاط كل ما كان بمقدوره التقاطه، أخذت نظراته تتفحص مريضه الذي رجَّح بأنه نسي وجوده من شدة انسجامه في الرسم.

قال عمر بدون التفات للطبيب وبدون أن يتوقف عن الرسم، مقاطعًا نظرات طبيبه:

- أهذا لليوم كافي؟

- هو كثير بكل تأكيد، ولكنني أطمع بأن نتكلم قليلًا إن شئت.

فوضع من يده فرشاته التي لم تتذوق غير اللون الأسود، ونظر إلى الطبيب، ثم سأل:

- عندما تنظر إليَّ ماذا ترى؟

ثم رجع ليمسك فرشاته ويكمل الرسم، كأنه كان بذلك يريد أن يمنح الطبيب وقتًا كافيًا للإجابة.

أخذ الطبيب بتروي يبحث عن إجابة تنال إعجاب مريضه وترضيه، فلقد كان يدرك أن ما سينطق به من كلمات هي من ستحدد إذا ما كان سيُقبل به ويتم السماح له بلقاء آخر.

قال الطبيب بعدما أخذ وقت كافي لإيجاد إجابة جيدة حسب تقديره:

- حَيْ أُحلَّ فيه الموت بدون أن يُميته.

كان الطبيب بإجابته يهدف لمنحه شعور بالنصر، عن طريق منحه تعليق يُعبِّر بشكل دقيق عن حالته.

فقال عمر بعدما التفت إليه وابتسم ابتسامة خفيفة تكاد تكون غير ملحوظة:

- لو كنتُ كذلك لكنتُ من أهل السعادة. فمن له أن يُجرِّب الحياة والموت ولا يكون سعيدًا.

فاجأت هذه الكلمات الطبيب الذي كان يتوقع أن تنال إجابته إعجابه، فقال:

- إذًا لتخبرني أنت عندما تنظر لنفسك ماذا ترى.

- أرى إنسان يعيش منتظرًا، فلا الحياة متقبلة له ولا الموت.

صدمت الإجابة الطبيب، فقد شعر بها بحجم المعاناة التي يعاني منها مريضه، شعر ببؤس لا يملك مايدفعه به، ثم لاحظ أن مريضه ينظر فوقه، فالتفت فوجد حبلًا متدليًا، فاضطرب اضطرابًا شديدًا بان عليه ثم قال:

- أرجوك لا تتعجل، امنحني فرصة لأجد حلًا.

- بالتأكيد سأمنحك فرصة، فلا داعي للعجلة.

بعد لحظات صامتة التفت عمر للطبيب فلاحظ اضطرابه ونظراته المتكررة للحبل المتدلي، فقال:

- أها أنت تقصد ألا أتعجل في الانتحار. لا تقلق، لا تقلق، هذا ليس للحاضر بل للمستقبل. إنني بهذا الحبل فقط أحاول خداع نفسي. إن هدفي هو تحصيل أكبر قدر ممكن من دوافع الانتحار، فهي الطريق لإشعاري بضعفي، هي وسيلتي لحب الآخر، هي أداتي لتعظيم انتمائي للإنسان. أنا لا اخطط في الوقت الحاضر للانتحار بل أخطط وأعمل فقط على الاستحواذ على دوافعه، وسأحاول بقدر الإمكان ألا أفقدها بالإقدام عليه. هل تعلم أنه إذا وجدت دوافع الانتحار فقد كان وجودها عمل عقلي، ولكن إذا وجد الانتحار فلربما كان وجوده عمل عاطفي. لا تقلق يا طبيبي، فالرغبة بالانتحار هي رغبة المُعافي والسليم عقليًا وعاطفيًا. يا طبيبي إننا موجودون لاستهداف أنفسنا بالبؤس والألم، فإن استغنينا عن هدف وجودنا كان مُدنس بالسعادة واللذة. أن تتلاحم عواطف البؤس ومشاعر الألم فتصير كتلة واحدة هذا هو السمو، هذا هو معني أن تكون إنسانًا. يصفون الانتحار بأنه خيار الجبناء، وهذا لعمري إنه لوصف لا يلقونه إلا على الإنسان، ذلك الذي لم تتح لهم وسيلة إلا استخدموها لنفيه والتمرد عليه. حقًا أيها الجبن إنك وصف تليق بالإنسان. لا تخف أيها الطبيب من كوني جبانًا، فحتى الجبان يقاوم، نعم هو يقاوم توهمه بأنه شجاع. المقاومة أيها الطبيب لا تتطلب إلا جبنًا والتعدي لا يتطلب إلا شجاعة، إنه لا يقاوم إلا ضعيف ولا يتعدى إلا متوهم بحيازة القوة. أيها الطبيب إن الذين يُقدمون على الانتحار معظمهم لم يتخلوا عن حبهم للقوة بعدما اكتشفوا ضعفهم، نعم عجزهم عن احتمال الحقيقة هو المتسبب بدفعهم لاختيار الانتحار. أيها الطبيب أنا لست كراسكولينكوف. أيها الطبيب لا داعي لقلقك، فالانتحار خيار من في قدرته احتمال المزيد، لذلك لا يمكنني الإقدام عليه. الانتحار خيار آخر أجهله، لذلك لا يمكنني القبول به. الانتحار اختيار المفرطين بتفاؤلهم بما بعده، ولهذا لا يناسب الانتحار متشائم مثلي، نعم يا طبيبي الانتحار خيار المتفائلين.

كان الطبيب في تلك اللحظات يُصارع قدرته الغير قادرة على الإحاطة ويحاول طرد اندهاشه ليبقي على قدرته على التحليل، ولقد أدرك حينها أن الذي أمامه ليس مريضًا عاديًا وسهلًا، مريض يحمل من التعقيد ما يجعله عاجز عن التعامل معه، مريض غامض، ومظلم ليس بإمكان أحد فهمه. فشعر لأول مرة بصدمة أيقظته من شعوره بكفاية جهوده التي يبدلها في البحث، شعر أنه كان يلهو ويتسلى، وإلا ما كان في مثل هذا الموقف بهذه الحال من الضياع والضعف واللافهم وعدم المقدرة على التحليل وجمع المعلومات. لقد أشعره عمر لأول مرة بضعفه، ولقد دمر كل تلك الثقة التي كانت بعينيه بقدرته على علاج أصعب الحالات. لقد كان مُعتاد على الانتصار وتلقي المديح، فعالجه من الصمم الذي سببته له تصفيقات وتهاني جمهوره من أكاديميين ومثقفين وقراء، أيقظه من سباته.

قال عمر وقد التفت إلى الطبيب المضطرب:

- أيكفي هذا لليوم؟

فشعر الطبيب من تلك النظرة التي أطلقها إليه وتلك الكلمات التي وجهها إليه، بأنه يخبره بأنه سيكون عاجزًا عن علاجه، ولهذا عليه الانسحاب وعدم العودة إليه لكيلا يتسبب لنفسه بمزيد من الأذى.

لم ينظر عمر له نظرة المنتصر ولا نظرة المتحدي، ولكن نظرة تقول إنه يعاني ولا سبيل لإيقاف معاناته، ولذلك لا حاجة لإضاعة الوقت، نظرة تقول بأنه يعمل ولذلك لا حاجة لإيقافه وتعطيله.

قال الطبيب بنبرة يائسة مُستكفية:

- نعم هذا يكفي.

فقال عمر مستعلمًا بدون تحدي:

- هل سأراك مجددًا؟

- اترك لي محاولة أخيرة.

- حسنًا، ليكون لقاؤنا بعد أسبوعين، فلدي مشاغل كثيرة.

حدد ذلك الموعد بدون أن ينسى الخطأ الذي وقع فيه في تحديد الموعد الأول، وكان بهذا الموعد الذي حدده يحاول إعطاء الطبيب أكبر قدر ممكن من الوقت ليستعيد شيئًا من ثقته وعافيته، يمنحه الوقت الكافي للتحليل وتفسير ما جمعه من بيانات.

نهض الطبيب عن مقعده، ثم قال بنبرة ممتنة وشاكرة:

- هل يمكنني مصافحتك قبل المغادرة؟

- بالتأكيد، ابقى مكانك سآتي إليك أنا، لا أريد للأوراق أن تتبعثر لقد أمضيت وقتًا طويلًا في ترتيبها.

نهض عمر ثم تقدم خطوات حذرة على أطراف أصابعه، ثم صافح الطبيب وبعدما فتح الباب لإخراجه قال هامسًا في أذنه:

- أما زالت مهنتكم إلى الآن مقتصرة على منح المرضى الانتصار أو على الأقل إيهامهم بحيازته.

فنظر إليه الطبيب مندهشًا، فقد كان قد سمع كلماته في وقت سابق منقولة على لسان زميلة له أثناء الدراسة كانت تُخبره بأنها كلمات صديق لها يسخر من مهنتهم.

بعد خروجه وعودة عمر لعمله، رأي الجميع على وجهه تعابير لا تبشرهم بنتائج جيدة، فشعروا أنهم على موعد مع هزيمة أخرى. كانوا يتهامسون تعجبًا من حاله متسائلين باندهاش عن كيفية تأثر العبقرية التي شاهدوها في الطبيب بجنون ذلك الذي لا يغادر غرفته، عن كيفية تأثر الذكاء الذي يحوزه بالغباء الذي عليه مجنونهم، بل إن بعضهم من شدة تعجبهم واندهاشهم أخذوا يتهامسون ويقولون باستهزاء وهم يحاولون كتم ضحكاتهم: يبدو أن الطبيب بحاجة إلى طبيب.

نهض صديق الطبيب وناوله كوب من الماء ثم سأل بخوف:

- هل أنت بخير يا صديقي؟

فقال الطبيب وكانت قد ارتسمت على وجهه ابتسامة خبيثة حيرت الجميع:

- لقد أيقظني ذلك العبقري من سباتي. بالتأكيد أنا بخير، بل أنا في أفضل حال.

- ماذا وجدت في الداخل؟

- وجدتُ مُخلِّصي. ألم أخبرك من قبل أنهم أطبائي وليسوا مرضاي. نعم أنا المريض. شكرًا لك يا صديقي على جلبي إلى هنا.

- لا داعي للشكر.

كان الجميع حينها يشعرون بالخوف عليه، فلقد كان سريع التحول بين الحالة ونقيضها، ففي لحظات ترتسم على وجهه تعابير الحزن، وفي لحظات تعابير السعادة، وفي لحظات تعابير اليأس، وفي لحظات تعابير الحماس والأمل، كان الجميع غير مدركين لما يمر به الطبيب وعاجزين عن فهم ما يقوله، عن فهم أسباب حالاته

المتناقضة وابتسامته التي بان خبثها لهم. لقد كانوا يرغبون بشدة في الاستعلام منه عما جرى في الداخل ولكن ما هو فيه كان يثنيهم عن السؤال والحديث معه.

قال الطبيب بعدما استعاد بعض من اتزانه بدقائق صامتة:

- لا تقلقوا، لقد كان اللقاء رائعًا، ولكن لا تقدم فنحن الآن في فترة تعارف، وهذا اللقاء كان فقط لتقديم كل منا أوراق اعتماده لدى الآخر. لا أخفي أن اللقاء كان مرهقًا لي وله، ولذلك سيكون لقاؤنا القادم بعد أسبوعين...

فقال أحدهم مقاطعًا:

- اسبوعان، إنه موعد بعيد، لماذا لم تجعله بعد يومين. العلاج سيطول بناءً على هذا الموعد.

- أولًا تشخيص المرض وتحديد العلاج الملائم يستغرق وقتًا والاقتناع بوجود المرض وتقبل العلاج أيضًا يستغرق وقتًا طويل، ولهذا الأسبوعان مهلة قصيرة وليست طويلة كما تعتقد، وثانيًا لقد قلتُ أنَّ اللقاء كان مرهقًا لي وله. إن كنتم تعتقدون أنكم ستخرجونه بأساليبكم فأنتم مخطئون وفشلكم على مدار السنين السبع شاهد على هذا. نعم العلاج سيطول وليس أمامكم خيار إلا أن تصبروا. أنا أحذركم حالته مع مرور الوقت ستزداد تعقيدًا وإخراجه سيكون أشد صعوبة. فما قولكم، هل ترغبون بأن أكمل معه؟

زرعت كلماته الخوف في نفوس الجميع ولهذا نال موافقتهم على الاستمرار، ومُنح كامل الصلاحيات، ووعود بتنفيذ جميع طلباته، ثم قال محاولًا تقديم خدمة لمريضه تعبيرًا عن امتنانه له:

- إذًا من الآن فصاعدًا كما أشرت إليكم سابقًا، حضوركم ليس مسموح به، وأيضًا لا أرغب برؤية مريضي يتعرض لما يزعجه سواء بمحاولات إخراجه أو بضجيج قد يصدر عن القيام بمشاغلكم، أريده أن يلمس هدوء حل في حياته.

وجد تقبل من الجميع لطلباته ووعودًا بتنفيذها، ثم نهض للانصراف ولكن ليضمن حرصًا أكبر من الجميع على تنفيذ طلباته، قال محاولًا بث الخوف في نفوسهم:

- إنه في حالة صعبة جدًا، وإني لا أستبعد أن يُقدم على الإضرار بنفسه، في حال استمر إزعاجكم له.

ثم انصرف بعدما تركهم في خوف شديد، بسببه قرروا الالتزام بسرعة بالوعود التي قطعوها له، لينفضَّ المجلس للبدء بالالتزام بوعد توفير الهدوء.

***

بعد مضي أسبوعين طرق نهض عمر استجابة له لفتح الباب، فاستقبل طبيبه، بعدما لاحظ عليه حيوية ونشاط وثقة اللقاء الأول بل تزيد، فكان من شدة حماسه قد أمسك بيده لمصافحته بدون أن يُمددها له.

كان متعجبًا من حالته التي لم يكن يتوقعها نتيجة ما كان عليه بسبب اللقاء السابق، ومتفاجئًا من شفتيه التي لاحظ عليها ابتسامات خبيثة توحي بحيازته لخطط مضمون بها النصر.

قال عمر بعد جلوسه:

- أعلم أن أكثر من نصف وظيفتكم يتمثل في الاستماع ومعظم المتبقي يتمثل في المشاركة في حديث، وبعض المتبقي يتمثل في إرشادات ووصفات لأدوية، لهذا لا داعي لعرض اسلوبك عليَّ، ولنبدأ.

- لا داعي لذلك، لن أكون طبيبًا اليوم.

ثم نهض وأردف:

- أرجو أن تسمح لي بفتح الباب فالأجواء هنا خانقة. لا داعي للقلق لا يوجد أحد في الخارج.

- تفضل افعل ذلك.

فنهض الطبيب وفتح الباب ثم قال:

- أعلم أنني أثقل عليك بطلباتي ولكن أرجو أن تسمح لي بطلب أخير.

- لا بأس، ماذا تريد؟

- جلبت معي مُعطِّر للأجواء فاسمح لي ببضع رشات.

- أتعتقد أن تحسين أجواء الغرفة سيُحسن من مزاجي ونفسيتي**!** افعل ما شئت.

- لا، ليس لهذا الغرض أريد أن أفعل هذا.

- فلماذا إذًا؟

- لا تتعجل سأخبرك بعدما أنتهي.

فتح الطبيب حقيبته وأخرج منها المُعطِّر، ثم أخذ بنثر الرائحة الجميلة في الغرفة.

كانت تصرفات الطبيب غريبة ولا يمكن التنبؤ بأهدافها، وكانت حيويته وسعادته بخططه التي يُخفيها مُستفزة لعمر.

قال عمر:

- ماذا قصدت بأنك لن تكون طبيبًا اليوم؟

- سأكون مساعده.

- حقًا، ومن هو هذا الطبيب الذي سيحظى بمساعدة طبيب مجتهد مثلك.

- إنه هديتي لك، إنه في الطريق.

هنا صمت عمر للحظات فلقد تشقق الجدار الذي بناه حول قلبه من شدة خفقانه بسبب كلمات الطبيب الأخيرة التي ذكرته بالكلمات الأخيرة لإبراهيم، وغرق في ذكريات مؤلمة لدقائق لم يقاطعه فيها الطبيب، ثم تماسك وقال:

- لا أحب الهدايا.

- أنا متيقن أنك ستحب هذه الهدية، كن صبورًا هي في الطريق.

- لقد قيلت لي هذه الكلمات مرة من أحدهم، ووجدته في اليوم التالي ميتًا ولم أحصل على هديته.

- لا بد أن من تقصده هو إبراهيم. لقد أخبروني عنه كثيرًا. لا تقلق عليَّ، فلن يكون الموت سريعًا بقدر سرعتها.

بعد ضحكات أطلقها محاولًا تلطيف الأجواء، أردف:

- لقد اكتشفت أنّ نسبة أن أكون عاجز عن تقديم العلاج الملائم لك أكبر من نسبة أن أكون قادر، فكنت حزينًا، ولكنك أسعدتني ومنحتني الأمل بكلمات قلتها لي في اللقاء السابق.

- تتكلم بغموض.

- لا بأس ستفهم كل شيء بعد قليل.

وما إن أنهي كلماته حتى سُمع طرق على باب الشقة، فقال:

- لقد وصلت هديتك

نهض الطبيب لفتح باب الشقة، وما هي إلا لحظات حتى كانت ميار واقفة أمامه فتجمد بصره وتمرد قلبه وألجم لسانه وتحجر جسده وغاب عقله، وكانت هي رغم تماسكها مصدومة بشدة من التغيير الذي أحلته فيه السنين السبع.

كانت لحظات تخلت الجبال فيها عن ثقلها والمحيطات عن عمقها والسماء عن بعدها والأرض عن حبها والأرواح عن قيودها والأجساد عن عيوبها. لقد كانت لحظات تلاقي بين آلهة.

قالت وهي واقفة على باب غرفته بعدما استسلمت عيناها لتمرد بضع دمعات:

- بائس كما تركتك.

فوقف وقد كان يتحرك بقوة ليست قوته بل بقوة كانت هبة له من الإله، ثم تقدمت نحوه وعانقته فانهمرت من عينيه الدموع وانبعثت مشاعره من موتها بعد دفنه لها سبع سنوات في مقبرة البحث المتواصل.

كانت لحظات صراحة مُفرطة وصدقًا بالغًا، لحظات فيها المشاعر تمردت على قيودها وحبسها، فغرقت الغرفة بها، لحظات صادقة عبر فيها الإنسان بكل جُرأة وبدون خجل عن ضعفه، لحظات تخلى فيها الإنسان عن ادعاء القوة، لحظات تخلى فيها الإنسان عن جميع أقنِعته، ليُظهر ما هو عليه الإنسان الحقيقي. لقد استوطن قلبيهما فرح عميق أغرق وجودهما كله.

جلسوا ثلاثتهم ثم قالت:

- هدف صعب وطريق طويل وإنسان عنيد، هذا هو السبب.

- دعيكِ من السبب الآن، كيف هي أحوالك والسيد شوقي؟

- أنا بخير كما ترى، أما ذلك العجوز فقد تركني بعد أشهر قضاها في المستشفى.

- أنا أسف. متى وصلتي؟

- هذا سؤال يوحي بأن هذه العزلة أثَّرت في عقلك. بالتأكيد وصلت للتو. أكنتَ تعتقد أنني كنتُ سأنتظر لأرتاح من سفري أو لأقضي بعض الأعمال قبل رؤيتك! لا شيء يربطني بهذه المدينة البائسة حي سواك.

كان الطبيب في تلك اللحظات يتابع التحول العجيب الذي طرأ على حالة مريضه، ثم قال بعدما ترك لهما مساحة اعتقد أنها كافية:

- ألم أقل أنَّها هدية ستعجبك؟

- كيف وصلت إليها أيها اللئيم؟

- أوصلتني إليها أنت بالكلمات التي همستها في أذني في لقائنا السابق، فلقد كانت ميار تخبرنا عن رأيك في تخصصنا. لم أكن أعرف أنك صاحب الكلمات حتى

سمعتها منك. تواصلي لم ينقطع معها بعد الدراسة، فحدَّثتها عنك وأصرت على السفر لرؤيتك.

قالت وعلامات الحزن على وجهها:

- يبدو أنك لا تزور صديقتنا.

- لقد أوصاني على الهدف لا عليه، ولهذا أنا من أحتاج الزيارة وليس هو.

- قسوة قلبك دائمًا ما كانت تميزه.

فتعالت الضحكات المرهقة بالحزن والعمل الشاق.

قال عمر وابتسامة على وجهه:

- كان سيقول لو كان بيننا: جميلة حتى بعد سنوات سبع من الغياب.

فتعالت الضحكات مجددًا.

في تلك الأثناء لاحظت ميار أنه، كلما ضحك نظر إلى جهة معينة، فقالت والخوف يملأ قلبها:

- إنك تراه، أليس كذلك؟

فصدمه سؤالها، وطردت الابتسامة عن شفتيه، ثم أجاب بعد لحظات صامتة:

- كيف كنت سأصمد طيلة السنوات السبع إذا لم أكن أراه، وإذا لم يكن يرافقني في كل خطوة أخطوها.

- أيُحدِّثك وتُحدِّثه؟

- نعم، ولكن ليس كثيرًا.

تعاظمت مخاوف الطبيب على مريضه وميار على صديقها، وأدركا حجم الضرر الذي لحق به بموت إبراهيم.

قالت محاولة تذكيره بما عليه صديقه:

- لما لا نذهب لزيارة قبره.

- سنفعل ولكن ليس الآن. لقد وصلتِ للتو، لذلك اذهبي لترتاحي وسيكون لنا لقاء آخر في أي وقت يناسبكِ.

ثم وقف يودعها، فعانقته وعبرت له عن مقدار سعادتها برؤيته، ورجع كلاهما لحالة الضعف التي كانا عليها فانهمرت من عيونهم الدموع التي كانت شخصياتهم الجديدة تحاول إعاقتها.

وقفت على باب غرفته وأخذت تلقي نظرة عليها ثم قالت:

- ما أنت فيه يبرهن يا صديقي أن هدفك ليس من الصواب والعدل أن تسعى في سبيل تحقيقه وحدك. لهذا ستسمح لي بمشاركتك، أنا واثقة من هذا.

- أعدك أن ستفعلين ذات يوم.

- جهز نفسك لمحادثتي في لقاءاتنا القادمة عن سنين عزلتك السبع، وأثرها فيك، فأنت تعلم أنني لطالما استفذت من تحليلاتك في أبحاثي.

- أعدك ببذل قصارى جهدي.

- إلى اللقاء إذًا.

بعدما غادرت ومعها الطبيب وهي تتكلف الابتسام كظمًا وإخفاءً للحزن الذي يفيض به قلبها عليه، استلقى على فراشه وغط في نوم عميق على إثر الإرهاق الذي أصابه من حواسه التي عادت للعمل ومشاعره التي عادت للتدفق، ودقات قلبه التي عادت لتتخلى عن انتظامها.

(5)

في اليوم التالي كانت الشمس قد عادت لتُلقي تحيتها بعد غياب وانقطع المطر عن الهطول تمامًا، وعاد من يرتبط من سكان المدينة بعمل إلى أعمالهم بعد انقطاع، فانطلقت ميار بحماس للقاء صديقها للتحدث معه على انفراد قبل الموعد الذي حددته مع الطبيب للالتقاء، وما إن وصلت حتى رحَّب بها بحيوية لم تكن لديه طيلة السنوات السبع.

قالت بعدما جلست على مقعد مكتبه بجوار باب غرفته المفتوح،بعد لحظات صمت عرف كل منهما أنها لحظات عتاب متبادل، وبعد نظرات متفحصة للغرفة:

- لقد كنت تعمل بجد طيلة هذه الفترة.

- لقد حاولت ذلك. دعينا نتحدث عنكِ فبعد قليل سأكشف لكِ وللطبيب كل أوراقي. ماذا كنتِ تفعلين طيلة هذه المدة؟

التزمت بالصمت للحظات كانت فيها كأنها تحاول السيطرة على مشاعر تعذبها فلا تستطيع فعل شيء أمامها،ثم أجابت وقد ارتسمت على وجهها تعابير الحزن التي كانت تحاول التغلب عليها وإخفاءها بابتسامة خفيفة:

- بعد وفاة شوقي، شعرت أنني فقدت كل شيء، فقدتك وفقدت إبراهيم وفقدت تلك الساعات التي كنا فيها نبحث معًا، وفقدت جلسات الصالون الأدبي الأسبوعية. لقد شعرت بوحدة موحشة قاسية مرعبة، ولم أجد لي سبيل للفكاك منها إلا إكمال الدراسة فحصلت على الشهادات تلو الشهادات، ولم أكتفي بذلك فحاضرت في العديد من الجامعات، لكيلا أترك لنفسي وقت أشعر فيه بالوحدة، وهكذا استمريت بالهرب ثم الهرب، حتى وجدت نفسي هنا أمامك يا صديقي المُحتفظ ببؤسه.

ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة حزينة واغرورقت عينيها بالدموع، فقال ممازحًا:

- لقد قال أحدهم لي أنَّ عليك المقاومة بدلًا من الهرب.

- ولقد رد عليَّ أحدهم آن ذاك أن الهرب هو الوسيلة المتاحة للمقاومة.

ثم أخذا بالضحك. لقد كانت لحظات كان للحزن فيهما سعادة، وللبؤس فيهما راحة، وللألم فيهما لذة. لقد كانت له نورًا ساطعًا غمر حياته المُظلمة القاتمة وكان لها ذلك الحبل الذي يصلها بماضيها الجميل مخلصًا إيَّاها من حاضرها البائس.

قال عمر:

- إذًا هل قدَّم التعليم الأكاديمي شيئًا لكِ؟

- بالتأكيد لم يفعل.

فعادا للضحك مجددًا.

كانت لحظات تخلى فيها كل منهما عن العتاب، وقرر الصفح عن الآخر، لحظات لم يكتفي كل منهما بتقديم الأعذار التي تبرر تقصيره، فساق أعذار لنفسه تبرر تقصير الآخر، لحظات كان يقول كل منهما للآخر أنت لست مخطئ لتعتذر.

قالت ميار بعد لحظات صمت:

- لقد اشتقت إليك كثيرًا.

فاخترقت كلماتها قلبه بعنف، وشعر بأنه نال ضعف متبادل منها، ضعف لا يجوز لمثلها هي التي تحوز كل هذه القوة أن تمنحه إياه، ضعف لا يستحقه، ضعف لا يجوز أن يُمنح لأحد، شعر بألم وحزن شديدين، فقد أحس بأنه سبب في حزنها، ثم أخذ يُحدِّث نفسه، قائلًا: "ألمثلي تشتاقين! تبًا لك أيها الشوق الذي استوطنت قلبها فأذيتها، تبًا لك أيها الضعف المتسلل إلى هذه القوة. ماذا فعلتُ لأستحق كل هذا العذاب، ماذا فعلتُ لأكون سبب ضعفها، تبًا لي."،

ردَّ عليها وقد بان عليه اضطرابه:

- لا حق لنا بنيل شوقكِ إلينا. لمثلكِ يا صديقتي نحن من نشتاق، ما أحمقني وهل يوجد مثلكِ، أنتِ واحد كالإله.

فزادت كلماته اضطرابه، فقد شعر بأنه تكلم بكلام العاشق لا الصديق، شعر بأنه اعترف لها بحبه بهذه الكلمات، شعر بأنه أخطأ خطئًا عظيمًا، فعاد يقول متلعثمًا من شدة حرصه على الإسراع:

- هذا ما كان إبراهيم سيقوله.

ثم عاد يُحدِّث نفسه قائلًا: "لقد أنقذتني مرة أخرى يا صديقي. ألم أقل إنني سأكون بحاجتك دائمًا."

في تلك الأثناء سُمع طرق فنهض مسرعًا يحاول الهرب من عينيها ومن نظراتها بفتح باب الشقة الذي لم يجرؤ على فتحه لطارق طيلة سنين عزلته.

كان الطارق الطبيب الذي لاحظ اضطرابه عندما فتح له الباب، ولقد علل ذلك بوجود ميار بعد رؤيتها في الداخل، فقال لها بعدما جلس:

- يبدو أنكِ هنا منذ وقت طويل.

- نعم، لقد حضرت قبل موعدنا لتهيئة الأجواء.

قال عمر بعدما تماسك بحضور الطبيب:

- كم أنا محظوظ، لدي الآن طبيب وطبيبة.

قال الطبيب:

- ما رأيك أن نخرج للتحدُّث في الصالون.

- لكي أستطيع التعبير عن حالتي بصدق وبإحاطة ينبغي عليَّ البقاء في غرفتي.

- صدقت، لقد غفلت عن هذا.

نهضت ميار وأغلقت باب الغرفة لكي تمنحه الأجواء التي يشعر فيها بعزلته ليُعبِّر عن حالته بشمولية وصدق، ثم قالت بحزم الطبيبة لا الصديقة:

- الآن سأمنحك ثلاث ساعات، لكي تخبرني فيها بكل ما شعرت به في عزلتك منذ اليوم الأول لك فيها حتى الآن، واعلم بأنني لن أسمح لك بالتوقف إلا للتَّذكر أو لاستحضار التعبير الأنسب والأكثر وصفًا لحالتك. أريد منك إخباري بكل شيء. لا تعتقد أن هذه الساعات الثلاث كثيرة، فلديك ما تقوله ولكن ينبغي عليك استحضاره من أعماقك، عليك أن تسرق الكلمات لي من خلوتك، عليك أن تبوح بكل شيء حتى لا يبقى شيء عالق في أعماقك. سأنتظر إذا احتجتَ وقت للتذكر،وسأنتظر إذا احتجتَ وقت لاختيار الكلمات الملائمة للتعبير. لستُ في عجلة من أمري، كل وقتي لك، فامنحني كل وقتك وصدقك وإحاطتك ومعرفتك بنفسك. أريد التعرف على ما تغيَّر فيك، أريد التعرف على الجديد الذي حل فيك وعلى القديم الذي ارتحل، أريد أن أعرف أعداءك وأصدقاءك، أريد التعرف على حروبك، أريد التعرف على انتصاراتك وخساراتك، أريد أن أتعرف على أثر المقاومة المستمرة فيك، أريد التعرف على كل شيء حتى تلك الأسئلة التي تزعجك وتلك الاستنتاجات التي توصلت إليها.

كان متقبلًا بصدر رحب دور الطبيبة منها، كان في حال صدر هذا الكلام عن غيرها لشعر أنها حفنة أوامر، ولكن لأنه منها شعر بأنه رجاء، فكان مطواعًا كأنه لم يعرف الرفض والاعتراض يومًا، يهز رأسه موافقًا على جميع طلباتها. لم يكن آن ذاك كعفريت المصباح يمنح ثلاث أمنيات فقط ليحققها، بل يمنح لها الحرية بطلب كل ما

باستطاعته فعله لها، بل إنه منحها الحرية بطلب ما ليس باستطاعته تحقيقه لها ليحاول على الأقل فيه.

بعد لحظات صمت طويلة استعان بها للدخول فيه واستنطاق كل ذواته قال:

- جدار يتلوه جدار يتلوه جدار. لم تعد الجدران تخصص لنا نحن البشر لتعيق حركتنا فقط، فلقد تكاثرت بقدر ما نحوز من أمنيات وأمال، فأصبح لكل أمنية نصيبها منها. لم تعد الجدران تنطق ب"قف!" فقط، ولم يعد خيار الرجوع متاح عند الاستجابة ل"قف!"، فالخيار يسبقه جدار. نعم "قف!" كانت تلغي الأمام ولكن الآن هي طامعة بالوراء أيضًا. لقد أمست الجدران تحركنا كالعبيد، فما هو مسموح، ما يتيحه الجدار، وما هو ممنوع ما يمنعه الجدار، نعم لقد استحوذ علينا الجدار. أصبحت عاجزًا عن التمييز بين ما أريده وما لا أريده وبين ما يريده الجدار وما لا يريده، لقد اختلطت عليَّ إرادتي وإرادته، فلا تمييز لي، لقد أصبحت متشككًا في كل ما أرغبه، فأصبح الرفض وسيلتي للتحدي، نعم لا أريد شيئًا هذا كل ما أريده، ولربما هذا كل ما يريده الجدار. لقد أصبحت أرجو الله أن يُمكِّنني من طريقة أتخلص بها من كل ما أريده ويريده غيري مني، من دون أن يكون رجائي هذا بالتخلص مطلبي ومطلب غيري. كيف أكون بلى إرادة بجانب أن لا أكون خاضع لإرادة غيري. نعم أصبحت أرجو أن لا أكون. كم أخاف أن تكون إرادتي لأن أكون أو لا أكون، هي إرادة الجدار ورغبته. حصار يُفرض عليَّ ولكن بدون أن أشعر بالشيء المُحاصَر، حصار عاجز عن إشعاري بأنني كيان، بأنني موجود يمكن عزله عن باقي الوجود، حصار لا يسلب مني اجتماعي وانفتاحي فقط، بل يسلب مني إحساسي بأنني جزء منتفي أو حتى جزء رديء أو مُعطل أو زائد عن الحاجة، حصار في بعض الأحيان يشعرني أنني كل لا جزء، ولكن كل ناقص، كل شاعر بوحدة ثقيلة، كل لا يوجد له بعيد ولا قريب، كل يُناجي أن يكون جزء، حصار يُشعرني أنني الموجود الوحيد، يُشعرني بأن لا موجود خلف الجدار، حصار كحصار كوكبنا بتفرده بصلاحيته للعيش عليه وبوجود الحياة عليه. ما أسوأ أن يشعر الإنسان بأنه كل لا جزء، فهذا الشعور وحده يسلب من الإنسان إنسانه.

أماكن لا نوجد فيها إلا لنتمرد ونحترق، أماكن لا تقبلنا مسالمين كأن سلامنا يُعاديها، أماكن تُلزمنا بالتمرد ثم تُلزمنا بالندم ثم تُلزمنا بالقهر ثم تُلزمنا بالتمرد مجددًا. هي خسارة تتلوها خسارة برفض الخسارة السابقة. أماكن ليس مسموح لنا فيها بقبول الخسارة لأن القبول لا يمهد لخسارة جديدة، أماكن ملزمون فيها بالاستمرار بالرفض للاستمرار بالخسارة، أماكن لا تقبل عدم وجودنا بل تقبل وجودنا كخسارى فقط. أماكن تُعادي حبنا للسلام.

اختناق لا يجر موتًا، اختناق يقف بنا عند أقصى الحدود بين الموت والحياة بدون طردنا، اختناق لا يريد إحلال الموت بل إحلال حياة ميتة، اختناق يريد إحلال أناس

موتى بحياتهم، اختناق لا يرسلنا إلى مكان نشعر به، اختناق يبقى مصاحبنا بوفاء، اختناق لا يعرف الغدر، لا يتحالف إلا معنا لا على غيرنا، بل علينا، اختناق يصاحبنا ويعادينا في ذات الوقت.

يا صديقتي، تعثر وسقوط ثم يتلوه تعثر وسقوط، فنتساءل بحيرة كبيرة كيف كان التعثر والسقوط اللاحق من دون أن يكون هناك وقوف يتلو التعثر والسقوط السابق، كيف السقوط يجر سقوطًا، ولا يوقظنا من الحيرة والتساؤل إلا تعثر وسقوط جديد، يُدخلنا في الحيرة والتساؤل من جديد، فلا مكوث طويل فيهما ولا مكوث طويل بدونهما.

مرفوض ذلك التراجع الذي يخلّف تقدمًا ومرفوض ذلك التراجع الذي يُعلن به استسلامًا، ومرفوض ذلك الوقوف الذي لا فيه تقدم ولا تراجع، لأنها جميعًا خيارات تعني الوجود، ونحن ليس مسموح لنا بالوجود، بل مسموح لنا باللاوجود في الوجود أو إن شئت سمِّه الغياب في الحضور.

يا صديقتي شقاء يغالبه شقاء، فنداوى من ألم الشقاء المنفي بألم الشقاء النافي، نداوى من ألم أقل فتكًا بألم أشد فتكًا.

في كل لحظة هناك استشعار بعجز جديد يطرد عجز قديم، كل لحظة هي متآمرة علينا لطرد اعتيادنا على عجز حل فينا. لا يكفي الجدار إشعارنا بالعجز بل يطمع باستمرار بسلب اعتيادنا عليه، لكي نشعر به بكل حواسنا. هناك عجز وهناك حواس شاعرة به، فالجدار لا يقبل أن يكون العجز موجود والحواس متبلدة، بل يفرض علينا عجز وحواس تقوم بوظيفتها بكفاءة.

اختناق يا صديقتي لا يصيب بعضي بل يصيب كلي، اختناق لا يترك لي فرصة انتفاء أو هجرة إلى ما تبقى لكي أبقى، اختناق للهجرة إلى الآخر لكي تتبدد العودة، لكي لا يبقى لنا ما يذكرنا بنا، لكيلا أتذكر أنَّ لي أنا.

أبحث عن هدوء يسبقني إليَّ بصفائه، لا عن هدوء نسبقه إلينا بضجيجنا، أبحث عما يطهرني لا عما ألوثه، فلا هدوء يطهرني بصفائه ولا هدوء ألوثه بضجيجي، فقط ضجيج نقابله بالاحتواء فيتعاظم ضجيجنا، وضجيج يقابلنا ضجيجنا بالاحتواء فيتعاظم، فنعتزل البحث، فيتدخل الملل لإحلال الجديد، لإحلال ألم أكبر وواقع أشد بؤسا.

نقلق فنحطاط والنتيجة هي التسبب فيما كان مصدر قلقنا وتحوطنا، فنعيد الكرة معتقدين أن وسيلة التحوط كانت غير مناسبة والنتيجة هي كما هي.

هنا يا صديقتي حيث كثر الإنذار وانعدمت النجاة، لا لإهمال السامعين، ولا لتأخر المنذرين وترددهم ولكن لسرعة وقدرة ما يُنذر منه على الخطف.

أحجار نردنا لا تصيب أرقامها، تخالف الطبيعة بالوقوف على زواياها، لكي تجردنا من جميع الحظوظ جيدة كانت أم سيئة، تغتال أفراحنا وأحزاننا، تغتال حماسنا وشوقنا. إلقاء يتلوه إلقاء يتلوه إلقاء، فنحاول بقوة الإلقاء تفادي الالتقاط فتتآمر على استعدادنا وتخطيطنا أيدينا معللة الخيانة بعدم الرغبة في اللاعمل.

عزلة لا ينفيها التقاء أجسادنا ، عزلة لا خلاص ولا فكاك منها، عزلة تزداد توحشًا كلما طال أمدها، عزلة لا ترسم مكانها بل ترسمك في مكانها، عزلة تعجز عن التعرف إليك فيها، عزلة فيها تتمزق وحدك بأنين لا يُسمع، عزلة الأيدي الممدودة فيها لانتشالك مبتورة بأيديك الممدودة لنجدتك، عزلة مقاومتك فيها لا تطيح إلا بالقادم إليك بالمساعدة بطلبك وإحسانه، عزلة يدفعك الألم لطلب المزيد منه بدلًا من طلب النقيض، عزلة فيها كل ما تقدمه لا يعود عليك بما تطلبه، عزلة فيها الأسئلة كأمطار من الأسهم والرماح لا سقوط لها إلا عليك، عزلة لا توهُّم فيها للذة ولا لسعادة، عزلة لا مكان فيها ولا زمن، عزلة لا أحداث فيها، عزلة الأسئلة وأنت المجرد من كل شيء فقط فيها، عزلة تبحث فيها من دون أن تعلم عن ماذا تبحث، عزلة تنزع منك كل ما تجرأت يومًا على التصريح بأنك علمته لتذهب وتلقيه في سلة المهملات، بل لتلقيه أمام عينيك الجديدتين لتطلعك على مقدار سذاجتك بما تفاخرت بمعرفته، عزلة ليس فيها إلا التراجع والاستسلام والشك.

في عزلتي حيث أرفض بؤسي يوفر لي الرفض بؤسًا أشد، ولكنني أنصح نفسي بعدم التوقف عن الرفض فبدونه لا يكون لي الخيار. إنني في عزلتي بين خيار اختيار بؤسي وبين خيار فرضه عليَّ.

أحيانًا أواسي نفسي فأقول لولا سرعة الجدار في إسقاط ضرباته علينا لكان أشد قسوة، فهو كالبحر الذي من سرعة موجاته الضاربة للشاطئ لا يكاد الشاطئ يشتكي من أية موجة بل فقط يتآكل بهدوء.

إن عشت إلى ماذا أصل، وإن مت عن ماذا أنقطع؟ دائمًا أجدني أبحث عن إجابة دون إيجادها، فهل هذا لأنني منتظر لأحدهما؟ ههههه. ما أشد حماقتي! لماذا اعتقدت بأنني بالحياة أصل وبالموت أنقطع؟ أيعقل أنني واقع بحب الحياة؟ إن كنت كذلك فما أتعسني بحب ما لا أعرف عنه شيئًا. أليس الانقطاع هو بحد ذاته وصول، والوصول هو انقطاع؟ ها قد عدت للسؤال تبًا لي ولأسئلتي.

كم أرجو أن أستشعر أن الموت يميتني وأن الحياة تحييني. لا شيء يقتحم شعوري إلا اللاشعور.

ما زلت أسقط وأدعي مخادعًا مزاجي أنني أقف. أتساءل عما لا أريد محاولًا البحث عما أريد وأستمر في التساؤل فالقائمة طويلة. أبحث عن ذاتي وسط ذوات خلقها لي الجدار، وأدَّعي أنها ذواتي.

حيرة خوف، ضياع يطاردني وأنا واقع فيه، فلا اصطيادي أوقفه عن مطاردتي، ولا مطاردتي منعته من اصطيادي.

أنا كنهر تائه عن مجراه، كبحر لا التقاء له بشاطئه، كسماء لا تطل على أرضها، كنجم لا يداعب نوره الأعين. ماذا، كيف، أين، من أنا؟ أبحث وكأن البحث يُجدي، وكأن للبحث بديل متاح لي اختياره. كم أشعر بأنني مجبر على البحث فيما لن أمنح له إجابة، ولكنني لا أتوقف عن الادعاء أنني اقتربت. كم أنا مُخادع، كم أدَّعي الوقوف لكي أقبل السقوط.

حيث أمضى لا شيء سيكتب له المضي غيري، حيث ستكون نهايتي ستتمكن الأشياء من البدء، كأن نهايتي إله أمر الأشياء بالوجود والبدء.

إنني أمكث في ظلمة لا شعاع يخترقها، أهتدى به لمكان الدخول والخروج، في ظلمة لا وجهة لي فيها، ظلمة لا أجد لوجودي فيها هدف، ظلمة أعجز فيها عن تصور نقيضها أو التأكد من وجوده، ظلمة أنا فيها ظلها.

أهوي من مرتفع بدون أن يكون اصطدامي بالقاع موقف للسقوط، بل مزايدًا في عمق القاع، فأتساءل متعجبًا: لماذا لا يوقف الاصطدام السقوط! لأجد أنني لم أكن أسقط بل كنتُ أحفر، ومع ذلك أستمر بالسقوط، ها أنا أنسى مجددًا أنني أستمر بالحفر.

راحة أم عذاب هذه اللحظات التي تسرقها منا الأيام الراكضة من دون أن تضيف ذكريات تستحق منا الرجوع إليها والوقوف عليها لنُسكِّن ألامنا، راحة أم عذاب هذه السنين المسلوبة من دون أن تكون بداية أو تمهيد لبداية، راحة أم عذاب أن نمضي بدون أثر؟

يُحدثني الجدار في أوقات قائلًا: "لن تستطيع الموت، ستلاحقك الحياة الميتة في كل جسد تبعث فيه لتذكرك أن الموت ما هو إلا وهم أنت صنعته بتفاؤلك، وهم أنت احتلت به على نفسك لعجزك عن الخلاص ولغياب المُخلص ولربما لعدم وجوده" حينها ألتفت متسائلًا عما يؤخر الموت، وعندما لا أجد الإجابات أجدني أصدِّق الجدار.

إن الإنسان في مثل هذه العزلة ينال في كل انكسار له انكسار جديد، حتى أصغر شظاياه ستلتقط انكسارًا، فالتشظي لن يوقف انكساره، نعم الإنسان فيها لن يستطيع لملمة حطامه الذي أوجد زوايا جديدة يرقد فيها.

في عزلتي يطاردني فشلي في كل بداية جديدة أعلنها، فحيث تكثر البدايات يكثر الفشل.

سأعلن النهاية ولكن سأعلن أيضًا البداية، فما أشد التصاقها بي وما أقبحها تلك النهايات التي لا ترسم إلا بدايات كنتُ قد وصلت فيها إلى النهاية.

أسير بخطى عرجاء لأهداف تسير بخطى عدَّاء، فكم هم محظوظون أولئك الذين هم بدون بدايات حيث الأهداف قريبة، حيث لا فرار لها بالابتعاد، حيث أبصارهم قادرة على إدراكها، وأسماعهم قادرة على سماع التصفيق للواصلين، حيث يستطيعون شم رائحة وتذوق طعم مأكولات الاحتفال بالواصلين، وحيث يستطيعون إحساس أيدي المهنئين وهي تداعب رؤوسهم.

أبواب مغلقة تتناثر حولها وتلتصق بها أيدي الطارقين المبتورة بتفاؤل أصحابها الذي لم يبدده طول الإغلاق ولا آلام الطرق وضجيجه، أبواب لا يحفر الطارقون بطرقهم إلا أيديهم، أمواج مُحمَّلة بجثث يملأها طموح أصحابها لا تجد لنفسها شاطئ تُرسي حملها عليه فتتركه غريقًا في البحر، سماء لا تقبل زائريها محلقين بل ساقطين، أرض تستثقل من عليها مسالمين وتستخفهم متحاربين متنازعين. إنني محاصر يا صديقتي برفضي ومقتول في حياتي مرتان، بحصاري وقبح عالمي.

كم تمنينا وطلبنا أن تفتح لنا الأبواب بوعود منا بالتنازل عن العبور منها، ولكن بدون استجابة. ستسألينني ولماذا هذا الطلب وهدفه متنازل عنه، سأجيبك لأن الأبواب المفتوحة مؤنسة لنا في عزلتنا الموحشة، ولعلنا بهذا الطلب على الأقل نغفل عن عجزنا الذي يلوِّح لنا باستمرار بوجوده بالأبواب المغلقة، نعم لطالما قطعت الوعود للأبواب المغلقة بعدم العبور منها إذا فُتحت، فقط لكي أتوهَّم أن عدم اجتيازها خياري، لكي أريح يدي من الطرق وسمعي من ضجيجه، لكي أشعر بأنني الرافض لا المرفوض، لكي يداعب بعض النور المتسرب من الفتح عينيي الغارقتين في الظلام.

عزلة فيها صراع لا أطراف فيه وحدك من تخوضه ووحده من يحوزك، صراع لا هزيمة فيه ولا انتصار، صراع تبحث فيه عما تنافسه بحبك أو بغضك فلا تجده، صراع موجود بدون هدف أو على الأقل هذا ما تعتقد، فتجتهد لتوجد هدف فتجد أن اجتهادك هذا هو ذاته جزء من ذلك الصراع، صراع يبقيك ويفنيك، صراع يشطر شمالك عن يمينك فلا التقاء، صراع لا خيِّر فيه ولا شرير، فيه أنت بدون مقدرة على تقمص شخصية أحدهما أو لعب أدواره، فيه أنت بدون أن تكون أسفل أو أعلى أو بهذا الجانب أو ذاك، صراع تختفي فيه المقدرة على الانتماء، صراع فيه أنت فقط، صراع لا تستطيع أن تكون فيه غيرك، صراع تكتشف فيه نفسك ولكن لا تدرك ما اكتشفته، صراع أكبر من قدرتنا على إدراكه، صراع تستشعر فيه الضربات الموجهة إليك بدون إدراك لمصدرها، بدون أن تكون من طرف آخر أو منك أنت. ألم أقل لك، صراع موجود فينا ليبقينا ويفنينا. صراع لا خلاص لنا منه، صراع لا مجال للمقاومة فيه ولا للاستسلام ولا للانسحاب ولا للاعتزال، فكيف نفعل ونشارك فيه هذا ما نجهله. كيف يحتوينا بهذا الشكل ونحن في غيره بتلك المقدرة العظيمة على المقاومة

والاستسلام والاعتزال، هذا مما نجهله. بعد كل هذا الوصف قد تعجب لتسميتي إياه صراع، فلا عدو ولا مقاومة ولا انسحاب ولا نصر ولا هزيمة، والتعجب من حقك، ولكن للأسف تعجبك لن يغير حقيقته.

يُحدثني الجدار في أحيان قائلًا: "حتى لو تمكَّنت من تحطيم القضبان فإنك لن ترى السماء قطعة واحدة بل ستراها مُقسَّمة، وحتى لو تمكنت من تحطم القيود لن تسير بشكل طبيعي فعرجتك التي كانت بسبب ثقل القيد ستبقى مصاحبة لك، وحتى لو ابتعدت عن الحديد لن تستطيع تجنب مخالطة رائحته كل رائحة متسللة إلى حاستك." يا إلهي كم هو مقنع وكم أنا عنيد بعدم الالتفات لكلامه والمواصلة!

أسأل نفسي باستمرار يا صديقتي سؤال لا أجد عليه إجابة كحال باقي الأسئلة وبالرغم من ذلك أعود لطرحه وهو: لماذا وجِدت في عالم مستحق كل هذا الاستحقاق من الاعتراض والرفض، ولماذا أنا مستحق كل هذا الاستحقاق أن أكون رافضًا ومعترضًا؟

يا صديقتي ويا طبيبي، لماذا عليَّ أن أعيش دائمًا معترضًا؟ لماذا يتم اختياري لأكون ضحية بالاعتراض المستمر؟ لماذا مستكثر عليَّ العيش بأمان وسلام؟ لماذا فيَّ ذلك المكان المظلم العميق اللامحدود الذي منه تتولد ثورتي وتمردي وتتسارع اعتراضاتي؟ لماذا هذا الانتفاء الذي لا أجد منه مهربًا؟ لماذا في كل مرة أعاهد فيها نفسي بعدم الاعتراض أجد نفسي معترضًا ورافضًا؟ لماذا لا أحوز راحة بالرفض والقبول وبالاعتراض والموافقة؟

أسأل نفسي بتكرار قائلًا: "ماذا عليَّ أن أفعل لكي أفعل ولا أفعل، ماذا عليَّ أن أختار لكي أختار ولا أختار؟" ولكن بدون إجابة.

في سعيي لهدفي أستهدف الألم. في كل خطوة أخطوها أتساءل إذا ما كانت هذه هي الأخيرة أو لا، في كل خطوة أردد أن قدرتي على التحمل أكبر، كأنني أتحدى الألم، كأنني أطلب منه أن يزداد شراسة. أقف عند كل خطوة لاستفزازه فأخاطبه "أنا متأكد أن هذه ليست أشد ضرباتك، لذلك هيا امنحني أفضل ما لديك، هيا كن جادًا وكفى استهتارًا بي، أنا بالتأكيد أفضل مما تظن بي". أقف فأتساءل: لماذا أفعل ذلك؟ لماذا لا أترك النصر للألم؟ لربما هذه إرادة الله بي، هذه العظمة من الإصرار والتحدي لا يليق بها مصدرًا إلا إرادة الله، بهذا أحاول إقناع نفسي.

أليست هناك طريقة لأصبح أفضل بلى مقاومة؟ ألا يوجد مكتسبات للامقاومة؟ لماذا لا يكون الاستحقاق إلا بالمقاومة؟

ماذا أريد؟ أه من عنادك والتصاقك بي أيها السؤال الهادم للذات. لماذا لا يطالك الحجب والنسيان؟ ماذا تحاول أن تثبت لي؟ أخطأ الإجابة هو ما يُبقيك، هو سبب الالحاح والالتصاق؟ ألتصاقك بي نتيجة طمع النفس ورغبتها بالكثير؟

لا شيء يشعرني بوجودي إلا ذاتي التي تحاول نفي وجودي، حتى في نفيها لوجودي تبخل عليَّ باستشعار ما يستشعره البشر، فلا بحثي عن اللذة موجدها ولا بحثي عن الألم مفقدها. أنا موجود بحيث لا أفقد ولا أحوز، أنا موجود بشعوري بانتفائي ومنتفي بشعوري بوجودي. تبًا لوجود لا أستشعره من الوجود وتبًا لانتفاء لا أستشعره من النفي.

هنا توقف تنفيذًا لطلبها.

كان في تلك الساعات الثلاث قد تناثر في داخله وفي السنوات السبع وفي اللغة، تناثر في داخله ليبحث عن جميع ما يشعر به، وتناثر في السنوات السبع ليبحث عما حل به منها، وتناثر في اللغة ليبحث فيها عن كلمات تحسن التعبير عن حالته.

كان ما زال متبقي على الساعات الثلاث بضع دقائق ولكنها أوقفته بعدما لاحظت حالة الانهيار والإرهاق الشديد جرَّاء تناثره الذي لم يكن سيقوم به تحت أي ظرف وتحت أي إغراء أو تهديد إلا لها.

لقد كان هذا التناثر مؤلم بقدر يفوق الألم الذي خصص لمقدرة البشر احتماله، كان هذا التناثر بمثابة التقاط لكل آلام الماضي والحاضر والمستقبل في لحظة واحدة.

كان من أجلها يحاول بعناد تحييد أسلوب الخداع والتجاهل والتضليل الذي ابتكره والذي استخدمه مع نفسه في لحظات قصفه بدفعات جديدة من الألم والبؤس والمعاناة، لكي يكون صادقًا بمنح ما طالبته به.

كان يتوقف كثيرًا للبحث طوال الساعات الثلاث فكانت كل معاناة يحاول إيصالها والتعبير عنها بصدق تأخذ نصيبها من دقائق البحث، كان بالرغم من تناثره يجد صعوبة في إيجاد آلامه التي كان يُخفيها في مناطق نسيها من كثرة ما أخفى، كان يبحث في سنين عزلته السبع عما نسيه من كثرة ما تلقى من الآلام والمدارك، كان يجتهد بالبحث عن كلمات من اللغة قادرة على إيصال ما يحاول التعبير عنه بالرغم من إدراكه أنه لا يوجد.

لقد حاول بجهد كبير تزيين كل ما طالبته به بالصدق وبالكلمات التي تطرب مسامعها. كان سيكمل تناثره حتى في حال كان ذلك مهدد لحياته تنفيذًا لطلبها.

بسبب اجتهاده في أن يكون صادقًا، كان يعبر بعواطف متضاربة عن كل ألمْ ألمَّ به، وعن كل معرفة توصل إليها ويحاول الكشف عنها، فتارة يتكلم بغضب وتارة بيأس وتارة بهدوء وتارة بحزن وتارة ببلادة، فكانت هذه التنقلات السريعة بين الشعور ونقيضه هي سبب آخر في حالة الانهيار التي كان عليها.

قالت وهي مصدومة بعدما أوقفته:

- هذا يكفي لليوم، لقد بذلت جهدًا كبيرًا، أحسنت.

كان عمر في تلك اللحظات يتصبب عرقًا وأنفاسه تضيق ويداه ترتعشان من شدة الإرهاق ووجهه شاحب أشد الشحوب من حدة الألم الذي كان يهده هدّا، فمنحته كلماتها شعورًا بالراحة وأخذ النور يتسرب إلى نفسه التي ابتليت بظلمة حالكة، فللمرة الأولى منذ زمن بعيد شعر بأن جهوده يتم مكافأته عليها، جهوده نالت إعجاب أحدهم.

قال الطبيب بصوت فاتر مُضطرب بان منه أنه لم يفق من دهشته التي أثارها فيه حجم البؤس والألم الذي أبانت عنه الكلمات التي سمعها:

- إذًا هذا هو خيارك، هزيمة الجدار.

قالت ميار:

- منذ زمن بعيد، وليس خياره وحده بل أيضًا خيار صديقه.

فقال عمر بعدما استجمع آخر ما تبقى له من قوة:

- أقف بجانبي أنظر إليّ متأملًا لا فاعلًا، لا لاختياري بل لعجزي، أحلل وأستنتج من تأملاتي، ولكن تبقى تحليلاتي واستنتاجاتي حبيسة الواقف المتأمل بدون انتقال للفاعل الذي بإمكانه الاختيار، فلا أجد تأملات الواقف إلا إرضاءً لفضوله، ولا أجد اختيار الفاعل إلا انقيادًا لما ليس له فيه اختيار، فأحاول قطع تأملات الواقف متشبهًا بحال الأغلبية، وفي جميع محاولاتي يحالفني الفشل الذي يثبت لي باستمرار أن اختياري ليس خياري.

نهضت ميار وتبعها الطبيب بعدما استكفت لعجزه عن المتابعة، وبعدما لاحظت امتناعه عن الاستلقاء من شدة الإرهاق استحياءً منها واحترامًا لها، ثم قالت بنبرة شاكرة ممتنة دافئة:

- شكرًا لك على تضحيتك هذه يا صديقي. أرجو أن ترتاح لتكون جاهزًا للغد. إلى اللقاء.

بعدما أغلقا الباب استلقى على فراشه وغط في النوم سريعًا.

لقد كانت ومعها الطبيب في حالة صدمة مما سمعاه فخيَّم عليهما الصمت طوال الطريق. لقد كان أثر ما اطلعا عليه من معاناة وبؤس وكآبة وحزن وإرهاق وتناثر كبير عليهما لا من ناحية طبية فقط بل أيضًا من ناحية إنسانية.

قالت ميار للطبيب باندهاش بعدما وصلا مكتبه وجلسا للنقاش في الحالة التي بين أيديهم:

- كيف يمكن لإنسان أن ينحدر في هذا القدر من البؤس، أليس هذا القدر مخصص للآلهة! كيف يمكن له احتمال هذا الدرك! من أين له كل هذه القدرة على التحمل؟ لا بد أنه واقع في الحب. نعم هو حب الحياة ما يجعله متعلقًا بها ورافضًا لها في آن واحد، نعم لا يؤخره إلا التردد بين القبول والرفض.

- صدقتِ. اليوم وبه أصبحت أعلم ما يمكن أن يملكه إنسان وحيد من قوة.

- لقد كان طوال حياته يمقت السير في الطرق المزدحمة، حتى لو كانت فرص وصوله مؤكدة، ولهذا ترك رغبته في وظيفة جيدة والهجرة إلى مكان واسع، وقرر اختيار مطالعة الكتب والكتابة إذا وجدت له القدرة عليها. لقد ساهم عجزه في أحيان وتمكسه بمبادئه في أحيان بفقدانه رغباته التي هي ليست متخفية في داخله بانتظار تحسن ظروفه أو استسلامه أو تخليه عن مبادئه لتعلن عن وجودها فيه، بل هي قد انتفت بلى عودة، وبلى قدرة له على استحضارها وبلى قدرة لها على الحضور فيه. الآن هو إنسان بلى رغبة غير إسقاط الجدار. لقد اختار أسمى رغباته وأصعبها عليه ليثبت بها وجوده، لكي يقول لنفسه أنا موجود، لكي يثبت لنفسه أنه واقف في مكانه الخاص، وأنه واقف لوحده لنفسه ولغيره. إنه يعيش بهدف الانتقام من الجدار لتسببه بدفع حاجاته إلى استيطان أمانيه، ثم لاحقًا لدفعه إلى التخلي عن أمانيه كافة. ما تُحييه وتدفع الموت عنه هي رغبته في رؤية الجدار ساقطًا. نعم هو لا يقبل وجوده إلا كمقاوم للجدار.

- لربما السبب الذي يجعله يمقت الجدار بهذا القدر هو قربه منه. أعتقد أن البعد هو الدافع للحب والتعلق عنده. هو غير واقع في حب الأشخاص ولا الأماكن ولا الأوقات ولا الأماني ولا الرغبات، إلا إذا حل فيها البعد، إلا إذا كانت بعيدة عن قدرة حواسه على التقاطها، إلا إذا كانت ليست في متناوله، إلا إذا كان عاجز عن حيازتها أو الوصول إليها. نعم هو واقع في حب ما لا ينال، لا لنيله ولا للاقتراب بل ليبقى بعيدًا. إنه يُفضل البعد لأن القرب له بمثابة حصار واختناق وخطوات قليلة وقصيرة، لأن القرب يطرح خيارات أقل، وطرق أقصر ومساحات أضيق. لربما هذا هو سبب عدم وقوعه في حب إحداهن إلى الآن، نعم هو عاجز عن الحب لأنه يرى القرب في جميع من حوله. لربما نفوره من الحب سببه اعتقاده أن الحب لا يكون حليفه في منحه البعد، ولربما لأنه بالقرب غير قادر على إيجاد مبررات لغيابه أما بالبعد فالمبررات حاضرة بغزارة، ولربما لأنه بالقرب مجبور على الانطلاق إلى مكان محدد أما بالبعد فالخيار للانطلاق في كل اتجاه وإلى كل مكان في أي وقت يشاء متاح. بالقرب لربما يشعر بأن الأضواء موجهة إليه من جميع الاتجاهات ومن جميع ممن حوله، أما بالبعد هو في الظلمة حيث منها ينطلق بصره كضوء ينير كل ما حوله. بالقرب هو معلوم ومكشوف، أما بالبعد هو مجهول، بالقرب هو وسط ازدحام موحش، أما بالبعد هو في عزلة مؤنسة، بالقرب هو مُستهلَك أم بالبعد فهو مستهلِك، بالقرب هو المطارَد أما بالبعد هو المطارِد، بالقرب هو الخيال أما بالبعد هو الجسد

ولربما الشعاع، بالقرب هو الرواية وبالبعد هو الراوي، بالقرب الجدار أمامه أما بالبعد فهو أمام الجدار.

- أحسنت، تحليل عميق. أوافقك على وجود مشكلة البعد والقرب لديه، ولكن ربطها بالجدار أعتقد أنه ربط خاطئ، فصراعه مع الجدار لم يكن القرب وحده سبب فيه، فهو يرى أن الجدار يُعيق تواصل الإنسان مع أخيه الإنسان ويعيق حريته.

- أعتقد أنكِ مصيبة في ذلك. لقد رأيت شعار اللاسلطوية مُعلَّق على أحد جدران غرفته وهذا دليل على ربطي غير الصائب.

- إن سعيه لهدم الجدار ليس انتقامًا شخصيًا فقط بل انتقام للإنسان.

- لربما ساهمت الحرية التي يجدها في التنقل بين الكتب التي ينتمي مؤلفوها لمناطق مختلفة في زيادة شوقه لتلك الأماكن، ولهذا هو شديد العداء للجدار.

- كل إنسان لديه نزوع إلى التوقف للحظة والعودة بذكرياته إلى الوراء، ليلتقط ابتسامة من الماضي لشفتيه، أو دمعة لعينيه، كل إنسان لديه نزوع للعودة لصورة له بين الأشجار، أو لصورة له من احتفاله بهدف وصل إليه، أو لصورة من أوقات إعجابه المُحتشم والخفي بفتاة كان يراها كل يوم صباحًا أثناء ذهابه إلى المدرسة، صورة من مغامراته وسفراته وتنقلاته بين الحياة الهادئة والسريعة، أو صورة من رحلاته في البراري والصحاري والبحار، ولكنني أجده شديد التهرب من لحظة التوقف هذه، كأنه يحاول بشتى الطرق إشغال نفسه عنها، فلم تكن حياته إلا ذكرى استلقاء على فرشته المهترئة المحاطة بأربعة جدران وفي يده كتاب يزيد شوقه للمكان الذي يُحدِّثه عنه. لقد حطمت الكتب حواجز شوقه للأماكن والأشخاص التي خلف الجدار، ولكنها لم تحطم الجدار. كانت أمنيته في الماضي البعيد كما كان يُحدِّث هي أن يكون باستطاعته الترحال على قدميه في الغابات والصحاري والمدن والقرى ومتنقلًا في البحار بدون أن تقف في وجهه الحدود، كان يتمنى أن يلتقي بمن هم على الطريق ليتعرف عليهم ويتقاسم معهم الطعام والشراب ويشاركهم الغناء والرقص ثم يودعهم ليلتقي بغيرهم، أو ليلتقي بهم في أعوام أخرى، كان يتمنى أن يشرب بيديه من إحدى الأنهار الجارية وتلفح وجهه أشعه شمس إحدى الصحاري، ويرتجف بردًا من برودة قمة إحدى الجبال، وتلطم خدَّيه نسمة هواء باردة وهو فوق إحدى التلال، ويتناول ثمرة من إحدى الغابات. لقد بنى الجدار له ذكريات لصورة واحدة، لا اختلاف فيها إلا لموضعه، فتارة يجد نفسه ملتفت لجدار الشمال وتارة لجدار الجنوب وتارة لجدار الشرق وتارة لجدار الغرب.

- لقد فتك به تفكيره المفرط بالجدار.

- وأعتقد أن لديه مشكلة أخرى خطيرة على صحته النفسية. إن تكريس نفسه للبحث بشكل متواصل تسبب في فقدان سريع لكثير من أفكاره ومعتقداته للتطور السريع في

قدرته على الإحاطة. هذا باعتقادي أحد أسباب حزنه وبؤسه، فأنت تعلم أن الباحث يتأرجح بين فردوس الاقتراب من التقاط الفكرة وجحيم ابتعاده عنها أو بالأحرى ابتعادها عنه، فهو يطارد أفكار تبرع في الهروب. أعجز عن تصور عدد فردوساته التي تخلى عنها بعدما وجدها ليست كذلك.

- رائع، بالتأكيد هذه أحد الأسباب الرئيسية، ولهذا كانت غرفته مليئة بقصاصات وأوراق ممزقة. ما يحمله الباحث اليوم غالبًا لا يحمله في الغد، لأن ما يحمله اليوم يُسِّفه ما حمله في الغد.

- إنه يبتغي الكمال ولكنه يدرك أنه ليس بمدركه ولهذا يواسي نفسه بأن في الطريق تكسبًا. إنه يكره حاجته سواء كانت للعلم أو للطعام أو لغيرها. إنه يشعر بأن حاجته متآمرة عليه ولا تستكفي باستلاب مرادها بل تزيد أوجاعه بتذكيره بنقصه وعجزه. إنه يغار من الإله. إنه يحتقر نفسه وكارهًا تناهيه. إنه يقارن بين الإنسان والإله. إنها مقارنة صعبة عليه، فهي تشعره بالعجز والدونية والانحطاط، إنها تسبب له عدم الاكتراث بكل ما في الحياة، تجعله غير مبالي، تجعله محصور في أشد الزوايا ضيقًا وعتمة. إنه عاجز عن الخضوع، عاجز عن التقبل. إنه لا يريد أن يخضع لأحد ولا أن يخضع له أحد. هو قادر على السؤال ولكنه عاجز عن الإجابة، وهذه من أعظم مآسيه. كنت أرجو أن تكون حالته ما زالت ارتدادات واقع مرير بائس، ولكنها للأسف الآن هي ارتدادات شيء أخطر بكثير، شيء لا يصمد أمامه أعظم المحاربين، شيء نسبة النجاة منه تكاد تكون معدومة.

- إنه كراكب سفينة التايتينك، ذلك الذي أُعجب بموته.

- تشبيه دقيق، أحسنت.

- استنتاجات كثيرة وعميقة في يوم واحد فقط.

- لقد كان اليوم مثمرًا ومتعبًا، سأدعك لترتاح للغد.

ثم نهضت وغادرت وهي في حيرة وخوف وقلق وترقب.

(6)

كان عمر في صباح اليوم التالي قد استعاد معظم طاقته، فلقد حاز نوم من شدة الإرهاق لا تفكير فيه، نوم لا أسئلة فيه، نوم كنوم البشر، نوم لساعات طويلة لم ينل مثيل له منذ زمن بعيد، ولقد بان ذلك عليه فلاحظت ميار أن ملامح وجهه ألقي لها سترة نجاة ولكنها بعد لم تجد زورق، ولقد شعرت أن شيئًا من لمعان عينيه قد عاد، فشعرت بالسعادة من هذه النتائج المبكرة في ظهورها.

قالت بعدما حضر الطبيب:

- هيا يا صديقي فلنبدأ، أريد منك البوح بكل شيء كما فعلت البارحة، هيا فلتمهد بالكلمات مجددًا ذلك الطريق الذي اقتدتنا فيه إلى عالم ما بعد الكلمات.

فقال عمر بعدما أخذ وقت أطول للولوج إلى نفسه وسنين عزلته السبع ولغته محاولًا فيه طرد كل سعادة يشعر بها بوجودها بجواره ليعبر بصدق وبدقة:

- ستكون كلك بدون كلك واقف هناك حيث لا يمكن الإشارة إليها منك، أو منها إليك، حيث وجودك ملعون بانتفائك، ولربما انتفاؤك ملعون بوجودك، ستكون لديك القدرة على السؤال ولكن يخونك السؤال، حيث ستسأل بدون أسئلة، ستحلم بدون أحلام، حيث أنت مرتحل في الخفاء أو الخفاء مرتحل فيك، هناك حيث ستكون قادرًا على الكلام بدون كلمات، هناك حيث تتنازل الألفاظ عن مدلولاتها لكي تترك فيك ما فيك لك وحدك، لتترك يدك ممدودة لأيدي لم تمدد إليك، هناك حيث تتنازل الألفاظ عن مدلولاتها لتحبس فيك فيك، ولربما لتحبسك أنت فيما فيك، هناك حيث الأنين والصراخ لا يُسمعان سواك، هناك حيث تتنفس الاختناق، هناك حيث الظلام وحده يرشدك بالاصطدام، هناك حيث الغابة تنتفي منها الأشجار والأنهار، والصحراء تنتفي منها الرمال، والبحار تنتفي منها المياه، والمدن مختفية بنيانها، والقرى لا أكواخ فيها، والآلات الموسيقية مختفية منها ألحانها، والبلابل منزوعة منها تغريداتها، والأزهار منزوعة منها ألوانها وروائحها، والغيوم منزوعة منها أمطارها، والشمس مسلوبة شروقها، هناك حيث الطريق ليس بطريق، فلا مسير فيه ولا وصول به، هناك حيث تقف على أنامل قدميك غير مالك لمكان وطئها، حيث يملأ جسدك حيزًا مستكثرًا عليه، حيث روحك منزوعة طبيعتها.

هناك حيث لا طريق إلى روما ولا ليال للأنس في فيينا، ولا سلام في القدس، ولا صلاة في مكة، ولا أدب في موسكو، ولا تنوع في واشنطن، ولا أضواء في باريس،

ولا آلات في برلين، ولا حكمة في بكين، ولا حب للكرة في البرازيل، ولا ألوان في نيودلهي، ولا تجارة في لندن، هناك حيث أنا ولربما حيث المكان أيضًا.

فقدان يلازمنا من دون أن نملك، فنبحث عن الهدف، لنجد أنه بذلك يحتاط باستهداف أملنا بأن نملك، فقدان يسبق وجود الشيء ويتلوه، فقدان يسبق وجود الشيء لكي يُشعرنا بلذة حيازة الشيء الذي لم نحوزه، فقدان يعذبنا بالشوق لما لا نعرفه، فنسأل كيف للشوق أن يكون من دون أن نخالط أو نعرف ما نشتاق إليه، ولكن بدون أن نجد إجابة، فقدان يسبق وجود الشيء لكي يسحقنا بالندم على عدم الاحتفاظ بما لم نحوزه، فقدان ينزع منا كل ما وجد لنا مستهدفًا أملنا بأن نملك أو نحوز لفترة حتى ولو قصيرة، فقدان يوجد لنا الشوق والندم على كل ما لم نحوزه، فقدان جعلنا نهرع إلى طلب التملك والاستحواذ بتوقع كل اللذة والرضى في المطلوب والمرغوب به، فقدان جعلنا نلوم قدرتنا على عجزها احتواء الكثير بالاهتمام، فأصبحنا نستهدف الكثير بالحب بعجز عن حب ما احتواه الكثير، فقدان جعلنا متخبطين في الرغبة والطلب والسعي في تحقيق كل منهما. يعذبنا الفقدان بالقرب من الشيء وبالابتعاد عنه.

من دون أن تُسلب منا قدرتنا على الحياة نحن موتى، من دون أن تسلب منا قدرتنا على الطلب نحن عاجزون عنه، من دون أن تسلب قدرتنا على الغنى نحن فقراء، فأين أنت أيها السالب من المسلوب؟ لماذا تعجز عن أداء دورك في حين يقوم المانح بدوره بكفاءة؟

يا صديقتي، هذا الجدار اللعين يجردنا من سنين حياتنا ويتركنا بقدرة فقط على احتساب ما مضى من أعمارنا لكي يعذبنا، لا بالسلب فقط ولكن بإشعارنا أنه يتم سرقتنا، بإشعارنا أن زماننا لا ينبغي أن يكون زماننا، بإشعارنا أننا خُدعنا بالوجود، بإشعارنا أن فرصتنا ليست فرصتنا، بإشعارنا أننا ضحايا لا يملكون أن يغيروا ما وجدوا عليه وبه.

إننا بسبب الجدار نشعر بالغياب بالرغم من أننا لم نحضر، نشعر بالفقد بالرغم من أننا لم نملك، نتوهم السعادة بالرغم من أننا نجهلها. كيف كنا بهذا القدر من استحقاق هذا العذاب؟

إنني لا أجد في هذه الحياة إلا أننا نقف فيها لنهتف بأعلى أصواتنا: هل من مزيد؟ فيتصدى الألم متحديًا مستجيبًا للهتاف بجديده، فلا ينقطع الهتاف بل يستمر، ليتراجع الألم متعجبًا من قدرة الإنسان على الطلب، من دون أن يتراجع الإنسان متعجبًا من قدرة الألم على الإبداع والابتكار. نعم يا صديقتي لقد اعتدنا على هذا الهتاف حتى أننا أهملنا توجيهه، لقد اعتدنا على الاستمرار فيه مهما كان ملبي رغبتنا بالمزيد. لقد تطور الألم ليواكب قدرتنا على الطلب، لقد أصبح قادرًا على نفي تعجبه. لم يعد

لهتافنا داعي فهناك دائمًا المزيد من الألم، وعلى الرغم من ذلك نستمر بالهتاف، ألم أقل أننا اعتدنا ذلك.

جميع العوالم مُغلقة في وجهي إذا صدق وصح وجودها ووجودي، ولربما أنا المُغلق أمامها، وبما أنني لا أعلم أين الحقيقة تكمن، تجدينني أنصح نفسي بالاستمرار في الطرق والاستمرار في الاستماع فلربما لسنا أنا من يطرق.

أغيب عنّي لكي أُحدد بالغياب من أنا، وأعود إليَّ لكي أحدد بالحضور عن ماذا غبت، فأجد أنني بالغياب لا أغيب وبالحضور لا أحضر، وبالحدود لا يوجد محدود، فقط هي ألفاظ ذات مدلول واحد، وقرارات لا اختلاف فيها، ونتائج لا تمايز بينها.

ماذا أنا إذا فاجأتني رغبة بمعرفة من أنا؟ كيف لا أحتكر لهذه الرغبة السعي، كيف لا أهمل الرغبات الأخرى إذا حالفها الحظ بالوجود بوجودها، كيف لا أطرد وجودي بوجود هذه الرغبة، كيف أصل لمعرفة من أنا بدون أن لا أجدني؟ إذا كان في الإمكان، كيف لي أن أطرد هذه الرغبة، أو كيف لي أن أُعلِّق السعي بتحقيقها، أو كيف لي بوجود رغبات غيرها أحاصص سعيي بينها؟

اكتظاظ حتى إن تخلى عنا فلن تستطيع العزلة طرد أثره فينا، أرواحنا لم تعد قادرة على الانعتاق من هذا الشعور.

حريق بدون احتراق يترك لنا سحابات سوداء تخنقنا، تتركنا بدون شعاع لعيوننا، تتسبب في تعثرنا، ولكن لا تتسبب في قتلنا، فليس متاح لنا إلا فرص الموت في الحياة، وتنتفي عنا فرص الحياة في الموت.

شعاع لا يجد ما ينيره، وظلمة لا تجد ما تخفيه. هنا حيث السكوت لا يحجب كلامًا والنطق لا يضيف، هنا الوظائف جميعها مُعلَّقة، هنا حيث أنا ولربما حيث المكان.

فوضى تلاطمها فوضى، فتمنحنا فوضى ننشغل عنها وبها بمقارنتها بدرجة ما يسبقها للمفاضلة. تملأها العبثية حياتنا وبالرغم من ذلك نعتقد أننا نسير بخطى منتظمة ثابتة. ماذا لو فاجأنا النظام بحقيقته، أتعتقدي أننا سنتمكن من اعتزال الفوضى أم أننا سنجد لتمسكنا بالفوضى حجة أخرى تتطلب منا سذاجة أعمق لتقبلها وتبريرها أم أننا سنعترف بوقاحة أننا فوضويون.

أكتفي كأنني بالاكتفاء أمتنع عن شيء أو به أحاصر شيء، أستغني عن الطمع لأعود للاكتفاء لعلِّي بالغياب أعود ناسيًا لحالي به أو متأملًا بجديد يقدمه لي، فلا نسيان ولا أمل بالغياب، بل إنني بالغياب عن الاكتفاء لا أكون غير مكتفي وبالغياب عن الطمع لا أكون غير طامع، فالاكتفاء والطمع عندي لفظان لمدلول واحد. فالاكتفاء والطمع حالة واحدة. ألم أقل أنَّني منتفي باللانقيض، معذب بما لا يوجد له نقيضًا.

خارج نهجر إليه بهدف الغدر بداخلنا، فنجد داخلنا سابق لنا في الغدر بنا باستلاب حواسنا، فلا فرق بين مواطنة وهجرة.

لا يحل الشيء فيَّ بطرد نقيضه، فالفوضى لم تكن من رفض النظام، والظلام لم يكن من رفض النور، لقد خُصصت أشياء لي من خارج عالمي، لقد ابتليت بمصائب لا نقيض لها لكي أجرد من المقاومة، بل لكي أقاوم وجودي، لكي أُحسن الفناء، لكي أقاوم قدرتي على الطلب، لكي أتخلص منها لما لا تجد لها ما تعمل فيه، حتى طلب الفناء يُراد مني دون أن أحوز القدرة على انتزاعه، يراد مني بما للمريد من مزاج ورغبة حاضرة باختيار من سيحالفه الحظ بمنح المطلوب.

سائل عن الطريق كالموقنين بوجوده، ونائم لأكون كالحالمين بوجوده، فلا سؤال ولا نوم قادر على الجود به، ووحده اللاطريق هو ما أناله.

أنا غريب عني، أحاول أن أكتشفني من خارجي فأفشل لأنني أجد أنني بعين غيري غيري، فأعتزل بحثي عني من غيري لأبدأ بالبحث مني، لأجد أنني بعيني غيري، فأعتزل البحث وأسلم أنني غريب عني.

ضلال لا يرشدنا إلا لضلال، وضلال لا يرشدنا إلا لهداية ترشدنا لضلال، كأننا في عالم منزوع النقيض، وفي عالم فاقدين فيه القدرة على اختيار النقيض فيه. نصرخ بألم الضياع لعلنا بالصراخ نُسمع مرشدًا غير الضلال، لعل الهداية ترشدنا للهداية، نصرخ بألم اللاخيار لعلنا بالصراخ نخلق خيارًا ونقيضًا. نصرخ ولا يعمل الصراخ إلا في إسماعنا صدى أصواتنا ليذكرنا بعدم جدواه. أتراه يتناسى أننا لا نملك خيار لإيقافه بهدف تعذيبنا بتذكيرنا أننا بلى خيار سابقًا بجانب أننا بلى خيار بصراخنا الحالي، أتراه هادفًا إلى جعلنا عاجزين عن توهم أننا كنا قادرين على حيازة النقيض لكيلا نخفف ألمنا بذكرى متوهمة جميلة. كم أنت خائن يا صراخنا تحالفت مع آلامنا لتبقيك وتبقيها.

يا صديقتي رغبات تستوطننا لكي تنزع منا رغباتنا لا منافسة في حيازة واحتكار أو منافسة في توفير قدرة أعظم لدينا لتحقيقها، بل منافسة في الكشف عن عجزنا في تحقيقها، منافسة في تعظيم بؤسنا، منافسة في طرد الاعتياد على العجز، منافسة في إشعارنا بعجز لا يكون معه أمل.

حيث الخطوات إلى الأمام ينتفي، وحيث هي إلى الوراء أيضًا ينتفي، فقط حيث هي مع الجدار يكون لها موطنًا، طريقًا تسلكه.

لحظات تمضي وأخرى تحضر، لحظات غير متح فيها الاختيار، غير متاح فيها القبول والرفض، وحده الرفض والإكراه فيها، لحظات مُغتصبة وأخرى تنتظر مصير سابقاتها، ولربما هي لحظات تغتصبنا.

تنزعنا كوابيس نومنا لكوابيس يقظتنا، فلا نجد النوم إلا متآمر مع يقظتنا علينا، فنبحث عن حليف لنا كحمقى كأننا لا نعلم أننا بتآمرنا على أنفسنا قررنا أن نكون بلى حليف. كيف لحليف أن يكون له ثقة فينا ونحن نخون أنفسنا ونتآمر عليها!

عالمان، واحد منه أحاول الفرار، والآخر أحاول إليه الوصول، فتجدني أفشل في الهرب وأنجح في الوصول، وبالفشل وبالنجاح أنفي العالمين، ولربما ينفيانني العالمان. هناك حيث لا أحد منهما أوجد، بل هناك حيث هما أنا لا أوجد، ف"هناك" لا تناسب ما أنا موجود فيه للإشارة إليهما، بل "هناك" لا تناسب ما أنا منتفي إليه للإشارة إليهما منه. أنا حيث اجتمع وجودي بالغير موجود، فأكسبته من وجودي صفة الوجود، أو أكسبني من عدم وجوده صفة عدم الوجود.

كل شيء متدافع عليه، حتى التدافع متدافع عليه، كأننا في عالم عاجز عن احتوائنا، كأننا بالتدافع نحوز. عالم لا يحتوي إلا على الخاسرين، عالم لا يحتوي إلا أناس يتدافعون لتحصيل مزيد من الخسارة، عالم عاجز عن منح الانتصار، فقد يمنح الخسارة لطالبيها والعازفين عن طلبها، فطالبها يتوهم الانتصار، ومهملها مُدرك لخسارته.

أه منك أيها الجدار كم أفسدت عالمنا، لقد أصبح بك عالمنا يرى أنه ليس من العدل أن يقول الإنسان أنا مظلوم.

تُجزَّأ الصور الكبيرة إلى صور صغيرة لكي نتشرب بؤسها من دون أن نتشردق، لكي نحتويها لا أن تحتوينا، فنجد تشربنا لبؤسها على هذا النحو تسبب في إعلان الصور الصغيرة لتمردها، وإعلانها بأنها ستعيد تكوين نفسها لتصبح صور كبيرة لكل منها بؤسها الذي يحتوينا بدون محاصصتنا، فكل يحتوينا كلنا، كأن كلنا أمسى متعدد لا واحد.

إنني أخاطب الشمس يا صديقتي فأقول لها: أيتها الشمس لن يكون إشرقك قادرًا على إعلامي أن الليل ارتحل، فاعذريني ولا تحقدي عليَّ، استمري بالإشراق بدون قسوة عليَّ بإطالة الغروب، فلن تُجدي قسوتك، وكذلك رحمتك، ابقي كما أنتِ هذا ما أريده منكِ، لا تدعيني أُحل أنا التافه تغييرًا فيكِ، لا تدعيني أحولكِ إليَّ.

نختار رغباتنا بانتقاء لكي نتركها لمنتقيات جديدة. نعم ننتقي الرغبات للابتعاد لا للاقتراب كما نتصور، ننتقيها لتصدمنا عندما نقرر الالتفات بل عندما يقرر لنا عجزنا عن الانتقاء والملل من الوقوف على الرغبات المنتقاة لمدة طويلة، الالتفات. نعم هي رحلة للأمام متوقفة بالعجز، ورحلة إلى الخلف مبتدئة به، هي هجرة ثم عودة، عودة لاختلاف حل فينا لا لاختلاف حل بما عدنا إليه، عودة بالعجز عن السعي، هذا هو الاختلاف الذي حل فينا، فالعودة لا تحل عجز عن الوصول فهذا العجز سابق لها في رغباتنا الأولى قبل تركها.

أحيانًا أجد أن بإمكاننا أن نملك، وبإمكاننا أن نفقد، ولكن ليس بمقدورنا أن نكون قادرين على الإثنين معًا، فإما أن نكون قادرين على أن نملك فقط وإما أن نكون قادرين على أن نفقد. إنها لعنة أن نكون قادرين على واحدة من الاثنتين فقط.

حياتنا كصحراء لا تحتفظ بأثار زائريها، خطواتنا لا تتشابه إلا في التيه والتخبط والعشوائية واللادليل، أهدافنا لا تتشابه إلا في أننا نجهلها، فلماذا ندَّعي المعرفة،لماذا نحن بهذه الوقاحة التي نتجرأ بها على التصريح بأننا نملك الخبرة.

أحيانًا أجد نفسي أقول: لو كان لي القدرة على اختيار زمن حضوري، لاخترت زماني، ففيه من العذاب ما لا يُبقي للتهديد بما يحمله الغد أي اعتبار، فلا قلق من الغد، ولا خوف ولا تحوط، فلقد امتلأ حاضري بما استحق كل خوفي وقلقي وتحوطي، لقد امتلأ حاضري بي فلم يُبقي لغدي شيء مني، فلا الغد مترصد لنا ولا نحن نستعين بالحذر منه، بل لا الغد مُستشعر بوجودنا ولا نحن فينا ما بقي لاستشعار الغد. لقد أماتنا حاضرنا وأمات الغد فينا، فلا حياة إلا في حاضر حائز كل العذاب ولا موت إلا في غد لم يحضر فيه كل العذاب. نحن بلى قلق وخوف وتحوط، فهل نحن في الجحيم أم في النعيم؟

ثمن يدفع بلى عائد، تضحيات تقدم بلى نصر، ألم يفتك بلى لذة، حزن يستشري بلى سعادة، سؤال يشغل بلى إجابة، قاع لا يقود لقمة، عالم وجدنا لنُستنفذ فيه بدون أن يحق لنا فيه المطالبة، فتجدنا نُسحق بقسوة عالمنا وقسوتنا على أنفسنا بالاعتقاد بأنه يحق لنا المطالبة. كم هو محظوظ من توهم تحقق مطالبه ورغباته، من توهم أنه نال نصر أو لذة أو سعادة أو إجابة، من توهم أنه وصل للقمة.

دقائق تمضي من دون أن نمضي، عقارب لا تبدأ من حيث انتهت إلا لتعذبنا، عقارب لا تستعين ببدايات جديدة، ولا تأتي ببدايات جديدة. لقد أفسد حاضري أثر اتخاذ الغربان من شمالي سبيلا، نعم لقد جعل من سبيليها مصدر تفاؤلي.

أنا العاجز عن إطفاء رغبته بعجزه أو إطفاء عجزه برغبته، فلا رغبة ولا عجز يمنحانني.

لا بد من أن أرفضني لكي أقبلني.

أنا حائر بلى خيارات، وقلق بدون مستقبل، فهل لهذه العبثية من دواء؟

يعيش غيرنا الحاضر لكثرة ما يحمل، ونهمل نحن الحاضر وننتظر الغد لربما يحمل شيئًا ما، فيعيش غيرنا، ونحن ننتظر أن نعيش ولربما نحن نعيش في الانتظار، كأن الحياة لا تتسع لجميعنا لكي نعيشها، كأن الحياة كتبت على الأفراد أدوار ليدخلوها، فلا موت يخلصنا ولا حياة تشغلنا، وحده الانتظار ما نحوزه. ألدى الحياة قدرة على إنعاشنا بالطاقة بعدما أهدرها الانتظار، ولكن قبل ذلك يحق لنا السؤال: ألدى الحياة

قدرة على انتزاعنا من الانتظار؟ نعم نحن قد أُنهكنا بالقدر الذي يجعلنا عاجزين عن دخولها، حتى رغباتنا ونحن بالانتظار أصبحت تسلينا بالقدر الذي أصبحنا معه غير راغبين بتحقق رغبتنا فيها، لقد أصبحت لرغباتنا في الانتظار وجود مؤنس، لقد أصبحنا نخاف أن نجيب عن سؤال: "كيف سيكون حالنا ورغباتنا محققة؟" لقد أمسينا نشعر بوحشة من مجرد التفكير بإمكانية تحقق رغباتنا، فكيف للحياة أن تنتزعنا من هذا النعيم ولربما هو جحيم كيف لي أن أعرف؟ كيف لها أن تعوضنا عما يؤنسنا، كيف يكون لها القدرة على تعويضنا ببديل عن قدرتنا على الرغبة وعن رغباتنا؟

هو وقوف وليس انتصاب، هو خوف وليس شجاعة، هو استسلام وليس تحدي، هو تراجع وليس تقدم، هو هزيمة وليس نصر، هو كل شيء مضاد لما هو مرغوب، هذا هو موقفي. لماذا لا أرغب في البوح به في المجاهرة به، لماذا أكتمه وأقف بصمتي كمقر بصواب ما يقولونه عنّي؟ لماذا لا أقاوم ما يحمّلني إيّاه الآخرون بمدحهم؟ نعم، لقد أدركت أن الصمت هو جزء من موقفي والإنكار هو النقيض، ولهذا اخترت الصمت.

ماذا حققنا؟ ما هو جدول أعمالنا؟ العديد من الأسئلة لا توجَّه لنا من الآخرين إلا لنكذب في الإجابة عليها، ولكن ماذا لو واجهتنا ذواتنا بهذه النوعية من الأسئلة؟ كيف يمكن أن نكذب على أنفسنا في الإجابة عنها؟ نعم نحن لن نكذب ولكن سنجعل من أنفسنا سُذَّج للاستسلام للحجج المُقدَّمة. سننجو بسذاجتنا من أنفسنا ولكن حتمًا سنكون فريسة لغيرنا يستهدفنا بسذاجتنا، فنكون تآمرنا على أنفسنا مع أعدائنا.

تبًا لك أيها الجدار، بكل وسيلة تفتك بنا.

إنني أغيب ولكن لا يوقف الغياب فعلي الشنيع، أنا سيء في غيابي بقدر ما أنا في حضوري، فالغياب لا يوقف انحطاطًا. يحتال عليَّ الحضور ببعض أفعال الحاضرين لكي يشوش عليَّ استشعاري بغيابي. يتصارع الحضور والغياب ولا انتفاء لأحدهما، فبالصراع وحده أنا المُنتفي.

لا شيء يا صديقتي نال استحقاق ملازمتي له بقدر ما ناله تشاؤمي، فوحده من أتصف بالخيانة إذا تركته وهجرته، وحده من يُصدِقُني، وحده من لا يعرف الغدر، وحده من ينذرني. قد أعاتبه بعدم بوحه بالقدر الكافي ولكنني أعود ممتنًا له لبوحه على الأقل بالقليل الذي لم يُعلمني به أحد غيره. حظيت بصدق تشاؤمي ولم أحظى بتشاؤم له قدرة عظيمة على البوح، ولست حزينًا على ذلك فليس من طبع الحياة تمام الحظوظ. ما أجهلني أقول حظيت بصدق تشاؤمي وكأن للتشاؤم كذبًا.

منهكون ومن حظهم السعيد أنهم لا يكافؤون باستراحة لاستشعار ذلك، الحياة قاسية بقدر عطفها معهم، ولكن معي الحياة قاسية بدون عطف. أنا منهك ومستشعر بذلك بدون استراحة، لقد ألغى استشعاري هذا وظيفة الاستراحة، إذا صدق وثبت وجودها.

يا صديقتي ليس في أيامي رقم جديد. إن هذا مؤلم جدًا.

سابق للحياة والموت بالانتظار، فأيهما أسبق إليَّ؟ هذا ما تجدني أسأله لنفسي ولكن بدون إجابة.

أنا حيث أنا، لا شمال لي ولا جنوب، لا شرق ولا غرب، لا سماء لي ولا أرض، لا داخل لي ولا خارج، لا أنا لي ولا أنا لغيري، هذا ما أراده لي هذا الجدار اللعين.

أُخطئ وأعتذر لنفسي وأكرر الخطأ وأكرر الاعتذار وأتساءل متى سأتوقف وعندما أعجز تجدني أقول لنفسي لربما لم يحن الوقت المناسب لكي أتطور وأبقى متمسكًا بهذه الحجة كأن الوقت هو الذي يطورني، كأن تطوري ليس خيار متاح لي، كأن الزمن هو المتصدق وأنا المتسول، فما أبشعها من حجة فلا هي مقنعة ولا هي مانعة.

لربما فضولنا يا صديقتي في البحث عن أصناف آلام جديدة يبرز من خلال رغبتنا بالنوم.

هنا قامت ميار بإيقافه.

كان بين كل جملة يحاول تركيبها لحظات صمت ووقفات تطول وتقصر ولكنه هنا توقف لفترة أطول من المعتاد فأوقفته ميار وقد كان تجاوز الساعات الثلاث التي خصصتها له، ولقد لاحظت فيها تهربه من الإفصاح عن معاناته من السؤال فقالت بعد استراحة لدقائق منحته إياها:

- حدثني الآن عن أشرس أعدائك بعد الجدار، حدثني الآن عن السؤال، ولا تحاول التهرب من البوح بكل شيء، لأنني سأكتشفك.

فشعر بأنه قام بخيانة يستحق عليها أشد عقاب، فقرر التكلم بصدق عن معاناته مع السؤال، فقال بصوت ضعيف يائس محبط ورأسه تكاد جاذبية الأرض تقتلعه من مكانه:

- أنهض فزعًا من أسئلة يطرحها عقلي أثناء النوم وأنام فزعًا من إجابات لا أجدها، فلا في اليقظة من إجابة ولا في النوم من تباطؤ في طرح الأسئلة. نعم لست أنا من يُصدر الضوضاء بل هي الأسئلة التي لم يعد لعقلي اتساع لها، فطافت على لساني، لتطرد بفيضانها الصمت الذي اعتادني عليه الجميع ممن حولي. يحق لهم وصفي بالجنون وأنا الذي أثرثر بأسئلة فاقت قدرتهم على استيعابها، حقًا ما أنا إلا مجنون. ولكن إذا كنتُ مجنونًا حقًا، فلماذا لا يوقف هذا الجنون جميع الأسئلة في رأسي. ألست مجنون بوجودها؟ ماذا حل بالجنون حتى فقد قدرته على سلب العقل! أيعقل أنه هو من يمنحه؟ أرجو أن يكونوا على حق باعتقادهم أن للجنون علاج، أرجو أن تكون لي فرصة أخرى لأكون واحد منهم. هل أنا نادم؟ نعم أنا نادم على عدم مقاومة

مقاومتي ورفض رفضي الذي أوصلاني إلى هذه الحالة. هناك نهوض وعودة يا صديقتي فقط لأولئك الذين كان الحظ حليفهم في عدم حيازتهم لمقدار كبير من الأسئلة، لأولئك من كان الحظ حليفهم بمقدرة أقل على التساؤل أو بظروف غير مناسبة للتساؤل، أما أولئك الذين انتكسوا بأسئلة كثيرة فلا نهوض ولا أمل لهم بالعودة.

محجوبة جميع الأسرار عني ويترك سر واحد مباح وهو أن الأسرار محجوبة عني، فلماذا يترك هذا السر لي مباح، لماذا لم يتم التكتم عنه في وجودي، لماذا لم أترك لجهلي بجهلي؟

أتساءل ما أريد، وعن ماذا أبحث، ولماذا أبحث، ولكن بدون جدوى، أجدني فقط أتعذب بالأسئلة بدون أن ألقى لها طردًا بالأجوبة أو النسيان. حقًا لقد اُختير لنا السؤال كأشد أنواع العذاب فتكًا بعد الجدار؟ فبماذا استحقينا هذا العذاب، وبأي توبة سيكون لنا الخلاص منه؟ لا جنة ستكون إلا وسيكون السؤال فيها مطرود والإجابة فيها مُقدَّمة. فهل هذه الجنة محض خيال نهرب إليه من واقع مرير أم أنها موجودة حقًا حيث لا خيال إلا من موجود؟

كم تخوننا الأسئلة بادعاء أن بوجودها توجد أجوبة، ونحن سذج بذلك القدر الذي يُصدِّق ادعاءها، فتجدنا نعاقب على سذاجتنا بألم وبؤس ازدحام الأسئلة بدون أن يكون ذلك طارد لسذاجتنا المستمرة بالتصديق.

لا إجابات طاردة لضجيج ازدحام وتصادم الأسئلة المتدافعة.

كم أغبط أولئك الذين قلَّت لديهم الأسئلة وأولئك الذين لم تكن لديهم القدرة على اقتناص السؤال والصبر في السعي لحيازته. أه كم تمنيت قدرة على طرد الأسئلة، أنزع بها نفسي من جحيمها.

يتركني السؤال يا صديقتي في إحدى الزوايا الضيقة التي لا تتسع لأيدي المنقذين الممتدة لانتشالي، ولعلي أتوهم وجود المنقذ بتوهمي وجود الإجابة أو بوجود القادر على طرد السؤال.

بيننا وبين ما نجهله مسافة لا تقطعها عيوننا بأبصارها ولا أذاننا بسمعها ولا أقدامنا بخطواتها ولا تفاؤلنا بالأمل، ولا أرواحنا بحريتها، ولكن وحدها أرواحنا من تعود لنا بمعرفة أن هناك ما نجهله بدون أن تعلم ماهيَّة هذا الذي لا نعلم وجوده إلا بها.

ما هي الإجابات غير أنها وسيلة تصحيحية لتساؤلاتنا الخاطئة الصياغة والمحتوى؟ أليست الإجابة تساؤل أكثر تعقيدًا ولربما صوابًا؟ فهل حقًا بتساؤلاتنا نستهدف الإجابات؟ كيف لمخطئ مستمر في خطئه في محاولة التوصل للسؤال الصحيح أن يمتلك القدرة على امتلاك الإجابة! لمن نوجِّه أسئلتنا؟ من يملك أجوبة لنا عليها؟ ما

هو هدف السؤال؟ أهو إبانة جهلنا فقط؟ هناك سر بالتأكيد، هناك هدف لهذه العبثية ولربما هو نظام.

نعتقد كحمقى أننا نبحث عن إجابات لتساؤلاتنا. لربما نحن إجابة نبحث لها عن سؤال لا سؤال يبحث عن إجابة. أحسنت يا أنا. هذا اكتشاف جديد لي اليوم.

كيف لا يبقى لجميع ما نحوزه إلا علامة الاستفهام لتجردنا منه!

لماذا وجدت كلمات مثل "لماذا" "أين" "متى" وغيرها طالما لا يوجد عليها إجابات؟

هل يسبق العلم التساؤلات أم التساؤلات العلم؟ هل تسبق الإجابة السؤال أم السؤال الإجابة، هل هناك علم للتساؤلات وعلم آخر للإجابات؟ هل مصدر الإجابات والتساؤلات موجود داخلنا أم خارجنا؟ ألا تحتاج التساؤلات العلم للوجود وألا يحتاج العلم للتساؤلات لكشفه؟ هل نملك العلم مسبقًا والتساؤلات هي التي تكشف لنا وجوده لاحقًا؟ أتكمن وظيفة التساؤلات في الكشف فقط أم لها وظيفة أخرى؟ هل التساؤلات علم أم هي وسيلة للعلم؟ أليس بكثرة التساؤلات يزداد علمنا بجهلنا، فلماذا ذلك؟

سؤال لا يدلني إلا على سؤال يرشدني لسؤال، فلماذا إذًا أتوهم أنني أبحث عن جواب؟ لماذا لا أعترف لنفسي أنني باحث عن السؤال؟ لماذا أتوهم أنني أبحث عن معرفة بقدر علمي، والحقيقة أنني أبحث عن معرفة بقدر جهلي؟ لماذا أتوهم أنني أراكم العلم ببحثي وفي الحقيقة أنني أراكم جهلًا، ما هي المعرفة؟ أليست هي إدراك الجهل الذي نحوزه؟ لماذا أشعر بإلزام يحثني على زيادة معرفتي بجهلي؟ أحسنت يا أنا، ها هي معرفة جديدة تنالها. نعم وجودك أيها الكيان العالِم العظيم هو السبب. ما أشد حماقتي كيف اعتقدت طوال هذه المدة أن السؤال عدوي. كيف لم أدرك أيها السؤال أنك كنت حليفي طوال هذه الفترة! نعم السؤال هو مرشدي للإيمان بهذا الكيان. ما أحمقني عندما طلبت الإجابة. تبًا لطمعي الذي يطلب من غير أن يميز ما ينفعه وبين ما يضره. كيف كنت طوال هذه السنوات أطلب معرفة تدفع جهلي؟ كم أنا محظوظ بمعرفة جهلي. الآن أدركت ما نفعك يا جهلي. ما أشد حماقتي عندما اعترضت على من أحال إيماني إلى جهلي، نعم لقد أصاب من حيث لم يُصب ولقد أخطأت من حيث أصبت. نعم الآن بإمكاني أن أصرح أن جهلي هو مصدر ايماني. اليوم أدركت أن السؤال للإيمان والطمع بالإجابة هو طمع بعدم الإيمان. إذًا فأنا لم أكن أبحث عن الإجابة ولا عن السؤال، لقد كنت أبحث عن الإيمان. وحده ذلك الكيان العظيم من يجب التصريح بأنه أول معرفة لنا مؤكدة، وأول معرفة لنا ولربما الوحيدة، والتي هي وحدها لا يطالها الشك. أعاهدكِ يا نفسي تعويضًا على ما فات ألا أدَّخر جهد في مراكمة معرفتي بجهلي. فمرحبًا بكِ يا معرفة جهلي في نطاق حبي وعشقي بعدما كنتِ في نطاق بغضي وعداوتي. هنيئًا لي بحبكِ. اليوم أدركت أن الحكماء حكماء بمعرفة جهلهم لا بمعرفة علمهم. نعم سأستمر بالسؤال، سأسأل لا لأجد جوابًا بل لأجد سؤالًا آخر.

لقد أصبحتَ بهذا الاكتشاف عدوي الوحيد أيها الجدار، فاستعد لتنال جميع جهودي في هدمك، استعد فأنا قادم.

هنا توقف فجأة بدون طلب.

ثم استلقى على فراشه وأطبقت أجفانه وغط في نوم عميق بعدما أرهقه العذاب وأنهك قواه، بدون شعور بوجود ميار والطبيب، فلقد غيَّبه اكتشافه هذا عن جميع ما حوله، لقد بذل جهودًا عظيمة في الاستمرار حتى لم يُبقي لنفسه طاقة للتوقف، فخطفه النوم بسرعة وبدون أي مقاومة أو استعداد لها.

أغلقت ميار الباب عليه وتوجهت مع الطبيب إلى مكتبه، ولقد كانا مصدمين من قدر معاناته وتعقيد طريقة تفكيره، وعندما وصلا المكتب أخذا بتحليل ما سمعاه، فقالت ميار وقد كانت ما زالت متفاجئة مصدومة:

- لم أتصور يومًا أن أجد إنسان معذبًا بهذا القدر، ومع ذلك قادر على الاستمرار. نعم لقد أُزيحت الحجب له عن جميع مبائس الوجود، أسرار الحياة تم جميعها هتكها له، كيف له أن يصمد أمام حقيقة الحياة، كيف له أن يصمد أمام حياة مُتعرّية من زيفها مفضوحة حقيقتها! لقد انتفى لديه الماضي والحاضر والمستقبل ولربما أدمجت لديه فأصبحت جميعها واحدة. لا منفذ له، لا هروب، هو عالق في أبدية بؤسه، هو عاجز عن الانتقال، وكيف يكون له ذلك وهو في مكان لا ينتقل منه، موجود بداخله، بل إنه بدون إدراك لداخله وخارجه، إنه كما قال شخص انتفى عنه نقيض ما هو عليه، هو في جميع الحالات حالة واحدة، ولربما الحالات جميعها فيه حالة واحدة، جميع وضعياته وضعية واحدة، وجميع حركاته حركة واحدة، كل شيء غائب عنه وهو غائب عن كل شيء. كل ما في حوزته واحد إلا السؤال بحوزته أسئلة. لا يوجد لظلمته شعاع، ولا لروحه حرية، ولا لحديقته ألوان، ولا لأشجاره أزهار. هو في حالة غياب، هو تائه متعطش للتيه، هو في ظمأ لا خلاص له منه بالشرب، هو في تضحية لا تمنحه خلاص وتطهيرًا. هو غائب عن الإنسان ولربما هو منغمس فيه أشد الانغماس. هو غائب بدون أن يدرك ذلك فهو بغيابه ليس غير مريد للحضور ولا مريد له، فهو لا يعرف معنى الحضور. لقد تبعثر على كل سؤال، كما تتبعثر شظايا الزجاج في لحظة الانكسار منتشرة في الزوايا، هو بالأسئلة المتزايدة في عملية تشظي مستمرة، فالكبير فيه يصبح صغير والصغير فيه يصبح أصغر. لا أبحاث وأعمال منجزة، منتهية، لديه جميعها تتطلب عملًا، جميعها تلح عليه بالسعي فيها، ولكن بدون أن يفلح السعي في الوصول إلى نهاية. إنه لا يتوقف، كيف لإنسان أن لا يتوقف! لقد أعلن المستحيل عن نفسه فيه. انظر إليه كأن المستحيل هو وحده الموجد لديه رغبة في السعي. يتقدم خطوة فيتعرف بها على حماقته وجهله بالخطوة السابقة، ثم يتبعها بخطوة أخرى إلى الأمام، فينكشف له جهله وحماقته بخطوته التي نظر منها للخطوة السابقة على أنها نتيجة حماقة وجهل، كأن خطواته تُلغي بعضها وتلغيه معها.

تجده يكتب صفحة ثم يكتب أخرى، فتجد اللاحقة ممزقة للسابقة بدون توقف، كأن حياته كلها خطوة فقط وصفحة واحدة فقط. كأنه لم يكتب إلا ليمزق وكأنه لم يخطو إلى الأمام إلا ليوجد لنفسه مسارات للعودة إلى الخلف، كأنه لم يتقدم إلا ليتراجع. إنه يعتقد أن أولئك الذين وقفوا عند خطوة ما، هم من استسلموا، إنه ينظر إلينا جميعنا على أننا مستسلمون بالاعتقاد أننا وصلنا.

- لربما موت صديقه أشعره بإلزامية تحمل عبئ الخطوات التي كانت على كاهله. لربما هو يواصل لأنه كان يرى أن لصديقه قدرة عظيمة، وأنه لو كان حيًا لقطع مسافة كبيرة. إنه يُحمِّل نفسه عبئ إله، لا عبئ إنسان ناقص أدركه الموت، ولكنه غير مدرك لهذا. إن إصراره هذا متسببة به نظرته التي لا يشوبها نقص لصديقه المتوفى. حتمًا سيُعاقبنا في حال تجرأنا على المساس بقطعته الوحيدة التي يُفضلها من ذاته. طبعًا هذا بجانب كون الجدار عدو شرس.

- أحسنت، هو كما قلت. إنه يحاول إحياء إبراهيم بجهده، إنه يحاول بعثه من موته، وإجباره على المسير معه. لقد بان له ضعفه بوفاته، لهذا يحاول إعادته لا لتوهم القوة، بل ليعوّض معه عن الفترة التي قضاها وهو يدَّعي القوة، لكي يخبره أنه استشعر إنسانه بمعرفته لضعفه. نعم لقد اكتشف أنَّ حبه للقوة هو في الحقيقة حب للإله ولذلك تحول بغضه للضعف حب، لقد اكتشف أنه بمحبة الضعف إنسان ومحب للإنسان، لهذا نجده يصرخ طالبًا مزيد من الألم، لهذا نجده يعمل باستمرار مُكرّسًا وقته لخدمة الإنسان. لو يعلم هؤلاء الحمقى مقدار حب هذا الذي يصفونه بالجنون لهم لعبدوه.

- تحليل دقيق، أحسنتِ.

- إنه إنسان مُثقل بإهانات واقعه، شخص مجروح في كرامته المتمسك بها. نعم لقد كان للإهانة دور فاعل في انسحابه، ولكنها الآن غير فاعلة بتاتًا بالرغم من حضورها الثقيل، طبعًا ليس لاعتياده فليس هناك من يعتاد على الإهانة، بل لحلول فاعل آخر أقوى من تأثير الإهانة. إنه يتعجب كيف يَحدُث أن يرغب بالحياة بدون أن يقتنع بها، ولماذا تكون رغبته بالحياة ليست اختياره، ولماذا برغبته فيها غير قانع بها، بينما بعدم اقتناعه مستكثر مستثقل منها؟ إنه يعتقد أنه بحاجة إلى إدخاله في الحياة مقتنعًا بها أو إخراجه منها غير راغب بها، إنه لا يهمه إذا كان هذا داء أو دواء.

- حقًا إنه يتحدى رغباته بطلباته على عكس معظم الناس الذين يهزمون طلباتهم برغباتهم.

- أحيانًا أجده يريد عالمًا للإنسان لا تكون فيه اللذة مستحقة بالألم، ولا تكون السعادة مستحقة بالحزن. إنه يظن أن الاعتقاد بأن استحقاق اللذة والسعادة بالألم والحزن هو احتقار للذات الإنسانية. ولربما لهذا السبب نجده راغب بالشوق للوجود ولكن دون

أن يكون الشوق دافعًا له للالتقاء به، إنه يريد أن يبقى غائبًا ومحتفظًا بالشوق ولكن بدون قرار بالعودة، يريد أن يعتاد على أن يكون آملًا باللذة والسعادة بلى أن يكون الألم والحزن هو سبب أمله بهما. إنَّ المُتفحص لحالته يجد قراءات متناقضة كثيرة، ولأكون صريحة ودقيقة لست متأكدة إذا كان تناقضًا فلربما أنا المخطئة في القراءة، ولكنني أشعر أن هناك اثنين فيه يتصارعان بعنف، يحاول كل منهما هزيمة الآخر.

- هذا ما يجعل مهمتنا شديدة التعقيد. إن العلاج بمنح الانتصار أو الايهام بحيازته، والعلاج بالتضليل ونفي المعرفة، لن يجديان معه. أحيانًا أشعر أنه يعرف أن كل داء علاجه داء آخر يفضله الأطباء لمرضاهم لتسكين الأعراض الحادة لهم، أو لأنه يتناسب مع طبيعتهم ونفسياتهم، ولهذا أجده يحاول الاحتفاظ بمرضه ويتجنب باستمرار وبعناد اختيار مرض آخر يكون أكثر قدرة على تحمله وأخف ضررًا وفتكًا به.

- لديه احاطة كبيرة بأسالبينا لا يمكن الاستهانة به أو خداعه.

- ما العمل؟ أعترف أنني عاجز معه.

- لا أعلم، ولكنني سأعمل جاهدة على إخراجه من هذه المدينة المنكوبة، لقد طلبت لحظة تواصلك معي من أسرته أن تستخرج له جواز سفر، وبعدما تسلمته حصلت له على تأشيرة لدخول المدينة التي أقيم فيها، وتمكنت من الحصول بمساعدة معارفي على تصريح له للخروج من هنا. إذا كان يريد الاستمرار في حربه ضد الجدار، فليستمر ولكن ليس بين جدران غرفته الأربعة، إذا أراد الاستمرار فليستمر ولكن ليدع الجميع يشاهدونه ويشاركوه، إذا أراد الاستمرار فليستمر ولكن لن أسمح له بالتواجد بين جدران أربعة يفصل بينها أمتار أو بضعة أميال. أعلم أنه لا يوجد مكان إلا ويحاط بأربعة جدران في هذا العالم، ولكنني أريد منه التواجد في أماكن تفصل بين جدرانها مساحات كبيرة لينطلق فيها وليُسمع صوته لأكبر جمهور، وليُغطي كفاحه أكبر مساحة، أريد منه إذا أراد الاستمرار أن يجد من يمسك بيده ليسير معه جنب بجنب، لا أريد منه أن يلمع لا لأنه لا يريد ذلك بل أيضًا لأنه يريد للحقيقة وحدها أن تلمع، ويريد للزيف والتضليل أن ينجلي. لمثل هذا الإصرار ينبغي أن تُمنح الفرصة، فلعلنا نجد يومًا ما الإنسان واقف بوجه الجدار لا الجدار هو الواقف بوجه الإنسان.

(7)

كان صباح اليوم التالي دافئًا والسماء صافية، فاستغنت ميار عن غرفته التي أنجزت مهمتها، واصطحبته معها بعد إلحاح وعدم تقبل لجميع أعذاره لزيارة قبر إبراهيم.

مكثا بجوار القبر وقتًا طويلًا كان قلباهما فيه محطمين، أمضياه باستذكار شقاواته وعاداته وبعض أفكاره وأقواله، وبتحدي بعضهما بالاقتباس من كتبه المفضلة.

في طريق خروجهم من المقبرة التفت عمر إلى القبر محاولًا توديع صديقه وتبشيره باقتراب اللقاء، فاسترجعت له ذاكرته آخر كلماته له، فرسمه خياله واقفًا أمامه فحسِب أنه يراه فعلًا بعينيه، فقال باسمًا بصوت بالكاد يكون مسموعًا موجهًا كلامه إليه كأنه خرج من قبره ليقف أمامه "أن تكون في سلام هذه أجمل هداياك لي".

لاحظت ميار تمتمته، فقالت بقلق:

- أقلت شيئًا؟

- لا، لا. لقد استحضرت ذاكرتي فجأة آخر كلماته لي.

- الهدية تقصد؟

- نعم.

- ما استنتاجاتك من هذا الاستحضار؟

- لا أعلم كل شيء غير مفهوم. لقد حضر في منامي البارحة وقال "لم أنسى هديتك، ستصلك قريبًا."

- هل تعتقد أنه يريد منك البحث عنها؟

- لا أعلم، ولكن هناك ما يُخطط له هذا اللئيم حتى وهو في قبره.

ابتسمت ميار ابتسامة أخفت بها قلقها من صورة إبراهيم الملتصقة بذهنه والتي لم تحاول التعرض لها بعلاج نية استخدامها في المساعدة بعلاجه، لإدراكها مقدار أهميتها له وتعلق قلبه الشديد بها.

اصطحبته بعد ذلك إلى شاطئ البحر لتمنح لبصره نطاق واسع للانطلاق فيه كما كان يفعل قبل وفاة إبراهيم، ولتخرجه من أثر التصاق بصره طويلًا بجدران التصقت به.

كانت تختار بقصد وبتعمُّد وجهات له يكون فيها حرًا من أثر سنين عزلته السبع، فخيار زيارة المقبرة كان ليساعده في إفراغ شيء من حزنه، وخيار الذهاب للبحر والجلوس على رمال الشاطئ كان لإعطاء بصره كامل حريته، ولمساعدته في استرداد بعض من السعادة التي تمنحها تلك الذكريات العالقة في زوايا ضيقة.

كان البحر ذلك الشتاء كما هو في كل شتاء أزرق اللون بسبب عقاب الريح له. جلسا على رمال الشاطئ بالقرب من الأمواج متجاورين وأخذا بتأمل البحر والسماء.

قالت ميار بعد لحظات تأمل هادئة:

- ليست قلوب البشر وحدها من تحب التلاقي، فحتى عيونهم تحب ذلك، انظر كيف تصور لهم التقاء الأزرقين.

- صدقتِ.

- أعلم يا صديقي أن الانطوائية ليست مرضًا وليس الانطوائي بكل تأكيد ذلك الشخص الذي يفضل العزلة على الحياة مع البشر، بل هو ذلك الشخص الذي يرفض الموت معهم،بل إنني أحيانًا أقول أنَّ الانطوائية هي مرض جميع من خضعوا وقبلوا التبعية، لا أولئك الذين استمروا بالمقاومة حتى في حال كانوا وحدهم. لذلك يا صديقي أنا لست ضد انطوائيتك لأنني لست ضد الاستمرار بالمقاومة، ولكنني ضد أن تستمر وحيدًا. هات حدثني عن اللحظات الجميلة في عزلتك، فبالتأكيد هناك الكثير منها؟

فقال بعدما ارتسمت على وجهه ابتسامة لملمت ما يتناثر من سلام هنا وهناك:

- في العزلة يصبح الإنسان قادرًا على التقاط كل لحظة في ذاكرته، يكون بإمكانه انتزاع تلك اللحظات التي كانت في دائرة اللاشعور لديه، يكون قادر على استحضار الأحداث بكل صورها ومشاهدها وأصواتها وتأثيراتها عليه من توليد للمشاعر والعواطف. في العزلة يوهب الإنسان فرصة للتقييم، فيجد نفسه يمنح بعض المشاهد والأصوات وبعض العواطف اهتمامًا أكبر وتفاعل أكثر من الذي منحه لها لحظة وقوعها وتولدها، يجد أن نظراته للبحر في لحظة الازدحام التي تُعطل سير الحافلة التي تقله أهم من لحظة وصولها، يجد أن قبلة منحها لحبيبته على خدها لحظة الالتقاء بها في أحد الشوارع أكثر تأثيرًا في نفسه من تلك التي منحها لها أثناء زفافهم، يجد مشهد انعكاس أشعة الشمس عصرًا على مياه البحر أكثر جلالًا من مشاهد رحلته السياحية، يجد أن اللحظات التي منحها للنجوم لحين وصول أصدقائه أكثر أثرًا في النفس من لحظات الالتقاء بهم. نعم سيجد أن تلك اللحظات التي لم يكن مخطط لها والتي كانت نتيجة معوّقات لما هو مخطط أو تلك التي كانت وسيلة لغاية، سيجد لها من الأثر في نفسه ما ليس لغيرها، سيجدها هناك في أعماق روحه تبقيه حيًا وسط جميع ما هو ميت حوله وفيه. بالعزلة يجد الإنسان أن هذه اللحظات تمنحه من الاهتمام والحرص دون أن يمنحها شيء منهما، تبقيه بالرغم من إهماله لها، بالعزلة

يُدرك أنه كان يُمنح الحياة من أشياء كان يظن أنها لا تحييه، ولربما ظن أنها تميته. وحدها العزلة القادرة على جلد الإنسان بالصدق وتجنيبه دغدغته بالكذب والزيف والتملق. في العزلة يكن الإنسان كالإله قادر على الإحاطة بكل ما أتى به من فعل أو قول، يكون عليمًا بنواياه السابقة، يكون مدركًا أنه كائن مخطئ باستمرار، نعم بالعزلة الإنسان يكشف عن نفسه لنفسه. في العزلة يُدرك الإنسان أن أهدافه لظاهره وأن ما ليس بهدف له لباطنه، بالعزلة يُدرك أن وصوله ليُميته وأن مسيره ليُحييه، بالعزلة لن يتعلم الحذر بل سيتعلم البقاء على طبيعته أي الاستمرار بالخطأ، ليعود إليها بإدراك متزايد بنعيمها عليه، فما أحمقهم أولئك الذين يخرجون منها عازمين على عدم ارتكاب الأخطاء. في العزلة يجد الإنسان أن جميع استعداداته وهو خارجها لاستقبال وتلقي كل ما يظنه جميلًا وجليلًا ومهيبًا ومفرحًا ولذيذًا ليس مُستحضر، بل لا أثر له في نفسه، وسيجد معظم ما لم يستعد له عظيم الأثر فيه، كأن استعداده يتآمر عليه، وبالرغم من ذلك لن يتعلم من العزلة التوقف عن الاستعداد، بل سيجد وهذا مما يتعجب له أن العزلة أيضًا تدفعه للاستمرار بالاستعداد، ولكن يزول تعجبنا عندما ندرك أن هدفها من ذلك دفعه للعودة إليها. الإنسان من العزلة يخرج في شوق لذلك الجميل والجليل واللذيذ والمهيب والمفرح الذي تعرَّف عليه فيها، ولكن للأسف هذا الشوق العظيم في لحظة الخروج منها يتبدد باستعدادنا. ذلك الذي يُعادي عزلة أخيه الإنسان هو ذلك الذي ينصر استعداده عليه. العزلة يا صديقتي هي استشعار بجلال غير مستشعر في لحظة التجلي. في عزلتي أكون مطارَد بدون الهروب ولكنني خارجها أكون مطارَد مع الهروب، فتجدينني أغتال نفسي بالإرهاق المتسبب به هروبي، لا بما يُهدده به المطارِد، نعم يا صديقتي أنا في عزلتي قتيل المطارِد، ولكنني خارجها قتيل نفسي. نعم أنا مطارَد دائمًا ولن تجدينني أقول متبجحًا يومًا ما أنني المطارِد، فأنا لن أكونه أبدًا، حتى لو رغبت لعجزي. العزلة يا صديقتي ليست استصعاب السكوت بين الناس فقط ولكن هي استصعابه في الداخل، فالعزلة هي حوار وتمرد وثورة، هي تصويب وإصلاح. يا صديقتي الاشتياق للعزلة يبدأ في لحظة التفكير بتركها.

- إذا فأنت تنصحني بها.

- لو كان إبراهيم بيننا لقال: "ألستِ فيها دائمًا بكل هذا الجمال. إننا نتعلم منكِ كيف نعتزل، أنتِ قدوتنا فيها"

أخذا بالضحك ثم نهضا للمشي على الشاطئ.

قال عمر وهو ينظر إلى الشمس محاولًا التهرب من اللحظات الصامتة:

- تحوز الشمس كل الفضل على الليل والنهار وتترك كروية الأرض بلى التفات لها ولفضلها، حقًا عالم قاسي.

- صدقت. إنك يا صديقي تبحث في الصمت عن الكلام الذي يبوح لك بحنينه لمسامع البشر.

- لربما لهذا السبب الجميع عاجزون عن فهمي.

فأخذت ضحكاتهم بالانطلاق مُعلنة عن سعادة متفجرة متمردة في داخل كل منهما على الأحزان والآلام.

ثم أردف:

-صمت يا صديقتي يحمل كثير من الكلام المخنوق باستسلام البحث عنه، وصمت يحمل كثير من الكلام المخنوق بعدم استحقاق سماعه، وصمت يحمل كثير من الكلام المخنوق بعدم توفر الوقت المناسب للبوح به، وصمت يحمل كثير من الكلام المخنوق بعجز اللفظ عن التعبير عن المدلول، وصمت يحمل كثير من الكلام المخنوق بسوط العادات والتقاليد والقانون وما يتم الادعاء بأنه دين. كلام مخنوق وصمت يخنقنا، ولهذا تجدينني أسأل بتكرار: "ماذا أبقيت لأفواهنا أيها الصمت لكي نبوح به لغيرك؟".

- إنك يا صديقي تطمع بالكثير.

- بالتأكيد أنا كذلك، ولكن من منا ليس كذلك؟ نأخذ إعجابًا ونترك طمعًا، نلتفت للمأخوذ فنجده متروك.

- بالفعل نحن جميعًا كذلك. نقرر الأخذ وفي ذات اللحظة نجد أنفسنا اتخذنا قرار بالترك، كأن قرارنا بالتخلي قرار بالأخذ، وكأن قرارنا بالأخذ قرار بالتخلي. إننا ضيقون جدًا ومع ذلك نريد ما لا نتسع له.

- لربما قرارنا بالأخذ هو نتيجة لرغبتنا بالبقاء، ولكن قرارنا بالترك هو تصحيح لخطأ الانجرار وراء تلك الرغبة.

فانفجرا بالضحك.

كانت لحظات فردوسية لكل منهما، لقد شعرا أنهما عادا بالأيام الخوالي، شعرا أن الحياة تستحق أن تُعاش فقط لمثل هذه اللحظات النادرة.

عاد عمر فقال:

- جميعنا أصبحنا نحب الاستحواذ والمراكمة بدون حب ما نستحوذ عليه ونراكمه، بدون استهلاكه إذا كان يتطلب استهلاكًا، بدون مطالعته إذا كان يتطلب المطالعة، بدون الاستفادة منه. لقد تغلبت رغبتنا بالاستحواذ على رغبتنا بالمستحوذ عليه، جميعنا مولعون بالاستحواذ لطمعنا وجشعنا. جميعنا يكره ضعفه الذي كان سبب في العجز عن حب جميع المستحوذ عليه، نعم جميعنا نرفض حب القليل الذي نحن

قادرون على حبه بسبب بغضنا لضعفنا، لهذا نحن بلى محبوب. لو اخترنا حب ضعفنا لكان بمقدورنا الحب، قد يُعاب علينا ما نُحب ولكن دائمًا سنكون أفضل حالًا من أولئك الذين لا يطال حبهم إلا الاستحواذ، أولئك العاجزون عن حب ما يستحوذون عليه. لو اخترنا حب ضعفنا لاستطاع الجميع أن يجد ما يحبه، ولكن بكره البعض له أمسى البعض الكاره والبعض المحب بلى موجود مستطاع منحه الحب، لقد سلب كارهوا ضعفهم بحبهم للاستحواذ والمراكمة ما وجد لمحبي ضعفهم ليمنحوه حبهم، فأمسى الجميع عاجزين عن الحب. أه يا صديقتي لو كنا قادرين جميعنا على احترام ضعفنا وحبه، لكافأنا هذا الضعف بجنة في الأرض يطمح إليها المؤمنون بعد موتهم. حتمًا يا صديقتي سنلتفت يومًا لهذا الضعف بحبنا، سنعاتب أنفسنا ولكن لن يكون العتاب قادرًا على تعذيبنا، لأننا سنكون في جنة ضعفنا. مُغرية أنتِ أيتها القوة للحمقى فقط، ولا أنفي أنني كنتُ واحدًا منهم في أحد الأيام، ولكن ها أنا أطرد حماقتي وأطرد بطردها حبي لكِ. لقد تسبب حبي لكِ أيتها القوة بالكوارث التي لا زال كثير غيري يساهم بوجودها بحبه لكِ. لقد أحببناكِ أيتها القوة حتى اعتقدنا وتوهمنا بكِ أننا آلهة، لقد أحببناكِ حتى كرهنا الإنسان الذي ننتمي إليه وقررنا الانتفاء عنه، لقد طمحنا بحبكِ بالكثير فلم تمنحيننا إياه وانتزعتِ منا القليل أيضًا، فأصبحنا بلى حب لسواكِ، فأمسيت إلهًا نعبده، إله نعطيه بدون أن يُعطينا، إلهًا نصنعه بدون أن يصنعنا. غدًا حتمًا سيحبك الجميع أيها الضعف. ضعف يصارحنا بوجوده فينا وقوة تخدعنا بإيهامنا بوجودها فينا، فتجديننا نسارع إلى تصديق القوة وتكذيب الضعف، لتبرير ادعائنا بالتفوق والأفضلية. لقد تعبت، لقد آن للضعف أن ينتصر، بل لقد آن لي الانتصار بالضعف، لقد آن لي الانتصار للإنسان الذي أنتمي إليه.

- لقد كان يعتقد الطبيب أن مطلبك الوحيد أن تكون إلهًا ولكنني كنت أؤكد له أن مطلبك الوحيد أن تكون إنسانًا.

- لهذا أفضل إنصاف عقلك بخلافهم.

فتعالت ضحكاتهم.

بعدما جلسا إرهاقًا أخذا بالنظر إلى البحر كأن أبصارهم تحاول التقاط أبعد نقطة فيه، ثم قال بعد لحظات تأمل قصيرة استردت له ذكرى لحلم قديم:

- حيث أنظر هناك اعتقدت أنني يومًا ما سأقف معاتبًا هنا محملًا إياها ما أنا فيه من البؤس، ولكنني أصبحت بالعزلة مُدرك أن هناك وهنا هم أنا، هناك حيث تفاؤلي وهنا حيث واقعي، فقررت على عجل الاستغناء عن النظر إلى هناك والطموح إليه، أو على الأقل أن أنظر إلى هناك كما أنظر إلى هنا، لقد قررت أن أنظر إليَّ فقط. لقد وجدت أنني بذلك غير مستحق للعتاب، فالبؤس موجود معي لا بي، ولكن وجدت لاحقًا أنني مستحق له على تفاؤلي بهناك، على اعتقادي أن هناك وهنا ليسا واحد.

- وأنا كذلك كنت أقول قديمًا أنني يومًا ما سأقف على متن سفينة مغادرة إن سمح لها بذلك، وأقول لهذه البقعة: ها أنا مغادرة لكِ أيتها المدينة البائسة، تاركة إياكِ، هاربة من بؤسكِ الذي قذفتيني به. لكنني اكتشفت بسفري أنني كنتُ ظالمة لهذه المدينة بتخصيصها في الاتهام والوصف. أنا اليوم مُدركة أن جميع الأماكن بائسة بسبب الجدار، ولكنني أقر أن هناك تفاوت في درجة البؤس، وهذه المدينة فيها أقصى الدرجات، ولهذا عليك الهرب، أو على الأقل الانسحاب للمناورة.

- أنا بدون خيارات بدون خطط للأسف، بدون قدرة على الفعل، فكيف أكون قادرًا على الهرب أو الانسحاب أو حتى المقاومة! إن حياتنا بسبب الجدار يا صديقتي كفريسة لم تشبع منها أظافر مفترسيها.

في تلك اللحظات كان قد حان موعد الانطلاق للوجهة الثالثة التي حددتها، فنهضت واصطحبته معها إلى منزلها.

عند الوصول رحب بهم المنزل بحفاوة فقدم لهما ضيافة دسمة من الذكريات التي دفعت الدموع إلى عيونهم والحزن إلى قلبيهما والابتسامة الحزينة إلى شفاههم.

نفض عمر الغبار عن مقعدين من الخرز كانا موجودين في الحديقة الخلفية للمنزل وجلسا يتابعان السماء التي تأبى طرد صفائها عن هذه البقعة التي لا يناسبها أي صفاء.

في تلك اللحظات شعر أن اختلاف كبير يجهله حل فيه، فأخذ بالبحث بجد، ليجده في عدم اضطرابه من رؤيته لها وحديثه معها، في الهدوء الذي كانت عليه روحه، في تمكُّنه من التغلب على اندفاعاته العاطفية وحيائه الشديد وتصرفاته الخرقاء، وعندما استمر بالبحث عن المُتسبب في هذا التغيير الحاصل رجح أن لا سبب مُقنع لذلك غير عزلته.

التفت ينظر إليها وهي تراقب السماء، ثم أخذ يُحدِّث نفسه متألمًا، بالقول: "ماذا يفيدنا الحب عندما لا نجد فينا استحقاق للمحبوب، ماذا يفيدنا الحب عندما يُجبرنا على رفضه، نعم الحب هو شقاء الصادقين وجحيم المحبين، هو راحة المنافقين وجنة الكارهين. لا لن أنتظر خاتمة لحكايتي معكِ، وكيف تكون لحكاية حبي هذه نهاية! سأُحبكِ وسأُحبكِ حتى أُبقيك بعيدة، نعم اقترابكِ مني يُنقصني أكثر، يحرقني أبطأ، يُعذبني أشد تعذيب. نعم أعترف أنني لو تناثرت لأصغر الشظايا ووصلت شظية مني إليكِ، فأنا بها مُنتفي عني تناثري."

لقد كان عدم رضوخه لمشاعره يسبب لروحه وجسده الإرهاق والاضطراب الشديدين، ولكنه في تلك اللحظات لم يتسبب له تمرده بذلك، فاستنتج أنه أصبح أكثر صلابة بالسنين السبع التي قضاها بمقاومة الجدار، فشعر بالسرور بأولى ثمرات

مقاومته، ولكن سرعان ما طرد شعوره ذلك مخافة تضليله. نعم لقد أصبح قادرًا على التحكم بعواطفه وأحاسيسه، تاركًا لعقله حرية أكبر ونطاق أوسع وتأثير أكبر.

بعدما استعارت من السماء ما تطرد به عواطفها التي تمردت على أغلالها بدخولها لأول مرة بعد سنوات سفرها السبع المنزل الذي حمل كافة ذكرياتها الجميلة، قالت بهدوء رغم ما أثارته حالته في نفسها من قلق وخوف شديدين، ورغم معرفتها بصعوبة مقترحها عليه:

- الآن يا صديقي أنا من سأتكلم، فأنصت جيدًا. عقرب ساعتك يسير ولكنه يسير ليعيد المسير من مكان البدء، عقرب لا يُريحك بتوقفه أو ببدايات جديدة، وهذا لا أجد له سبب غير وجودك في هذه المدينة، ولا أجد حلًا له إلا خروجك منها. لا سبيل لاستبدال هذا العقرب أو تحطيمه إلا من خلال التوقف عن البحث مؤقتًا. أنت بحاجة يا صديقي للتوقف عن البحث لكي تمنح الناس رؤيتك الأوضح للحقيقة. شك يطرده شك فيطرده شك ولكن لا التقاء مع اليقين، أعلم ذلك ولهذا عليك التوقف. استمرارك يا صديقي في طلب اليقين قد يوقعك في فخ اللاتوقف بالرغم من معرفتك أنه ليس في حياتك كفاية للوصول إليه، بالتأكيد لا لتقصر صدر عنك.

توقفت للحظات لالتقاط أنفاسها، ثم عادت تقول هذه المرة بحزم:

لماذا لديك كل هذه المقدرة على الرفض والاعتراض؟ دعني أجيبك. لأنك ستحيى، لأن الموت بعيد عنك، لأن رفضك سيجد ما يُغيره. على الظلم الذي في حياتنا أن يرتعد خوفًا من رفضك وتمردك واعتراضك المستمر. ستجد الحياة جديدها برفضك المستمر. إبراهيم لم يكن قادر على الرفض أو القبول، لم يكن قادرًا على الاستمرار لهذا طلبه الموت، ولهذا أرى أن الحياة انتصرت عليه بطرده، انتصرت عليه بدون أن يحوز مقدرة على الرفض أكثر كان يرغب بحيازتها. يا صديقي لن تكون الحياة قادرة على إغرائك بالقبول والخضوع ولذلك لن تطردك. أكمل المسير يا صديقي لكي تلتقي إبراهيم والموت واجد استحقاقًا له فيك. لقد قال لك إبراهيم في إحدى جلساتنا بأن اعتراضك ورفضك سيُقدمان خدمة للإنسان، وأنا أؤكد على صحة كلامه. رفض يتلوه رفض، ثم نُسأل لماذا؟ لا، ليس للسبب الذي اختلقوه، نعم ليس لأنهم يعرفون الصواب وغيرهم يجهله، بل لأنه إلزام يتلوه إلزام، يتلوه إلزام. ليس هناك عذاب أشد من عذاب التساؤل اليومي عن ماذا سنفعل بطموحنا الذي نزعت منا القدرة على تحويله لواقع أو لخيال على الأقل. يا صديقي لن تصل إلى نهاية لبحثك النظري حتى لو مُنحت عمرًا مديدًا، لهذا عليك التوقف، عليك أن توفر الجهد الكافي لنقل ما توصلت إليه للآخر، ينبغي عليك أن تكشف للآخر عن أخطائك في البحث، لتمنحهم فرصة لمواصلة مسيرك وإلا فإنك ستجد نفسك بدون مسير. انطلق يا صديقي، ولتخرج من غرفتك ومن هذه المدينة البائسة، اكشف للعالم ما توصلت إليه. يا صديقي لا ننتبه للسرعة إلا في النهاية، فسرعة إدراك الليل للنهار

لا ننتبه لها إلا عند تأمل لحظة الغروب، ونهملها ونتجاهلها طوال اليوم. يا صديقي ضع يدك في يدي ودعنا نخرج معًا من هذه المدينة. لقد قمتُ بإعداد كل ما يلزم لخروجك ولقد حُدد الغد موعدًا له. أرجوك لا تتركني أخرج لوحدي.

بعد لحظات صمت قال بعدما انقبض صدره وتقطعت أنفاسه من كلماتها التي بثت فيه الرعب:

- أتعتقدين يا صديقتي حقًا أن هذا العلاج سينفع معي! يا صديقتي لقد أصبح هذا المكان داخلي، لقد التصق بي، ولهذا لن يكون الخارج قادرًا على إحداث تأثير بي. لقد حلمت بالهجرة منذ زمن بعيد ولكنني أيضًا تخليت عن هذا الحلم منذ زمن بعيد. لقد كنتُ بسبب حماقتي أُعلِّق عليه آمال عظيمة بمنحي السعادة. لقد ألغي هذا المكان جميع الأماكن، لا مكان قادر على إعلان نفسه لي مهما اتسع.

- من عاقل يقول يا صديقي أنك بحاجة إلى علاج، بل من عاقل يقول أنَّك مريض! يا صديقي لربما تكون أنت العلاج لأمراضنا. يا صديقي أنا لا أريد للمكان الذي احتل داخلك أن ينتفي، بل أريد أن يبقى فيك ليمنحك قدرة أكبر في حربك مع الجدار، يا صديقي أنا لا أريد منك المفاضلة لنفسك بين بؤس الأماكن لتختار، بل أريد منك أن تختار ألا يكون البؤس في أي مكان. يا صديقي يجب أن تبحث عمن يشاركونك الهدف لكي يشاركونك المسير، فأنت وحدك وهم وحدهم لا تخطون إلا بضع خطوات قادر البصر على التقاطها. إنها خدمة ليست لك يا صديقي بل هي للإنسان الذي ننتمي جميعنا إليه.

- ولكنني لست مستعد لخطوة كهذه.

- ولكنني مستعدة. فلتعتبرني استعدادك، ألا تثق بي؟

أربكته هذه الكلمات ارباكًا شديدًا، وصدمته بشكل عنيف، فقال بعد لحظة صمت كان يحاول فيها تحطيم قيود لسانه لينطق:

- بالتأكيد أثق بك.

ثم أخذ يُحدِّث نفسه قائلًا: "أنتِ ثقتي في هذا العالم، أنتِ من أرى بها الإنسان إنسان، أنتِ اليقين الذي لا شك يحاصره. كيف يَحدُث أن تسألني مثل هذا السؤال! لكن كيف لي أن أسمح لها بتقديم كل هذه الحجج الضعيفة أمام كونها حجة؟ كيف لي أن أقف متردد أمام طلب لها! حقًا إنني قاسي القلب، كان ينبغي أن أوافق على طلبها قبل أن تطلبه، كان ينبغي أن أشعر به قبل أن تقدمه. لقد جعلتني عزلتي بليدًا. كيف أسمح لنفسي أن يكون لها مطلب مني أنا، ألهذه الدرجة بلغت وقاحتي..."

قاطعت ميار حديثه مع نفسه قائلة:

- إذا هل أستطيع الآن أن أعتبرك مستعدًا؟

- نعم.

ثم عاد ليُحدِّث نفسه قائلًا: "كيف لضعيف مثلي أن يحوز كل هذا القدر من الاستعداد! إنكِ حقًا أعظم استعداداتي. كيف لمن استعداده هي، ألا يحوز نصرًا حتى من قبل أن تبدأ المعركة، كيف لمن استعداده هي، ألا تفر الهزيمة من أمامه! نعم أنتِ النصر بحد ذاته".

ثم نهضت وتبعها بعدما طلبت منه ذلك إلى غرفة التخزين في المنزل ثم طلبت منه إنزال حقيبة سفر كبيرة من أحد الرفوف المرتفعة، ومنحته إياها لكي توفر وقت البحث عن واحدة في السوق، لمهمة ترتيب الأوراق والأبحاث التي ينوي أخذها معه.

خرجا من المنزل ووقفا أمامه يحاولان شكره على جميع اللحظات الجميلة التي جاد بها، وعلى عطفه في احتوائهم، فكانا كمن يحاول إلقاء الوعود بالعودة وإحياء الماضي، وكان المنزل كمن يتعهد بالبقاء منتظرًا وكمن يقطع الوعود بإحسان الاستقبال في حال العودة وبالبقاء كريمًا معطاءً.

عندما وصل لغرفته بعدما توجهت ميار لمكان إقامتها المؤقت، جلس فيها يتفحص ويتأمل جدرانها، وزاوياها، والكتب المتناثرة فيها، فكان في تلك اللحظات يسمع الجدران وهي تبكي وتنعته بالخائن، وضحكات الكتب الفرحة بعزمه الالتقاء بأماكنها ومؤلفيها، ويسمع تهليلات قلمه فرحًا بالاستراحة التي سينالها، ومستشعرًا بسرور أبحاثه المتشوقة للنور، وبكآبة عتمة غرفته لفقدانها أنيسها، وبسعادة ملابسه لاستعداده لارتدائها، وبحزن إنارة غرفته التي تحترم عينيه، وبسعادة أجواء غرفته لتخلصها من أنفاسه الخانقة لها، وبفرح فراشه الذي كان كمن يُوزِّع الحلوى فرحًا بالحرية، وبحيوية ونشاط ساعته التي عادت للعمل بعد توقف. لقد كانت لحظات حزينة وسعيدة في آن واحد لجميع ما تحتويه غرفته.

في صباح اليوم التالي كان قد تجهز للانطلاق بعد ليلة لم ينم فيها من شدة اضطرابه وقلقه ومما يسمعه ويشعر به من حوله. وصلت ميار ووقفت بجانبه وهو ينظر لغرفته مودعًا إياها ثم ربتت بيدها على كتفه وقالت:

- هيا يا صديقي، نحن متأخران.

خرجا ثم ركبا السيارة المنطلقة باتجاه عدوه الجدار.

كانت دقات قلبه في الطريق متسارعة بشكل مرعب، كان يشعر بالغضب والخوف في آن واحد، ولقد كانا يتعاظمان كلما اقتربت السيارة من الجدار الذي كاد يفرغ من افتراسه بقتله.

عندما أصبح الجدار في مرمي بصره أخذ ينظر إليه بتحدي متوعدًا إياه، وكان يُحدِّثه في الخفاء قائلًا: "اليوم أنت الذي ستسمح لي بالعبور للمرة الأولى، ولكن أعدك أنها ستكون الأخيرة، أعدك أنني لن أتيح لك في الأيام القادمة القدرة على السماح والرفض بالعبور، أعدك أنني سأهدمك من بعيد حتى أصل إليك هنا وأنطلق منك لإكمال الهدم. سنلتقي مجددًا ولكن ستكون أنت المهزوم. أه لو لم يكن الإنسان هو من يحميك، لأدركت حينها أن لا شيء سيحميك مني. لا بأس غدًا سيفيق الإنسان ويقف بجانبي أنا أخيه الإنسان، ويقف بوجهك أنت يا عدو الإنسان"

في لحظات عبوره بعد معاناة الانتظار والنهب والازدحام شعر كما يشعر جيش محاصر اضطر للاستغناء عن سلاحه والمرور بذل من تحت رحمة سيوف الجيش الآخر، شعر كما يشعر من يُقتاد إلى منصة الإعدام من وسط حشود مضللة عن يمينه وشماله يرجمونه بالقاذورات ويمطرونه بأبشع الشتائم والنعوت. لقد كان يشعر بمهانة لا يطيقها إنسان، شعر بأنه صغير جدًا جدًا جدًا أمام الجدار الكبير جدًا جدًا جدًا، شعر بالعجز.

ما إن وقف على الجانب الآخر رجع يتوعد بغضب أكبر بدون خوف وكان قد تعاظم حقده ورغبته بالانتقام، ولكنه في لحظات شعر بأنه خان إنسان مدينته المحاصرة والإنسان في كل مكان بالخروج وعدم الاستمرار في تلقي مزيد من اللكمات والركلات من الجدار.

بعد ساعات وصل إلى المطار ثم صعد الطائرة لأول مرة في حياته، وفي أثناء التحليق شعر بسعادة لم يشعر بها في حياته، فلقد كان قد أعجب بالسماء التي لا جدران فيها، شعر كيف سيكون الحال لو لم يكن هناك جدران للإنسان في الأرض، شعر بحرية الطيور لأول مرة. لقد أدرك حينها أن الجدار يحرم الإنسان ليس فقط من الكثير الذي تعرَّف عليه بل من كثير آخر لم يتعرَّف عليه بعد. كان يتساءل بتعجب قائلًا: "كيف لمن استخدموا الطائرات كوسيلة نقل ولو لمرة واحدة عند نزولهم الانشغال عن المطالبة بالحرية التي شعروا بها بالسماء على الأرض! إن أمرهم عجيب حقًا"

بعدما هبطت الطائرة في مدينته الجديدة واستقل سيارة الأُجرة أخذ ينظر إلى المباني والشوارع والحدائق والجسور، وكان يُحدِّث نفسه قائلًا: "هناك مساحات فاصلة بين المباني، هناك شوارع كبيرة وواسعة جدًا، هناك حدائق فيها أشجار وأعشاب، هناك ازدحام أقل" ولكنه كان يعود ليُحِّدث نفسه قائلًا: "ولكن هناك أيضًا جدار، نعم هناك جدار". لقد كان يحاول السيطرة على نفسه، على مشاعره وحواسه المتأثرة بالجمال الذي يراه، يحاول طرد أثر جميع من يحاول إخفاء قبح الجدار وتضليله.

بعد مرور أسبوع من الإقامة في المدينة الجديدة اصطحبته ميار تنفيذًا لطلبه إلى المستشفى الذي كان يخضع فيه إبراهيم للفحوصات والعلاج المؤقت والذي توفي فيه

والدها أيضًا، فأخذا بالتجول في أروقته وممراته وقلب كل منهما غارق بالحزن والألم، ثم خرجا بعد وقت خانق بالذكريات الحزينة إلى المُتنزه المقابل للمستشفى الذي ساهم بالتخفيف عنهما بلونه الأخضر وأشجاره التي تتراقص وبعشبه المتبلل بالمياه وبوروده التي تنثر جمال ألوانها وروائحها، ثم جلسا متجاورين على أحد المقاعد التي اختارها بعدما شعر أنها تمنح لنظره الإطلالة الأروع.

***

مضي شهر على وصوله كان فيه يذهب باستمرار للجلوس على ذلك المقعد الذي أعجب بإطلالته مرتين في اليوم محاولًا مزامنة لحظة جلوسه مع لحظة شروق الشمس ومع لحظة غروبها، سعيًا منه للتعرف على ما تشرق عليه وعلى ما تغرب عنه.

لقد كان يحاول التعرف على كل ما هو جديد، يحاول استحضار تلك الصور التي رسمتها الكتب له، لا ليتحقق صدقها من زيفها، بل لكي يحاول بها مساعدة حواسه على التقاطها، ليساعد في طرد أثر عزلته على حواسه بالإضعاف، لكي يمنحها إحاطة أكبر، لكي يمنحها قدرة على القيام بوظائفها بكفاءة.

كانت تلك المدركات الحسية قد كشفت له عن وجود عواطف جديدة، وتفاعلات داخله غير مسبوقة، تحاول إذاقته طعم الحياة، تحاول تعليمه وتشكيله من جديد، تحاول طرد جهله وكسر قيده التي تسببت به مدينته البائسة، تحاول منحه شعور بأنه أفضل بقيود ذات سلاسل أطول وبحلقات معدنية تلتف حول رقبته أكثر اتساعًا.

لكنه كان يحاول بكل طاقته، رفض هذا الانتصار الذي تمنحه به المدينة الجديدة الهزيمة، فكان بالرغم من تعجب حواسه من كل ما هو جديد تستقبله وتباطؤها في المعالجة، إلا أنه كان يطلب المزيد والمزيد من الجديد لكي يستنفذ قدرة المدينة الجديدة على ادهاشه وتعطيله، لكي يحارب رضاه بها، لكي يحارب مطالبتها له بالاستكفاء والتوقف عن طلب الجديد الذي يرغب بالاستمرار بالطمع به باستمرار حربه مع الجدار.

لقد كان يشعر أن المدينة الجديدة تحاول إغواءه وتضليله، فكان فاقد للشعور بالأمن فيها، شاعر بخيانتها منذ اللحظة الأولى له فيها. كان خائف قلق باستمرار، فلقد بان له أن قدرته على الصمود في ظل الظروف القاسية أكبر من قدرته على الصمود في ظل الظروف المُريحة والمُفرطة في تقديم المتع والملذات.

لقد كان الحذر من كثير من عطايا المدينة الجديدة يفقده قدر كبير من المتعة، ولكنه كان يستمر بالحذر، فلقد نال تجربة أثناء عيشه في مدينته البائسة جعلته قادرًا على إطفاء كل رغبة وشهوة وتفادي كل لذة ومتعة. إن الندرة التي تخلى عن الصراع فيها عن فرصة، منحته القدرة على التخلي عن فرص لا تتطلب صراعًا، ولهذا كل

يتفحص الفرص بحذر محاولاً الولوج إلى أهدافها من حيازته لها، كان يحاول تفادي كل تلك الوسائل التي يغدر بها الجدار، فكان يفضل عدم تناول العسل على تناوله والسم مغموس فيه، لقد كان يكافح ضد شهواته ورغباته التي يحاول الجدار استدراجه وهزيمته بها، يحاول تفادي القيام بمهام تكون فيها هزيمته من الجدار غير مُحتملة وتكلفتها باهظة.

كان شهر تعرف فيه على مارك الذي كان في مثل عمره ويتميز بثقافته الواسعة وبكثرة الاطلاع والذي كان ينتمي لأحد العائلات الثرية التي لم يكن هندامه ومظهره يوحي ويُدلل على انتمائه لها، ولقد كان التعارف بعدما كان يشاركه في الجلوس على المقعد الذي أجمعا على أنه يمنح الجالس عليه الإطلالة الأروع.

شهر كانت فيه ميار قد عادت فيه للانشغال بعملها الأكاديمي المتراكم عليها نتيجة تأجيله للسفر، وباستقبال المرضى في مكتبها. مُبتعدة عن عمر مُستهدفة منحه مساحة زمنية ومكانية كافية لاستكمال عملية تعافيه الذاتية.

الفصل الثالث

هديـة

(1)

أشهر ثلاث كانت قد مضت على مكوث عمر في المدينة الجديدة، كانت علاقته مع مارك قد توطّت ونشأت بينهما صداقة متينة، فلقد وجد كل منهما في الآخر مصدر له لإحاطة أكبر، ولتجربة أوسع، ولقد كانا يتشاركان كثير من الاهتمامات على رأسها إسقاط الجدار. لقد شعر كل منهما أنه طرد وحدته بالآخر، لقد شعر كل منهما أنه وجد ماء لظمئه أكسجين لرئتيه، وطعام لجوعه، وأفكار لعقله، ومكان يلجأ إليه وسندًا يرتكز عليه، وبحر غني يبحر فيه وسماء واسعة يحلق فيها، وأرض ممتدة يسعى فيها.

شهور ثلاث مضت كان عمر بعدها قد فقد كل جديد القدرة على إدهاشه، فتلك البنايات الشاهقة التي تترك السحاب يلتف من جانبيها لإكمال مسيره، وتلك الأضواء التي أكسبت أضواء مدينته السابقة مزيدًا من العجز عن الإنارة، وتلك الطرقات الواسعة التي أكسبت طرقات مدينته القديمة مزيًدا من الضيق، وتلك المصانع الضخمة التي بمساحة مدينته القديمة، وتلك الحدائق التي تتراقص بانتظام فيها الأشجار والزهور والعشب على أنغام اتسمت نسمات الهواء بالعبقرية في تلحينها، وتلك السماء المتكدِّسة بطيور تتباهي بجمال أجنحتها، وتلك الشواطئ التي يبرز من مياهها ما فيها من ثروات، جميعها فقدت قدرتها على إدهاشه لا بعجزها عن نثر الجمال وإنما لتركيزه المُنصب على استئناف محاولاته في هدم الجدار.

ولكنها شهور ثلاث كانت فيها أجواء المدينة الجديدة منعشة له، فلقد عاش لأول مرة في حياته الربيع الذي كان يسمع ويقرأ عنه، كانت فترة شعرت فيها الأشجار والورود باهتمامه وبنظراته المُتغزلة، وشعر الهواء النقي الغير مختلط برائحة الدم والبارود وذرات الغبار بأن أنفاسه متعجبة منه، وشعر عشب المتنزه بإعجابه بلونه الأخضر، وشعرت الطيور بنظراته المتفحصة، ولكن وحدها السماء من لم تشعر بجديد، فنظراته إليها كما هي لم تتغير، لأنها وحدها من كان ظلم الإنسان عاجز عن جعلها ظالمة، ولهذا كانت عادلة في كل مكان وزمان.

كانت ميار طوال تلك الفترة منهمكة في إنجاز أعمالها المتراكمة، فكانت تلتقي به مرتين في الأسبوع في أحد مقاهي الأرصفة الهادئة بهدف التعرف على أثر الجديد فيه محاولة بذلك الاطمئنان على حالته، وبجانب ذلك مشاركته الحديث فيما يشغلهم من اهتمامات وخطط وأبحاث، مُتفادية الإشارة الى حالته النفسية الماضية، لتتجنب تعطيل عملية التعافي الذاتية.

بعدما أعلمها بنجاحه ببناء صداقة جديدة، كانت متعجبة من قدرته على تكوين صداقة حائزة على كل ذلك القدر الذي أبداه من الاحترام والتقدير والحب في فترة قصيرة، ولكن سرعان ما زال تعجبها بعدما قابلت مارك الذي كان في وقت ليس ببعيد أحد مرضاها الذين تقابلهم باستمرار وتتابع حالته على الدوام، والذي كان يحوز على إعجابها لثقافته وسعة اطلاعه ووعيه وحدة ذكائه.

فترة شعرت فيها بالاطمئنان عليه بعدما عرفت بصداقته لمارك الذي أخذ يشاركهما الجلوس في جلساتهم، لتشعر بهذه الصداقة بأن ضلع المثلث المفقود قد تم تعويضه. كانت اللقاءات تُذكرها بالماضي على عكس عمر الذي كان مهتم بالمستقبل الذي احتوى خططه لحربه مع الجدار التي كانت تشعرها في أحيان بالقلق عليه مخافة أن يبلغ به الحماس والتهور بالصداقة الجديدة مبالغ خطيرة غير مأمونة العواقب.

كانت تتفقده في صباح كل أحد، مصطحبة معها من تشرف على تنظيف الشقة والتبضع والطهي له، فلقد كان يحوز قدرة كبيرة على إهمال نفسه، كانت تتجنب توبيخه عليها لكي تحتكر تركيزه لعملية التعافي ولكيلا تشعره بحصارها له أو بشيء يهدد استقلاليته وحريته. كانت تقاوم أثر تلك التصرفات التي تصدر عنه وتحاول إشعارها بأنانيته، بتذكير نفسها بأنه يحتكر اهتمامه لحربه مع الجدار الذي كان يتمنى فيها حيازة جهود أكبر ووقت أطول وطاقة أعظم، فكانت محترمة لجهوده المبذولة ولأهدافه السامية التي أشعرتها ببراءته النادرة ونقائه غير الشائع.

لقد شعر ببعض من الحرية في تلك الفترة، لتحرره من ربط نومه وصحوه بموعد وصل التيار الكهربائي وفصله، فلقد شعر بأن الوصل الدائم للتيار الكهربائي في مدينته الجديدة قلل من خوفه وقلقه وشعوره المستمر بأنه مرتبط ومحاصر، شعر بأن الجدار فقد قدرته على تحديد كثير من مواعيده ولهذا أصبح قادر على التحرك بحرية والمناورة بخفة. لقد وجد في مدينته الجديدة ما كان يتمناه في مدينته القديمة لبحثه، وجد كهرباء لكتبه الإلكترونية التي يعجز فقره عن توفيرها ككتب ورقية.

لقد عاد يومه في تلك الفترة كيوم باقي البشر، له إشراق واحد ومغيب واحد، فلقد كانت قدرة الجديد على إدهاشه مُرهقة له، دافعة إياه للنوم ليلًا والاستيقاظ مع الإشراق، ونتيجة لذلك عادت له بعض من عافيته الجسدية والنفسية.

كان لديه شك بأن كل ما هو جديد يستهدف ثنيه عن استئناف حربه مع الجدار، ولهذا كان متخوف من وضعه الذي بدا له بأنه كوضع من أغواهم الجدار وكافأهم نتيجة خضوعهم بالصحة الجيدة والحياة المرفهة، فكاد لولا وجود ميار ومارك بجانبه يوشك على العودة إلى عزلته والعيش بين جدران أربع لا يفصل بينها أمتار، ولولا فرط حبه لهما لوُجِد لديه شك بخيانة كل منهما له بالوقوف مع الجدار ضده.

كانت فترة منحته فيها الأراضي الممتدة بالخضار وتباعد الجدران علاج لاضطرابه عند الاختلاط بالناس وسماع الأصوات الذي كانت عزلته سبب به، فكان قادر على التجول بين رفوف المكتبات الكبيرة برفقة ميار ومارك والجلوس على طاولاتها التي شعر بحب الناس لها على خلاف تلك الطاولات والمقاعد في مكتبة جامعته.

***

في صباح يوم أحد ربيعي كما هو الحال في صباح كل أحد استيقظ على أصوات عمليات التنظيف في الشقة التي يقطن فيها والتي منح ميار نسخة من مفتاحها لاستخدمه عندما يكون عاجز عن سماع قرعها للجرس بسبب انسجامه بالبحث، فنهض مسرعًا للترحيب بها وبالخادمة التي جلبتها لمساعدته.

بعدما غير ملابسه وشاركها والخادمة شرب القهوة والحديث القصير، خرج معها لتناول الفطور في المقهى الذي اعتادا ارتياده تنازلًا لرغبتها

في الطريق بعد استقلال سيارة أجرة قالت:

- يبدو أنك عدت لاستئناف العمل على أبحاثك، فهذا الإرهاق البادي عليك ليس له تفسير غير ذلك.

- نعم، لقد بدأت بالعمل عليها منذ أول أمس.

- ألا تعتقد أنك تعجلت قليلًا. لما لا تترك لنفسك وقت كافي للراحة ولاستقبال هذا الجمال المنثور حولك؟

فقال بحماس وابتسامة مرسومة على شفتيه:

- لا تقلقي فأنا الآن بأفضل حال. يا صديقتي معركتنا مع الجدار فيها الراحة خيانة ألا تشاركينني هذا الشعور؟

- لا، لا أشاركك.

ثم أخذا بالضحك.

قالت:

- لقد اتصلت بمارك وطلبتُ منه أن يلتقي بنا في المقهى.

- لقد اتفقت معه على تخصيص أيام الأسبوع القادم لنقاش الطرح اللاسلطوي بعدما أعلمني باهتمامه الطويل بدراسته. كنت سأطلب منكِ مشاركتنا لولا علمي بكثرة مشاغلكِ وأعمالكِ وأبحاثكِ.

شعرت بعدما سمعت ذلك بالسرور وزال قلقها، فأهدافها من إخراجه من مدينته البائسة بدأت تتحقق، فلقد عاد له شيء من عافيته، وها هو يستعد لمشاركة المسير مع غيره، وها هي أبحاثه توشك أن تخرج للنور، ثم قالت:

- صحيح فأنا لا وقت لدي، ولكنني أرغب بالاطلاع على نتائج نقاشاتكم. لماذا لا تتشاركان تأليف كتاب يؤرخ لمرحلة جديدة من الحراك اللاسلطوي.

- هذا يتطلب جرأة كبيرة.

- لا تنقصكم.

فقال وهو يُقلِّب هذا الاقتراح في رأسه:

- لربما، ولكن هذا يتطلب أيضًا نقاش في شرعية الدولة والقانون والجريمة والعقاب، ونقاش في الاقتصاد والأخلاق والدين ونقد لنتاج فلاسفة العقد. هذا يتطلب التفرُّع كثيرًا وإحاطة واسعة جدًا.

- لا تنقصكم القدرة على تقديم كتاب بهذا القدر من الإحاطة ولا ينقصكم الوقت.

استعان بالصمت للتفكير ثم قال وعيناه تشعان من شدة إعجابه بالمقترح وحماسه له:

- بالفعل لا شيء ينقصنا.

ثم عاد للصمت محاولًا استئناف التفكير بعوائد المقترح، وبعد لحظات رجع فقال:

- "جميلة وتحوز مقترحات جميلة" هذا ما كان سيقوله إبراهيم لو كان بيننا.

صُدمت وتشنج وجهها بكلماته التي بانت عن شدة حضور إبراهيم في ذهنه، فلقد اعتقدت أن جديد المدينة الجديدة سيشفيه من هذا الحضور المستمر، ثم أطلقت ضحكات تأخرت قليلًا عن ضحكاته.

كان في تلك اللحظات في أقصى درجات سعادته، فلقد اعتقد أنه نال طريق يمكنه السير فيه، نال طريق يمكنه تمضية وقته فيه من دون أن يكون لا عائد منه في حربه ضد الجدار التي لم تمنحه إلا الخسارة، وكانت ميار تتابعه بصمت وقد استبد بها قلق شديد.

في تلك الأثناء وصلت السيارة التي تقلهم إلى وجهتها التي حدداها لها، فترجلا منها بعد دفع الحساب، ثم اختارا إحدى الطاولات الموجودة على الرصيف والتي تتخذ إحدى زوايا أقصى اليسار مكان لها.

كانت تجاور طاولتهم من اليمين طاولات خمس بألوان مختلفة، يجلس على الطاولة الأقرب إليهم رجل طاعن في السن اعتادوا رؤيته وهو يقرأ جريدته ويتناول قهوته. بعدما ألقوا عليه التحية وبادلهم إياها بحماس أكبر من حماسهم، قالت ميار:

- كيف هو حال الوسيم اليوم؟

- كما هو دائمًا ينتظر مرور الجميلات من أمامه ليصطاد بهن الكلمات التي تعبر عن جمالهن.

- ألا يكفيك جمال زوجتك.

- ومن ذلك الذي يكتفي بجمال زوجته!

فانفجروا بالضحك.

ثم أجاب عمر محاولًا استفزازه:

- ذلك الذي عرف كيف يحب.

فرد عليه العجوز باستهزاء:

- انظري يا أنسة ميار من يتكلم عن الحب. كيف أيها الأحمق لمن لا يملك تجربة في الحب أن يتكلم عنه.

فتعالت ضحكاتهم مجددًا، ثم أردف:

- إننا نفقد الحب بإلزام المحبوب بعدم الالتفات لجمال لا يحل فينا. الحب أيها الأحمق لا يمنع من التمتع بالجمال.

فقال عمر بنبرة رومانسية:

- ولكنه يُوجد كل جميل في وجه المحبوب وفعله وقوله، فيُغني عن الطلب من غيره.

فرد العجوز بسخرية:

- من قال لك ذلك؟ لو كان ما تقوله صحيحًا لاكتفى كل منا بالنظر لوجه عشيقاته ولاستغنى عن النظر إلى الجبال والسماء والبحار...

قاطعته ميار بسرعة:

- عشيقاته! كم من قلب تحوز يا صاحب الشعر الأبيض؟

- بالتأكيد قلوب كثيرة.

أخذ بالضحك، ثم رجع يقول بنبرة مُعاتبة:

- العيش بقلوب كثيرة خير من العيش بدون قلب أيها البائسان.

فرد عمر:

- ولكن العيش بقلب واحد خير من العيش بقلوب كثيرة ومن العيش بدون قلب.

- لربما ذلك صحيح، لا أعرف.

- إذًا فأنت أشد بؤسًا منا، فنحن أقرب منك للعيش بقلب واحد.

ثم تعالت ضحكاتهم التي زامنت وصول مارك الذي أخذ يقول بحماس معهود عليه معلقًا على ضحكاتهم:

- وحدها أحاديث الحب من تتسبب في مثل هذه الضحكات.

فرد العجوز:

- انظري يا أنسة ميار من أيضًا يتكلم عن الحب وأحاديثه.

فغرقوا جميعهم بالضحك، ثم قال مارك:

- يومًا ما سأساعد زوجتك في اصطيادك، حقًّا سيسعدني أن أكون طعمها الذي به تصطادك.

- كيف لعاقلة مثلكِ يا أنسة ميار أن ترافق هذين الغبيين. إن هذا كذاك يعتقد بأنني أقوم بما هو خاطئ. أيها الأحمق التمتع بالجمال ليس جريمة وليس بخطأ، وطالما هو كذلك فلستُ خائفًا من اكتشافه، ومع ذلك أفضل عدم اكتشافه.

فانفجروا بالضحك وبعد ذلك نهض العجوز للمغادرة ثم قال بعدما وضع حساب مشروبه على الطاولة:

- يا أصدقائي أنتم حائزون على استحقاق محبتكم للآخر وحبه لكم، فلا تحاولوا التعامي عن استحقاقكم هذا.

وانصرف مغادرًا.

كانت الأجواء في ذلك الصباح معتدلة وتبعث في نفوسهم الحيوية والنشاط، ونسمات الهواء المنعشة تحمل لهم روائح الورود التي تزين أرصفة الشوارع والتي تحملها أيدي العشاق الذين يمرون من أمامهم، والآلات الموسيقية تبعث بألحانها إلى

مسامعهم، والنوافذ المفتوحة للمنازل المجاورة التي تحاول الترحيب بأشعة الشمس تبعث إليهم بضحكات وأحاديث عائلية دافئة.

بعدما جلس مارك طلبوا من النادل إنزال أطباقهم ومشاريبهم، ثم قال عمر بعدما لاحظ علامات الإرهاق على وجهه:

- يبدو أنك تستعد جيدًا.

- هدفنا يستحق إرهاق هذا الاستعداد. ويبدو عليك أيضًا هذا.

- لقد اقترحت ميارًا اقتراحًا رائعًا.

- إذا أنا موافق قبل أن أسمع.

فأخذوا يضحكون. ثم قال جادًا:

- ما هو؟

- تأليف كتاب يؤرخ لحقبة جديدة للحراك اللاسلطوي.

- مقترح رائع، سنين بحثنا الطويلة وأخيرًا ستجد ما تقدمه.

- أين حذرك؟ اطرد حماسك وفكر. هذا سيأخذ وقتًا طويلًا وجهدًا كبيرًا...

فقاطعته ميار قائلة:

- أنت تبالغ، لِم الحذر؟ ضم وقتك إلى وقته وجهدك إلى جهده، وستكون النتيجة رائعة بدون أن تأخذ الكثير من الوقت ولضمان ذلك أبقيا على الأيام السبع التي خصصتماها للنقاش ولا تزيدا عليها ولكن أطيلا وقت العمل فيها. لا تنسى أيضًا أن نتاج سنينكم الطويلة في البحث ستقلص الوقت والجهد، فبتبادل استنتاجاتها وتحليلاتها ستتمكنان من تقديم كتاب يتمكن من إشباع فضول المتابع لجديدكم وإحاطته بأجوبة عن كافة الأسئلة التي سيثيرها طرحكم ومساعدته بالتغلب على كافة المخاوف التي سيعمل أعداء طرحكم على تهديده بها. وأنا أيضًا لن أبخل عليكما بالمساعدة متى احتجتماها.

فقال مارك:

- إنها فكرة عبقرية. سنمضي فيها فلا تهدري وقتكِ في إقناعه وتبديد مخاوفه وقلقه.

وبوصول النادل بالطعام أخذوا بتناوله وبالتحدث في مواضيع فلسفية عديدة.

***

في صباح يوم سبت كانت قد انقضت المهلة التي حددها للاستعداد للنقاشات التي سيستعينان بنتائجها وتحليلاتها في تأليف الكتاب.

استيقظ عمر من نومه الذي لم يتجاوز الساعات الثلاث التي حددها وهو ممتلئ بالحماس الحذر، ثم نهض من فراشه وغير ملابسه وانطلق لمنزل مارك الذي أصرَّ على أن يكون موقع لبحثهم.

بعدما وصل وتناول كوب من القهوة من مارك، جلس مقابله على مقعد مريح لطاولة مستديرة وأخرج بعض الأوراق من حقيبته، ثم قال محاولًا الدخول في النقاش:

- لقد أدركت قبل سنين أن كفاح وحيد يلائمه أن يلازمه اليأس وهو الكفاح في سبيل إصلاح أنظمة الحكم، وبهذا أدركت أنه لا يعيب اللاسلطوية أن تكون نتاج اليأس كما وصفها لينين.

- كنتَ قبل اطلاعي على الطرح اللاسلطوي أشعر بأنني أمتلك ذلك القدر الكافي من المعرفة الذي سيُمكِّنني من رفضه، نعم لقد كانت لديَّ ثقة كبيرة لا أعرف لها مصدرًا غير جهلي، ولهذا كنتُ أعتقد أن مجرد الاطلاع على الطرح اللاسلطوي سيكون مضيعة للوقت. لقد كان غروري سببًا بتعاملي بعدم احترام مع كثير الأفكار والتوجهات، التي قد يقود مجرد الاطلاع عليها إلى تبنيها والإقرار بصوابها.

- وحالي كان كحالك يا صديقي، كنت أتصور معرفتي بذلك الكم والنوعية التي ستمكنني من تسفيه النتاج اللاسلطوي. لقد كنت أتجاهل النظر في كل نتاج لاسلطوي لاعتقادي أن فكرة الدولة فكرة مُنَّزهة عن النقد والتشويه والرفض. لقد كنت أتصور أن الطرح اللاسلطوي طرح لا يستحق حتى مجرد الالتفات إليه. جلست ذات ليلة متأملًا منهجي في البحث والاستقصاء عن الصواب والحقيقة، فوجدت أخطاء كثيرة أبرزها وأشدها خطورة كان الحكم المسبق، فتفحصت كل نتاج وقع في نطاق رفضي بدون إطلاع فوجدت النتاج اللاسلطوي ومن ثم بدأت بمنحه حقه.

- لقد كنا يا صديقي مضللين بالدعاية السلطوية.

- علينا العمل يا صديقي على إتاحة المساحة للنتاج اللاسلطوي وإرجاعه كمنافس شرس للنتاج السلطوي الذي يستوطن أيدي القرَّاء بدون فحص وانتقاد. علينا أن نوقف مطالعة النتاج اللاسلطوي من باب الترف، علينا جعله يطالع كبديل، علينا العمل على إحلال ذلك الزمن الذي سيُطالع في النتاج السلطوي بدون اعتباره خيارًا وحيدًا لا تكمن عملية التخيير والاختيار إلا فيه.

- صحيح علينا تمهيد الطريق أمام حكم عادل في حق الطرح اللاسلطوي.

- أتعجب من أولئك الذين يعتقدون أن الوجود السلطوي العادل هو الوجود الذي يقدم أدنى حد من الظلم، وبأنه هو ذلك الكافل للحرية وهو الذي يضمن قيود ذات سلاسل أطول.

- للأسف يا صديقي كان وما زال الإنسان مُخيَّر في سوق العبودية باختيار قيده، لم يخرج بعد للتسوق من سوق الحرية. هو لم يُخيَّر بين السوقين لأنه مُضلل عن معرفة وجود سوق آخر غير ذلك المتاح له.

- إن الشعوب حقًا مُضلَّلة باقتناعها بالقيد، ومضللة أكثر باستشعار القيد حرية. يجب على الإنسان أن يدرك أن بوعيه فقط سيكون قادر على إيجاد خيارات أكثر في عملية التخيير تتحقق بها مطالبه بالحرية.

- الحرية لا يطلبها القنوع. نعم لا سبيل لنيل الحرية إلا بالتحلي بالطمع في طلبها.

- بالفعل. إن بحثي المستمر عن تبرير حتى لو كان وحيد لوجود الدولة جعلني دائمًا على يقين بعدم شرعيتها على الرغم من حصولي على حجج عديدة على لاشرعيتها. نعم الدليل العكسي لم يضعني في الشك بقدر ما وضعني بحثي المستمر غير المجدي في محاولة إيجاد ما يدلل على شرعية الدولة.

- أنني أتعجب يا صديقي من بعض من نتناقش معهم حول الطرح اللاسلطوي في اعتقادهم أننا نطلعهم على إحدى اطروحات مخيلتنا والحقيقة هي أننا نطلعهم على واقع سيعيشه الإنسان يومًا ما ليس ببعيد.

- لا بأس يا صديقي. لا بد أن يأتي زمن يقف فيه الإنسان ويقول بأعلى صوته مخاطبًا السلطة: "كيفما تمثلت لي أيتها السلطة اللعينة فإنني لن أطلبك، لن أجعلك رغبة لي، فليرغب بك من يرغب فلن أرغبك بكِ، فليطلبك من يطلب فلن أطلبكِ. مهما صورتي لي نفسي فلن أقتنع بقدرتي على احتوائك، لن تخدعينني بإقناعي بحيازة القدرة على الإصلاح بكِ، لأنك دائمًا وأبدًا ستملكين القدرة على إفسادي. لن أجعلك حلمي يا حلم المضللين والتائهين. قلبي الذي لكل موجود له نصيب من الحب الذي يفيض به، سيحتكر جميع ما يفيض به من البغض لكِ وحدكِ. لن تنالي من عقلي تبرير ولن تنالي من قدمي مسير. يا لاعنة محبيكِ، لن أقع في لعنتكِ. إن شئتِ اقصفيني بالشهب وأسقطي عليَّ السماء واطوي بي الأرض، ستبقي فاقدة سعيي إليكِ. لو كان باستطاعة قلبي أن يطلب مددًا بالكره من القلوب الدانية والقاصية لما كفاه الطلب، فكره قلبي وكافة قلوب البشر غير كافي وغير منصف لكِ بعدم كفايته. كم تمنيت أن يكون لي أكثر من القدرة على رفضكِ. أنا لا أريد قصاصًا منكِ بل أريد انتقامًا."

- كم هي عظيمة ثقتك بالإنسان يا صديقي.

- ليست بعد منصفة له. عند الحديث عن الطرح اللاسلطوي نتحدث عن طرح يقدم خدمة غير مشروطة للإنسان، خدمة لا تُقدَّم فيها التنازلات. إن حتمية التقدم ستجعل الخاسر الوحيد هو ذلك من وقف عائقًا أمام التحول اللاسلطوي. علينا جميعًا أن ندرك أن السلطة لم تقم نتيجة خطر قادرة على دفعه بل الخطر كان نتيجة السلطة. للأسف تم تضليلنا لأنه تاريخيًا تم ربط السلطة كنتيجة للخطر ولكن الحقيقة أن الخطر كان نتيجة السلطة. لقد استعنا للأسف بمصدر الخطر لدفعه. آن الأوان ليستعين البشر باللاسلطة لنفي الخطر الذي كان نتيجة السلطة. لقد كان يا صديقي استمرار البشر بدفع السلطة بالسلطة نتيجة عادة التصقت بفعلهم وطريقة تفكيرهم، ولهذا آن الأوان لكسر هذه العادة التي ما فتأت تفتك بالبشرية.

- نعم لم يكن للسلطة أي خدمة تصوغ وجودها، لكي يكون نفيها هو نتيجة لانتفاء الخدمة التي تقدمها. يجب على الشعوب أن تعي أنه ينتفي عن القوى المُوجَّهة الشرعية والخيريَّة إذا كانت منتجة وحائزة على سلطة ما.

- وليسهل عليهم إدراك ذلك عليهم إدراك أن اللاسلطوية هي غياب سلطة المبدأ والقاعدة لا غياب المبدأ والقاعدة، وبالتالي هي حرية وليست فوضى كما يدَّعي السلطويون. صحيح أن رفض الشعوب لسلطة ما كان دائمًا مستعينًا بسلطة أخرى، ولكن هذا لا يُعبِّر إلا عن شوق الشعوب للاسلطة.

- من العجيب والمثير للسخرية أن يتخذ المناهض سيده سيدًا جديدًا له ينتصر به على سيده الأول.

- إننا نفسد من نحب بإعطائه الحق بالسلطة ونفسد المُعتقد الذي ننتمي إليه ونقلل من جاذبيته بجعله تبريرًا للسلطة. السلطة تفسد شاغليها. حيازة السلطة تُشعر بالأفضلية والشعور بالأفضلية يدفع لارتكاب الجرائم بحق الذي أُستشعر دونيته. السلطة لعنة على شاغليها ولهذا الظلم ليس من شيم النفوس بل من شيم شاغلي السلطة.

- بالتأكيد، فالراغبون بالإصلاح بالسلطة يجدون صعوبة كبيرة بالاقتناع بضرورة إصلاح أنفسهم، ولهذا يستهدف الإصلاح فقط فيما عليه غيرهم. الوجود السلطوي يحرم الانسان من إمكانياته سواء كان حاكم أم محكوم. لو منح الإنسان فرصة للعيش في ظل مجتمع لاسلطوي لنال الحرية التي ستمكنه إذا ضاقت به الأرض من إطفاء بعض النجوم ليعيش على سطحها. نحن بحاجة يا صديقي إلى رفع منسوب الثقة بالإنسان لكي يحل السلام.

- ولهذا لا يمكن قراءة الطرح اللاسلطوي كمخططات للمجتمعات، فالتخطيط للمجتمعات هو تقييد للحرية والعمل.

- إن الإنسان بالسلطة يجد نفسه ملتزم بما يحيله إليه غضبه، ولكن بدونها سيجد أن الوقت الممنوح له سيحل هدوء يأتي بقرارات صائبة. إننا بالندم عند تنفيذ ما يحيلنا

إليه الغضب لوجود السلطة نعلم أن رغبتنا بالسلطة ليست فطرية، فشعورنا بالندم لمرة واحدة جرَّاء حيازة السلطة كفيل بإعلامنا لو كنا صادقين مع أنفسنا أننا غير مفطورين على الرغبة بالسلطة.

- بالتأكيد، إن ما يكون سببًا في إشعارك بالندم مرة لن يكون عادلًا حتى لو أشعرك بالرضى ألف مرة.

- إننا نخدع أنفسنا بإيجاد المبررات لحيازة السلطة، لأننا نخدع أنفسنا بالظن بأن العدالة بحاجة إلى من يُحلها ويُوجدها.

- إن القول بأن نتيجة السلطة هي نتيجة الممكن ونتيجة أقل الشرور، هو قول يتهم صاحبه الإنسان باستحقاقه لعذابه، وقول يدَّعي صاحبه وجود الشر فقط بدون وجود قطب آخر اسمه الخير.

- متى ندرك أن كل منا يحوز عقلًا يحكم به، متى ندرك أننا لسنا أفضل من غيرنا وغيرنا ليس أفضل منا، متى ندرك أن لا شرعية لحيازة السلطة، متى ندرك أن التنوع في صالحنا وأن الاختلاف في خدمتنا، متى نتوقف عن التكلم بصيغة الأمر، متى نتوقف عن عدم الاكتفاء بكوننا بشرًا؟

- لهذا يا صديقي لا أوان أنسب لصحوة لاسلطوية تعيد للفكر والحراك اللاسلطوي طابعهما غير المساوم من زماننا هذا. يجب أن يعود اللاسلطوي ليتمسك براديكاليته لتحقيق الانتصار للبشرية. يا صديقي ليس بإمكاننا أن نكون لاسلطويين بالقدر الكافي إلا في مجتمع لاسلطوي. اللاسلطة وحدها من تحل النظام.

- أحسنت، ولهذا نجد محاولة مستمرة من قِبل السلطويين لربط وتوحيد الدلالة لمفهومي السلطة والنظام لإلصاق تهمة الفوضى بالحراك اللاسلطوي.

- حتى محاولة توصيف السعي للثروة والمعرفة والشهرة وغيرها على أنه تطلع وسعي للسلطة هدفه تضليل اللاسلطوي وإكثار أعدائه لتشتيته.

- بالتأكيد، السلطة هي العدو الوحيد للاسلطوي وليس الثروة وغيرها كما يُروَّج.

- أتعجب من قول هوبز في الليفاثان "بما أن حق كل إنسان في كل شيء يكون باقيًا، نكون ما زلنا في حالة حرب"! كيف غفل هوبز عن أن رغبة الإنسان لا تتسع لكل شيء، وبهذا حق كل إنسان بكل شيء ليس موجود! كيف غفل عن أن حقوق كل إنسان لا يمكن أن تكون سبب في حالة الحرب! كيف غفل عن أن رغبات الكل عاجزة عن استنفاذ الكل!

- حتى لو افترضنا جدلًا أنَّ التطلع للكل موجود عند الجميع، فإن هذا التطلع لا يمكن أن يكون سبب للحرب، طالما كان هذا التطلع مكفولًا للجميع. إن حالة الحرب موجودة لوجود السلطة، التي حصرت التطلع "للكل" لقلة فقط.

- ولهذا كان النظر إلى التفاوت بين الناس كسبب في معاناتهم غير دقيق، وعليه يجب النظر للسلطة كسبب وحيد للبؤس الإنساني.

- أعتقد أنه ليس هناك حلول عادلة لتفاوت الناس في الثروات، ومحاولة إيجاد حلول ستكون لربما دائمًا غير عادلة. إن المشكلة لا تكمن في التفاوت في الثروة بل في امتلاك السلطة، فالوجود السلطوي وجود يُحتكر فيه الغنى للبعض والفقر للبعض الآخر.

- لا يوجد حق في السلطة، بل هناك سلطة في الحق، هذا ما يجب إدراكه.

- لقد وُضع الإنسان بحيازته للسلطة موضع الله في طلب واستحقاق فعل ما يريده للإنسان، وبالتالي توسع نطاق الظلم لهذا الإله الفاني.

- بالتأكيد، إن نطاق ظلم الفرد ضيق وبالسلطة وحدها يتم استبداله بنطاق واسع. بالسلطة يتسع نطاق ظلم الفرد الضيق.

- ولهذا لا يمكن القبول بالحد الأدنى من السلطة لأنه لا يمكن لمن بلغ الحد الأدنى منها إلا الطموح للحد الأقصى.

- ولهذا اللاسلطويون لا يتخذون إحدى زوايا اليسار لأصواتهم، لأن اليسار معارضة بهدف إصلاح الحكم لا استئصاله.

- أحسنت يا صديقي. اللاسلطويون لا يشكلون يسارًا. إن اعتقاد إمكانية إصلاح السلطة لا يحمله إلا السلطوي.

- اللاسلطوي إصلاحي بعد الثورة التي تُسقط السلطة وليس قبلها. اللاسلطوي إصلاحي براديكاليته التي لا تقبل المساومات ولا تقدم التنازلات.

- لا أحد من أقطاب الصراع على السلطة يمكن أن توصف أعماله بالخيرية والصواب.

- لقد كانت وما زالت التجارب البشرية تدلل على أن التناوب على السلطة من قبل الأكثرية أو الأقلية سواء بالعنف أو باللاعنف، يفشل في تقديم المتطلبات والطلبات الإنسانية على أنها مطالبات ومتطلبات جدية ومُلحة.

- إن الوجود الفدرالي والكونفدرالي وجود يدلل على أن السلطة كلما تناقصت وتناثرت وذابت كلما كانت النتيجة أفضل. إن عودة سلطة كل مجموعة على نفسها

إلى نفسها جعلنا عاجزين عن تصور عظم الفائدة التي ستقدمها عودة سلطة كل فرد على نفسه لنفسه.

- أحسنت. صحيح أننا ضد الوجود الفدرالي والكونفدرالي كلاسلطويين لأننا ضد الحدود، إلا أننا نعترف أن هذا الوجود دلل بشكل واضح على أن وجود السلطة في حيز ونطاق أضيق يعني القيام بخطوة باتجاه السلام والحرية، ونحن لا نجد حيز لها أضيق من حيز ونطاق الفرد.

- ولهذا لا يشكل الوجود الفدرالي والكونفدرالي الخطوة الأخيرة للمحطة الأخيرة في طريقنا إلى الحرية، بل هي إحدى المحطات التي ستليها محطات كثيرة حتى تختنق السلطة في أضيق حيز لها وهنا أقصد حيز الفرد كما أشرت.

- إن المُستبصر يُدرك أن هذه الخطوة لا يمكن أن تكون الأخيرة، لأن حكومة الحد الأدنى تقود إلى حكومة الحد الأقصى.

- وأيضًا ما زالت الدراسات والتجارب تثبت بأن الأسرة أفرادها أكثر إبداعًا وأخلاقية بدون إلزام بالخضوع واقع على أعضائها من قبل الوالدين، وطالما أن هذه النتيجة مع الأسرة، فالنتيجة ذاتها ستكون مع المجتمع اللاسلطوي.

- إن التعليم اللاسلطوي يعالج الانحراف الناجم عن تلقي التعاليم السلطوية الفاسدة. إن اللاسلطوية تقدم الوسائل الأنجع في هدم التسلسلات الهرمية والجندرية والعرقية. لا يمكن أن تكون طبيعة البشر متناقضة فيما بينهم، أقصد لا يمكن أن يكون بعضهم مفطور على الحكم والآخر مفطور على الخضوع.

- بالتأكيد فالطرح اللاسلطوي يحمي الشعوب من أية عملية استقطاب سواء كانت دينية أو سياسية أو غيرها ويحميهم من أي عملية تهدف لتحصيل الدعم الذي يكفل للمستقطِب حيازة السلطة.

- لا يمكن أن تنال الحكومات بمختلف أشكالها بأي حال من الأحوال انتصار يضمن لها استقرار دائم لدرجة معينة من خضوع الشعوب لها، لأنها لا يمكن أن تضمن بتاتًا درجة معينة من وعي الشعوب بحاجتهم لحريتهم، هذا أولاً، وثانيًا لأنها لا يمكن أن تنال انتصار يُحصِّل شرعيَّة لسلطتها وبالتالي عدم الشرعية يُسقط خيار عدم المقاومة، وثالثًا لأنها لا يمكن أن تثبت ضرورة لوجودها ولو ظرفيًا، ورابعًا للتجديد والتنوع والإضافة الذي يُدخلها استمرار الكفاح والعمل الثوري للوسيلة الثورية، وخامسًا لأنها ليست دائمًا قادرة على إيجاد فرص ووسائل للتغطية على عنفها واستبدادها وقمعها، وسادسًا لحتمية ظهور الحقيقة وزوال الزيف.

- إن الحجة التي تقول أنَّ الحكومات تنزع الحرية من الشعوب عندما يميل أفرادها للظلم والشر، وتتركها لهم عندما يميل أفرادها للخير، حجة تدين الحكومات أكثر مما

تساندها، فبهذه الحجة يعترف السلطويون أن الحكومات تقوم بتشكيل ما هو شر وما هو خير لشعوبها حسب توجهات من بيده مقاليد الحكم.

- ولهذا نقول بأن الدولة لا تهدف للقضاء على الشر بل للإبقاء على شرها، ولا تسعى لإحلال الخير بل لإحلال خيرها فقط.

- بالضبط. إن الأسلوب الانتقائي للدولة في تحديدها لم هو خير وما هو شر، جعل كثير من الخير ليس متاح له الوجود، وإن التغيير المستمر للبنود والقوانين الدستورية بالإحلال والإزالة لهو دليل على نسبية الخير والشر للدولة.

- ولهذا لا نرى أحد من السلطويين معجب بالصراحة المرعبة لميكافيلي في توصيفه للدولة على أنها تقوم على أن القوة تصنع حقًا.

- الدولة كيان سيبقى في طور التوحش مهما مر عليه من الزمن. وهنا لا أختزل مفهوم التوحش كدلالة تاريخية بل أضيف عليه الدلالة السلوكية.

- أحسنت. إن التنظيم الذي تتبناه الدولة هو تنظيم أساسه الاستعداد للحرب، ولهذا هي الفوضى بأقصى درجاتها. هي الكيان الذي يرعى حرب الجميع ضد الجميع.

- الدولة ترعى وجود الحرب لأن الحرب هي السبيل الأسرع لإحياء الروح الوطنية التي تسهم في الإبقاء عليها. حتى الحضارات لا تكون في صراع إلا في نطاق الدولة. إن الدولة تكفل وجود العدو لتكفل استمرارها.

- الأفراد في خصومتهم مع بعضهم يبقوا بشرًا ولكن الدول في خصوماتهم مع بعضهم البعض يكونوا وحوشًا.

- الدولة تقوم بوضع الحدود للرابطة الإنسانية بين البشر، تقوم باحتكار حبهم وتعاطفهم ورغبتهم بالمساعدة وتضامنهم وتماسكهم لمن هم في نطاقها، لشعب واحد ولمجتمع واحد. إن تمسك الشعوب بالروح الوطنية والقومية هو انغلاق على الآخر ورفض للتنوع وبالتالي تقبل للقيد.

- إن وجود الدولة يمنع من مضاعفة الملكات العقلية المتاحة لخدمة البشر. إن الذين أدركوا حقيقة الدولة لن تتسع لهم دولهم مهما عظم امتداد حدودها.

- إن الدول تحول دون أن يكون التطور لامركزيًا، ومركزية التطور تحول دون أن يكون للأطراف نصيب منه، وبالتالي مركزية التطور توجد حالة من الصراع بين شاغل المركز والطامح بالمركز. إن الدولة توجد صراع مركزي.

- لقد غُيِّبت الشعوب عن مقارنة أحوالها في ظل الدولة وأحوالها في ظل اللادولة لكي تنشغل بمقارنة أحوالها في ظل الدولة فقط، لكي تنشغل بالمفاضلة بين أشكال الحكم.

- حقًا لقد تم إشغالها لقرون بمقارنة لا عائد ولا صواب من الاختيار والانحياز فيها. ينبغي على الشعوب أن تدرك أن كل محاولة لإيجاد الحرية في نطاق الدولة لا ينبغي أن يُنسيها حتمية الفشل لكيلا تقع في فخ الاستكفاء بالمكتسب.

- دقيق الملاحظة سيجد أنه كلما علا صوت الحركة اللاسلطوية وكثُر المستمعون لها، كلما تعاظمت حدة التنافس بين الأحزاب الحاكمة والتي تسعى للسلطة.

- ولهذا يا صديقي على الجماهير انتقاء خيار عدم المشاركة في هكذا مهازل تاريخية تستهدف عماهم للحقيقة، عن طريق عدم المشاركة في الانتخاب ومقاطعة الحملات الانتخابية. الجماهير للأسف غالبًا ما تكون مخمورة لا من الانتصار بل من شعورها بالانتصار في ظل الهزيمة.

- صحيح، ولكن هذه الأحزاب لن تجعل المهمة سهلة على الجماهير، باستعانتها بأخبث الوسائل تارة بترشيح أشخاص مثيرين للجدل وتارة أشخاص من الوسط الفني أو الرياضي، وتارة ببث نظريات المؤامرة وتارة بتقديم مقترحات تدَّعي الحفاظ على السيادة.

- إن مسيرة الكفاح اللاسلطوي تعوّل دائمًا على وعي الجماهير، ولهذا موعد الثورة والحراك اللاسلطوي يحدده وعي الجماهير. وهذا أكَّد عليه تولستوي في "ملكوت الله في داخلكم" بقوله: "يستحيل وضع الإنسان رغمًا عنه في موقع يتعارض مع وعيه"

- يجب أن ترتقي الجماهير والشعوب بوعيها إلى مستوى المسؤولية التاريخية التي تقع على عاتقها، والتي حمَّلتها إيَّاها تضحيات التحركات الثورية السابقة والحاضرة ومستقبل الأجيال اللاحقة.

- يجب أن تدرك الجماهير أن العملية الانتخابية تهدف لتفريغ الغضب الجماهيري للتغاضي عن رغبة الشعوب في إحلال التغيير.

- إن وجود الأحزاب اليمنية مرتهن بوجود الأحزاب اليسارية والعكس صحيح، فكلاهما يعملان على زيادة شوق الجماهير إلى مقترحات الآخر، وهذا بدافع إشغال الجماهير عن إدراك حقيقة عدم جدوى السلطة والأحزاب المتطلعة لها.

- أحسنت، فكل تصعيد حاد بين الأحزاب المتنافسة غالبًا لا يكون هدفه البحث عن الفوز بقدر ما يكون هدفه زيادة إيمان الجماهير بالعملية الانتخابية، فبهذا وحده تضمن الأحزاب تداول السلطة بينها.

- لقد عوَّلت الجماهير والشعوب طويلًا على حدة التنافس بين الأحزاب المتطلعة للسلطة في جلب تغيير، ولكن بدون نتيجة، ولهذا آن الأوان لها أن تعوِّل على الحراك اللاسلطوي.

- علينا أن ندرك أن جميع أنظمة الحكم التي قدمت امتيازات لقلة أو أغلبية أو فرد، لن تكون قادرة على تقديم امتيازات للجميع، ولهذا المطالبة بالمساواة في ظل وجود الدولة مطالبة بالمستحيل تسعى الدولة إلى إلهاء وإشغال الناس به.

- احتجاج اللاسلطوي لا يكون بالعملية الانتخابية، فاللاسلطوي لا ينتظر أربع سنوات للتغيير بل يسعى بشكل مستمر للتغيير الفوري.

- أحسنت، فثورة اللاسلطوي لا تطرد ملوكًا فقط بل تطرد عروشًا، ولا تنفي حاكمًا فقط بل تنفي منصبًا.

- ستحاول كل دولة شخصنة الكفاح اللاسلطوي ضدها، لكي توجد دعاية ترويجية للمشاركة القمعية.

- بالتأكيد، فالشخصنة محاولة لإضفاء الطابع الشرعي لمعادة الكفاح اللاسلطوي، الذي سيتم ربطه بلى أدنى شك بالنظريات التآمرية التي ستحاول حرف التصور الجماهيري للكفاح اللاسلطوي بتصويره على أنه كفاح دولة ضد دولة، لتغطية حقيقته التي هي كفاح إنساني ضد جميع الدول.

- وبمناسبة تطرقنا على نظريات المؤامرة علينا توضيح أننا نجد أن هناك عوائد متحصلة من قبل أشخاص وجمعيات وتكتلات فقط لوجودهم بأدوار ثانوية أو رئيسية فيها. إن لنظريات المؤامرة دور رئيسي في نقل الغير موجود إلى الوجود، وإنها موجدة لتكتلات وشخصيات يتحصلون على عوائد ضخمة من عدم تقديمهم لسلعة أو خدمة.

- فكما أشار هوبز، إن سمعة القوة هي قوة.

- بالضبط، وأيضًا ادعاء كل دولة بتآمر وتخطيط دول منافسة لغزوها وتدميرها أو إضعافها، هو في الحقيقة تبادل للمنفعة بينهم، فالعداء بين الدول يعمل على تبرير وسائل العنف الداخلي فيها. ولهذا نظريات المؤامرة دائمًا ما تهدف لتعزيز الشعور القومي والوطني.

- وأيضًا لها قدرة على التلاعب بنفسية المنهزم لاستمرار حالته عن طريق توفير التبرير الذي يجعله لا يبدل الجهد، وعن طريق جعله راضيًا بسعيه الغير متناسب مع قدراته. لنظريات المؤامرة وظائف عديدة ولهذا على الشعوب الحرص على ضمان ألا يكون لها أدوار في إحداها.

- بالعودة إلى موضوعنا. لقد هدد هوبز الثائر باللادولة بعد توصيفه المرعب لها، للإبقاء على الدولة، وبالتالي نفى الشرعية عن الحراك الثوري، بينما شرَّع لوك للثائر ثورته وشجعه عليها ولكن اختار الحكومة كضحية دائمة للثورة، توجدها الثورة وتستبدلها، لتحقيق الهدف الذي اشترك فيه مع هوبز وهو الإبقاء على الدولة.

- وبالتالي يا صديقي كان لوك أكثر عداء للثورة من هوبز، لأنه جعل الثورة تقضي على نفسها كلما عادت لإحياء نفسها، وهوبز أقل عداء من لوك لأنه نزع شرعيتها بدون أن يجعلها وسيلة للإبقاء على الدولة.

- بالضبط. لقد نزع لوك من الشعوب القدرة على إدراك عدم صوابية التوصيف المرعب للادولة، وبالتالي نزع من الناس فرصتهم لإدراك البؤس الذي يطالهم في ظل وجود الدولة، لكي يحل بديلًا وهو إدراك للبؤس في ظل وجود حكومة ما.

- وبهذا ضمن تفريغ الناس لطاقاتهم الثورية. لقد استثمر لوك جهوده في تعميق شعور الثائر بالانتصار ليبقي على خسارته.

- ولهذا كانت قراءة هوبز توضح للثائر مسار ثورته وهدفها وهو اللادولة، أما قراءة لوك تخدع الثائر برسم مسار لثورته غير مجدي وهو تغيير الحكومة.

- لقد حمَّل هوبز الشعوب مسؤولية ظلم الحاكم وبالتالي لا شرعية لثورتهم، لأنها ستكون ثورة على نفوسهم، بينما جرَّد لوك الدولة والمواطنين من مسؤولية الظلم وحمَّله للحكومات، لكي يُشرع ثورة عاجزة عن إسقاط الدولة أو حتى مجرد تهديدها.

- هنا يحق لنا توجيه سؤال لمناصري لوك "ماذا لو استمر الظلم الواقع على الشعوب وهذا ما نشهده، أنستمر في تحميل الحكومات المسؤولية عليه وبالتالي الثورة ضدها أم نجعل من اللادولة هدف للثورة؟"

- لقد كان عدم تشريع هوبز للثورة خير من تشريع لوك لها، فالأول جرَّد الثورة من الاستغلال، ولكن تشريع لوك حدد مسار وحيد لها وبالتالي جعلها أداة لخدمة مصالح طبقة أو فرد أو أقلية أو أكثرية.

- لقد رفض لوك حرية الثورة في اتخاذ مساراتها وأهدافها بتحديده المجحف لهدفها ومسارها.

- لقد آن الأوان ليتساءل الإنسان ويتعجب من كيف لعظيم مقدار أمله بالسلام أن يفشل في جعل اجتهاده في سبيل تحقيقه مثمرًا.

- ينبغي على الناس معرفة أن الثورة الشعبية إذا عجزت عن الارتكاز إلى ثورة فكرية، نجحت الثورة المضادة في إعادة الحالة التي قامت من أجل دفعها الثورة.

- بالتأكيد، فالحراك الثوري الغير مرتكز على ثورة فكرية، دافعه نفي حالة حاضرة، أما الحراك الثوري المرتكز على ثورة فكرية دافعه نفي حالة حاضرة وماضية والتأسيس لمرحلة جديدة. الحراك الغير مرتكز على ثورة فكرية يبدد حالة حاضرة سرعان مايقوم الموروث ببعثها من جديد، فهذا الحراك هو مصدر الثورات المضادة.

- السلطة ترمم نفسها بالحراك الثوري السلطوي، ولهذا يقول كروبوتكن في كتابه "الاستيلاء على الخبز" "الفكر الجريء أولًا والعمل الجريء لن يفشل في اتباعه"

- بالضبط، فكل ثورة سلطوية تعيق الحافز الثوري لدي الجماهير وتعطل رغباتهم في الاستماع إلى كل فكر ثوري نتيجة اليأس الذي تبثُّه هكذا ثورات في نفوس الجماهير.

- بالتأكيد، فالثورة التي لا تحل تغييرًا أو تحل تغييرًا سلبيًا تتسبب في انحسار المد الثوري.

- بالإضافة إلى هذا، الثورة التي تهدف إلى إصلاح سلطوي هي ثورة يطغى عليها الطابع الانتقامي الهادم، أما الثورة التي تهدف إلى إسقاط المنصب وشاغله بدون استبدال فيطغى عليها الطابع البنائي.

- المقاومة باليأس والتشاؤم الانتحاري، أو بالأمل والتفاؤل الانتحاري لا يخدم الثورة، فكل عنف لا يحل ولا يُولِّد إلا عنف. الثورة الناجحة من يتجنب ثوارها التصدي لخصومهم بنفس الأدوات والوسائل التي ترجح كفة خصومهم عليهم.

- بالتأكيد، فالعنف الثوري يولِّد ثورة مضادة بها يؤسف على ضياع ما كانت تستهدفه الثورة الأولى بالهجوم وتطالب بنفيه.

- العنف هو دور يلعبه دائمًا من يطمح للسلطة والمتقاعس عن الإصلاح. متى ندرك أن العنف لا ينفي عنف؟

- كل لاسلطوي يعتقد أن العنف أداة لتحقيق أهداف لاسلطوية، هو بهذا الاعتقاد تخلى عن أهم المبادئ اللاسلطوية. العنف هو خيار سلطوي وتبريره هو تبرير للسلطة. استخدام الوسيلة التي تتفوق فيها الدولة في حربها لهو غباء وخدمة للدولة. وسيلة الدفاع الوحيدة هي السلام فلا دفاع بالحرب، فاختيار الحرب هو اختيار لاستمرارها واختيار السلام هو اختيار لحلوله واستمراره.

- أحسنت يا صديقي. مطالب الثورة اللاسلطوية تصبح بعيدة المنال بدون ثوار أناركيين.

- صدقت. إن السلام هو سلاح تتفوق فيه الشعوب على دولها، أما العنف هو سلاح تتفوق الدول به على شعوبها.

- قديمًا كانت ردود فعل للاسلطويين على القوة القمعية التي جوبهوا بها، طبعًا بمساعدة الألة الإعلامية السلطوية هي من تسببت بالغباشة وساعدت في رسم التصور القبيح للفكر والحراك الثوري اللاسلطوي. لقد كانت ردود الفعل هذه للأسف أكثر تمييزًا وتعريفًا للاسلطوي مما يحمله من حب للحرية والسلام والعدالة.

- لربما يكون الثوار الذين لجأوا للعنف كوسيلة وكسلاح أكثر حماسًا منا ولربما صدقًا، ولكن ينبغي علينا أن ندرك أن الحماس والصدق ليسا كافيان لخدمة الثورة والهدف الإنساني، فالثورة يلزمها أن يتسلح ثوارها بالثقافة والوعي. إن اليأس أحيانًا يا صديقي يكون أسلم للهدف من الحماس والتمسك بالأمل.

- أحسنت. وقوعنا بأخطاء أمر حتمي، ولهذا ينبغي علينا السعي بتحركاتنا الثورية إلى إضافة أخطاء جديدة إلى أرشيف أخطاء التحركات الثورية، تخدم الكفاح الثوري.

- لقد اكتسبنا من خبرة عدم النجاح التي قدَّمها لنا السابقون دروسًا قيّمة ينبغي علينا الإفادة منها. الانسحاب من الثورة لخطأ تم ارتكابه قرار خاطئ.

- نعم فعدم قدرتنا على تحمُّل تبعات مرحلة انتقالية يُسهِّل اختطاف الهدف الذي بذلت من أجله الكثير من التضحيات من قبل أعداء أهداف هذه المرحلة.

- إننا في الدولة نُأمر بحمل السلاح وقتال من لو التقينا بهم على طاولة في أحد المقاهي لشربنا معهم القهوة وشاركناهم تناول فطيرة لذيذة وناقشنا معهم ما نطالعه وتبادلنا معهم النكات والرقصات وتدافعنا معهم للمسارعة في دفع حساب مشروبات ومأكولات الطاولة التي جمعتنا كرمًا. بالدولة نُأمر بقتل إنسانيتنا، إننا بالدولة دائمًا نشعر بالاستهداف وبأننا مظلومون.

- دائمًا ما نغفل عن إدراك أن آلة الحرب في جميع الظروف متى وجدت، وجدت في أيدي جميع الأطراف والأقطاب المتناحرة، فالسلاح إن وجد امتلكه من يقوم بالخير والشر. الإنسان يغفل يا صديقي عن أن تسليح الخير هو تسليح للشر في ذات اللحظة، الإنسان يغفل عن أن الشر عاجز عن تسليح نفسه. الإنسان يا صديقي بحاجة للاستغناء عن الاستمرار بتحوطه، الإنسان بحاجة إلى إدراك أن الصلاح سيشق طريقه إلى أكثر القلوب تيهًا.

- مغالاتنا في تكتيكاتنا الدفاعية هو تحويلها الى تكتيكات هجومية، نكون نحن فيها الطرف المعتدي وخصمنا الطرف المعتدى عليه.

- لم يعودوا يضعوا لنا دوائر لنصوب نحوها، فها هو يتم تدريبنا على التصويب على مجسمات تحاكي جسد الإنسان، لقد أصبحوا يعلموننا بكل وقاحة كيف نقتل الإنسان، كيف نقتل من ننتمي إليه.

- إن تنامي أعداد السكان في العالم في نطاق اللادولة هو إحدى الدوافع التي ستحيل البشر إلى مزيد من التعاون ونفي التصادم، فكلما زاد الإنسان قربًا ازداد تعاونًا وترابطًا وتضامنًا، أما تنامي أعداد السكان في نطاق الدولة، يوجد الصراع، فالدولة تعيق أن يكون التقارب ترابطًا وتعيق أن تكون الزيادة اختلاطاً وتعيق أن يكون التملك تشاركًا، نعم يا سادة هكذا تكون المواطنة ههhe. إن المواطن لدولة ما لا يعترف بمواطن الدولة الأخرى إلا كعدو وأحيانًا كإنسان أدنى منه مرتبة.

- تطور وسائل النقل وزيادة معدلات السياحة ساهم في زيادة تقبل المواطن لغير المواطن، فلم يعد الغريب يشكل رعبًا وتهديدًا. ولكن وجود الدولة يقف حائلًا أمام تعاظم تراجع عامل الخوف في الرفض. إن في نطاق الدولة المواطن يشعر بتهديد غير المواطن وخطره على حصته من خيرات دولته، وعليه فالدولة تنفي الترابط الإنساني الذي يُشكِّل إن انتشر وسيلة لنفي الحروب وبالتالي خطر على وجود الدولة.

- في النهاية، سيجد البعض تبريرًا لعدم الوجود اللاسلطوي، وتبرير لدعاة السلطوية الذين وقفوا بجانب حقوق الناس وسلمهم بالرغم من دعوتهم لتعزيز السلطة، مفاده أن النظام اللاسلطوي وجوده محكوم بخطوات وتجارب سلطوية فشلها محتوم، واستنفاذ القيام بهذه الخطوات ومراكمة هذه التجارب ذات الفشل الحتمي أمرًا مُحتمًا نحو التغيير الذي سيحمل معه حلول النظام اللاسلطوي. فوجود النظام اللاسلطوي لدى البعض هو نتيجة تطور حاصل في الوعي البشري نتيجة معرفة بشرور كافة أشكال السلطة وتحوراتها وشاغليها لا نتيجة لإدراك ما يطرحه الوجود اللاسلطوي للبشرية من خير.

- سواء كنا مع هؤلاء أم لم نكن، فإننا جميعًا نُقر بأن البشرية إذا كانت تخطو نحو النظام اللاسلطوي أم لا، فهي لفترة طويلة لم تقم بخطوة بهذا الاتجاه، وإنه آن الأوان للقيام بذلك.

***

بعد نقاش طويل وتدوين لما استنتجاه بأسلوب بسيط خالي من أي تعقيد، يلائم القارئ المتخصص وغير المتخصص، نهضا وخرجا للجلوس في المتنزه على مقعدهم المفضل، بعدما تناولا من أحد المحال التجارية ما يأكلانه.

كان الليل قد حل بهدوئه وسكونه وبأجوائه اللطيفة، والطيور قد اتخذت من الأشجار بيوتًا، وأعلنت النجوم عن نفسها في السماء منتصرة، وتفاخر القمر بنوره.

كان عمر آن ذلك متعجب من قدرة مارك الكبيرة على التحليل ومجاراته في الاستنتاج، متعجب من قدر التفاهم والتوافق بينهما فكان يُحدِّث نفسه متعجبًا في لحظات جلستهم الصامتة، قائلًا: "كيف يمكن لهذا العالم الذي يحوز مني كل هذا

القدر من الاعتراض والرفض، أن يتواجد فيه إنسان يمكن التوافق معه والقبول منه كل هذا القدر!".

وبعد ساعة تأمل مُنحا فيها السكون والهدوء، عاد كل منهما لمكان إقامته للتحضير لموضوع النقاش التالي.

(2)

في صباح يوم الأحد نهض عمر عن مكتبه بعدما أمضى الليل كله في إعداد ورقة يستعين بها في النقاش بعدما سمع قرع ميار للجرس، فلقد كانت لا تستخدم نسخة المفتاح التي بحوزتها إلا في حال طال قرعها للجرس بدون استجابة نتيجة انغماسه في البحث.

قالت وقد تفاجأت من فتحه الباب بسرعة:

- يبدو أنك فرغت من البحث للتو، فلم تنل قسط من النوم.

- نعم، فموضوع نقاشنا اليوم يتطلب إحاطة واسعة.

- ما هو؟

- سنناقش طرح فلاسفة العقد كجزئية العقد الاجتماعي والحالة الطبيعة وغيرها من الجزئيات.

- مطالعة نتاجهم والرد عليهم خطوة حسنة منكما.

- مهمة صعبة، ولكننا نحاول.

- كيف كان نقاش الأمس؟

- كانت الاستنتاجات رائعة. لقد أمدني مارك بتحليلات واستنتاجات رائعة، ولقد وسَّع مداركي فأصبحت قادرًا على رؤية أعمق وأوضح.

- وأنا متأكدة أنك فعلت كذلك معه. ماذا ناقشتم؟

قال بعدما قدم لها كوب من القهوة:

- ناقشنا أثر اللاسلطة بشكل عام على حياة الناس وأثر وجود الدولة، وحاولنا الكشف عن الصورة الحقيقية للاسلطوي سواء في حراكه أو أفكاره.

- وهل دونتم تحليلاتكم واستنتاجاتكم؟

- نعم

تناول نسخة من حقيبته وأعطاها إياها للاطلاع وتقديم الملاحظات عليها لاحقًا، وفي تلك الأثناء وصلت الخادمة، فأخذا بتبادل الحديث معها حول دراستها الجامعية لدقائق تأدبًا واحترامًا، ثم سلمّاها الشقة وخرجا متوجهين إلى المقهى.

استقبلهما مارك وكان قد وصل قبلهم بدقائق، ثم قال بعدما تصافحوا وجلسوا:

- المقهى ممتلئ اليوم.

ثم أردف بعد لحظات صامتة لدفعهم للكلام:

- نسمات الهواء اليوم أكثر دفئًا.

فرد عمر:

- لقد اقتربنا من الصيف يا صديقي. لقد اقتربنا من فصل الإنارة الساطعة والحركة الكثيرة.

- لهذا لا تفضله.

- الحيوية التي فيه مستفزة.

- ما رأيكِ يا ميار؟

- تفضيلاتنا لها أبعاد نفسيَّة يا صديقي. فهناك من يستشعر فصل الشتاء مثلًا فصل كآبة، وهناك من يستشعره فصل رومانسية، وهناك من يستشعره فصل حياة، وهناك من يستشعره فصل خمول.

- الاطلاع على التفضيلات إحدى وسائلكم للتعرف على مرضاكم.

- صحيح

- لماذا لا تقدمي لنا درسًا مجانيًا بتحليل الشخصية.

التفتت للخلف، وأخذت تبحث عن شخصية لتحليلها، ثم قالت:

- حسنا سأشير إلى أحدهم ولكن أريد من نظراتكم أن تكون غير مزعجة له، لكيلا يعتقد أننا نرفضه.

- حسنًا.

- انظرا إلى الطاولة الصفراء، إلى ذلك الذي يرتدي بدلة رسمية.

فنظرا بحذر وبانفراد ثم أردفت:

- لو افترضنا، أنه لا يحمل شعورًا بأنه يقع على عاتق كل فرد مسؤولية تبني اختلاف كما تحمله يا عمر، ولو افترضنا أنه لا يريد أن يُفاجئ حبيبته بخاتم، ماذا تستنتجان من ارتدائه بدلة رسمية في صباح يوم أحد.

أجاب مارك:

- لربما هي تشعره بالأمان.

- إذًا هناك ما يُخيفه، فما هو باعتقادك؟

- لربما هي نظرات الناس إليه وأحكامهم وآراؤهم فيه.

- أحسنت، إذًا هو شاعر بأنه محاصر، ما أسباب ذلك الشعور باعتقادك؟

- لربما بسبب إحساسه بأهمية له تلتقط وتحتكر نظرات الناس إليه، ولربما هو ماضي يلاحقه نال فيه تعليقات سلبية على ذوقه، ولربما هو ماضي كانت ظروفه فيه قاسية، فعانى فيه من الحرمان ولذلك هو راغب بالتعويض ولربما بالانتقام.

- أحسنت، إذًا نستنتج من هذا أن هناك محاولات إثبات للآخر. إن كثير من الناس تحاول أن تستمد ثقتها بنفسها من زعزعة ثقة الآخر والعمل على إهانته، أو من خلال انتزاع اعتراف من الآخر بالتساوي أو الدونية، وذلك بواسطة طريقة ظهور معينة سواء كان ذلك في التحدث أو السير أو الوقوف أو الجلوس أو المأكل أو الملبس إلخ. إن الاعتراف الداخلي لهؤلاء لا يكفيهم ولهذا هم يطالبون باستمرار باعتراف من الخارج، ومثل هؤلاء هم بحاجة إلى علاج يُمكِّنهم من الاكتفاء ليُمكِّنهم من العيش بحرية واستقلال. هناك حالات مختلفة، فهناك أناس حججهم الداخلية للاستعلاء والتكبر لا تفلح في إقناعهم بالقيام بذلك، ولهذا تخدعهم أنفسهم بإقناعهم بتقديمها للآخر عن طريق خداعهم أنهم أكثر ذكاء من الآخر الذي ستكون الحجج مقنعة له لمحدودية ذكائه. إن النفس البشرية مُعقدة، وأمراضها لا حصر لها ويصعب تشخيصها بدقة ولهذا نادرًا ما تجد توافق بين أطباء النفس في تشخيص الأمراض، وأيضًا لهذا تكون العلاجات الموصوفة والمقترحة في الغالب لا جدوى منها، بل أحيانًا تكون نتائجها عكسية.

- هذا اعتراف يشعرنا بالخوف منكِ.

فانفجروا بالضحك.

قال عمر معجبًا ومندهشًا من روعة اسلوبها وقدرتها على التحليل:

- حقًا إنك لعبقرية.

- أفضل الاتصاف بالاجتهاد.

- هل تسمحين بأن أُطبق ما تعلمته منكِ للتو في اكتشاف سبب ذلك؟

- بالتأكيد، تفضل.

- باعتقادي أن السبب يكمُن في أن الاتصاف بالعبقرية يضعكِ من ضمن القلة والاتصاف بالاجتهاد يضعكِ من ضمن الأغلبية، ولربما لأنه درج على من يتصف بالعبقرية أن يتصف بالتفوق، وهذا الشعور لطالما قاومتيه فيكِ وفي الآخر.

- اليوم اكتشفت أنني معلمة جيدة.

فتعالت ضحكاتهم.

ثم قال عمر بنبرة جادة:

- هل هناك تفسير لربط الألم باللذة عند البعض؟

- هناك سبب لسؤالك هذا متعلق بأبحاثك، أنا متأكدة.

- صحيح، فكثير من أصحاب هذا الربط يخضعون لعقوبات بل إنني أفضل تسميتها جرائم، باعتقادي لو تم منح تفسير لهذا الربط سيُوجد التعاطف وستنتفي المطالبة بالعقاب بل بالجريمة أقصد.

- هناك كثير من الأحاسيس والعواطف يتم توجيهها عقليًا في ظروف خاصة توجيهًا خاطئًا بشكل متعمد بهدف الحفاظ على حياة صاحبها، ومن هذه التوجيهات الخاطئة توجيه بعض من الأحاسيس المؤلمة في نواقل ومسارات الأحاسيس اللذيذة وذلك لتخفيف حدتها ووقعها على صاحبها، فاستشعار البعض باللذة عند التعرض للألم ما هو إلا نتيجة سلوك الأحاسيس المؤلمة نواقل ومسارات الأحاسيس اللذيذة. إن للعقل استقلالية قد تخضع للظروف المحيطة، لا لشيء إلا للإبقاء على حياة صاحبه. تنازلات العقل هي تنازلات تهدف لحماية الإنسان من تقديم التنازل الأعظم هنا أقصد التنازل عن الوجود. إن السلوكيات الشاذة التي تصنف كخاطئة والتي فقدت تصنيفها هذا نتيجة العقوبة الهمجية على أصحابها تضامنًا معهم، هي نتيجة ظروف لازمت أصحابها كان لا بد لهم للاستمرار في الحياة الاعتياد على آلامها، ولأن لا اعتياد على الألم تكون النتيجة أن العقل يُقدِم على إعادة تصنيف كثير من الأحاسيس المؤلمة على أنها أحاسيس لذيذة، أو على الأقل أحاسيس تقود إلى اللذة بالرغم من ضررها. هذا هو تفسيري الشخصي.

- جميل جدًا. هذا يثبت أن التوجيهات العقلية للأحاسيس والعواطف سليمة ما لم تخضع لظروف تقودها لحرف التوجيهات. أي أن التعلق بالحياة في ظل ظروف قاسية هو نتيجة التنازلات التي يقدمها العقل عن تصنيفات معينة، ولهذا هذه التنازلات هي وسيلة العقل لضمان عدم تخليه عن القيام بأهم وظائفه وهي الحفاظ على الحياة.

- بالضبط. إنَّ تهييج النفس لعواطف والجسد لأحاسيس لا تجد سبيلها إلى الظهور في أفعال ونشاطات يُسهم في تشكيل خطر كبير يؤدي إلى انحرافات سلوكية أو تحفيز رغبات انتحارية.

قال مارك متعجبًا:

- هذه القراءة الرائعة تقود لاستنتاجات مُذهلة لا بد لنا يا عمر من الاستفادة منها غدًا في نقدنا لشرعية سلطة القانون. تحليلاتكِ العميقة يا صديقتي لا بد لنا من البناء عليها.

قال عمر محاولًا استئناف التحليل:

- في حال قرأتَ من هو أمامك بشكل صحيح وحللت دوافع أفعاله وارتداداتها على نفسيته ومزاجه، فإنك غالبًا لن تعاتبه على تصرف صدر عنه قمت بتصنيفه كخطأ أو وقاحة أو قلة ذوق أو كضرر، لأن معرفة المنطلقات تعدِّل من تصنيف كثير من الأفعال، أي أنها تمنح للفرد قراءة موضوعية بعيدة عن كل قياس ذاتي ضيق...

قال مارك مقاطعًا:

- أعتقد أنك لا تقصد تصنيفها كخطأ وصواب، فهذا التصنيف يبلغ من الثبات ما لا يمكن التأثير عليه.

- صحيح، هنا أقصد تصنيفها كأخطاء غير متوفرة دوافعها وظروفها القاسية، وكأخطاء نعمل على شخصنتها سواء كان ذلك من منطلقات دينية أو عرقية أو مكانية.

قالت ميار:

- وبالنتيجة، التعرُّف على منطلقات ودوافع الآخر للفعل يُكسب الفرد القدرة على طرد شعوره بتحقير الآخر له أو لأي من انتماءاته الدينية أو العرقية أو غيرها.

- وبذلك ردود الأفعال الغير لائقة بنا كبشر تنتفي.

- أحسنت، وأيضًا تحديد الكثير لمفاهيم مثل الكرامة والعزة والشجاعة والقوة والسيادة وغيرها من المفاهيم، في أحيان كثيرة ما يكون خاطئ، ولهذا أخطاء أصحاب هذه التحديدات لمثل هذه المفاهيم هي في الأصل غير مُتعمدَّة، ولهذا لا ينبغي أن تبرر الاندفاعية في الرد عليها، لأن هذه الاندفاعية هي تبعية للآخر في تحديده الخاطئ للمفهوم. إن أخطاء أصحاب التحديد الغير صحيح، هي أخطاء تظلم أصحابها أكثر مما تظلم الآخر، ولهذا من الظلم عقابهم. إن أخطاءنا معظمها من الدلالات الخاطئة للمفاهيم لا من الرغبة في الخطأ.

- نحن بحاجة إلى التواضع، لكي نحدد المفاهيم بشكل صحيح، نحن بحاجة إلى الاستشعار بوجود كائن أسمى لكي نحوز الشعور بالدونية وبالنقص وبأننا على خطأ.

هذه هي فائدة الأديان يا صديقتي، فهي تمنحنا ذلك الشعور، بدلًا من دفعنا لحيازته من بعضنا البعض نحن البشر عن طريق العنصرية، عن طريق الانتقاص من الآخر للونه أو لقوميته، أو لوطنيته أو لدينه أو لغيرها من الانتماءات.

- أحسنت يا صديقي، هذا ربط رائع.

قال مارك بعدما أخذ يصفق بيديه وعلامات الإعجاب مُرتسمة على وجهه:

- بل كلاكما أحسنتما. الآن دعونا نطلب فطورنا بعد هذا الجهد المبذول في استيعاب كل هذا الجمال المنطوق.

بعدما قاموا باستدعاء النادل وقبل أن يطلبوا طلباتهم المعتادة، قدم إليهم قائمة بأصناف الطعام الجديدة، وبعدما ألقوا نظرة على ما احتوته من أصناف، ردوها إليه وطلبوا أصنافهم من القائمة القديمة، وبعدما انصرف لتلبية طلبات الطاولات الأخرى قال مارك:

- لم يعد الجديد في كل مجال يأخذ حقه من الوقت ليكون مشرقًا ومنتشرًا وساطعًا وملفتًا ومنتزعًا لمساحته:

قال عمر:

- بالتأكيد، فالجديد يطفئه جديد آخر. لم يعد الوقت يتسع لكل جديد.

قالت ميار:

- ولهذا وجدت الرغبة بالقديم أو على الأقل الرغبة بعدم الاطلاع على الجديد، فرغبة الإنسان بالاستقرار أكبر من رغبته بالتنقل، وأقصد هنا تحديدًا التنقل السريع الذي لا يتاح فيه التأقلم والتحصُّل منه على المطلوب من التعرف على الجديد.

- صحيح، إن تهميش الجديد بعدم الالتفات إليه، لم يعد بسبب ما هو عليه بل بسبب الظروف الموجود فيها، فالازدحام أوجد رغبة بالانزواء لدى المُستَهدف بالجديد، سواء كان جيدًا أم سيئًا.

قال مارك:

- ولكن يا صديقيَّ هذا لا يبرر محاربة الجديد اللاحق بدافع إيجاد المساحة للجديد السابق، كما هو الحال مع القديم الذي كان من الخطأ محاربته بدافع إيجاد مساحة للجديد.

- أتفق معك.

- لقد حورب القديم بدعاية أن الجديد هو الأفضل والأجمل والأصوب.

- الجديد ليس بالضرورة هو العصري، والقديم ليس بالضرورة هو الرجعي، ولهذا أرى أن كثير ممن يتصفون بالرجعية أو العصرية في حياتنا قياسًا على أفعالهم أو قيمهم أو أذواقهم أو معتقداتهم مظلومون بهذا الوصف، أو على الأقل هذا الوصف لا ينصفهم.

- بالفعل.

في تلك الأثناء أنزل النادل فطورهم على طاولتهم المستديرة ذات اللون الأزرق، ويعد تناوله انصرفت ميار مُعللة ذلك بالأعمال المتراكمة عليها، أما عمر ومارك فقررا البقاء لطلب فنجانين من القهوة وصنف من أصناف الحلويات الشرقية الدسمة.

بعد لحظات صمت كانا يتابعان فيها الناس من حولهم، قال مارك وهو يستعد ليرشف من فنجان قهوته ومحاولًا تفادي التقاء عيناه بعينَي عمر:

- لا جميلة تقارب جمالها.

- إنها بعيدة يا صديقي.

- حقًا إنها بعيدة.

- هناك جمال يا صديقي يحل فيمن نحب نحاول بجهد كبير أن نخضعه للنقد عن طريق تقليل اندهاشنا به لكي نعطي حكم لا مجال للميل فيه، ولكن جمالها نعجز أمامه عن إبطال اندهاشنا به ومع ذلك نكون موضوعيين بحكمنا الذاتي.

- هذا كلام لا يخرج إلا من عاشق.

- نعم أنا عاشق ولكن مدرك لحدودي ومتفهم للامحدوديتها.

- إذًا فأنت عاشق بائس.

ثم انفجرا ضحكًا.

ثم أردف:

- ألم تمنح لنفسك فرصة؟

- بالتأكيد لم أفعل.

- ألم تمنح هي نفسها فرصة معك؟

فضحك عمر ضحكات ساخرة، ثم قال:

- هي تمنح نفسها فرصة معي! معي أنا! هذا سؤال لا يليق بمن هو في ذكائك. حتى لو فعلت فأنا لم أكن سأسمح لنفسي بملاحظة ذلك. كيف سأسمح بذلك وهي هي، وأنا أنا!

- إنك تقلل من قدرك.

- ومن فينا لا يفعل برؤيتها؟

- بل أقصدك أنك تُسيء تقدير نفسك.

- بل أنا هنا أقرب صوابًا من أي موضع آخر أكون فيه مُصيبًا.

- دع المستقبل يكشف لنا عن ذلك.

كانت الساعة في تلك الأثناء تشير إلى التاسعة وخمس وأربعين دقيقة، وكانا قد حددا العاشرة للبدء في نقاش الموضوع الذي خصصاه ليوم الأحد، فنهضا بسرعة وانطلقا إلى وجهتهم سيرًا.

***

بعدما وصلا أخذا بالاستعداد للبدء بترتيب الكتب والأوراق والملزمات أمامهما، ثم قال عمر مُفتتحًا النقاش:

- افتراض وجود العقد الاجتماعي سبب للمفترض إلزامية الإساءة إلى البشرية، لإثبات صحة افتراضه عن طريق إلصاق تصوير بشع بالحالة الطبيعية.

- لقد أساء فلاسفة العقد وعلى رأسهم هوبز للبشرية لكي يمهدوا صحة افتراض وجود العقد الاجتماعي، ولكن على الرغم من ذلك لم يوضحوا كيف بإمكان العقد التخلص من الحالة الطبيعية لجميع أطراف العقد. إن الحقيقة هي أن فلاسفة العقد يتهربون من الاعتراف بأن العقد الذين افترضوا وجوده بمثابة تخلص من الحالة الطبيعية لطرف واحد من أطراف العقد وليس لكلا الطرفين.

- حُق لنا أن نتعجب منهم، لقد وصفوا الحالة الطبيعية للمواطنين بأبشع الأوصاف وأقبح النعوت ولكنهم لم يتجرؤوا على وصف الحالة الطبيعية للحكام بأي وصف قبيح كأنهم ليسوا ببشر بل آلهة. إذا كانوا ملتزمين بالحياد والنزاهة في توصيفهم للحالة الطبيعية للبشر لما طالبوا بالسلطة لأحد على الآخر، بل لوجدناهم أعلى اللاسلطويين صوتًا.

- لقد احتكر فلاسفة العقد الحالة الطبيعية للحكام فقط. لقد شعروا بالحرج من التصريح أنهم لا يقبلون بالحالة الطبيعية إلا للحكام، كأنهم يصرخون بأن لا خير إلا بحرية الحاكم وقيد المحكوم.

- لقد حشدنا فلاسفة العقد ضد حالتنا الطبيعية وبالتالي ضد حريتنا. أليس افتراض وجود العقد هو افتراض هدفه إيجاد اللامساواة بين البشر، أليس افتراض وجود العقد يصورنا كفرائس لبعضنا البعض قبل وجوده! حق لنا التعجب من العقد كسبب للاجتماع والاتحاد.

- ولهذا تسمية القيد الاجتماعي بالعقد الاجتماعي هدفه تضليل البشر عما سُلب منهم ويتم سلبه منهم.

- بعدما افترض روسو مثلًا وجود الاجتماع كعقد لا كحالة طبيعية، ذهب إلى أن العقد لقيامه يفترض وجود حالة من الرغبة في التنازل عند البعض ورغبة بالحكم عند البعض الآخر، وبالتالي فالعقد يتيح وجود الحاكم والمحكوم، والاجتماع لا يكون إلا بوجود سلطة أحدهم على الآخر.

- ولهذا فلاسفة العقد لتبرير الوجود السلطوي أولًا ينكرون وجود الاجتماع كحالة طبيعية، وثانيًا يصورون الاجتماع على أنه وجود السلطة.

- إن محاولة التوحيد بين مفهوم كل من الدولة والمجتمع هي محاولة خبيثة هدفها حماية الدولة من الحراك اللاسلطوي عن طريق إلصاق تهمة السعي لتفكيك المجتمع وتدميره بدعوته لإلغاء الدولة. وهي أيضًا محاولة لإلصاق الشرعية التي للمجتمع بالدولة.

- حقًا، فجميع فلاسفة العقد حاولوا تصوير الاجتماع على أنه علاقة بين حاكم ومحكوم، ولهذا لم يتناول أحد منهم الاجتماع كمفهوم له دلالة مختلفة عن مفهوم السلطة.

- السلطة عند بعضهم شرطًا أساسيًا للاجتماع وعند البعض الآخر السلطة والاجتماع مفهومان لدلالة واحدة، ولهذا لا تجد منهم أحد يعترف بوجود مجتمع لاسلطوي.

- إذا كان الاجتماع ابتكار إنساني لأفنى الإنسان نفسه قبل أن يرى ابتكاره النور. إن القول بنشوء المجتمع لهو توطئة لإحالة وجود المشكلات التي داخله إلى وجوده، وهذا تضليل لتجنيب الإنسان من إحالة وجود هذه المشكلات إلى حالة قائمة به (أقصد السلطة) بعيدة عن أن تكون موجودة بوجوده.

- أصبت، فروسو من فلاسفة العقد الذين قالوا بأن الإنسان خَيّر بطبعه. وسؤالنا هنا هو "إذا كان الإنسان خيّر بطبعه، فلماذا لا يكون الاجتماع جزء من هذه الخيرية؟" يجيبنا روسو هنا بأن الاجتماع شر ولأن الشر لا يمكن دفعه بنظره، فالرضى بأهون الشرور هو خير، وأهون الشرور عنده هو الاجتماع الذي تكون فيه سيادة القانون.

- وهنا يكون وقع في فخ نفي إمكانية حلول القطب الآخر، أي هو لا يؤمن بوجود الخير أو لا يؤمن بإمكانية حلوله.

- ولهذا نقول أنَّ روسو لا يحيل الترابط إلى النوع بل إلى ظروف النوع، وهذه إحالة خطيرة سببت في تفشي العنصرية التي وجدت في نطاق السلطة.

- حقًا، إنه بالتوصيف البشع الذي قدمه كثير من فلاسفة العقد وعلى رأسهم هوبز للحالة الطبيعية للبشر، فعليًا تم تجريمنا جميعنا والحكم علينا بوجود السلطة. إن استمرار توصيف أوضاع الحالة الطبيعية على أنها آفات هو استمرار في الإدلاء بضرورة سلب الحرية.

- أحسنت، وإن استخدام التطور والتقدم في العلوم والفلسفات والصناعات في الفصل بين الحالة الطبيعية والحالة المدنية، استخدام مهد ولا يزال إلى استخدام صفة الوحشية والبربرية من الإنسان على الإنسان.

- حقًا، ومن هنا انطلقت دوافع الإبادات الجماعية ودوافع العبودية ودوافع القول بوجود مُستحق للحرية وغير مستحق لها، ومن هنا أيضًا وجدت محفزات للشعور بالتفوق.

- لقد غفلنا في أحيان وفي أخرى تم تضليلنا عن معرفة أن التطور الصناعي والتقدم العلمي دوافعهم تعويض نقص إشباع الحاجة، وبهذا غفلنا عن أن السعي إلى التطوير وإحلال التقدم حالة لا تنتمي إلى طبع إنسان دون آخر، بل تنتمي إلى جميع البشر، ولكن عوامل خارجية تقوم بتفعيلها في الإنسان.

- حقًا، فلا يمكن نسب التطور والتقدم الحاصل لإنسان إلى عرقه أو نسبه أو لونه أو دينه بل لظروفه، ولأن الظروف لا تحِط من إنسان فهي أيضًا لا ترفع.

- ولهذا لم يكن لمفهوم الإنسان المتوحش عند الكثيرين دلالة تاريخية بقدر ما كان يعبر عن دلالة سلوكية، ولهذا كان استخدامه لتشريع الإبادة والعبودية. لقد عانى الإنسان من هذا التوصيف السلطوي.

- لقد مهد لوك بوصفه الحالة الطبيعية بأنها صراع دفاعي إلى تبرير العقوبة، أي تبرير عنف الدولة، وبهذا منح حائزي السلطة صلاحية كاملة في تحديد طرف الصراع الخيّر وطرف الصراع الشرير.

- لم يختر لوك وبقية فلاسفة العقد السلام، بل اختاروا صراع يكون فيه الطرف الأقوى هي الدولة، ولأنهم اختاروا الدولة فلقد مهدوا لصراع بين الدول أشد عنفًا وأكثر وحشية، والذي جعل فلاسفة العقد عاجزين فيه عن اختيار الطرف الأقوى.

- ولهذا الحالة المدنية عند فلاسفة العقد هي حالة وجود السلطة والحالة الطبيعية عندهم هي وجود الفوضى وليس وجود اللاسلطة. فالسلطة عندهم نتاج حتمية التطور أما الفوضى نتاج حتمية اللاسلطة، وبهذا يبررون وجود الفوضى في حالة السلطة لتجنب الإقرار بفوضى السلطة.

- يجب أن تدرك الشعوب بأنه في الحالة الطبيعية لا سلطة للفرد على المجتمع ولا سلطة للمجتمع على الفرد، ولكن وجود الدولة يوجد صراع يهدف لتمليك كل منهما سلطة على الآخر، مما ينجم عنه صراع محتدم.

- أحسنت، وبالتالي بالسلطة يتم تحويل أخطاء حائز السلطة إلى أخطاء جماعية. إن الخطأ في الحالة الطبيعية محيطه ضيق وبالتالي ضرره أقل ويسهل التعويض عنه، أما في الطور الغير طبيعي الضرر محيطه واسع يطال الجميع وبالتالي لا يمكن التعويض عنه ولهذا تستمر حالة الصراع.

- إن الاستمرار بالخطأ في الحالة الطبيعية هو وسيلة للاسترشاد للصواب، أما الاستمرار بالخطأ في الحالة الغير طبيعية فهو وسيلة للاسترشاد لما يعتقده الحاكم بأنه صواب.

- بالضبط، ولهذا نقول بأنه من المستحيل أن تكون هناك علاقة طردية بين كل من نظرية الواجب المنتمية للتراث الطبيعي ونظرية الواجب المنتمية للتراث المدني.

- يجب أن نلتفت لعظم الأثر السلبي للقانون المدني على القانون الأخلاقي لكي نُوجد حلولًا تُعظِّم من تمسكنا بالفعل الأخلاقي، يجب أن نعي أن الحرية لا تكون للإنسان بالخيار الحسي فقط وإلا لكان الحيوان أكثر حرية من الإنسان، ولهذا يجب حماية الخيار الأخلاقي.

- عندما نقول أنَّ الإنسان خيّر بطبعه فهذا يعني أننا نقصد أن ميله للتعاليم الصالحة أشد من ميله للتعاليم الفاسدة، ولهذا التركيز اللاسلطوي ينصب على التعليم لا على الاستعداد الحربي الذي تصب الدولة تركيزها عليه.

- وبالتالي على ما تقدم نستنتج أن الطور الطبيعي طور فيه السلام والحرية والأمان. يا صديقي الطبيعة تحتفظ بحتمية العودة إليها، لهذا سنكون في يوم من الأيام أحرارًا، وأرجو أن يكون هذا اليوم قريب.

- لم يكن الوقوف بالنقد على نصوص واطروحات فلاسفة العقد التي استهدف منها إحلال السلام وضمان الحرية للإنسان وحماية حقوقه، واتهامها بإحلال النقيض يسيرًا بتاتًا، ولم يكن نقدنا هذا اتهامًا لهم في صدق مسعاهم.

- لقد كنا نبحث عن بقايا صورة بُعثرت معالمها وملامحها على مرايا حطمتها نصوص واطروحات فلاسفة العقد.

- ينبغي على الجميع أن يدركوا أن اللاسلطوية تقوم على الثقة بصلاح جوهر الإنسان وخيرية طبعه أما السلطوية فتقوم على انعدام الثقة بالإنسان.

نهض عمر بعدما أفرغ كل طاقته وجميع أفكاره في النقاش وكان الليل قد أسدل ستائره، ثم انصرف بعدما اتفق مع مارك على البدء بالنقاش في اليوم التالي من الساعة السادسة صباحًا ليتمكنوا من الإحاطة بالموضوع الذي خصصاه له من كافة جوانبه، ولكي يستطيعا تغطيته في يوم واحد.

(3)

في يوم الإثنين الذي كان اليوم الثالث من الأيام السبع التي حدداها لإعداد الكتاب كانت مهمتهم صعبة وتتطلب وقتًا طويلًا، ولهذا لم يكن فيه لقاءات واستراحات، فكان النقاش وحده المستحوذ على وقته، وكان كالتالي:

- هل هناك شرعية للقانون؟ هل يحق للإرادة العامة أن توجد قانونًا؟ هل عدالة القانون تكون نتيجة الاشتراك العام في وضعه أو الموافقة عليه سواء بالإجماع أو بالأغلبية؟ لماذا يلجأ بعض فلاسفة العقد إلى الاعتماد على استنباط صواب القانون وعدالته من الكثرة أي من الاجماع أو الغالبية وبالتالي كانت قوانينهم العادلة والصحيحة هي قوانين الغالبية وليس قوانين الأقليات والأفراد؟ هذه أسئلة تتطلب إجابة.

- إن فلاسفة العقد بهذا التوجه أوجدوا اضطهاد وظلم على الأقليات وأيضًا أوجدوا العداوة والخصومة والصراع بين الأقليات والأكثريات. إن السبيل الوحيد لضمان الحفاظ على حقوق الأقليات والأفراد والأكثريات هو القضاء على الالزام الخارجي، لأن هذا يخلصهم من الاضطرار إلى اختيار من يستحق الإلزام، وبالتالي يخلصهم من الانحياز البشع للمعتقد أو الفكر أو السلوك أو العادات،وتصبح الانتماءات عاجزة عن إعاقة تقبل الآخر.

- وحده الإلزام ما يُعيق التعايش السلمي وتقبل الآخر، فالإلزام يوجد إحساس بالتفوق لمتوج معتقده وهذا الإحساس يعيق تقبل صاحبه لدعوات مساواته مع الآخر.

- حتى إلزامية القانون الشاملة للحاكم والمحكوم لم تُقدم خيرًا للبشرية بقدر ما قدمت شرًا، ولم توقف شرًا كان ادعاء قدرتها على نفيه سببًا في وجودها.

- هل هناك حقًا إلزامية شاملة للجميع؟ لنفترض جدلًا أنها موجودة، فهل هذا يكون سببًا كافيًا للإقرار بمراعاة القانون للعدالة والمساواة؟ هل تكون ظروف الجميع متناسبة مع هذه الإلزامية؟ هل تفاوت ما عليه الناس تجعل من هذه الإلزامية غير عادلة؟

- ولهذا إحلال الخير ونفي ما هو شر لا يكون بسيادة القانون وشمولية هذه السيادة بل يكون باللاقانون.

- حتى لو سلمنا جدلًا أن القانون قد تكون إلزاميته شاملة، وهناك معايير تراعي ظروف الجميع فالقانون غير مكتسب للشرعية.

- هنا يا صديقي يجب أن نحمل إجابة مقنعة عن "لماذا؟".

- حسب هوبز القانون الطبيعي يُخطِّئ، أما القانون المدني فيُجرّم، ويرى هوبز بأن كل جريمة هي خطأ بينما ليس كل خطأ جريمة. ولهذا أرى أن وجود الإدانة الصادرة عن القانون المدني ساهمت بشكل كبير بإعاقة الإدانة الصادرة عن القانون الطبيعي.

- ونتيجة لذلك الخطأ خفت الاعتراف به وبالتالي تفاديه تراجع نتيجة الاكتفاء بتفادي الجريمة، فالخطأ ارتبط فقط بالجريمة وهذا تسبب بفقدان كثير من الأفعال والأقوال والنيات الاعتراف بها كأخطاء.

- أحسنت، فالصخب الذي اكتسبته كثير من الأفعال والأقوال بتصنيفها كجريمة ساهم في تجنيب الأخطاء الغير مصنفة كجرائم الصخب والاهتمام والحرص الذي تتطلبه، ولهذا نرى أن الجريمة والخطأ مفهومان ينبغي أن يتوحدا في المدلول عن طريق إلغاء القانون المدني.

- نُخطئ كثيرًا عندما نعتمد على درجة من الانحلال الأخلاقي متعلقة ومختزلة فقط بالإتيان بالجريمة. إن القانون المدني أسهم في تضليل البشر وفي صرف انتباههم إلى الدرجة الحقيقة من الانحلال الأخلاقي المتعلقة بالإتيان بالخطأ والجريمة معًا.

- إن ائتمان الناس على أنفسهم من العقوبات على أفعال وأقوال ونوايا وعدم ائتمانهم من العقوبات على أخرى تسبب للأولى بالإهمال والتهميش أكثر مما تسبب للثانية بالحرص والأخذ.

- نعم، وأيضًا تسبب تعلُّق الجريمة بالعقوبة لدى البعض بإخراج كثير من الأفعال والأقوال والنوايا عن هذا التصنيف في حال غياب العقوبة نتيجة لظروف. عدم قدرة العقوبة على أن تطال أفراد لنفوذهم ولوزنهم في الدولة، والنطاق الذي يُتيح الافلات من العقاب الآخذ بالتمدد لحرفية وإبداع المتهرب بإيجاد الوسائل التي تُمكِّنه من إخفاء أفعاله وأقواله ونواياه، تسببا بجرائم وحشية كان مرتكبوها عاجزين عن تصنيفها كأخطاء أو كجرائم لطمع البعض بالاحتفاظ بمفهوم كل من الخطأ والجريمة كمفهومين لهما دلالة مختلفة.

- هذه إضافة جميلة يا صديقي. لقد ذهب هوبز إلى أن الإنسان غير قادر على تصنيف أخطائه كجرائم، لأنه غير قادر على معاقبة نفسه، وهذا أراه خطأ كبير وقع فيه.

- بالتأكيد فقدرة الإنسان الممنوحة له (بواسطة الإله أو الطبيعة لأولئك الذين لا يؤمنون بوجود الله) للتعرف على خطئه بحد ذاتها عقاب له، وسعيه للتعويض عنه

أيضًا بمثابة عقاب يوقعه الإنسان على نفسه، وندمه أيضًا بمثابة عقاب، وشعوره بسخط الله عليه إذا كان مؤمنًا بمثابة عقاب.

- لقد اختزل هوبز مفهوم العقاب بالعنف الجسدي والنفسي الواقع من الآخر.

- إجابة مُقنعة يا صديقي أحسنت.

- إذًا بهذا نكون أجبنا عن العديد من الأسئلة منها: هل الخضوع للقوانين ينفي حرية الإنسان أم يحافظ عليها؟ هل موافقة الإنسان على الخضوع لقوانين وافق عليها يحافظ على حريته أم ينفيها؟ هل الحرية إلزام داخلي أم خارجي؟ هل يسهم الإلزام الخارجي في إضعاف الإلزام الداخلي؟ ومع ذلك يا صديقي لا بد لنا من الاستمرار بتقديم إجابات أكثر إقناعًا لأولئك الذين أوغل التضليل في إفقادهم الرؤية.

- أوافقك، فمعظم السلطويين يسعون إلى إبراز مغالاة الإنسان في الانتقام لنفسه بحجة أنه يخطئ في تقدير حجم الضرر والاعتداء الواقع عليه بحيادية وموضوعية ونزاهة حسب زعمهم لمنح شرعية للقوانين المدنية، ولكن في ذات الوقت يتجاهلون لو افترضنا جدلًا صواب قولهم الإشارة إلى مغالاة الإنسان في رد الجمائل لأخيه الإنسان.

- إن حصر السلطويين مغالاة الإنسان في العداء والبغض والاعتداء دون التسامح والإخاء والحب والعطاء لهو دليل على عدم نزاهتهم، ودليل على سعيهم لتضليل الناس للإبقاء على سلطة القانون.

- حق لنا التعجب من القائلين بأن كون الإنسان خصمًا وحكمًا في قضاياه آفة من أفات الطور الطبيعي. إن هذه لنعمة من نعم هذا الطور.

- أليس تشريع الإنسان لنفسه أكثر أمانًا له ولمجتمعه من تشريع غيره له؟ لدى السلطوي ذلك الشعور الذي يجعله ملزم باشتراط التزامه بتشريعه ضرورة إلزام غيره به. لماذا دائمًا لدى السلطوي ذلك الشعور الذي يخبره أن تشريعه هو الأعدل ولذلك ينبغي أن يكون عامًا! لماذا لا نلتزم باستقلالية التشريع لأنفسنا! أليس احتكار السلطوي ثقته لنفسه فقط هي ما تجعله راغب بالتشريع لغيره؟ لماذا يسعى دائمًا للاحتياط والتحوط بدلًا من الثقة بغيره كما يثق بنفسه؟ لماذا لا يعامل السلطوي نوعه باحترام؟ لماذا يحتكر السلطوي مزايا نوعه في ذاته فقط؟ إذا كنا نرغب بتشريع، لماذا نشترط التزامنا به التزام غيرنا به؟

- إذا سألنا مؤيدي القانون المدني إذا كانوا لا يقتلون بسبب وجود القانون المدني أم بسبب قانونهم الأخلاقي، لن نجد أحد منهم يتردد بالإجابة بأنه لا يفعل ذلك إلا التزام بالقانون الأخلاقي، فتجدنا نعود لنسألهم بتعجب عن لزوم القانون المدني، فنجدهم يقولون إجابة على سؤالنا أنهم يضمنون التزامهم بهذا الدافع ولكن لا يضمنون التزام

الآخر به، فتجدنا نزداد تعجبًا منهم، فهم بهذه الإجابة استهدفوني واستهدفوك واستهدفوا جميع البشر.

-هذا لاحتكارهم مقدرة الإنسان على الثقة بغيره والاطمئنان لنوعه لأنفسهم فقط. إن السلطويين أهملوا استعمال الثقة لديهم، ولهذا هم بحاجة إلى إصلاح استعمالهم لثقتهم أكثر من حاجتهم لإصلاح أحوال الناس. إن الإشارة إلى الخوف من العقاب وحدها كوسيلة لمنعنا من ارتكاب الجرائم، هي دليل على احتقار الإنسان وعدم احترامه.

- السلطويون يا صديقي يحاولون تصوير الإنسان على أنه حيوان هائج بحاجة مستمرة إلى السوط للترويض.

- بالفعل. إن ثقة السلطوي بنفسه فقط هي بحد ذاتها عنصرية ونفي عن الآخر الفطرة السليمة.

- والعجيب أنهم يشعرون بالانتصار عندما لا يجدون الإجابة ولا يجدون ردود على أسئلتنا، ويضطروا لسؤالنا عما سنفعله إذا حدثت جريمة في المجتمع اللاسلطوي الذي نستهدف وجوده.

- لهم الحق يا صديقي بالسؤال، فلقد ضللوا كثيرًا. على الرغم من خطأ افتراضهم لأن الجريمة هي نتاج السلطة إلا أننا علينا أن نجيبهم بأسئلة نوجهها إليهم فنقول: هل ساهمت العقوبة في تقليص نسبة الجريمة؟ ألا تسمى السجون مدارس الجريمة؟ ألا يخرج المُعاقب حاقد بصورة أكبر وأكثر عنفًا وأكثر توعدًا بالمزيد؟ إذا القانون لا يقدم علاج للجريمة، فلماذا نفضله على اللاقانون؟ ألا تكون الجريمة نتيجة تقصير السلطات في حماية حرية الناس وحقوقهم؟ هل نتصرف بطريقة معينة لأن هناك قانون مدني أم أننا نعلن القانوني المدني لأننا نتصرف بطريقة معينة ونتبنى تصرفات محددة؟ إذا كان القانون المدني لاحق لالتزامنا بقانوننا الأخلاقي، فلماذا نستمر بالاعتقاد بحاجتنا إليه؟

- أحسنت، هذا ما ينبغي على اللاسلطوي أن يكونه. نعم عليه أن يكون قادرًا على تحمل السذاجة التي عليها السلطوي نتيجة مكوثه الطويل خاضعًا للتضليل.

- إن التعليم اللاسلطوي يقوم على الثقة بإنسانية الإنسان بينما التعليم السلطوي يقوم على النظر للإنسان على أنه وحش تلزمه القيود.

- وبالتالي فالتعليم السلطوي يقوم على تعظيم مشاعر الخوف بينما التعليم اللاسلطوي يقوم على تعظيم إعمال العقل والثقة.

- وعليه لا تسعى اللاسلطوية إلى تجريم الإنسان بل إلى تجريم ظروفه وعقابها. اللاسلطوية تُعظِّم للناس منافعهم مما هو خير وصائب لتجنيب قليلي المقاومة طلب

المنفعة مما هو خاطئ وشر. في الدولة يا صديقي لا يعاقب الإنسان على جرائمه بل يعاقب على عدم الاستمرار في ارتكابها وعلى عدم ارتكاب جرائم تنفي عنه إنسانه وتثبت للآخر توحشه.

- وبالرجوع قليلًا أود استدراك حجة دارجة على لسان السلطويين وهي أن الإلزام الخارجي هو إلزام جماعي، وهو قول غير صحيح. والحقيقة هي أن الإلزام الداخلي هو إلزام جماعي.

- الإلزام الداخلي إلزام جماعيته تطال جميع البشر، أما الإلزام الخارجي فهو إلزام جماعي محدود بحدود سلطة القانون وحدود الدولة.

- لا ننكر أن الإلزام الداخلي قد يتأثر بالظروف القاسية، ولكن ضرر هذا التراجع سيبقى لا أثر له إذا ما قورن بالضرر الواقع من الإلزام الخارجي.

- إن الفعل الفاسد والغير صائب أقل ضررًا من وجود القانون الفاسد والغير صائب، فالفعل الفاسد له أثر محدود زمانيًا ومكانيًا أما القانون الفاسد فأثره ينتشر في نطاق واسع.

- أحسنت. يحاول السلطويون دائمًا تضليل الناس أنه بالحرية يكون لكل إنسان قانونه الخاص المختلف عن الآخر، والحقيقة هي خلاف ذلك، فالقانون الأخلاقي لدي جميع البشر واحد، وأيضًا مخالفة الفعل للقانون الأخلاقي لا يدلل على أن القانون اختلف، بل يدلل على أن ظروف وجدت حالت دون أن يكون الفعل مسترشدًا بالقانون الأخلاقي، أو نتيجة عادة وجدت نتيجة ظروف قاسية طال أمدها.

- إن أفعالنا لا تؤثر بقانوننا الأخلاقي بل قانوننا الأخلاقي هو من يؤثر في أفعالنا. وبالإضافة إلى هذا، القانون المدني يؤثر سلبًا على فعلنا الأخلاقي لا على قانوننا الأخلاقي، وهذا من حسن حظنا.

- إن إحالة الفعل إلى الفرد لا إلى الجماعة هي السبيل الوحيد لإحالة الفرد إلى قانونه الأخلاقي، وبالتالي إحالته إلى عدم الحاجة إلى إصلاح قانوني وبالتالي حصر تركيزه وادخار جهوده لإصلاح الفعل والممارسة، بخلاف ما هو عليه الحال إذا أُحيل الفعل إلى الجماعة، فالجهود بهذه الإحالة تتبعثر في إصلاح القانوني المدني ولا يبقى هناك جهود لإصلاح الفعل.

- وباعتقادي الخطر الأكبر الناجم عن القانون المدني هو أن الحاجز الفاصل بين الصواب والخطأ يُهدَم بسرعة نتيجة العقوبات، بل إنه بدأ كثير من الملتزمين بما هو صائب يشُكُّون في مراكزهم، فبدأوا يشعرون بحاجتهم للعلاج.

- إن القلة المحتفظة بالالتزام بفعلها الصائب والأخلاقي بدأت تتأثر بعلاج الكثرة.

- إن العنف الواقع على المخطئين يَطمع بجعل التعاطف مبررًا للتجريم، وهذا التجريم يدفع المتعاطفين لتبني وإتيان أفعال يدرجونها في قائمة الأفعال الغير صائبة في أحيان، وفي أحيان أخرى لتعاطفهم الذي يُجرِّموا عليه يأخذون بالشك في صوابية أحكامهم وتصنيفاتهم فيختلط عليهم الخطأ والصواب ويصبحوا عاجزين عن التصنيف.

- إن التخلي السريع عن القيم وتبديلها، ناجم عن جعل المنفعة مقياس للقيم الاجتماعية، وهذا القياس النفعي تعاظم بوجود القانون المدني.

- أساس قانون الدول ما هو إلا إلزام نفعي، وبالتالي فالقانون متغير بتغير منافع اللاعبين الرئيسيين فيه، ولهذا لا يمكن أن يكون قانون الدولة أخلاقيًا وبالتالي لا يمكن أن يكتسب أية صفة شرعية.

- إنني أعجب يا صديقي من عدم التفات الناس إلى الاستغناء المستمر عن كثير من القوانين التي كانت تعد الأمثل لإحلال النظام نتيجة اكتشاف ضررها. كيف لم يستنتج الناس من عدم احتفاظ الدساتير لكثير من قوانينها المجحفة والمقيدة للحريات عدم شرعيتها! كيف لم يكتشفوا من هذا الاستغناء أن الدساتير ليست وسيلة لضمان حرية الإنسان!

- لقد منحتنا الدساتير وهمًا بالانتصار وحتمًا مُر الهزيمة يومًا ما سيوقظنا من سباتنا العميق.

- إن هذه النسبية التي عليها الدساتير في تحديد ما هو مناسب وغير مناسب من القوانين ينبغي أن تدفعنا لرفضها.

- كون القوانين المدنية ذات طبيعة عارضة وزائلة، يدلل على نفعيتها لا على أخلاقيتها.

- وهذه التصادمية بين القوانين في الدساتير تزداد مع ازدياد العداوة والصراع الخارجي.

- وهذه التصادمية أيضًا تكون في قمة تجلِّيها عند انتشار الأمراض الوبائية التي تتسبب في التمادي في سلب الحريات، وهذا التمادي ليس كما يروج هدفه حماية المواطنين، بل هدفه تمرير قوانين عجزت الحكومات عن تمريرها في الأوضاع الطبيعية لفرض مزيد من القيود. وفي الحقيقة هذا السلب للحريات يستخدم للتغطية على التقصير في الخدمة التي تتخذها الحكومات حجة لوجودها.

- ولهذا يجب أن يتخلى العلم عن سلطته في فرض نتائجه لكيلا يسقط كما سقط الدين، وإن العلم نتيجة الاستخدام السياسي الغير نزيه والانتقائي والتجاري والسلطوي والترويجي سيُجعل منه عدو وهدف للجماهير التي تطالب بحريتها.

- حتى القيود على الصحافة ينبغي أن يطالها الرفض بدون استثناء. إنني يا صديقي أؤيد حرية الصحافة حتى لو طالت إساءتها رموز دينية أو تاريخية أو رياضية أو فكرية، فهذه الحرية وحدها هي من تكفل عدم وجود سلطة المنع والتقييد التي تطال من تم تصنيفه على أنه أضعف وأدنى، وهي الوحيدة القادرة على الوقوف في وجه أي محاولة لسياقة مبررات وحجج تهدف بالخفاء إلى كبت الحريات.

- نعم فالإفراط في المنع ليس إلا نتيجة القبول بالحد الأدنى منه.

- ووجود أصوات مناهضة لهذه الحرية لا يكون في حقيقته لوجود الإساءة بل لوجود تمييز بين الناس في القيود المفروضة عليهم في التعبير، فمنهم مستحق لقيود أقل ومنهم مستحق لقيود أكثر ومنهم غير مستحق للقيود.

- الاعتراض إذًا في الحقيقة لا يكون على الحرية بل على عدم نزاهة الدولة وعدالتها في منح الاستحقاق.

- ولهذا نقول أنَّ استحقاق القيد لم يوجد إلا بوجود الدولة ولا ينتفي إلا بانتفائها.

- وبالنتيجة فالتداول الغير مُقيَّد للآراء ينجم عنه ساحة لردود أفعال مسالمة بديلة عن الساحة الموجودة لردود الأفعال العنيفة والمناهضة للحرية.

- ولكن يا صديقي بشرط أن يكون التداول مكفول للجميع، فإذا كان هذا التداول مخصوص لخاصة انقلب آفة أكبر من آفة التداول المُقيَّد بالتساوي، وهنا المخصوص بالعطاء والمنع يقع عليهم الظلم.

- إنني أعجب حقًّا من تصوير الحرية كأنها مصدر للنفع في أحيان ومصدر للضرر في أحيان أخرى، نعم يا صديقي الحرية هي مصدر دائم للنفع. فحتى ذلك الذي اختار أن يضر غيره أو نفسه هو بحريته انتفع انتفاع لا ينفيه الضرر الذي لحق به أو بغيره. إن خير ونفع الحرية يعجز ضرر الاختيار عن نفيه وإلغاء وجوده، ولهذا نزع الحريات كحجة للنفع هو انتزاع لا شرعية له.

- أحسنت. إن الخير والنفع والإصلاح لا يكمن في نزع الحرية بل في نزع ضرر الاختيار أو إيجاد وسيلة علاجية لأثار ذلك الضرر. لا خير للبشر إلا بالسماح لبعضهم البعض بالخطأ وبالعمل فقط على السيطرة على ضرر أخطائهم. الإشارة للحرية كسبب في أحيان للضرر والنفع هي وسيلة السلطوي لكيلا يبذل جهد في محاربة ضرر أخطاء الاختيار، ولهذا وحده اللاسلطوي من يُنزِّه الحرية ويحميها من الإشارة

إليها كمصدر للضرر والشر في أحيان، ولهذا وحده اللاسلطوي من لا يُشير للحرية كمرض وللقيد كعلاج، ولهذا وحده اللاسلطوي من يرى الإنسان غير كامل وضعيف وعاجز عن عدم ارتكاب الأخطاء ولهذا وحده اللاسلطوي من لا يرفض نعمة الله عليه بالحرية، ولهذا وحده اللاسلطوي من يرى أن ضرر الخيار ليس ضرر الحرية.

- نعم، فنفع الحرية ليس له علاقة بنفع الاختيار، ولا شرعية لمحاولات سلب الحرية بضرر الخيارات. إن نفع خيار ما هو بدرجة أدنى من نفع الحرية، لأن الحرية هي مصدر النفع الأعظم.

- إن نزع الحرية والاستعانة بالقيد في إحلال نفع ما، يسهم في تجنيب من وقع عليهم القيد نفع الحرية، وبالتالي فقدان نفع الحرية يتسبب بعدم الاعتراض على ضرر خيار ما، وعليه يكون إضرار الفرد بنفسه أو انتفاعه ليس مرهونًا بخياره بل بخيار مُحل القيد. القيد لا يكمن في إكراهنا على اتباع قانون يتنافى مع قانوننا الأخلاقي فقط، بل أيضًا يكمن في إكراهنا على اتباع قانون يتوافق مع قانوننا الأخلاقي، فالإكراه بحد ذاته قيد.

- نعم فالحرية تكفل للخيارات التداول بين الأخذ والترك، وتكفل إلزامية القانون الأخلاقي الداخلي للأفراد إيقاف دائم وفي أحيان مؤقت لما كفلته الحرية للخيارات من تداول الأخذ والترك.

- وعليه فالحرية ليست سببًا في ضرر الأخذ والترك أو نفع أحدهما، ولهذا تحميل الحرية مسؤولية الضرر ناجم عن فهم خاطئ لماهية الحرية أو ناجم عن محاولة في تبرير القيد.

- إن النوايا الصادقة في إصلاح حال الإنسان لا تتخذ من نزع الحرية وسيلة بل تتخذ من إبطال ضرر الخيارات وسيلة.

- نحن لسنا أشد حكمة من الإله أو من الطبيعة لغير المؤمن، فالحرية لم تمنح للبشر ليقوموا بنزعها من بعضهم البعض، الحرية مُنحت لتبقى، الحرية منحت لنا نحن البشر لتميزنا عن غيرنا. لذلك ليس هناك ما يتم تسميته حرية نافعة وضارة، هناك فقط الحرية وهي نافعة دائمًا.

- ينبغي على السلطويين التساؤل: هل الحرية الطبيعية حقًا حرية لا حدود لها غير قوة الشخص كما يزعم فلاسفة العقد؟ إذا أجابوا بنعم، فهنا عليهم التساؤل مجددًا: هل الإرادة العامة هي الحد لقوة الشخص أي هل هي وحدها الواضعة لحدود الحرية الطبيعية؟ إذا أجابوا بنعم، فهنا علينا سؤالهم: هل نحن لا نرتكب الجرائم لوجود الإرادة العامة أم لوجود آخر؟ هل الإرادة العامة هي قانوننا الأخلاقي أم أن قانوننا الأخلاقي هو الذي يُشكل الإرادة العامة؟ أليس التعارض بين الإرادة الفردية والإرادة العامة ينشأ نتيجة وجود السلطة؟

- إنني أعجب حقًا من تصوير الحرية دائمًا على أنها لا تنال إلا بالخضوع للإرادة العامة. الله لم يخلق إنسان حر لكي تُنتزع حريته من إنسان آخر.

- علينا التساؤل باستمرار: أليس محاولة الإشارة لمفهوم الحرية المدنية كمفهوم مُغلير في الدلالة ومخالف أحيانًا لمفهوم الحرية الطبيعية، هي محاولة استنباط العديد من الدلالات لكلمة الحرية وبالتالي محاولة لإخفاء دلالة نقيض الحرية بإحدى دلالات الحرية، أي أليست هذه المحاولة هي محاولة لأقنعت القيد بالحرية؟ ألا ينبغي أن تكون للحرية أينما ألصقت أو أرفقت دلالة واحدة لا تتغير لا بالزمان ولا بالمكان؟

- كم أنت مقنع يا صديقي أحسنت. حقًا الحرية شيء مقدس، الحرية حق للجميع بوجودهم لا بصيرورتهم، الحرية حق للجميع بوجودهم لا بحالتهم، الحرية حق للجميع بوجودهم لا بزمانهم ومكانهم.

- الحرية لا تحتاج إلى اعتياد لأن الإنسان مفطور عليها، لأن الإنسان حر بطبعه، ولهذا فادعاء البعض بأن الحرية بحاجة إلى اعتياد طالبها تدريجيًا عليها إدعاء باطل. الحرية حق طبيعي والحق الطبيعي إعادته بالتدريج ظلم وشر، فالتدريج في منح الحرية استمرار في سرقتها.

- والقائلون مثل روسو بضرورة استنشاق الحرية شيئًا فشيئًا وخصوصًا لأولئك الذين تعودوا على القيد هم بالضرورة يُشرعون وجود سارقها. لقد تجاهل روسو أن القيد لا عادة قادرة على تسكين آلامه وتطبيب الأضرار التي يُلحقها.

- وإذا افترضنا جدلًا بضرورة وجود سالب للحرية، فإلى من يُعطي هؤلاء الحق بسلبها؟

- حق لنا أيضًا التعجب من أنصار الديمقراطية الذين يُشرِّعون سلب حرية الناس في اختيار قوانينهم الخاصة بداعي جهلهم ولا يشرعون ذلك في اختيار الناس لحكامهم بداعي معرفتهم! يطالبون بالتدريج في إعطاء الحرية بداعي الجهل ويطالبون بمنحها بداعي العلم والوعي.

- يجب عليهم أن يعلموا أن أهلية الإنسان للحرية لا تكون في وجوده بل بوجوده، عليهم أن يعلموا أن الحرية لا تنال بالقبول بالإلزام كشرط في عملية المقايضة.

- إسقاط ما يسمى بالعقوبة هو ضرورة لبلوغ النفوس أقصى استشعار لها بالحرية. بالحرية يسترشد المخطئ بخطئه للصواب أما القيد فيُبقى على الخطأ بدون استرشاد المخطئ إلى الصواب. إن توسيع نطاق العقوبة وأيضًا نطاق المكافأة هو دليل على زيادة نطاق القيد.

- بالعقاب تكون الروح الانتقامية أكثر حضورًا من الروح المُستَصلحة أو المسترشدة بفعلها وانعكاساته وتبعاته. إن انتشار الجريمة وتطورها وتنوعها هو نتيجة للقيود المتزايدة.

- لقد أصبح إنزال العقاب حاجة ولهذا أصبح وجود الخطأ ضرورة لإشباع هذه الحاجة.

- أحسنت. أولئك الذين يأتون الجريمة، يأتون بها لكي يُجنبون غيرهم من البشر إتيانها، هم قبلوا أنفسهم ضحايا افتداء لأحبائهم. هم من توجَّب علينا شكرهم وتعويضهم واحتضانهم. أولئك من يأتون الجريمة هم محتكرو الألم والبؤس والعناء. نحن عاجزون عن تصور ما تتطلبه الجريمة لذلك عاجزين عن تصور قيمة ما يتنازل عنه الفرد. نحن عاجزون عن تصور ما يُنتزع من الإنسان لكي يقوم بالجريمة، لذلك كالحمقى نصفهم بالمجرمين.

- إن من يُسميهم السلطويون بالمجرمين هم الأكثر تعطشًا للحرية. قد نُتهم بقولنا هذا أننا نبرر الجريمة والحقيقة هي أننا لا نبررها بل نتعاطف مع هؤلاء الذين لم تتح لهم إلا الجريمة لإسماع أنينهم. نعم القائمون بالجرائم استخدموا السلطة لنفي السلطة، ولكن هذا لظروفهم القاسية التي أثرت على قراراتهم والتي تسببت بتضليلهم.

- الجريمة هي الوسيلة الوحيدة التي تُمكِّن بعض الناس من التلويح بأيديهم طلبًا للمساعدة، هي الوسيلة الوحيدة التي تُمكِّن بعض البشر من الغرق مُحملين باقي البشر عتاب ضمائرهم لعدم التفاتهم. إن العقوبة هي إلجام لأفواه المعذبين كي لا يسمع أنينهم. العقاب يمنعنا نحن البشر من التعبير، يمنعنا من الالتفات إلى عيوب نظامنا، العقاب يمنعنا من الالتفات إلى أكثر الناس معاناة، العقاب يعزل المساعدة عن محتاجيها.

- العقاب هو الفتك بمن يُصرِّح بأنه يعاني ويتألم، هو الفتك بأكثر الناس حاجة إلى تعاطفنا وتسامحنا، ولهذا العقاب هو أكبر الجرائم وأشدها وحشية. ما يُسمى بالعقاب يوجد صممًا للراغبين بمساعدة الناس المحتاجين للمساعدة، وبكمًا لطالبي المساعدة مما يُولِّد انفجارات مستمرة لا سبيل لإيقافها غير إيقاف العقاب. بالعقاب يتم تعطيل إلزامية القانون الداخلي وهذا التعطيل هو عداء للاستقلالية والفردية.

- من الخطأ الظن بأن إلغاء العقوبة (أي ما نسميه نحن جريمة) هو إقرار بشرعية الجريمة، فإلغاء العقوبة هو استجابة لصرخة استنجاد مرتكب الجريمة، هو نفي لظروفه القاسية والتضليل الذي وقع فيه.

- رافض ثنائية الخير والشر والصوب والخطأ والحقيقة والزيف والجمال والقبح، العقوبة هي وحدها المتسببة بوجوده.

- أحسنت. توغل في الخطأ القول بأن الإتيان بالجريمة اختيار للعقاب كحق. القول بأن هناك من يطالب لنفسه بالأذى كحق له هو قول يبلغ من السفاهة مبالغ غير محدودة. الإنسان يُجسِّد إرادته في فعله لا في عواقب فعله، فأنا عندما أسرق مثلًا أكون مريدًا لما أحاول سرقته لا مريدًا للعقاب. إن الحد الفاصل بين الخطأ والصواب العقوبة هي المتسبب الوحيد في هدمه. إن وجود الخطأ بدون وجود العقوبة يسمح لنا بتمييزه كخطأ، ولكن وجود العقوبة يجعلنا عاجزين عن التكلم بحرية، وبالتالي عاجزين عن وصف الفعل بأنه خاطئ. وجود العقوبة تكبيل لنا في عملية تصنيف الأفعال. العقوبة ربما كانت أقل ضررًا على الحد الفاصل قديمًا لكون العصور القديمة عصور روحانية، أما عصرنا عصر ذو طابع مادي، وتسبب هذا في جعل العقوبة بمثابة تهديد لا يمكن دفع خطره على الحد الفاصل بين الصواب والخطأ. إن وجود العقوبة جعلنا غير قادرين على الحكم ومقيدين خوفًا من الاصطفاف مع المُعاقِب ومُشرِّع العقوبة. لقد دفعتنا العقوبة إلى التعاطف مع الفعل في أحيان لا مع الفاعل ونتيجة لذلك أصبحنا نأتي بالفعل كوسيلة تضامن. لقد أضرت العقوبة بالإنسان بدفعه للفعل الغير صائب.

- لقد سلحت العقوبة من تستهدفهم بأشد الأسلحة فتكًا وبأكثر الوسائل قدرة على إخفاء الجرائم، فانتشرت الجريمة وتنوعت وبالتالي كانت الوسائل الوقائية والعلاجية متأخرة في أحيان وغير مُستدرِكة في أحيان أكثر.

- نعم، فحتى لو سلمنا جدلًا بصدق القانون في محاربة الجريمة فإن ذلك لا يمنحه شرعية للوجود، لأنه يُسلح من دُفعوا لارتكاب الجرائم بخبرة الحرب، وبخفة لاعبي الخفة في إخفاء نفوسهم وأشيائهم. إذا كان القانون فعلًا يُلاحق فإنه بكل تأكيد لا يمسك ولا يسبق.

- بالتأكيد، سيتوقف البشر عن ارتكاب الجرائم لا عندما تملك السلطات عين الله، ولا عندما تملك قلب الله، ولا عندما تملك عقاب الله، بل عندما تتوقف عن لعب دور الله.

- إننا نمنح أنفسنا عندما نقاوم الخطأ بالخطأ مزاج المخطئ وخطئه وجهله، ولأن المخطئ متمرس على الخطأ بظروفه القاسية، فنحن بخطئنا الذي نقوم به لدفع خطئه لا نصر لنا عليه. علينا دائمًا أن نكون متيقنين بأننا على خطأ عند استخدام العنف كحل.

- إن الجريمة تبدأها الدولة بجعل ظروف الناس ملائمة للجريمة، ولهذا هي المجرم الأوحد. إن حالة الحرب لا تكون إلا في ظل الدولة.

- القول بأن العقوبة عبرة هو ظلم لمن تقع عليه العقوبة، لأنه ليس المستهدف من وجودها. وأيضًا استخدام العبرة لتبرير وجود العقوبة مردود عليه بالقول بأن من تقع عليه العقوبة لم يكن وجودها مانعًا لوقوعها عليه، ولم يكن وجودها مانعًا أيضًا لمن

لم يستحق وقوعها عليه. فمثلًا محاولة تبرير عقوبة الإعدام غير مجدية، فمن يقدم على القتل لم يمنعه من الاقدام الخوف من إعدامه، وكذلك الذي لم يقدم على القتل لم يمنعه الخوف من أن يتم إعدامه من القتل.

- العقوبات هي وسيلة الحكومات لإسكات شعوبها عند تكبيلها بقيود أثقل. ماذا نحن غير أننا ضحايا إرهاب الدولة.

- ولهذا الحاجة المتزايدة للقضاء مؤشر على تصاعد حدة الصراع، وهذا دليل كافي على أن حرب الكل ضد الكل تكون في الدولة لا في مجتمع لاسلطوي.

- المهندس لا يُقاوم سقوط الأبنية بل يُقاوم ظروف السقوط، والطبيب لا يُقاوم الموت بل يُقاوم الظروف التي توجد الموت، وكذلك اللاسلطوي لا يُقاوم الجريمة بل يُقاوم الظروف التي توجد من خلالها الجريمة.

- طالما التشريعات تقول بأنه لا شرعية للإنسان بأذية نفسه، فكيف لقوانين العقوبات أن تدَّعي شرعيتها بادعاء نيلها إذن الإنسان بإيقاع الضرر عليه! طالما أن الإنسان لا يحق له إيذاء نفسه، فكيف يكون له الحق في منح غيره الحق في أذيته!

- هل يقرر القائم بالجريمة العنف مبدأ عامًا، أي يشرع العنف قانونًا؟ بالتأكيد لا، ولهذا القول بأننا نعاقب القائم بالجريمة بقانونه هو قول لا غير صائب. ولهذا ليس هناك أشرار بل هناك فعل شرير، وليس هناك مجرمون بل هناك جريمة.

- جميعنا نثار عند رؤيتنا لجريمة ما، ولكن سرعان ما نهدأ ويختفي عداؤنا لمرتكبها بالاطلاع على ظروفه، وذلك ليس تبرير للجريمة وإنما عداء لظروفها، هذه هي طبيعة الإنسان. كلاسلطويون نحن ندين الجريمة بمحاربة ظروفها لا بمحاربة مرتكبيها.

- إن انعدام القدرة على استخدام العقاب هو محفز لدعم ما لا يوجد حاجة للعقاب أي إحلال التعليم الجيد وإشباع الحاجات.

- إن الرضى بأقل درجة وحشية من العقاب يُمهد لتصاعد تدريجي بحدته ووحشيته، نتيجة لظروف تعجز فيها الحكومات عن زيادة حصصها الامبريالية أو حتى المحافظة عليها.

- إن كل إرادة مهما وافقها ورافقها من صواب لا شرعية لها في إلزام غيرها بالخضوع لها، وإرادتي لا شرعية لأي إلزام خارجي في جعلها فعلي بل الإلزام الوحيد الشرعي هو الإلزام الداخلي.

- على الرغم من دعوة روسو لوجود القوانين التي ستضبط بوجودها حسب ادعائه الأهواء إلا أنه يقول "يُستحسن أيضًا أن ننظر عسى أن تكون الاضطرابات قد نشأت

مع هذه القوانين بالذات" لربما التفت روسو لجميع تلك التعديلات التي تدخل على الدساتير ومنها لاحظ عدم شرعيتها.

- لا ثقة للصادقين بالسلطة مهما قاموا بتأييدها ودعم وجودها.

- لا بد أن يتوقف البشر عن الاعتراض بالعقاب على أخطاء الناس، لأن هذا التوقف سيُسهل من استرشادهم للصواب. كيف يمكن أن يكون للفرد حرية بدون أن يكون خيار عدم اتباع القاعدة المنصوص عليها متاح! نعم الأخطاء في المجتمع اللاسلطوي وسيلة استرشادية أما في المجتمع السلطوي هي وسيلة انتقامية.

- أحسنت، الجريمة مهما عظمت لا ينبغي أن تتخذ لوصف الإنسان بالإجرام، ليس فقط لكيلا ينتفي الإصلاح بل أيضًا لكيلا تنتفي المساواة والعدالة وتحل العنصرية والطبقية.

- الجريمة غير مبررة ولكن عقوبتها غير مبررة بصورة أوضح، لأن العقوبة الخارجية للجريمة هي جريمة أكبر لأن دافعها السلطة لا الظروف القاسية نتيجة وجود السلطة. الجريمة لا تشكلها طبيعة الفرد بل ظروفه. علينا أن ندرك أن الاعتداء لا يوقف اعتداءً. نعم شرعَنة العقاب هي شرعَنة للجريمة.

- بالفعل إن العقوبة هي وسيلة إصلاح لمحرك الجريمة لا لمحرك السلام. الجريمة يُلهمها العقاب. السلام لا يُفرض بنقيضه، بل السلام يتم احلاله باختياره.

-نحن حتى لو منحنا الأخرين تصريحًا بممارسة سلطتهم علينا، فنحن لا نمنحهم تبريرًا أخلاقيًا ولا نفعيًا، لأننا عاجزون عن ذلك.

- آمن الناس بالعقاب نتيجة التعليم السلطوي الذي عظم خوفهم، ولهذا كان الاستثمار في الوسيلة العقابية أكثر من الاستثمار في الوسيلة التربوية والتعليمية. لقد اعتقد الناس أن السجون هي جدران الأمان لمن هم خارجها، معتقدين بذلك بأنها الجدران العازلة للشياطين التي تعاديهم.

- جميل ما قالته إيما جولدمان "السجن حماية اجتماعية؟ أي عقل وحشي تصور مثل هذه الفكرة؟"

- "لا سبيل إلى إصلاح إنسان بسوء المعاملة"[4] رازوميخين.

- "أنتم حين لا تحترمون الطبيعة الإنسانية إنما تسيئون إلى أنفسكم"[5] رازوميخين.

- "الوقوع في الخطأ يمكن التسامح فيه دائمًا، حتى إن الخطأ شيء رائع فعلًا لأنه يؤذي إلى الحقيقة"[6] رازوميخين.

- "إن هذه الاندفاعات المتطرفة تدل على أن أصحابها مؤمنون صادقون، وتدل على أن الظروف ليست هي الظروف التي يجب توافرها"[7] بيوتر بتروفتش.

- "إنني حين قتلت لم أرد يا صونيا إلا أن أجرؤ!"[8] راسكولنيكوف.

- إن ما يُصلحه التواضع يا صديقي تُفسده الإهانات. كيف لعظيم كدوستويفسكي ألا تصل رسالته لكثيرين، كيف لم يُحركنا عداؤه لسيبيريا للوقوف في وجه كل سيبيريا توجد بالقرب منا. نعم يا صديقي كل سجن هو سيبيريا.

- وعلى ما تقدم يا صديقي نستنتج أننا لا نشعر بالظلم من عدم المساواة أمام القانون بل نشعر بالظلم من القانون بحد ذاته.

- لقد افترضنا جدلًا طوال نقاشنا إمكانية أن تكون إلزامية القانون الشاملة واقعية، الآن دعنا نعود لنقاشها بمعزل عن افتراضنا الجدلي. إن حاكمية الحاكم وسيادة القانون كلاهما يستهدفان طبقة وفئة بالإجحاف والظلم، فالقانون والمراسيم هي أداة الفتك بالمجتمع.

- الخلاصة إذًا هي أنه ينبغي علينا جميعًا أن نكون فوق القانون.

- ولكيلا نترك مجال لكي يساء فهمنا عن طريق التوحيد بين مفهومي "فوق القانون" و"الجريمة"، ينبغي علينا القول أنَّه يجب أن نكون جميعنا فوق الإلزام.

- أحسنت، فوجودنا فوق الإلزام الخارجي يتيح لنا المجال لنكون تحت الإلزام الداخلي، وبالتالي نتحول من كوننا نفعيين في أحيان ولاأخلاقيين في أحيان إلى أخلاقيين دائمًا.

- وجود تصادم المنافع وتضاربها هو نتيجة عادة السعي وراء المنفعة.

- وعلى ما سبق نستنتج أن التخيير بين سلطة القانون أو الفرد أو الطبقة، لم ينجم عنه تغيير إلا بقدر محاولة من وقع عليه الاختيار نفي وجود أي سلطة لمن أزاحه الاختيار لا تنفيذًا لطموح ورغبة من قام بالاختيار بل لإزاحة كل منافس موجود أو متوقع وجوده على السلطة.

- بالتأكيد، فحتى الأنظمة العلمانية التي ألغت العقوبة والتشريع الديني، وحاربت الدين السياسي، لم تفعل ذلك بهدف انتزاع الحرية للمواطنين بل لتقضي على كل حيازة من قبل الدين للسلطة، أي لتقضي على المنافس لها على السلطة. مع العلم أن الثورات لم تقم لرفض رجال الدين بل لانتزاع الحرية، إلا أن العلمانيين ما زالوا يحاربون رجال الدين بما كان رجال الدين يحاربون به غيرهم. ما زال العلمانيون إلى يومنا هذا يعتقدون أن الشعوب ثارت لتستبدل قيد بقيد.

- أه ما أصعب أن تكون لاسلطويًا يا صديقي. إن هذا يتطلب إحاطة بتضليل كل وجود سلطوي.

- بالفعل.

نهض عمر للمغادرة وكانت الساعة تشير للحادية عشرة ليلًا، بعدما اختار مع مارك موضوع للنقاش بسيط لليوم التالي يسمح لهم بأخذ قسط من النوم وزيارة المتنزه.

(4)

بعد ليل تمكنا من محاصصته بالتساوي بين التحضير للنقاش والنوم، توجه كل منهما للقاء الآخر في المتنزه كما اتفقا، وقد كان صباح الثلاثاء ساطعًا ونسماته الباردة منعشة وأوراق أشجاره شديدة الاخضرار وروائح وروده وأزهاره تجعل منه صباحًا رومانسيًا بامتياز، وسماؤه الصافية شديدة الازرقاق تجعل منه صباحًا مثاليًا للتأمل، ونشاط طيوره وتغريداتها تجعل منه صباح يمنح الحواس عافيتها.

قال مارك بعدما التقى بعمر عند مقعدهم المفضل وكان قد وصل قبله:

- دائمًا ما تسبقني.

- ولكنك دائمًا ما تصل.

ثم أخذا بالضحك.

قال مارك:

- عجيب أثر النوم في وجهك، ولربما العجيب قدرة وجهك على التقاط آثار النوم!

- عجيب في أنه يمنح جمالًا أم قبحًا؟

- الاثنان معًا.

ثم انفجرا بالضحك.

قال عمر بعد لحظات صامتة كانا فيها ينظران في كل ما يُحيطهم:

- صباح جميل لولا الجدار.

- بل هو صباح جميل متمرد على الجدار الذي يمنح الحرية للقبح والقيود على جمال.

- لربما هو كذلك. كيف كان تحضيرك لنقاش اليوم؟

- كما الحال دائمًا، أشعر أنه غير كافي.

- هذا شعور مفيد.

- وضار أيضًا.

- وكيف كان نومك؟

- أزعجتني فيه بعض كوابيس الماضي.

- إذًا يجب أن تُطلع ميار على ذلك.

- لا تقلق، أنا بخير.

- كوابيس متعلقة بحصار الكثير؟

- نعم.

فقال عمر بتردد بعد لحظات صمت:

- هذه تجربة لم أخضها من قبل، فلقد عانيت طوال حياتي من حصار القليل، أطلعني عليها إذا كان هذا لا يضايقك.

- بالعكس هذا يريحني، فأن يفهم أحد معاناتك يطرد شعور بالوحدة الموحشة لديك حتى لو لم يشاركك إياها.

ثم صمت للحظات محاولًا الدخول إلى أعماقه ثم أخذ يقول:

- في عالم كالذي كنت أعيش فيه، كنت بحاجة إلى حتى لو القليل من البطء في الحركة أو التوقف ولو لوهلة، كنت بحاجة إلى الملل، بحاجة إلى عدم التغيير والاستقرار. لقد حطم التغيير والتنقل والرغبة التي تحل في كل جديد أذواقي وعلاقاتي والحياة في عقارب ساعتي، لقد حطم قلبي وسلب منه القدرة على الحب، فأصبحتُ خاليًا من الحياة وممتلئ بكل شيء بدون أن يكون لامتلائي حدود، نعم أصبحت ممتلئ وحائزًا على كل ما يمنح الحياة ولكنه عاجز عن منحي إياها. لم يكن ما أرغب به صعب المنال، فكل شيء متاح لي الوصول إليه، إلا الهدوء والراحة. لقد كنت أقول: "تبًا لكِ يا رغباتي لما أصبحت عليه. لماذا أصبحت عاجزة عن الحلول في المستحيل والبعيد لكي تُحيني بالمسير، لماذا تُميتينني بالوصول؟ ما هو ذلك الإثم الذي ارتكبته لكي أعاقب بالعجز عن طلب المستحيل وبعدم حلوله في رغباتي؟ ماذا حل بك يا عالمنا، لماذا لا تُعطيني كغيري، لماذا تعطيني أكثر من قدرتي على الرغبة؟" لقد كان يا صديقي وقت تحقق أهدافي وإشباع رغباتي يزاحم وقت تكوّن الرغبة ووقت تحديد الهدف، فالحياة لم تكن تطلب استحقاقًا وعملًا لتمنحني. نعم كانت الحياة تعذبني لا بالحرمان كما تعذب غيري بل بالعطاء بدون استحقاق، أرغب فأُعطى ثم أرغب فأُعطى، ثم أرغب فأُعطى، وبكلاهما أذوق أشد العذاب.

لم يكن سؤال "ماذا أريد؟" يناسب حياتي، فما يناسبها هو سؤال "ماذا لا أريد؟". كثير ما كنتُ أرغبه وكثير ما كنت أناله. نعم هذا الكثير أكبر من قدرتي على الإحساس والشعور. لقد تبلدت حواسي وتوقف عقلي عن العمل بهذا الكثير. لقد كنت بحاجة آن ذاك إلى القليل. لقد كانت الحياة قاسية عليَّ بالكثير. كنت أسأل نفسي: ماذا أريد؟ ثم أعود فأقول: تبًا لم أريد، فلتمنحينني أيتها الحياة ما تريدينه ومن الأفضل ألا تمنحينني شيئًا.

كنت بحاجة إلى الحرمان والنقص والحاجة غير المشبعة. كنت أنظر إلى الناس وأقول "يا لسعادتهم، ما زالوا قادرين على الشعور، ما زال يتم رفضهم، ما زالت لهم رغبات غير محققة وأهداف تطلب منهم استحقاقًا وعملًا، ما زالوا قادرين على العيش بحلم أقرب للمستحيل يسيرون له خطوة فيبتعد عنهم عشر خطوات، ما زالوا يتمتعون بالمسير، ما زالت النهاية تبتعد عنهم وتواصل الابتعاد" يا صديقي كنت بحاجة إلى نهاية كهذه النهاية، تدعني أموت وأنا أنظر إليها بعين الحياة، تدعني أموت ليكون الموت راحتي. كنت أريد حلم أحبه لا للوصول بل للمسير، أحبه لأنظر إليه بدون أن أناله، كنت يا صديقي لا أريد غير القليل. كنت أريد أهداف أفشل في الوصول إليها ولكن أنجح في المسير إليها.

نعم يا صديقي كنتُ ما أريده هو الفشل في الوصول والنجاح في السعي. أريد البعيد عن قدرة الحياة في منحه، وأريد البعيد عن قدرتي في الوصول إليه. نعم يا صديقي أريد أن أتآمر على نفسي وأن تتآمر عليَّ الحياة.

فيما تطرحه حياتي من خيارات كثيرة كنتُ أقف حائرًا متردد بالاختيار، فالكثرة أفسدت لذته، فيما تطرحه حياتي من خيارات كثيرة، كنت أقف تائهًا عن خيارات صائبة، فلا أجد إلا عشوائية الاختيار وسيلة بها أستهدف الخيار الصائب. إنَّ من لا يحالفهم الحظ يستمروا بلى خيار صائب مدى الدهر، ومن يحالفهم الحظ في خيار يطردون حظهم باختيار لاحق. إنَّ حظنا نحن البشر المعذبون بالكثير يطرده ضعف قدرة الإنسان على الصبر وطمعه الذي يطمح به بتحصيل جميع الخيارات، فالرغبة بالجديد أكبر من صبرنا على القديم حتى لو كان خيارًا صائبًا. الكثرة أفسدت اختياراتنا ولكن لا تعتقد يا صديقي أنني عدو الكثرة، فوحدها حداثة تجاربنا فيها هي سبب جعل الكثير عدو. إنني لا أُعادي الكثرة بظروف وجودها ونتائجها، فالكثرة هي ما تكفل التنوع والتنوع هو مايكفل الحرية. سيُشكِّل الوقت الذي نمضيه بالخسارة من هذه الكثرة التي تتيحها الحياة لنا حتمًا الخبرة التي ستكفل لنا تقليل الخسارة وجعل الكثرة حليف.

الحيا ة للبعض يا صديقي مزدحمة بخيارات تُشكِّل عبئًا كبير عليهم في اختيار الخيار الصائب. البعض مضللون بكثرة الخيارات والبعض الآخر بندرتها. عالمنا يا صديقي

لم يعد يكافئ من يحوز استحقاقًا ولهذا نحن حمقى باستحقاقنا، ومتى لم نعد نكترث للاستحقاق سنحوز ما نرغب. العالم يُساومنا فيقول: ستنال ولكن ابقى بلى استشعار بقيمتك، ستنال ولكن لا تكترث بنوعك، ارغب بدون أن تطلب وستُعطَى. نعم يا صديقي ما نملكه لا نملك له استحقاقًا في هذا العالم،نحن حائزون عليه بالرغبة فقط. عالمنا يشترط علينا لمنحنا ما نرغب به، أن نتخلص من استحقاقنا. العالم يطالبنا باستحقار أنفسنا وبالشعور باللاقيمة والنقص والدونية.

لا فراق ولا لقاء، هنا حيث تنشأ مهملًا بدون عزلة، محاط بالكثير، فلا ارتحال للخارج ولا ارتحال للداخل يغير حالًا، هنا حيث الكثرة موحشة، هنا حيث الكثرة متمردة ومُلحقة هزيمة باستشعارنا بالقليل والكثير، هنا حيث تدعوك الكثرة للطلب، هنا حيث تمنعك من التردد، فالتردد توقف عن الاختيار والطلب لفترة، هنا حيث الكثرة تفرض عليك لتشير لوجودك منها إليها، فأنت لست موجود ولكن موجود بواسطتها، هنا حيث طلب القليل ووجود الكثير. لقد كان القليل يعذبني بانتفائه، لقد طلبته فقط لأشير لوجودي مني إليَّ. كنت أطلب القليل بدون رغبة، ولا أطلب الكثير بالرغم من الرغبة فيه، فتحقق لي رغباتي وترفض مطالبي. نعم يا صديقي لقد كنت أُعادى برغبة متحققة وطلب مرفوض.

نحن البشر يا صديقي بحاجة إلى الاقتباس من الليل والنهار روتينهما، نحن بحاجة إلى استعارة عادة الشمس المملة،نحن بحاجة إلى الملل أينما كنا، فالحماس والإثارة والمجازفة والتشويق جميعها لا تناسبنا نحن البشر، وحده الملل سبيلنا للحفاظ على قيمنا وأخلاقنا وأهدافنا. نحن بحاجة إلى الملل والضعف لكي نتمتع بعناد الحياة وتمنعها علينا.

نُعطَى يا صديقي ونعتقد أننا نحوز ما نُعطَى ونستهلكه، وفي الحقيقة نحن نُعطَى لنحاز بما أُعطينا ونُستهلك به، نحن نُعطَى بتنازلنا عن أنفسنا سواء ما نُعطَى مجبرين على أخذه أو نأخذه طوعًا.

لقد كنتُ يا صديقي أقف هناك حيث لا يمكن لأحد الإشارة إليَّ،حيث لا يمكن العبور مني، حيث لا يمكن لأحد السير فوقي أو تحتي أو من جانبي، كنت حيث أكون لا أكون.

خيارات كثيرة، كل خيار فيها ينزعك كلك في ذات الوقت، كأنَّ كُلك كبعضك يمكن الإشارة له كجزء، كأنه ليس بواحد، كأن كُلك كبعضك يمكن محاصصته وتجزئته بدون أن يفقد مسماه.

لقد كنت أريد القليل عندما كنت أستهدف الكثير، ولكنني الآن أطلب القليل والكثير معًا، لا أريد لأحد منهما أن ينفي الآخر، لا أريد لإنسان أن يُستهدف بالقليل فقط أو بالكثير فقط، فهذا هو العذاب، أريد للإنسان أن يُستهدف بكليهما.

نحن يا صديقي بحاجة في أوقات كثيرة لإبطاء عملية معالجتنا للعدد الهائل من الصور التي نستقبلها، لكي نوليها حقها من الاهتمام والتقدير اللذين هما حقنا منهما أيضًا. إننا عاجزون عن الاكتفاء، ولهذا ينبغي علينا تدريب نفوسنا على الرفض والاعتراض. إننا عاجزون عن الاكتفاء بالتَّعلُّق بحكم على الأشياء التي تسمح قدرتنا الضئيلة على الإحاطة بإبداء آرائنا فيها، ولهذا تجدنا نتعلَّق بكومة قمامة من الأحكام.

هنا توقَّف، قال عمر بعد لحظات كان يحاول فيها تقليب ما سمعه في عقله:

- إذًا يا صديقي فلقد كنا معًا في نفس الجحيم ولكنك كنت على الطرف الآخر منه.

- نعم، لقد كنتَ تُعذب بالقليل وكنتُ أعذب بالكثير.

ثم أخذ عمر يهرب بتأمل السماء بعدما شعر بحزن شديد تسرب له من ذكرياته الأليمة،وبعد لحظات صمت طويلة قال مارك محاولًا التخفيف عنه بعدما شعر بحزنه واختناقه بنبرة مرحة مليئة بالحماس:

- ولكن غدًا بمعاناتنا أجمل للإنسان.

- من العدل أن يكون هذا.

- وحتمًا سيكون.

قال عمر بعدما تمكن من إخفاء حزنه بعد لحظات عادا فيها للصمت:

- ألم تملك قلبك إحداهن إلى الآن.

- كثيرات فعلن.

غرقا بالضحك.

ثم قال مارك:

- بالتأكيد فعلت إحداهن.

- أيها اللئيم لم تقدمني إليها وتقدمها لي. أتخاف عليها مني. ألست واثقًا من حيازتك لقلبها.

وأخذا بإطلاق الضحكات،ثم قال مارك بنبرة تحاول إخفاء الحزن وبابتسامة تحمل الألم:

- إنها بعيدة يا صديقي.

- فهمت عليك.

- لا ليس كما اعتقدت. لقد رحلت عن عالمنا من هذا المستشفى الذي خلفنا.

- أنا أسف.

- رحلت بعدما انتشلتني، كأنَّ وجودها لم يكن إلا لهذه المهمة. سنوات سبع على رحيلها تركت لي البحث فيهن للتخفيف عن حزني.

ثم سكت قليلًا ورجع يقول بحماس وبنبرة مطرود منها الحزن:

- إنها لا تستحق التواجد في عالمنا القبيح. أنا حقًا سعيد بإفلاتها من جحيم حياتنا.

- أنت بحاجة للجلوس مع ميار، أنا متأكد أن لديها علاج أفضل من اسلوبك هذا الذي تحاول فيه خداع نفسك.

- لقد قال لي صديق قديم تعرفت عليه أثناء فترة علاجه التي تزامنت مع فترة علاج خطيبتي: لا ضير في أن تخدع نفسك طالما الحقيقة تضرها والزيف ينفعها. لقد كان أمهر من رأيت في التعامل مع نفسه. لقد ذكَّرتني نظراتك للسماء قبل قليل بنظراته.

فأطلق عمر ضحكات تعجب منها مارك ثم قال:

- اسمه إبراهيم، أليس كذلك؟

فارتسمت علامات الدهشة على وجه مارك، ثم قال:

- إذًا فلقد كان صديقك أيضًا.

وأخذا بالضحك كمجنونين من هذه الصدف التي أحالاها لخطط الحياة لهما.

كانت الساعة في تلك اللحظات تشير إلى الموعد الذي حدداه للانطلاق لبدء النقاش، فنهضا بعدما تبادلا الوعود على تبادل آخر ذكرياتهم مع إبراهيم، وانطقا إلى المنزل.

***

عندما وصلا المنزل بدأ النقاش بعدما فتح كل منهما أوراقه والكتب التي كانت مصادر لكثير من نصوصهم التي فحصوها وحللوها واستخلصوا منها النتائج، وكان كالتالي حيث عمر من افتتحه كما هي العادة:

- يتساءل الناس دائمًا: هل من الصواب نسب وجود السلطة إلى رغبة الأغنياء بحماية أملاكهم، أم إلى رغبة الفقراء بالغنى؟ والحقيقة أن وجود السلطة ليست نتيجة رغبة الأغنياء والفقراء، بل هي نتيجة الراغب باحتكار الغنى لنفسه والذي هو في ذات الوقت الراغب باحتكار الفقر لغيره.

- صدقت، فوجود الرغبة بالاحتكار لا توجد بين الأغنياء فقط بل أيضًا بين الفقراء، ولهذا ليس من العدل حيازة أحد للسلطة.

- الرغبة بالاحتكار يتم إشباعها بالسلطة ولهذا السلطويين لا يهدفون إلى الغنى بل إلى احتكاره، ولهذا لا يلام الأغنياء على وجود السلطة بل تلام السلطة على إيجاد رغبة الاحتكار وإشباعها.

- إن السلطة يا صديقي هي واقع الاحتكار أما اللاسلطة هي الكفيلة بإيجاد واقع يقاوم وجود الرغبة بالاحتكار.

- إن تنصيب البعض لمكافحة الرغبة بالاحتكار العداء للملكية لم يكن صائبًا بتاتًا.

- بالتأكيد، فالملكية لم تكن العدو، بل العدو هو عدم ثقتنا بقدرة البشرية على إيجاد ما يشبع احتياجاتها، عدم ثقتنا بالعقل البشري.

- إن نسب وجود السلطة إلى الأغنياء هو نسب أوجد عداوة لم تكن موجودة بين الفقير والغني. إن نشر الاعتقاد بوجود السلطة بيد الأغنياء هدفه تضليل الناس عن حقيقة أن السلطة ليست بيد الأغنياء بل بيد محتكري الغنى.

- الذين هم غالبًا بحيازتهم للسلطة ينفون الأغنياء الذين لا سلطة لهم إلى الفقر، ويُبقون على الفقراء في الفقر لكي يحتكروا الغنى لأنفسهم.

- أحسنت، إن وجود السلطة ولَّدت لدى الفقير رغبة بالاحتكار ليخرج من فقره، وكذلك ولَّدتها لدى الغنى للإبقاء على غناه، وبالتالي أوجدت السلطة صراع بين الغني والفقير لإلهاء كليهما عن محاربة كل وجود سلطوي.

- إن نفي وجود السلطة نفي لوجود المُحتكِر، وبالتالي نفي للعداوة الغير مبررة بين الغني والفقير.

- بالضبط. إن الفقير لا يهدده فقره بل سلب قدرته في طرد فقره، وكذلك الغني لا يهدده غناه بل يهدده سلب قدرته على الإبقاء على غناه والوجود الغير شرعي لما يبقي على غناه.

- لقد أثبتت التجارب الإنسانية المتراكمة أن ثروات عالمنا أكبر من قدرة الإنسان على التملك، وقدرة عقل الإنسان على إيجاد الثروة أكبر من قدرة حاجة الإنسان واستهلاكه.

- هذا يُدلل على أهمية قول كروبوتكن في كتابه "الاستيلاء على الخبر" "لا، لا الكثير للجميع ليس حلمًا"

- مقولة رائعة. بالوجود اللاسلطوي تكون القدرة على الخروج من الفقر مكفولة وكذلك القدرة على الإبقاء على الغنى.

- ليس الطبقة من تُعيقنا من الانضمام إليها بل السلطة التي اختارت طبقة ما هي من تفعل ذلك.

- أحسنت، وحتى لو افترضنا جدلًا وجود الخصام بين الغني والفقير، فإن عالمنا بسلطويته درجة الالتزام لا تحددها الاتفاقات بين المتخاصمين بل تحددها درجة احتفاظ أطراف الصراع بقدرتهم التفاوضية التي مصدرها أسلحتهم الميدانية، فتراجع القدرة التفاوضية لأحد أقطاب الصراع يعني وجود اتفاقات جديدة.

- يجب على البشر أن يدركوا أن الغني في مجتمع لاسلطوي بغناه غير معترض حرية الفقير في الخروج من فقره، والفقير برغبته في الخروج من فقره ليس معترض حرية الغني في الإبقاء على غناه، اللاسلطوية قادرة على احضان الجميع بسلام.

- اللاسلطوية تتيح ذلك بالإقرار بأنه من العدل أن يوجد حد أدنى في كمية ما يملكه الإنسان، لتوجد مساواة في الحق بالملكية، فكما أنه ليس من العدل وجود حد أقصى في كمية ما يملك فإنه أيضًا من العدالة وجود حد أدنى في كمية ما يملك.

- بالضبط فخوفنا على الحرية من التملّك المُقيَّد ينبغي أن يصاحبه خوف على الحرية من انعدام الملكية للبعض.

- أحسنت، يا صديقي لا تكفي إرادتي لشيء بحيازته وفي ذات الوقت يبقي لي الحق في الحصول على ما يُبقي على إرادتي بالإبقاء على حياتي. وعليه فإرادتي كافية للحيازة إذا كانت هذه الحيازة هي الجزء من إرادتي الذي يكفل وجودها.

- رائع، وعليه العمل لحفظ الحياة يُدلل على وجود ظلم واقع على الإنسان.

- بالضبط، فسعي الآخر غير المشروط لتحقيق مضمون إرادته، ينبغي ألا يلغي الوجود غير المشروط لكافل وجود إرادتي. وعليه فحق الإنسان بالحيازة غير المحددة بعمله، ينبغي ألا يُلغي حق الإنسان بالحيازة غير المشروطة لما يكفل وجوده.

- أي العمل لا ينبغي أن يكون مصدرًا لما يكفل الحياة بل ينبغي أن يكون مصدرًا لما يضفي على حياة الأفراد راحة أكثر ودرجة من الرفاهية أكبر.

- بالتأكيد يا صديقي، فكما للإنسان الحرية المطلقة بالحيازة بعمله فله أيضًا الحق بالحيازة بدون عمل لما يكفل عيشه، ومحاولة تقييد وسلب أي من الحقين تكون نتائجه كارثية. وعلى ما سبق نقول بأنه علينا الحرص على ألا يُنتزع منا الغرض من عملنا اليومي.

- من المؤسف والمحزن أننا إلى الآن نتخذ من العمل وسيلة للبقاء. كم هو مخزي أن يكون العمل إلى الآن إلزاميًا، وألا يكون مجرد امتثال لواجب أو لشعور بالمسؤولية، أو بدافع تنظيمي، أو بدافع بحث عن رفاهية وكمالية. من المخزي أن يكون إلى الآن دافعه سد حاجة.

- إن الحجج التي تدَّعي أن بقاء العمل الذي يهدف إلى إشباع الحاجة يحمي من الخمول والكسل وعدم الرغبة بالعمل، حجج لا أساس لصحتها، والتجارب البشرية تثبت ذلك.

- إن فصل إشباع الحاجة عن العمل يسهم في تطوره وتنوعه، فالإنسان الذي يضمن حياته ولا يعيش تحت تهديد الحاجة، هو أكثر إبداعية وأكثر ابتكارًا.

- إن العائق الوحيد لتقدمنا البطيء الذي نتوهم سرعته هو ارتهان الحاجة المشبعة بالعمل.

- مقاييس الجدارة إذا طالت الضروريات الأساسية للإنسان، أصبحت مقاييس استحقاق وعدم استحقاق وجود. إن الوجود الإنساني لا يجب أن يحكم فيه مقياس، لأن المقياس وجد لموجود مستحق لوجوده قبل أن يمنحه مقياس بشري هذا الاستحقاق. لا ينبغي ان تتجرأ المقاييس على الحكم في استحقاق الإنسان لوجوده من عدمه. جميعنا مستحقون لوجودنا، ولهذا جميعنا مستحقون لمقومات هذا الوجود بدون شروط. إن العمل لا ينبغي أن يوفر استحقاق وجود فنحن مستحقون لوجودنا قبل العمل. يجب أن ندرك أن كل مقياس كان موجود لمُستحق الوجود.

- أحسنت، أحسنت. العالم الآن بحاجة إلى جنة الإنسان فقط، سواء كان عاملًا أم غير عامل، فالعمل لم يعد حجة مقنعة تبرر في عدم وجودها حياة الإنسان البائسة أو موته.

- لا ينبغي أن يشعر الإنسان بقيمته من عمله أكثر من شعوره بها من وجوده، فعدم ادخال كثير من النشاطات في نطاق العمل أو تحت مسمى عمل لا عائد منه، أي ارتباط العمل بالعائد ساهم في اخراج كثير من النشاطات من مسمى العمل وبالتالي فقدان لتنوع أكبر في الأعمال وأيضًا فقدان الميزة الإبداعية والابتكارية للإنسان، وتعرض كثير من النشاطات للإهمال والاستهزاء بها والعداء.

- إذا بقي العمل كشرط للبقاء، فإن ما سيدفعه العامل سيكون مساوي في قيمته للبقاء أي ما أقصده تمسكه بأخلاقه وقيمه.

- بالتأكيد، فبقاء العمل كشرط للبقاء يوجد التزام بما يصاحب العمل من شروط وقواعد مهما كانت مخالفة للقيم والمعتقدات والأخلاق.

- يجب توفير بقاء غير مشروط وإلا سيستمر الشرط في المساهمة بانحطاط الأخلاق وزوال القيم وبالتالي الاستمرار في حالة الحرب والصراع.

- يا صديقي البقاء المشروط هو آفة عصرنا، ومنبع اللامساواة بين البشر.

- لقد ضُلل الإنسان بأنه مطبوع على حفظ بقائه وفي الحقيقة هو مطبوع على حفظ بقائه غير المشروط، فالبقاء ليس كافيًا للإنسان للعيش بسلام، ولهذا لا بديل للإنسان عن البقاء غير المشروط.

- الحالة الطبيعية هي الحالة التي حرصنا فيها على حفظ بقائنا غير المشروط وبالتالي هي التي حرصنا فيها على تفادي الإضرار بسعي الآخرين لحفظ بقائهم غير المشروط.

- القضاء على سلطة الحاجة ينقل كثير من الأفعال السلطوية إلى الحالة اللاسلطوية، فمثلًا خيار الطرد من العمل هو فعل سلطوي في ظل وجود الحاجة، أما في ظل عدم وجودها فهو فعل لاسلطوي، لأن التهديد بالطرد يعادله تهديد بالاستقالة وبالتالي تسقط سلطة العامل ورب العمل.

- بالتأكيد، فتأمين الحاجات الأساسية لجميع البشر، يُعدِّل من موازين القوى التفاوضية بين العامل ورب العمل.

- سلطة الحاجة إذا تم هدمها، هدمت معها كافة أشكال السلطة، وكافة التسلسلات الهرمية والجندرية والعرقية. ولهذا تجد الحركات البيئية والنسوية والحركات التي تشكلت لدفع اضطهاد واقع عليها من سلطة ما، في النظام اللاسلطوي تحقق لأهدافها ومساعيها.

- في مجتمع لاسلطوي أيضًا لا يكون هناك خوف من حلول الآلة محل الإنسان في العمل، لأن هذا الحلول لن يتعرض للمساس بمقومات وجود الإنسان.

- أحسنت، بل إن وجود الآلة سيصرف الإنسان إلى إيجاد أعمال جديدة يكون فيها أكثر إبداعًا وابتكارًا، وسيساعده في توفير كثير من الجهد المبذول ليمنحه لتعظيم ثقافته وتحسين تعليمه.

- في النهاية يا صديقي، لم تعد شعارات مثل "من كل حسب قدرته إلى كل حسب حاجته" و "من كل حسب قدرته إلى كل حسب عمله" و "دعه يعمل دع يمر" شعارات تناسب الإنسان.

- إن هذه الشعارات جعلتنا أعداء للآلة بدون أن ندرك أن هذا العداء يضرنا.

***

بعدما انتهيا جلسا للاستراحة بسماع الموسيقى وبترديد بعض الأغنيات، ثم طلب مارك الطعام من أحد المطاعم عبر الهاتف، بعدما عجز عن مجاراة عمر في تجاهل حاجته له، وبعدما فرغا نهض عمر للانصراف بعدما أخذ بتحذيره من صعوبة الإحاطة بجوانب موضوع النقاش الذي حدداه لليوم التالي، وبعدما استعار منه بعض من الكتب.

بعدما وصل إلى شقته، جلس في شرفتها، وأخذ يتأمل السماء محاولًا إطفاء النيران الجهنمية التي تضطرم في نفسه المرهقة والتي أشعلها فيه عظيم شوقه لإبراهيم، محاولًا السيطرة على قلبه الذي استبد به حزن ثقيل على فراقه الذي يطول، وبعد ساعة عاد إلى مكتبه وأمسك بأوراقه وقلمه وأخذ يقرأ ويُعلّق على ما يقرأ.

(5)

نهض عمر عن مقعد مكتبه في صباح الأربعاء بعد ليل أمضاه بالعمل المتواصل في إعداد ورقة النقاش، فشعر بتصلب ظهره وتنمل قدميه لمكوثه الطويل بدون حراك، فأخذ يمارس بعض التمارين الرياضية ليحاول تليين عضلاته وعظامه ودفع الدم في أعضائه، ليشعر بوخزات في قلبه الذي ضمرت عضلته من قلة حركته آلمته بشدة، دفعته للتوقف بهدف متابعة نبضات قلبه بيده. في تلك اللحظات بدأت تتولد لديه أحاسيس بدنو أجله، وشكوك بسلامة قلبه الذي تكرر شعوره بوخرات فيه.

كان يُحدِّث نفسه في تلك اللحظات قائلًا: "هذه إشارة منك أيها الموت. نعم لربما هذه إشارتك لرضاك عنِّي، ولإعلامي أنك بدأت تجد استحقاقًا لي فيك. لقد حاولت وسأحاول إلى أن تمنحني الراحة. نعم أنا أستحقها. أنا الآن أستحق الالتقاء بصديقي. أنا أستحق عالم لا ينال منى اعتراض بعد اعتراضتي المستمرة. ها هي النهاية التي ترسم بدايات لا نهايات لها قد اقتربت، ولربما أنا هو من اقتربت. لا أعرف، ولكن اللقاء قريب، هذا ما مُنحت معرفته اليوم."

ثم أخذ يرتدي ملابسه وبعدما فرغ التقط أوراقه التي أفرغ عليها حبر قلمه طوال الليل وخرج متوجهًا إلى منزل مارك.

كانت درجة الحرارة أقرب لتكون صيفية من كونها ربيعية، وكانت نسمات الهواء الباردة بقلة هبوبها تمنح شعور أعمق بلذتها. اجتاحه في أثناء المسير في الشوارع الهادئة المُعبَّدة دفعة من ذكريات حصَّلها في مدينته البائسة، كان منها ما كانت تتلقفه أسماعه من نداءات الباعة المتجولين ذات النظم الحزين، وما كانت تتلقفه عيناه من مشاهد الدمار التي ترسم دستوبيا الواقع. لم تكن ذكرياته التي حضرت تعبيرًا عن شوق بل إشارة لألم في الأعماق، لم يحاول تجاهل ذكرياته المؤلمة كما كان يحاول تفادي النظر إلى مشاهد البؤس قبل سنوات عزلته السبع، فلقد اكتسب الخبرة الكافية التي تمكنه من عدم الانتماء تحت أي ظرف، فكان يتابع ما يتم استحضاره بدون تأثر وبدون انهيار.

عندما وصل لمنزل مارك فقدت ذكرياته قوة جذبها، وجذبه صوت الموسيقى المنبعث من المنزل، وبعد انتظار الاستجابة لقرع الجرس أمضى لحظاته بالنظر وبمحاولة استنشاق روائح الورود المختلفة في اللون والنوع والرائحة في الأحواض أمام المنزل، تفاجئ بفتح سيدة رجَّح بأنها في منتصف عقدها الخامس جميلة المظهر أنيقة

الملبس رشيقة الحركة قوامها كقوام شابة في عقدها الثاني، بان من تدفق الدم في وجهها الخالي من التجاعيد البارزة ممارستها للرياضة.

قالت بعد نظرات متفحصة له وبابتسامة مرحة ونظرات ممازحة:

- لا بد أنك أخطأت العنوان.

فسأل وعلامات الدهشة مرتسمة على وجهه:

- أليس هذا منزل مارك؟

- نعم

قال بعدما مد يده ليصافحها وقد لاحظ علامات الدهشة على وجهها:

- أنا عمر، صديقه.

صافحته وبدت مُتعجبة ومسرورة ثم قالت:

- لم أعلم أنه كوَّن صداقة جديدة.

- صداقتنا لم يمضي عليها كثيرًا

اعتذرت منه على إيقافه في الخارج وطلبت منه الدخول، وعندما جلسا في الصالون الذي وجده مرتب وروائح جميلة تنبعث منه بعدما كانت الفوضى تشيع في كل ركن من أركانه، قالت بعدما أطفأت الموسيقى:

- منذ زمن طويل لم يكوِّن مارك صداقة مع أحدهم. لا بد أنه وجد فيك ما لم يجده في كثيرين.

فقال عمر محاولًا تفادي احراج عدم معرفته لها، ومحاولًا الاندماج مع انفتاحها وروحها المرحة الممازحة وحيويتها:

- وما هو باعتقادك؟

- وجد فيك صديقه القديم.

- لست حتى قريبًا منه.

- أتعلم من هو صديقه القديم؟

- أعتقد أنك تقصدين إبراهيم.

- إذا فلقد حدَّثك عنه.

- لا، لقد كان إبراهيم صديقي أيضًا.

ثم أردف بسرعة قبل أن يمنحها فرصة للكلام:

- أين ماركك؟

- إنه يستحم، دقائق وسيخرج. لم تتعرف عليَّ صحيح؟

- آسف لم يحصل لي الشرف بعد.

- أنا خطيبته.

فتفاجأ وارتسمت على وجهه ابتسامة، فقالت بنبرة حادة حازمة:

- تعابير المفاجأة هذه والابتسامة لها معاني. أتراني كبيرة عليه؟

- أعتذر، أنا لم أقصد هذا. لقد تفاجأت من عدم تعريفي عليكِ.

- أمتأكد أنها ليست تعابير اعتراضية؟

في تلك اللحظات ظهر مارك وبعدما جلس بجواره قال:

- لا بد أنها ضايقتك بمزاحها. إنها لا تعرف كيف تكون جادة. بالمناسبة هذه أمي.

فنظر إليها عمر وأخذا بإطلاق الضحكات.

بعدما أعدت الفطور جلسوا يتناولونه معًا، وكانت تلك لحظات استمتع فيها عمر بالروح المرحة لأم مارك بينما كان مارك شاعرًا قليلًا بحصار أمه التي كانت في قمة سعادتها بنجاحه في تكوين صداقة جديدة.

لقد حركت تلك اللحظات التي غلب فيها الأحاديث المضحكة في عمر أشواق للحياة العائلية التي أهملها منذ فترة طويلة، بسبب اهتماماته واعتراضاته ومهمته التي اختارها، ففتح قلبه جميع بواباته وأخذ يدفق بحرية تلك المشاعر الحبيسة فشعر بدفء يحتضنه، شعر ببهجة كبيرة وسعادة عظيمة سرعان ما طردها بؤس استوطنه بعدما شعر بفقدانه الكثير الذي لا يُقلله الكثير الذي أدرجه في قائمة المفقود، ليأخذ بمحادثة نفسه متعجبًا قائلًا: "كيف يمكن لقائمة المفقود أن تبلغ هذا القدر من الاتساع! كيف يمكنها احتواء المزيد! كيف يمكن أن يكون الطرف الآخر قادر على الاستفادة من هذا الكثير الذي نفقده! ألا يخشى إفساد حواسه ومداركه بهذا الكثير! أيُعقل وجود طرف ثالث لا يستفيد ولا يخسر بما نحوزه ونفقده، وإنما هو فقط هادف لاستمرار معاناتنا بالحيازة والفقدان؟"

بعد ساعة طلب مارك من أمه المغادرة بدون تقديم مبررات، وقد استجابت لطلبه بدون إحراج وضيق وحزن، كأنها كانت معتادة على هذا الطلب، لتأخذ بشكره على تذكيرها بموعد قد حددته للالتقاء بأخصائية التغذية التي تتابع وتشرف على نظامها الغذائي.

كان عمر في تلك اللحظات يحاول بنظراته المُلحة دفعه ليكون أكثر ذوقًا من خلال تقديم تبرير لطلبه، فكانت استجابة مارك سبب في إشعار أمه بالتغيير الذي أحدثته فيه صداقته الجديدة، ثم أخذ يُعبّر لها عن سروره بلقائها والتعرف عليها، ويفصح عن أمله بالالتقاء بها مجددًا في أقرب فرصة، ليدفعها ارتياحها له بعد مصافحته للانصراف للهمس بأذنه قائلة:

- شكرًا لك، لقد أحدثت فيه تغييرًا رائعًا. أرجو أن تساعده في أن يجد في شابة حبيبته.

***

بعدما غادرت انتقلا إلى غرفة أبحاثهم ونقاشاتهم وأخذا بترتيب الكتب التي سيستعينان بتحليل نصوصها والاقتباس منها وبترتيب الأوراق التي قاموا بإعدادها لمساعدتهم في النقاش الذي كان كالتالي والذي كان عمر من افتتحه:

- إن سبب ضعف الاقتصاديات هو اعتمادها على التدخلات الحكومية للتعافي بدلًا من التعافي بواسطة اليد الخفية.

- أرى أن التدخلات الحكومية لا ترفع من مناعة الاقتصادات المستهدفة بقدر ما ترفع من مناعة الاقتصادات المنافسة. وأيضًا التدخلات الحكومية في الاقتصاد في الدول الديمقراطية تسهم في تنامي الحاجة إلى أنظمة شمولية لدى الدول التي تعاني اقتصاداتها جراء المنافسة الغير عادلة من قبل الاقتصادات الكبرى. ولهذا حصص الاقتصادات الكبرى في الأسواق آخذة بالتراجع لتنامي القدرات العسكرية للمنافس الذي أخذ يتمرد على الهيمنة.

- ولهذا تجدنا ننظر إلى اطروحات هايك كإطروحات تحررية بخلاف اطروحات كينز التي نرى أنها تخدم أهداف إمبريالية، فنظريات هايك تسهم في وجود حركة تطور تطال جميع بقاع العالم، حركة غير مُحتكرة، بخلاف نظريات كينز التي تسهم في احتكار عجلة التطور من قبل الأقوى. نعم الاقتصاد الكينزي هو اقتصاد يهدف لنقل المشاكل الاقتصادية للأقوى إلى الأضعف عن طريق التوجه الإمبريالي، ولهذا نرفض التدخلات الحكومية لإصلاح السوق.

- إن الدولة بحد ذاتها هي احتكار لنتاج عجلة التطور وهي إعاقة لحرية هذه العجلة في اختيار بقعتها. إن ثقافة الترحال ينبغي أن تطغى على ثقافة المواطنة. في صالحنا

نحن البشر أن يكون لدينا شعور بأننا نحن الأوطان لا تلك القطع المُسيَّجة من الأرض والبحر. نعم ينبغي علينا ألا نسمح للأرض باحتكارنا، ينبغي أن نحب أنفسنا كبشر لا كملاك، نحن يا صديقي لا نعارض الملكية كبعض اللاسلطويين الكلاسيكيين بل نعارض ونناهض ملكيتنا لأملاكنا.

- أحسنت يا صديق. إن الأنظمة الدكتاتورية موجودة بوجود الأنظمة الديمقراطية الآن، ولكن في المستقبل القريب إذا لم يستفيق الإنسان ستكون الأنظمة الدكتاتورية هي سبب تحول الأنظمة الديمقراطية لدكتاتورية لا لاحتلال أو حرب تكون فيها الخسارة، بل لاعتماد الأنظمة الديمقراطية الموجودة على حصصها الإمبريالية لإصلاح اقتصاداتها. هنا لا أنفي عدم اعتماد أيضًا الأنظمة الدكتاتورية على حصصها الإمبريالية.

- بالضبط، لقد كان التدخل الحكومي على مدار التاريخ في الاقتصاد سببًا رئيسيًا في ازدياد الحاجة لوجود أنظمة حكم شمولية، فهذه الأنظمة التي غالبًا ما تتبنى نظام اشتراكيًا أم مختلطًا وجدت كرد فعل على استخدام أنظمة الحكم الديمقراطية في تبنيها لنظام اقتصادي رأسمالي التدخل الحكومي كوسيلة للتعافي.

- أعتقد أن نظام الحكم الشمولي هو وسيلة من لا يملك الوقت والإمكانيات ووسيلة من لديه الكثير من العداوات، أما نظام الحكم الديمقراطي هو وسيلة من يملك الوقت والإمكانيات ولديه القليل من العداوات وكثير من الفرص المتاحة.

- طالما الجميع في صراع مع الجميع، فالجميع سيقوم باختيار النظامين كوسيلة لهزيمة الآخر. لا أستبعد أن نجد دول ديمقراطية تتحول لدكتاتورية ودول ديكتاتورية تتحول لديمقراطية قريبًا. هذا ما سنراه طالما لم نسعى إلى إحلال النظام اللاسلطوي.

- نعم، وعليه في نظام لاسلطوي الاقتصاد الرأسمالي لا يتعافى إلا بواسطة اليد الخفية، وكذلك الاقتصاد الاشتراكي والشيوعي لا يوجد إلا بوجود حرية الفرد في الانضمام إليه. نعم في مجتمع لاسلطوي لا وجود لقناعة بالإلزام والإكراه والاعتداء والاحتكار للتعافي.

- يا صديقي لقد تراجعت قدرة الشعوب على احتمال الموجات السفلية للعائد والانهيارات الاقتصادية بسبب التدخلات الحكومية المستمرة ونتيجة لهذا التراجع أصبح هناك نوع من الدعم الشعبي للنشاطات التوسعية.

- ونتيجة أيضًا تراجع قدرة الحكومات على اتخاذ التوسع خيار نتيجة تنامي قدرة الردع للعديد من الدول التي كانت تعتبر كأسواق، وفي بعض الأحيان لتراجع قدرة الحكومات على تحصيل تأييد شعبي لهذا التوسع، فالحكومات أصبحت عاجزة عن الإيفاء بالمطالب الشعبية بالموجات العلوية.

- وبالتالي استمرار المطالب الشعبية بالموجات العلوية في ظل قدرات متراجعة للحكومات على التوسع ساهم ويساهم بازدياد عنف الحكومات الديمقراطية وزيادة اعتمادها على وسائل وآليات الأنظمة الشمولية القمعية.

- بالدولة تم التضحية بأهم وسيلة تتخذها الشعوب للتعافي من ارتحال عجلة التطور، وهي الترحال المستمر. نعم بالدولة عجلة التطور تُساق وتحتكر لشعوب دون شعوب أخرى، وهذا ما أسهم في حروب دامية وصعود الأنظمة الدكتاتورية. وهذا الاحتكار الذي أشركت فيه الدول شعوبها هو سبب رئيسي في تنامي الخطابات العنصرية.

- حقًا إنه يتم طمس وعي الشعوب وتهيئة الظروف لها لتبني الخطابات العرقية والدينية والقومية والوطنية. إنه يتم طرد كل جاذبية للخطابات الإنسانية. وأيضًا يا صديقي الإمبريالية الخارجية العاجزة عن تحصيل عائد كافي قادت الحكومات إلى الاستعانة بالإمبريالية الداخلية، فالأقليات الآن أصبحت هدف للأكثريات سواء كانت دينية أو عرقية أو غيرها.

- وهذا ما يفسر تراجع التضامن بين الشعوب، ومعاناة الإنسان في بقاع دون اكتراث الإنسان في بقاع أخرى لمعاناته. هذا ما يفسر وجود إبادات جماعية وهجرات قسرية دون وجود تضامن وتعاطف. أصبح الإنسان مفكك، معزول، ولا تربطه أي رابطة. لقد تراجع استشعار الإنسان بانتمائه إلى نوعه، بالرغم من تنامي قدرته على التواصل والتعارف مع أخيه الإنسان. لقد أصبحت تقود الإنسان اللاأخلاقية في أحيان وما يسمى بالأخلاق النفعية في أحيان أخرى.

- الشعوب يتم اقتيادها إلى ما لا تريده بواسطة ما تم دفعها لإرادته، وأحيانًا بما تريده بالطبيعة.

- لقد ظهر في ديمقراطيات عصرنا دكتاتورية أسميها دكتاتورية التحالف السري بين الأحزاب الأكثر شعبية وهذه الدكتاتورية للأسف لم تكتشفها الشعوب بعد، نتيجة تضليلها بخيارات توهمهم بحيازتهم للقدرة على الانتخاب. لقد أفقدت هذه الدكتاتورية عائد قدرة الشعوب على الاختيار، وطالما بقيت الشعوب مُغيَّبة عن هذه السرقة استمرت عملية تسريب قوانين إلى الدساتير تهدد بقيد أكبر وحرية أقل. طالما بقي شعور الناخب بانتصاره لقدرته على الاختيار ولقدرته على تتويج من وقع عليه اختياره، استمرت عملية استغلاله وسلب حريته. يا صديقي يتم التمسك بعلنية التنافس بين الأحزاب المتنافسة على السلطة لأن هذا التمسك يعمل على تجديد قوة مبدأ السلطة.

- صحيح، صحيح. فبإمكان القوانين التي تُسرَّب إلى الدساتير لدواعي أمنية ووقائية والتي تلقى اتفاق الأحزاب المتنافسة عليها ومعارضة شعبية عليها أن تكشف عن هذا التحالف الخفي.

- نعم، فالأحزاب المتنافسة على السلطة لم تعد تتنافس لحيازتها بل تتحالف لتداولها لكي تبقي أحزاب صاعدة خارج المنافسة، ولكي تُبقي على عدم عودة دكتاتوريات كلاسيكية.

- إن هذه الأحزاب تُجهز البشرية لعودة لما قدَّمت البشرية تضحيات باهظة للتخلص منه.

- وهناك أيضًا يا صديقي وسائل خبيثة لتسريب القوانين المكبلة للحريات منها طرح قوانين أكثر تقييدًا تلقى المعارضة الشديدة لتتيح للقوانين المستهدفة بالتواجد من دون أن تلقى معارضة.

- بالتأكيد، إن استراتيجية تمرير قانون مُقيّد بطرح قانون مُقيد أكثر منه يلقى هو المعارضة بدأنا نشهد استخدامها بكثرة. الشعوب أصبحت تمنح الهزيمة بإيهامها بالانتصار.

- يا صديقي الإنسان أمام خيارين لا ثالث لهما، إما المداورة بين أشكال الحكم أو إحلال النظام اللاسلطوي.

- إن شعور الجماهير بالانتصار عند النجاح بانتزاع قيود ذات سلاسل أطول وضمن سلب للحق أقل في ظل مطالب بفرض قيود ذات سلاسل أقصر ودعوات لسلب حقوق أكثر، هو شعور تستهدفه جميع الأحزاب لتمرير قيود جديدة وسلب حقوق أكثر بدون ردود أفعال مقاومة كبيرة وبدون كبت لمشاعر الهزيمة لدى الجماهير لتفادي عواقب مستقبلية، ولهذا التهديد الجماهيري للأحزاب الحاكمة بانتخاب منافسيها لم يعد مجدي للتحالفات التي تتم بالخفاء.

- ولهذا على الجماهير ترك استخدام سلاحها المعتاد وهو التهديد بالمنافس والاستعانة بالحراك اللاسلطوي.

- لم تعد المشاركة الانتخابية يا صديقي تحقق عوائد للجماهير، ولهذا الحراك اللاسلطوي سيكون خيارها قريبًا.

- لقد تراجع العمل الثوري كعامل للتغيير وخيار جماهيري نتيجة اختيار العملية الانتخابية كوسيلة للتغيير.

- لقد ساهمت أيضًا الصناعة بل كانت عاملًا رئيسيًا في تسكين النشاط الثوري الذي انبثق عن عصر التنوير.

- حقًا لقد استخدمت الصناعة في إنتاج الطاعة والخضوع. لقد تم الاستغناء يا صديقي عن النظام الاقطاعي لأن الصناعة بديل مكافئ في تحصيل الطاعة والخضوع.

- ولكن مع التقدم التكنولوجي والتقني والتطور الصناعي أصبحت الصناعة أقل قدرة على إنتاج الطاعة لحلول الآلة محل الإنسان.

- وعليه فإنه كلما تعاظمت قدرة الآلة ستكون النتيجة لجوء الحكومات إلى تبني أنظمة حكم أكثر سلطوية وأكثر استبدادية حتى تتاح وسيلة أخرى لإحلال النظام الذي يستهدفونه.

- ولهذا نرى تصاعد حدة لهجة الخطاب الليبرالي وتوسع مطالبه، فجاذبية هذا الخطاب ناجمة عن التحرر من النظام الذي أوجدته الصناعة والتي أصبحت عاجزة عن إنتاجه.

- لقد وجد خوف لدى الاشتراكيين والشيوعيين من الصناعة لقدرتها على حسر الامتداد الثوري.

- مخاوفهم كانت حقيقية ولكن وقوفهم في وجه الصناعة كان خطأ كبير.

- أؤيدك، ولهذا نشهد تراجع قدرة الوظيفة في بعض الأماكن على الاسترقاق.

- وعليه فالشعوب بدأت تستيقظ من سباتها الذي أوقف كفاحها في سبيل الحرية بعوائد الصناعة. بل لقد بدأت تستعيد الشعوب راديكاليتها في المطالبة بالحرية، ولأن الحكومات عاجزة أمام هذه الراديكالية، فالعمل الثوري سيعود كخيار.

- لقد أصبحت الحكومات الآن في مأزق الرفض والمقاومة المستمر لخيارتها.

- لهذا الدول التي تسعى لتعظيم عوائدها الإمبريالية تهدف إلى المحافظة على النظام الديمقراطي.

- لقد كانت الصناعة قادرة على تحويل أكبر الأنظمة الدكتاتورية إلى ديمقراطية.

- صحيح ولكن مع التقدم التقني والتكنولوجي بدأت تتراجع قدرها على هذا التحويل.

- إذًا العالم متجه بسبب الآلة إلى انتزاع حقه بالعمل الغير مشروط أي ذلك العمل الذي لا يهدد عدم اختياره إشباع الحاجات الأساسية للإنسان.

- ولهذا الإنسان في صالحه الإسراع في إحلال الآلة مكانه في العمل.

- لربما هذا الخيار يُسهم في الاستغناء عن نظام المحاصصة السوقية الذي تكون عوائده للأقوى.

- الشعوب إذا علمت بالخيار اللاسلطوي فحتمًا ستدخله في عملية التخيير وحتمًا سيكون خيارها.

- ولكن بدون الخيار اللاسلطوي العالم متجه إلى الوراء، متجه إلى دكتاتوريات كلاسيكية دفع الإنسان ثمن باهضًا في مقاومتها.

- ولهذا ينبغي أن تقاوم الشعوب الدكتاتورية المُبطَّنة المتعاظمة نتيجة تراجع العوائد الإمبريالية لكيلا تُفاجأ بالدكتاتورية الكلاسيكية في يوم ما.

- يجب أن نفضح متانة التحالفات بين الأحزاب المتنافسة على الحكم، والتي يفضحها باستمرار التوافق العلني على كثير من الممارسات السلطوية المتزايدة.

- بالتأكيد وخصوصًا تلك الممارسات الوحشية ضد الأقليات التي يشكل وجودها مصدر التنوع في المجتمع. نعم محاربة الأقليات محاربة للتنوع وتمهيد لسلب حريات أكبر.

- نعم سنشهد في العقود القادمة إذا لم تستعن الشعوب بالخيار اللاسلطوي ممارسات عنيفة ضد الأقليات الدينية والعرقية بحجج أبرزها مكافحة الرغبات الانفصالية.

- وفي الحقيقة هذا العداء سيكون عداء للخطاب الليبرالي.

- وعليه فمعظم تلك الأصوات العنصرية التي نسمعها في الحملات الانتخابية هدفها تعبيد الطريق أمام التحول الدكتاتوري.

- إن مقاومة الدكتاتورية المُبطَّنة للأحزاب هو السبيل لضمان إعاقة ظهور أنظمة حكم شمولية.

- إن النظام الديمقراطي عاجز عن تحصيل دعم الأغلبية للأقليات والأفراد. إن الأغلبية تحمي حكومتها بالامتناع عن التعاطف مع المعارضة الفردية ومعارضة الأقليات. نعم النظام الديمقراطي يستهدف الأقليات بوحشية ويزيد هذا الاستهداف كلما تراجعت العوائد الامبريالية.

- ولهذا تجد كثير ممن يقبلون به بحجة أنه أهون الشرور، متناسين وجود قطب آخر اسمه الخير.

- لقد ذهب كثير من المفكرين وخصوصًا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، إلى القول بأن الديمقراطية وجهت ضربة قاسمة لجميع أنظمة الحكم المنافسة، واعتبرها البعض بأنها آخر مراحل التطور في النظام الأيديولوجي للإنسان، وبهذا ستكون نظام الحكم النهائي للبشر، وهو نظام الحكم الذي سيسود جميع الأنحاء، وبالتالي فالديمقراطية هي أبعد ما سيصل له الإنسان في سعيه لتطوير نظام حكمه، وهذا ما لم يكن.

- باعتقادي يا صديقي أنه في عصرنا اختيار دولة ما لشكل ونظام حكمها هو في ذات الوقت اختيارها ذلك لدولة أخرى.

- إن الدولة تحفظ وجودها بمداورة أنظمة الحكم فيها.

- وعليه نقول يا صديقي أن التوجهات الليبرالية غير كافية لإصلاح النظام الديمقراطي والنظام الديمقراطي غير قادر على استيعاب مزيد من التوسع الليبرالي.

- نعم فديمقراطية عصرنا كديمقراطية كافة العصور تقف حجر عثرة أمام التوجهات الليبرالية. يا صديقي على الأغلبية أن تتخلى عن دكتاتوريتها لكي تضمن عدم تمكن دكتاتورية أخرى من الحلول مكانها. إن السلطة تتداول شاغليها، فإذا كان حكم الفرد البارحة وحكم الأغلبية اليوم، فغدًا سيكون حكم الفرد أو الحكم الأرستقراطي أو العسكري.

- ولهذا نؤكد على ما قلناه سابقًا أنَّ البشر ليس متاح لهم سوى خيارين، الأول هو التنقل بين أنظمة الحكم للقضاء على التوسع الليبرالي، والتاني هو إحلال النظام اللاسلطوي لاحتواء التوسع الليبرالي.

- بالتأكيد، وعليه الشعوب ملزمة بمكافحة الخطاب العنصري لكي يتاح لهم الخيار اللاسلطوي.

- على الشعوب أن تدرك أن حكم الأغلبية لا يمكن أن يكون تتويج لآخر مراحل الكفاح الإنساني لنيل الحرية، فهذا التضليل هو سبب غفلتها عن الحرية المسلوبة من الأقليات والأفراد.

- إن كل إنسان يا صديقي يمثل أقلية في قضية أو في انتماء معين وبالتالي كل فرد فينا منزوعة حريته.

- بالتأكيد، إن الاعتقاد بأن حكم الأغلبية يمنح الحرية هو السبب في استمرار فقدان الحرية.

- لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون حكم الأغلبية هو الحد الذي لا يمكن للإنسان تجاوزه، لا يمكن أن يكون هو المحطة الأخيرة.

- الديمقراطية هي نفي للاختلاف والتنوع، المجتمع الديمقراطي هو مجتمع يستعبد ويستبعد الفرد.

- لا الأقلية ينبغي أن تشاء للأغلبية ولا الأغلبية ينبغي أن تشاء للأقلية، وحده الفرد الذي له الشرعية في أن يشاء لنفسه.

- في الديمقراطيات لا يقوم الرأي العام إلا بأدوار استبدادية.

- لقد أضرت الديمقراطيات كثيرًا بالأقليات التي كل إنسان منا ينتمي إليها، وآن الأوان لكي ينال الجميع حريته.

- لا يمكن أن يُمنح الشرعية نظام يقدم إرادة لاغية لإرادة الأخر.

- بدون صراع بين العالم كما هو موجود والعالم كما ينبغي أن يوجد، نحن لابثون في أماكن ليست أماكننا وفي أزمنة ليست أزمنتنا.

- أحسنت يا صديقي. إن أي إحالة للتقدم الحاصل في الدول إلى شكل الحكم فيها، هي إحالة تهدف لخداع الجماهير لزيادة شعبية هذا الشكل، فالتقدم الحاصل هو نتيجة لحتمية التطور والتقدم.

- إن وحشية أي شكل من أشكال الحكم متساوية في الدرجة مع غيرها، فقط أسلوب ممارسة هذه الوحشية هو ما يخلق حالة المفاضلة.

- وبالعودة يا صديقي لنظام المحاصصة الإمبريالي، إنني ألاحظ أنه بدأ يفقد فاعليته في إحلال الهدن لتغير حاصل في موازيين القوى.

- ولهذا الدول الضعيفة ستكون أمام نظام محاصصة جديد يفرض عليها حياة أقسى وأكثر وحشية وبعض الدول القوية شعوبها أمام حياة أقل رفاهية نتيجة تراجع حصصها الامبريالية. نظام المحاصصة الجديد هذا سيرفع الحاجة إلى قوانين أشد تكبيلًا وفي أحيان إلى حكومات دكتاتورية لكي تستطيع كبت الغضب الجماهيري المتصاعد نتيجة تراجع مستوى الرفاهية لدى البعض وتزايد الفقر لدى البعض الآخر.

- بدأنا نلاحظ استغلال كثير من الدول الضعيفة لهذا الصراع بين الدول القوية للإفلات من ضعفها، وهذا الهروب هو سبب في زيادة العبء على الدول الماكثة في ضعفها. الصراع في تعاظم ولا سبيل للفكاك منه غير الخيار اللاسلطوي.

- أحسنت وأيضًا بدأنا نلاحظ أن القدرات العسكرية المُرعبة للمتصارعين والتي لن تدفع أحدًا منهم يسعى لإضرار الأخر بها، تسهم في تفكيك التحالفات.

- صحيح، صحيح، فوجود قدرات عسكرية مخيفة يفقد التحالفات فائدتها، ومهما بانت التحالفات في السلم متينة ففي الحرب لو قامت (وهذا مستبعد) ستظهر هشاشتها.

- لم تعد التحالفات تمنح المتحالفين الثقة بخطواتهم الاستفزازية للخصوم.

- ولهذا بدأ خيار التعاون بين الخصوم يطرح عوائد أكبر، ولكن دائمًا ما تعود الحصص لتعكر صفو هذا التعاون، فتداول القوة لحائزيها يوجد حصص جديدة يشعر الجميع فيها بعدم الانصاف.

- ولهذا بدأنا نلاحظ الآن خيار التكتم على التحالفات وادعاء العداء وعدم توافق التوجهات هو الأكثر استخدامًا. فمثلًا وجود قوتين عسكريتين تعلنان العداء يدفع كثير من أعداء كل منهما لطلب المساعدة من أحدهما فمثلًا نرى أكبر قوتين عسكريتين

في عصرنا الآن يخدم كل منهما الآخر بالعداء أكثر مما يخدم كل منهما حلفاءه بالصداقة والتحالف.

- تدفع العداوة المُصطنعة أطراف النزاعات الحقيقية إلى أطراف العداوة المصطنعة طلبًا للمساعدة والدعم. إن أطراف العداوة المصطنعة يضمنون بها احتكارهم للأسواق وبالتالي ضمان عدم خروج منافس قادر على منافسة كل منهما نتيجة اتكالية أطراف النزاعات الأخرى عليهما.

- لهذا السبب ألاحظ أنه يتم التضحية بعلنية التحالفات للتحصُّل على عائد اتكالية أطراف النزاعات الأخرى.

- وبالتالي كثير من عداوات حاضرنا قد تكون غير حقيقية، تخفي تحالفًا مهمًا.

- يا صديقي، فكرة العدو هي فكرة ستبقى مؤثرة سلبًا على درجة الاستقطاب التي يطمح الفكر اللاسلطوي لبلوغها، فالخوف لدى الجماهير تبدل الحكومات جهود كبيرة في الإبقاء عليه وتعظيمه، لأنه يخدم استقطاب الدعاية السلطوية ويُنفِّر من الاستماع للدعاية اللاسلطوية.

- نعم، فطالما لم يستثمر اللاسلطويون جهودًا موازية للجهود المبذولة من قبل السلطويين لابطال الوجود الوهمي للعدو المهدد بالفناء والعذاب والتخلف والخوف الصادر عن هذا الوجود فستبقى اللاسلطوية حبيسة الكتب وحبيسة أقلية عاجزة عن أن تصبح أغلبية.

- لقد ساهم هذا الوجود للعدو عند الشعوب والخوف النابع منه، في تعاظم نسبية الجريمة وبالتالي نسبية الخير والشر، مما تسبب في جعل المنتصر ومالك السلطة هو خليفة الله على الأرض وممثل الخير وجعل المنهزم هو الشيطان وممثل الشر، ولأن الزمن يداول السلطة والانتصار والهزيمة بين الأطراف المتنازعة والمتنافسة، فإله اليوم هو شيطان الغد وشيطان اليوم هو إله الغد.

***

بعد الانتهاء عبَّر كل منهما للآخر عن حاجته للنوم كما هي الحال بعد كل نقاش طويل، لكي يبدأ بالتحضير لموضوع نقاش اليوم التالي بكفاءة وفاعلية، ثم تبادلا بعض النصائح للاستعداد له، ثم انصرف عمر راجعًا إلى شقته.

(6)

في صباح يوم الخميس انطلق عمر مبكرًا إلى منزل مارك، فلقد كان قد قرر التوجه معه إلى ميار بعد انتهاء النقاش، واصطحابها معهما إلى البحر.

بعدما وصل التقط كوب من القهوة من يد مارك وبدأ النقاش الذي كان كالتالي:

- دعم الأفعال الشاذة والأقليات لا ينبغي أن يكون هدفه خدمة الأغلبية أي تحريرها من سلطتها، بل ينبغي أن يكون خدمة للشخصية المستقلة سواء اتخذت من الأقلية أو الأغلبية فئة لها، أو من الفعل الشاذ خيارًا لها.

- بالتأكيد، فهذا الدعم ينبغي أن يكون دعمًا لاستقلال الشخصية بمعزل عما يتسم به الفعل من صواب أو خطأ، فالحماية ينبغي أن تكون لاستقلال الشخصية لا لفعلها، فالفعل خيار الشخصية وليس الشخصية بحد ذاتها.

- فحرف الدعم ليطال الفعل الشاذ يؤثر سلبًا على استقلال الشخصية، لأن الشخصية المستقلة أفعالها غير مدعومة واختياراتها متاح الحكم عليها بالصواب والخطأ والخيرية والشر، بدون أن يكون هناك استبداد يبقي إلزامية الاعتقاد بصوابها وخيرها.

- أفعال الشخصية المستقلة متى حصلت على الدعم تجردت الشخصية من استقلالها، ولهذا نلاحظ أن بعض الأقليات في عصرنا يتم التضحية بهم من أجل الأغلبية.

- إن ليبرالية مل لا تدعم الشواذ كونهم أشخاص مستقلين، بل تدعم الفعل الشاذ سواء كان صائبًا أو خاطئًا، فنفعية مل تقوده للتضحية بالأقليات لخدمة الأكثريات، تقوده لتبرير وسائله بغاياته، ولهذا نرى ليبرالية مل هي ليبرالية معادية للشواذ وحليفة للفعل الشاذ.

- الفعل الشاذ عند مل أخلاقي بخدمته للأغلبية وعليه فالشواذ عنده شموع ينبغي أن تذوب لتنير طريق الأغلبية.

- نعم، فدعم مل للشواذ وظيفي لا غائي، مشروط وليس مطلق.

- لا يمكن نفي استبداد الأغلبية في ظل وجود دعم الفعل الشاذ، فهذا الدعم يُحفِّز الصراع بين الأغلبية والأقلية، ويعمل على تناوب الأقلية والأغلبية على الأدوار الاستبدادية.

- نعم فبحيث الأغلبية تكافح للحفاظ على صفتها تكافح الأقلية لتكون أغلبية، ولهذا دعم الفعل يُفعِّل صراع على النفوذ وعلى التأثير، أما الاقتصار على دعم الشخصية المستقلة فهو نفي لهذا الصراع.

- إن ليبرالية مل لم تتح للشواذ خيار سهل في الرجوع عن بعض أفعالهم الشاذة لتغيير حاصل في تقييم الفعل، للاستحقاق الذي يقع على الشاذ نتيجة فعله المدعوم، ولمخلَّفات وانبعاثات التصادم الحاصل.

- لقد مُنح الشواذ حماسًا للإقدام ولكن جُرِّد منهم كل حماس للرجوع والانسحاب في حالة إعادة التقييم.

- كما أن للشواذ الحق باختيارهم لأفعالهم الاعتقاد بأنهم يُصوبون التوجه العام وكذلك العكس، فإن أي تدخل سلطوي يسهم في التعدي على هذا الحق.

- ويذهب مل بسبب نفعيته أيضًا إلى عدم القبول بالاختلاف إذا لم يكن نافعًا، ولهذا نجد مل يُشرِّع استبداد الأغلبية ضد الاختلاف الغير نافع، ولا يشرعه ضد الاختلاف النافع للأغلبية، ولهذا دعم مل للفعل الشاذ أيضًا نسبي.

- ولهذا لا يستكفي مل بالتضحية بالشواذ بل يذهب لتحديد كيف ومتى وأين يتم الضحية بهم.

- ألسنا غالبًا ما نفشل في تحديد ما هو نافع وغير نافع، ما يجعل من انتقائنا وقبولنا لفعل شاذ دون غيره غير موفق. ما هو عائق القبول بالجميع طالما للانتقائية انتكاساتها؟

- إنَّ حتى مُجرد المخالفة مفيدة فهي تسمح للبعض بالتجرؤ على الخروج من المعتاد وكسر سلطته.

- كما أقول دائمًا يا صديقي، يقع على عاتق كل فرد مسؤولية تبني اختلاف حتى لو لم يكن هذا الاختلاف متوافق عليه شعبيًا أو قانونيًا، لأنه يقع على عاتق كل فرد مسؤولية إحلال التنوع الذي يكفل وجود الحرية.

- وكما تقول يا صديقي، الاختلاف يوجد الخيار والخيار يوجد التنوع والتنوع يوجد الحرية. لقد آن الأوان لتدشين انتزاع غير مجزوء للحرية، مرحلة مكتسباتها مكتسبات تليق بقيمة الإنسان.

- لا ينبغي لأحد أن يجعل تفضيلاته قانونًا عامًا مهما لازمها الصواب، بل عليه الإبقاء عليها قانونًا شخصيًا، لضمان بقاء التنوع.

- ثقافة الانتماء هي ثقافة نازعة من الإنسان حريته في اتخاذ قراره، هي ثقافة توهم الفرد باستقلاليته، هي ثقافة تجرد الإنسان من قيمه وأخلاقه لكي يحتكرها في نطاق محدد. ثقافة الانتماء تعزل الإنسان عن الكل لكي تحتكره للجزء، ثقافة الانتماء ثقافة عداء وسلب، ثقافة نزع للاستقلالية. ثقافة اللاانتماء لا كما يشاع حولها بأنها تفكك الكيانات الاجتماعية كالأسرة والمجتمع وتفكك العلاقات الاجتماعية كالصداقة والحب، بل هذه الثقافة تقف في وجه هذه الكيانات والعلاقات في حال إقدامها على انتزاع استقلالية الفرد.

- ولكن كيف يمكن إحلال تقبل التنوع بدون الاستعانة بحالة أو وضع يكون الرفض الكلي للشائع والمعتاد والمألوف والدارج نتيجة التعطش والرغبة في الجديد نتيجة الكبت؟ كيف يمكن تحقيق ذلك بدون أن يكون الوضع والحالة بمثابة ردود أفعل لا أفعال؟ كيف يمكن إحلال تقبل التنوع بدون الاستعانة بالرفض الغير آخذ بالحد الأدنى من الكلاسيكية في جميع الأعمال والتوجهات والمعتقدات؟ كيف يمكن ضمان درجة من الطمأنينة والراحة للآباء والأجداد على أبنائهم وأحفادهم في أخذهم للجديد من العادات والأفكار والمعتقدات لضمان الحرية للأبناء؟

- أسئلة رائعة، أحسنت. لقد كان للراديكالية أثرًا مهمًا في توفير بيئة تتقبل التنوع، ولكن بالرغم من ذلك ساهمت في تحطيم كثير من القواعد والعقبات.

- رغبة البعض الهائجة في إحلال الجديد لإحلال الحرية من كثير من عقبات القديم الغير أخلاقية، للأسف في كثير من الأحيان تطال كثير من الكلاسيكيات التي تصنف كعقبة أخلاقية أو كعقبة من خلالها يمكن التمييز بين النقيضين (الخير والشر، الجمال والقبح، الأخلاقي والغير الأخلاقي، الصائب والغير صائب، الحقيقة والزيف، إلخ).

- قد تخطئ الكثير من العقبات عندما تصور وتحدد نموذجًا لا يصح إلا المقارنة والحكم به على غيره من النماذج، وعلى الرغم من فداحة هذا الخطأ إلا أنه ليس سببًا ودافعًا ومبررًا لنسف جميع العقبات.

- نسف جميع العقبات والقواعد لا يحرر الذوق بل يستبدل قيده، ولكن بالرغم من ذلك ينبغي أن يكون خيار الأخذ بالعقبات أو نسفها جميعًا مكفول للجميع.

- لا ننكر أن كثير من العقبات الغير أخلاقية تتكَّرت بثوب أخلاقي، وخاصة تلك العقبات التي تطال النساء، ولا ننكر أن الرفض الكلي للعقبات أيقظ العالم من سباته العميق في الاستمرار بالتمسك ببعض العقبات الغير أخلاقية، ولكن نجاح التنكر بالأخلاقي لا يعيب العقبة الأخلاقية بقدر ما يُعيب رضوخنا الطويل بلى مقاومة لكل ما هو غير أخلاقي مُتنكِّر وبدون فحص وتمحيص وتدقيق وتكرير لضمان التحديد السليم.

- وأيضًا، نجاح الرفض الكلي للعقبات في إيقاظنا من سباتنا العميق لا يبرر استمراره، فغير المبرر لا يُبرر حتى في حال نفي بوجوده غير مبرر آخر، نعم يا صديقي غير المبرر وجوده لا يكتسب التبرير بمكتسبات وجوده.

- بالتأكيد، فإذا كان أخذنا بالعقبات بدون فحص ضارًا فإن رفضها كذلك.

- إن الترك الكلي للعقبات لن يُخلِّف إلا أخذًا كليًا مع مرور الزمن. العقبات الجمالية والدينية والأخلاقية وغيرها تقضي على النسبية المتخذة لمكان لا يجوز لها التواجد فيه.

- أحسنت. في النهاية الحرية ينبغي أن تكون مكفولة للجميع سواء بالأخذ أو الترك الكلي، فلا يمكن الاحتفاظ بالأحقية والصواب لمعتقد واحد دون الوقوع في فخ عدم تقبل الآخر، فمن مظاهر التسلط نفي الصواب عن معتقدات الأخرين وتوجهاتهم.

- الجماعة إذا اشترط لها أن تتحرك في اتجاه واحد كانت بمثابة رفض لكل اتجاه نقيض أو مغاير. يجب ان تكون الجماعة حركة في كل اتجاه وفي كل مسار بدون أن يكون لمسار أو اتجاه قوة معترضة لمسارات واتجاهات أخرى. الجماعة تضمن قوتها واستمرارها بالتنوع وحده.

- أريد الآن يا صديقي الانتقال إلى الحديث في أحد أهم أسباب بطء التحول اللاسلطوي، وأقصد هنا وقوف هذا التحول على مبدأ السير بلى زعامة وقيادة.

- التجمهر السلطوي يسهم في تكوين حالة نفسية تتخذ كركيزة في تشكيل ذوات الأفراد والتي تلغي كل تشكل مستقل للذات.

- الفرد داخل الجمهور السلطوي لا يبحث عن مبرر لأفعاله بقدر ما يسعى لإقصاء التبرير بالفعل الجماعي، فالفعل الجماعي لدي الأفراد داخل الجهور السلطوي لا يحتاج لتبرير، فأخلاقيته وشرعيته تنبع من اجتماع الناس على إتيانه. ولهذا تنتفي الذات المستقلة وكذلك الفعل.

- التجمهر اللاسلطوي تجمهر يرتكز على التنوع. ولهذا التحول اللاسلطوي أبرز عوائقه هو اتكالية الجماهير على الوجود القيادي الذي يُشكِّل لها ذاتها وسلوكها، وهي الاتكالية التي تمنح الوجود القيادي وجود سلطوي سرعان ما تضطر الجماهير إلى رفضه لاحقًا عند الاكتواء بظلمه.

- الحراك اللاسلطوي يعتمد على التحرك الفردي داخل الجماعة وخارجها، أكثر من اعتماده على التحرك الجماعي ذو التوجه الواحد.

- الحراك اللاسلطوي يحث أفراده على الاعتماد على أنفسهم في تشكيل سلوكهم أما الحراك السلطوي فيُشكِّل سلوك أفراده. الحراك السلطوي حراك المتقاعسين عن بذل جهود في تشكيل سلوكهم ووعيهم.

- إن الدولة تقوم على دور البطولة. ووجود الأبطال يُبقي على وجود تأييد لأدوارهم التي هي بالضرورة أدوار سلطوية.

- يستهدف إيجاد الأبطال إيجاد تقبل لفكرة الحرب عن طريق إيجاد تقبل لفكرة وجود أعداء وأشرار يسعون دائمًا للقضاء على الأخيار.

- إن إيجاد الأبطال إيجاد لتبعية جماعية حماسية منقادة اندفاعية. دور البطولة يُكرِّس الهيمنة والتضليل والاستبداد، وادعاء البطولة هو ادعاء للقدرة على الحكم وهذا الادعاء يقود لادعاء ضرورة التفرد به.

- دور البطولة يهدف للإشارة إلى وجود الأشرار الذين يتوجب القضاء عليهم. وجود البطولة يُكرِّس وجود العداء ولهذا يستهدف السلطويون الأطفال بهذه الأدوار بكثرة لنفي براءتهم.

- أدوار البطولة تتسبب بالاتكالية وهذه الاتكالية سبب في اغتراب العقل. إن الاستعانة بالبطل في الحراك الثوري عادة تتولد لدي الجماهير لنقص خبرتهم.

- لقد كثر الأبطال حولنا لا لنقتدي بهم فقط، بل لكي نسعى للبطولة، لكي نتوهم أننا أبطال، لكي نرغب بالسلطة. لقد ساهمت أدوار البطولة بجعلنا مولعين بالسلطة. جميعنا بها أصبحنا نتوهم بحيازتنا القدرة على الحكم والإدارة السديدة والتوجيه القويم، كلنا نتوهم أننا في حال كنا حكامًا سنكون أفضل ممن يحوزون الحكم وبأننا سنكون الأعدل.

- إنهم يحاولون بكافة الطرق وبكل ألاعيبهم إقناعنا أن العدل بحاجة إلى من يحله على الأرض.

- إنهم لا يكتفون بدفعنا إلى القتل والتعذيب وممارسة كل ما يخالف طبيعتنا، بل إنهم يسعون لمكافأتنا بالجوائز والتكريمات والمِنح والاحتفالات، يسعون لجعلنا نفخر بما أقدمنا على فعله. إنهم لا يتركوا لنا أدنى فرصة للتكفير ومراجعة أفعالنا، إنهم يشغلوننا بالمهام تلو المهام حتى يستنفذوننا. سيشكلون دائرة في أحد الزوايا أثناء الاحتفال بإنجازاتنا وينظرون إلينا أثناء انشغالنا بالحضور المصفق والمهنئ، ليسخروا منا، وسينسحبوا من حفل تكريمنا قبل انتهائه متحججين بمشاغلهم وبمسؤولياتهم المهمة التي تنتظرهم.

- إنهم يرسموا الحدود ليمنعوا الإنسان من العبور كإنسان.

- بالعودة للتنوع، نجد تراجع الاهتمام بالشؤون الدينية من الظروف التي ساهمت في حلوله. لقد كان لعدم المبالاة في الشؤون الدينية أو لنكون أكثر دقة تراجع وانخفاض المبالاة بها أثر جدًا كبير على حلول جزئي للحرية الدينية والتسامح مع الآخر في اختيار معتقده الديني.

- بتراجع فعالية الأدوار الدينية في تكوين الفكر والسلوك المجتمعي، انخفضت لهجة ادعاءاته بمسؤولية الفرد أمام المجتمع عن معتقداته الدينية. وعليه فحرية المعتقد لم تنبع للأسف في ظل الدور الديني الفعال بل في ظل تراجع هذا الدور.

- وهذا إن دل فإنه يدل على عظم الخطر الذي سيواجه من يضع الحدود والعراقيل أمام حرية الإنسان.

- اعتراض الحرية يهدد كل كيان قائم بأدوار استبدادية قمعية باللامبالاة بالإهمال وبتراجع أدواره وتأثيره وإضعاف وسائل الاستقطاب لديه.

- إننا باعتراض الحرية، أمام مستقبل أكثر عدمية، باعتراض الحرية نحن أمام فقدان الاهتمام بأكثر المعتقدات احتياجًا وأكثر القيم إلحاحًا، نحن باعتراض الحرية أمام فقدان القدرة على تمييز الخير من الشر، الصواب من الخطأ، الجميل من القبيح. نحن أمام خطر يهدد جميع معارفنا وقيمنا.

- وعلى الرغم مما صرحنا به علينا الاعتراف بأن انتشار عدم الإيمان في الغرب هو انتصار غير نزيه لغير المؤمنين الذين استخدموا دفاعهم عن الإنسانية لترويج عدم الإيمان، وهزيمة مُستحقة لبعض المؤمنين السلطويين الذين استخدموا إيمانهم في عداء الإنسانية. هناك من يزال يعتقد إلى الآن أن التنوير كان يستهدف الدكتاتورية الدينية ليحل محلها دكتاتورية علمانية.

- بالتأكيد، فالمسعى الصادق في الدفاع عن الإنسانية غير كافي إذا كانت وسيلة وألية الدفاع تستهدف أفكار غير محسوم صوابها.

- إن تجربة الإيمان وعدم الإيمان تعطينا ثقة عاطفية ولكنها عاجزة عن إعطائنا ثقة عقلية في صواب توجهاتنا.

- ولهذا لا يمكن للإنسان إلا استخدام تجربة الإيمان وتجربة عدم الإيمان في التوصل إلى قناعة ذاتية غير موضوعية

- لقد ظهرت براءة الدين من التهم المُوجَّهة إليه بانتزاع السلطة من رجالته. وهذا يدلل على أن السلطة هي التي تفسد شاغليها وليس شاغلوها هم الفاسدون. السلطة بحد ذاتها هي سبب آلامنا وأحزاننا وحريتنا المنزوعة.

***

بعد انتهاء النقاش والتدوين وذلك بحدود الساعة الثانية بدأ عمر بمساعدة مارك بتدوين مستلزمات رحلتهم البحرية لكي يتجنبوا نسيان أحدها، وعندما فرغا من إعداد قائمة طويلة، أخذ بمساعدته في وضع المقاعد والطاولة ومعدات الشواء وأدوات الأكل من أطباق وأشواك ومعالق وسكاكين وبعض من الملابس في حقيبة السيارة، ثم انطلقا متوجهين إلى السوق للتبضع.

في أثناء التجول في السوق بحثًا عن طلباتهم، كان مارك يُعرِّف عمر على أنواع اللحوم والأسماك ويحاول منحه دروسًا سريعة في التعرف على جودتها، فلقد كان يحوز هذه المعرفة من حياة الكثير التي عانى منها، والتي قابل فيها طهاة بارعين وبائعين ماهرين.

بعدما التقطا أصناف من اللحوم والفواكه والحلويات والمسكرات والمشروبات وغيرها من المستلزمات، قاما بالاتصال بميار واستعلما منها عن مكان تواجدها ثم طلبا منها ملاقاتهم في مكان حدداه لها، ثم انطلقا إليها لاصطحابها معهما.

كانت أشعة الشمس لطيفة ونسمات الهواء باردة بعض الشيء، فكان الطقس غير مناسب لرحلة بحرية ولكن مع ملابس أثقل يكون مناسبًا، وكانت الشوارع مزدحمة بالسيارات والناس، فلقد كانت الساعة الثالثة تعلن بداية النصف الثاني لليوم، فالمدارس تفرغ من طلابها والشركات تفرغ من موظفيها والمصانع تفرغ من عمالها، وتبدأ الملاعب تمتلئ بالجماهير والحانات تمتلئ بالسكارى والمقاهي تمتلئ بالعشاق والمثقفين والمتنزهات تزدحم بالعائلات ومراكز الترفيه الأخرى تمتلئ بطالبي الرفاهية.

بعدما وصلا الى حيث طلبا منها الانتظار، قالت بعدما صعدت متفاجئة بحقيبة السيارة الممتلئة:

- ما هذا كله؟ إلى أين؟

أجاب مارك:

- إلى الشاطئ، اليوم سأنتزع منكما اعتراف بأنني من الأمهر في الشواء.

- متى خططتم لهذا؟

- لم نخطط.

قال عمر مُعللًا:

- دائمًا الرحلات التي لا يتم التخطيط لها تكون أجمل.

قالت:

- لأن فشلها مُقدَّمة أسبابه، أما فشل المخطط لها غير معلل أو تعليله مؤلم.

- ولكن أيضًا في حال نجاحها تكون أجمل.

- ذلك لأن لذة ومتعة النجاح بدون تخطيط أكبر من لذة ومتعة النجاح بالتخطيط. الحال هنا كالمقامرة.

- أتقصدين أن إحساس وجود الحظ إلى جوارنا ممتع أكثر من إحساس غيابه.

- بالضبط

- وأولئك الذين لا يؤمنون بالحظ.

- هم غير موجودين وإن وجدوا فإن عدم حاجتهم إليه هي من تدفعهم لإنكار وجوده.

- وهل يوجد من لا يحتاج للحظ؟

- نعم من يعمل دائمًا وفق خطة.

- مثلكِ

فتعالت ضحكاتهم.

بعد لحظات صامتة كانوا يتمتعون فيها بالمشاهد وبالهواء المتسلل من نوافذ السيارة، قال عمر بحماس موجهًا كلامه لميار، بعدما طلب من عمر تسليمها نسخة مما قاما بكتابته في ذلك اليوم:

- ما رأيكِ في أدائنا؟ لا بد أنك اطلعت على ما أرسلته إليك من نتاج الأيام الخمسة الماضية.

- صحيح. إنه عمل مدهش، لا زلت إلى الآن متأثرة بما قرأت. أحسنتما، فلقد كنتما على درجة عالية من الإقناع العقلي والعاطفي.

- هذا ما استهدفناه من البداية. بقي أمامنا موضوع واحد من المواضيع التي خططنا لنقاشها.

- ما هو؟

- الأخلاق الكانطية؟

- أحسنتم. هذا الموضوع سيمنح كتابكم إحاطة أوسع. وسيمنح الناس مسار آمن يمكنها السير فيه مطمئنة. حاولا التبسيط بقدر ما أمكن كما كانت محاولاتكم السابقة.

- سنفعل.

- ما هي وجهة خطوتكم اللاحقة؟

- إلى الآن أبصارنا لم تحمل وجهتها، ولربما حملتها ولكنها في طريق العودة وما يؤخرها هو ثقل ما تحمله.

قال عمر بهدوء وحذر:

- لقد وجدت لها وجهة، فهذا السؤال منذ مدة يطاردني. يا صديقيَّ، الكتاب وحده لا يكفي ليُحدث تغيير، ولهذا أرى أن تنقُّلنا إلى حيث تتواجد الجماهير وإلى حيث يجتمع الناس وإلى حيث تتواجد الحروب والصراعات، يمنحنا فرصة أكبر لإحداث التغيير في نطاق أوسع. لماذا لا نقتحم الحانات والمقاهي والملاهي والجامعات والمدارس، وكل مكان يستهدف الناس فيه الراحة من حياتهم القاسية، هناك سنتمكن من إقناعهم، هناك سنُمنح الوقت للاستماع إلينا، هناك ستستقبلنا العقول والقلوب بأعظم ترحيب. تمركزنا حيث نحن لن يمنحنا الوصول الذي سيحدث التغيير الذي نطمح إليه. لا بد لنا لإحداث التغيير من التضحية، يلزما العيش بسيارة تأخذنا إلى كل مكان، يجب أن يكون كل طريق شاهد على مرورنا منه، وخشبة كل مسرح شاهدة على وقوفنا عليها، وطاولة كل مقهى وبار كل حانة شاهد على خطاباتنا فوقه، وكاميرا كل محطة ناقلة لمطالبنا العادلة. يجب مجابهة الوسيلة الإعلامية للسلطة بكافة الطرق والوسائل الشرعية للتغلب عليها. لن نكفي وحدنا للوصول نحن بحاجة إلى جهود الجميع، كلٌّ في مجال تخصصه لنصل. الجماهير يا صديقيَّ بحاجة إلى من يقف بينها كما هي بحاجة إلى كتاب تمسكه بيدها. هذه هي الوسيلة المتاحة لنا لينال الإنسان حقه من الحقيقة. ماذا تريان؟ ما رأيكما؟

فقال مارك بحماس:

- كم أعشق جنونك يا صديقي. أعجز عن تخيل سرعة التغيير إذا كان بإمكاننا إقناع البعض بالقيام بذلك.

التفت عمر إلى ميار وكانت صامتة، ثم قال:

- ما رأيكِ؟ صمتك يحمل اعتراض أو اقتراح آخر، ولربما قلق وخوف.

فقالت بلهجة قلقة فيها شيء من الحزن:

- هذا قد يُشكل خطرًا عليكما. نعم هذا خطير جدًا.

- لا داعي للقلق.

- صحيح، لو كنتما على درجة ولو قليلة من الحرص والتحوط، ولكن بسبب الإهمال والتهور والعشوائية التي أنتما عليها هناك دواعي لقلقي.

أخذ عمر ومارك يطلقان ضحكات عالية، ثم قال مارك:

- إذًا فلتأتي معنا لترويضنا.

فقال عمر بسرعة وقد ابتلع ضحكاته:

- لا، لا، هذا مستحيل.

فقالت وابتسامة على شفتيها:

- لماذا؟

فشعر أن الهدف من هذا السؤال ليس اعتراض على الرفض، وإنما هو محاولة لدفعه للتصريح بما دعاه للرفض، شعر بأنه محاولة للولوج إلى داخله، فقال مرتبكًا:

- لقد اعترفتِ للتو بأن هذه المهمة خطيرة.

- لنفترض أنني متقبلة لخطرها، فلماذا منحت نفسك الحق للتدخل في قراري، هذه وقاحة.

وأخذت تضحك هي ومارك، وكان هو من شدة اضطرابه تائه بين الكلمات، يحاول أن يجد لنفسه مخرج من الإحراج الذي وقع فيه، ثم قال بصوت ذليل خاضع منكسر يشيع منه الاحترام والتقدير:

- أنا آسف، لقد أخطأتُ في حقكِ. قراركِ لكِ وليس لي. لقد حاولت إشراكك في مهمة أعظم، لقد اعتقدتُ أنكِ بوجودكِ بعيدة عن الخطر ستكونين قادرة على تزويدنا من بعيد بوسائل ولوج للجماهير أسهل، وبإمكانكِ متابعتنا من بعيد وتصويب أخطائنا التي نرتكبها، فالرؤية من بعيد أوضح من الرؤية من قريب، وأنه من بعيد بإمكانكِ توجيهنا إلى وجهات أكثر إلحاحًا، وبإمكانكِ تقييم تأثيرنا، وبإمكانكِ المحافظة على جهودنا في حال حدث لنا مكروه ما. أكرر اعتذاري لكِ.

استطاع الإفلات بصعوبة من الاعتراف بخوفه عليها، ولكن بالرغم من انتصاره هذا شعر بالخزي مما فعله وأحس بعار شديد اهتزت مشاعر البحر شفقة عليه، فكان يُحدِّث نفسه معاتبًا "كيف تجرأتُ على الوقوف في وجهها! أليست كيان له استقلاليته. تبًا لي. تبًا لحبي ولخوفي. لا، لا، ليس الحب من دفعني للقيام بهذا، بل هي الأنانية. نعم، أنا لم أرغب بحمايتها من الخطر، بل رغبت بحمايتي من مكروه قد يُصيبها. تبًا لي. كيف يا حبي لها لم توقفني عن ارتكاب مثل هذا الخطأ الفادح!" الحب لا يُكبِّل

ولا يسلب حرية المحبوب، وحدها الأنانية هي من تفعل ذلك، وهذا ما كان يدركه منذ زمن بعيد ولكنه وقع في فخ الأنانية بالرغم من حرصه على تجنب ذلك.

ثم قال محاولًا الاعتذار:

- صدِّقيني أنتِ ضمن خطتي، ولم تكوني يومًا مستبعدة منها.

ولكنه شعر أنه تفوه بكلمات تفضح ما يكنه لها من مشاعر فزاد ارتباكه. كان كلما تفوه بكلمة معها يتمنى لو كان بمقدوره استرجاعها، كان كلما تنفس ازداد اختناقًا من شدة ارتباكه. وفجأة جلبت له ذاكرته صورة إبراهيم وبعض من كلماته لحمايته، فاستعاد بعض من هدوئه.

قالت:

- صحيح أنا من بعيد أكثر نفعًا لكما.

فقال عمر بسرعة:

- لا يا صديقتي هذا غير صحيح، أنتِ من بعيد أكثر نفعًا للأهداف التي ألزمنا حبنا للإنسان بالسعي لها.

- شكرًا لك.

في تلك الأثناء كانوا قد وصلوا للشاطئ، فأخذ كل منهم يحمل ما يستطيع حمله من الأكياس ويذهب بها بالقرب من الأمواج التي لم يكن قربهم منها كافي لوصولها إليهم، وبعدما أنزلوا ما استطاعوا حمله عاد عمر ومارك لجلب ما بقي مما تركوه بجوار السيارة وهناك عاتبه على اقتراحه.

بعدما فرغوا من ترتيب جلستهم، أخذوا يتسلون بتحدي الاقتباس الأجمل والأطول، أخذوا يلقون على مسامع بعضهم بعض من الأشعار التي نالت إعجابهم مؤخرًا، أخذوا يتقمصون شخصيات مسرحية ويلعبون بعض من أدوارها، أخذوا يتحدون بعضهم في الشطرنج، أخذ عمر وميار يستمعان إلى المقطوعات الموسيقية على كمان مارك.

كانت أمواج البحر هادرة والرياح تبعث لهم بذرات من مياه البحر تبلل ما وضعوه من أطعمة على طاولتهم، وأشعة الشمس تحمل دفئًا يصارع البرد بندِّية، والسماء صافية وشديدة الإزرقاق، والرمال الصفراء تخزن الدفء.

كانت الأوقات السعيدة هذه تشعر عمر بالقلق الشديد، فلقد كان يرى الحياة لا تمنح إلا لتأخذ أكثر مما منحت، فكان يحاول طرد شعوره بالسعادة ولكن مع الادعاء بأنه

سعيد لكيلا يُفسد سعادة أحدهم، يحاول استحضار بعض من أحزانه من ذاكرته، ليطرد بها شعوره بالسعادة.

بعدما عرَّاهم اختفاء شعاع الشمس الدافئ، كساهم لهيب النار التي أشعلوها معاطف ثقيلة. وبينما كان مارك مُنشغل بالشواء، قال عمر لميار بنبرة مُنكسرة تُعبر عن الندم بعدما بقي طوال النزهة منشغلًا بعذاب الضمير وفرط الأسف وشدة الحزن والأسى، ومحاولًا محو آثار تدخله السافر في قرارتها:

- أكرر اعتذاري على خطئي، صدقيني أنني لم أقصد.

- لا داعي لذلك يا صديقي.

- لم يسبق لي أن شكرتك على كل هذه المساعدة التي قمت بتقديمها لي وما زلت تفعلين. فشكرًا لكِ.

كان يشعر بإحباط كبير وحزن شديد وألم عنيف بعدم حيازته على فرصة لرد إحسانها بالإحسان، على فرصة للتعبير عن مقدار امتنانه وحبه وتقديره واحترامه لها، على فرصة لتقديم ما توجبه الصداقة.

قالت:

- لا داعي لهذا أيضًا. بل الشكر لك يا صديقي، فبوجودك أُتيح لي أن أمارس دوري كإنسانة، كان لقلبي أن يعمل، كان لعقلي أن يشارك، كان لوجهي مرآته، ولاجتهادي تقديره، نعم بوجودك بجواري أُتيح لي أن أوجد.

اضطرب بكلماتها اضطرابًا شديدًا، واهتز كيانه اهتزازًا عنيفًا، وانقبض صدره انقباض ثقيلًا بعجز تام عن احتواء أي هواء، وأخذ قلبه يخفق بسرعة حتى كاد يقفز من صدره، وجبينه بالتندي، ويداه بالارتعاش، وقدماه بالتراقص. لقد حل فيه إحساس بضعف شديد شعر به بوجود إلزام أخلاقي ولربما نفعي يقع على عاتقه يحثه على الاعتراف لها بحبه، فقال بتردد بصوت مرتبك مرتجف بعد لحظات صامتة وهو ينظر إليها وهي تتابع النجوم بسعادة وراحة انعكست على معالم وملامح وجهها:

- أنا أُ...

وفجأة توقف وابتلع الحروف المتبقية التي أكملت نطقها روحه، بعدما سمع صراخًا داخله أكد له حقيقة شعوره بوجود أحد غيره داخله يمنعه من البوح، ثم تلعثم بعدد من المقدمات نتيجة ارتباكه، وأخذ يهمهم بكلمات غير متميزة وأحيانًا غير كاملة في محاولة الاستغناء والرجوع عن استعداده للكلام وفي محاولة صرف ودفع انتباهها الذي أولته لاستعداده للكلام إلى أمر آخر، ليُنقذه مارك بدون قصد بعدما طلب منه مناولته الأطباق.

بعد الانتهاء من تناول الطعام نال مارك حقه من المديح والشكر منهما، فكانت الرحلة في تلك الأثناء قد فرغت من فعالياتها، لينهضوا مغادرين.

(7)

كان يوم الجمعة هو اليوم السابع الذي حدداه كآخر يوم لنقاشاتهم، وفيه يكونا قد انتهيا من إعداد كتابهم، وكان النقاش فيه كالتالي:

- لا بد لنا كلاسلطويين لنكون كذلك بجد من الاستعانة بالأخلاق الكانطية.

- بالتأكيد، فلقد رسم كانط بالحدود التي وضعها للفعل الأخلاقي نطاق ضيق له لدرجة أنه لم يُشمل في هذا النطاق كثير من الأفعال الصائبة.

- وبهذا عمم أثر الفعل الأخلاقي وجعل عائده غير محصور في نطاق الميول الضيق. وبهذا عزز كانط استشعار الإنسان بإنسانيته.

- كيف لا وهو القائل "افعل بحيث تنظر للطبيعة الإنسانية في شخصك وفي شخص كل إنسان آخر على أنها غاية ولا تنظر إليها أبدًا كوسيلة"

- لقد وجَّه كانط بأخلاق الواجب ضربة قاضية للعنصرية.

- بالتأكيد، فهو بوضعه الحدود للفعل الأخلاقي، أزال جميع العوائق أمام الإنسان العائقة لاستشعاره بإنسانتيه.

- إن الإنسان بالأخلاق الكانطية يوقف ميوله عن دفعه لاحتكار المنفعة لمن يحب وينتمي.

- الأخلاق الكانطية هي أخلاق الذين يُقدِّمون انتماءهم للإنسان على كل انتماء.

- بالتأكيد، وهي تحافظ على العلاقات بين البشر لعدم ارتهان هذه العلاقات بالمنفعة التي قد تتناقض أو تزول بين الأفراد، وبالتالي فالأخلاق الكانطية تقيم العلاقات بين الناس على عامل داخلي في كل فرد، عامل ثابت غير متقلب.

- إن الإنسان بالأخلاق الكانطية يُدرك أنه لا ينبغي له أن يُحدد المُستحق وغير المستحق للمعاملة الحسنة، فالإنسان بوجوده مستحق للمعاملة الحسنة. وإن تصنيف الناس على أساس مستحق للحقيقة وغير مستحق، هو تصنيف يُتيح ويبرر عدم اتباع الواجب بقول الصدق، وبالتالي يتيح لنا قانون نسبي تشكله ميولنا ورغباتنا، ولهذا نقول بإصرار أن الاستثناء ليس مسموحًا به في القانون الأخلاقي ليكون كذلك. إن عدم التزام البعض بحقوقي ليس مبرر لعدم التزامي بحقوقهم، ولهذا أقول: فعلي الأخلاقي ليس استحقاق شخصي لأحد دون الآخر بل هو استحقاق عام.

- أحسنت. لقد سار كانط في مسار غير المسار الذي سارت فيه جميع المذاهب الأخلاقية التي جعلت الفعل الأخلاقي وسيلة لغاية، فلقد أبان أن الفعل الأخلاقي بحد ذاته هو غاية وبهذا خلَّص الفعل الأخلاقي من النسبية، ومن التأثر بتقلبات الظروف.

- اتِّباع الواجب هو إدخال الميول والشهوة والعاطفة ضمن الاستشعار الإنساني وبالتالي إشباعهم دون الاضرار بالغير.

- نعم فاتباع الواجب لا يقوِّض العلاقات الاجتماعية كالحب والصداقة وغيرها، ولكن يجعل متطلبات هذه العلاقات ضمن نطاق أكبر وأشمل وهو نطاق الانتماء للإنسان. والعلاقات الاجتماعية علاقات تدخل في نطاق انتماء الإنسان لإنسانيته، ولهذا العلاقات الاجتماعية في نطاق استشعار الإنسان بإنسانيته لا تحتكر العوائد، ولا تكون سببًا في الإضرار بما هو خارج نطاق العلاقات الاجتماعية الضيق.

- يا صديقي، لا يجعل كون المصلحة الذاتية ليست دافعًا للفعل الأخلاقي أن هناك علاقة عكسية بينهما. لن أقول في جميع الأحيان بل سأكتفي بالقول في معظم الأحيان يكون هناك علاقة طردية بينهما.

- استخدام الواجب كدافع للفعل يجعل تفاعل العوامل الأخرى داخل النطاق المتولد من هذا الاستخدام تفاعل لا يخرج عن هذا النطاق، ففعلي الذي يكون دافعه الواجب يجعل دوافع الفعل الأخرى أفعالها مطابقة لأفعال الواجب ليس فقط في إطار العلاقات الاجتماعية ولكن أيضًا مع من هم خارج هذه العلاقات.

- إن الدافع الرئيسي للفعل الأخلاقي هو الواجب، ولكن وجود هذا الدافع لا ينفي أن يكون هناك دوافع أخرى للفعل ثانوية.

- هل حقًا يتسع مجال الفعل لدافعين أحدهما رئيسي والآخر ثانوي؟ هل يترك الواجب كدافع للفعل، للفعل أن يحوز دافعًا آخر؟

- إن احتكاك الإنسان بمحيطه هو سبب اعتماد دوافع كالحب والصداقة كدافع للفعل، ولهذا هي محدودة النطاق أما إنسانية الإنسان هي سبب اعتماد الإنسان للواجب كدافع للفعل، ولهذا لا حدود للفعل الذي يكون دافعه الواجب ولكن هناك حدود للفعل الناجم عن نوايا والذي دوافعه غير الواجب، هذه الحدود مرتبطة بمحيط الفرد.

- وعليه فتهميش الواجب كدافع يُوجد نصرًا للمحيط على خارجه، أما وجود الواجب كدافع فيوجد نصرًا للجميع.

- بالضبط. إن ادعاء بعض الفلاسفة أن كانط أضفى المثالية على البشر ككائنات حرة ومستقلة تمامًا دون أي سياق اجتماعي أو أهداف حياتية هو ادعاء باطل، فالأخلاق

الكانطية هي أخلاق تضفي على فعل الإنسان الاستقلالية عن الانتماء الجزئي والانتماء المخصوص، وتجعل انتماءه للإنسان مُقدم على كل انتماء.

- "إن لك استطاعة لأن عليك واجبًا" إن قدرة الأخلاق الكانطية على تحرير الإنسان من انتمائه المخصوص والطبقي لا تجاريها أي قدرة، فهذه الأخلاق قادرة على اقتلاع الأفراد من أشد انتماءاتهم جذبًا ونفعًا وتضليلًا.

- وعلى ما تقدم، فالأخلاق الكانطية تتفوق على الأخلاق النفعية في النفع الذي يعتقد النفعيون أنه حجتهم التي تمنحهم النصر.

- دعنا الآن ننتقل لتوضيح الفرق بين الفعل الأخلاقي والفعل الصائب. أعتقد أن الفعل الأخلاقي هو خيار الراغب في إزاحة كل تأثير للوعد والوعيد على اختياراته وقراراته، أما الفعل الصائب فهو خيار الراغب في الاستفادة من الوعد والوعيد لدفعه لاختيار خيارات معينة.

- بالتأكيد فالفعل الأخلاقي فعل لا يخرج عن أمل بعكس الفعل الصائب الذي هو خيار مصدره الأمل.

- وعلى الرغم من تشابه الأثر الناجم عن الإتيان بالفعل الأخلاقي والصائب، إلا أن هناك ميزة عظيمة للفعل الأخلاقي وهي قدرته الهائلة على إبعادنا مسافة أكبر عن الفعل الغير أخلاقي الغير صائب. ولهذا نجد المُعتاد على إتيان الفعل الأخلاقي يلجأ ضميره إلى تأنيبه بقسوة في حالة انتقاله لاختيار الفعل الصائب.

- ولهذا نجد أن الفعل الأخلاقي يمنح من يختاره قوة أكبر تجنِّبه ارتكاب الخطأ لوقوع نطاق واسع بينهما هو الفعل الصائب.

- أحسنت، وبهذا الفعل الصائب يمنح المعتادون على إتيان الفعل الأخلاقي فرص أكثر في تفادي الوقوع بفخ الفعل الخاطئ. ولهذا باعتقادي أنه في صالحنا أن تكون المكافأة والعقوبة الأخرويتان على درجة كبيرة من الترغيب والترهيب، ومن هنا تتبع أهمية الأديان وفائدتها. الدين يُتيح للفرد ميكانيكية مُقوَّمة فهو يقاوم الرغبة بالرغبة واللذة باللذة والألم بالألم وعليه فحاجته تبقى كبيرة حتى في حال الالتزام بالقانون الأخلاقي.

- صحيح، فطاعة القانون الأخلاقي خوف من عذاب أخروي أو استحضار لعظمة الله هي طاعة حسنة ولكنها تبقى خطيرة. إذًا الاعتماد على الفعل الأخلاقي يمنحنا فرصة لشعور بضرر الانزلاق لإتيان الفعل الصائب وبالتالي يُجنبنا الانزلاق للفعل الخاطئ.

- كما لا يرجو الله من إرادته منفعة لذاته كذلك يريد كانط من الإنسان ألا يرجو منفعة لنفسه من إرادته، وكل من يحاول الطعن بهذا المشروع الأخلاقي النزيه عن طريق التحجج بضياع حق الفرد بهذا التأله الأخلاقي أو بزعم أن هذه يوتوبيا أخلاقية، هو بدل الدفاع عن الإنسان يُعاديه عن طريق اتهامه بالعجز عما هو قادر عليه.

- إن الالتزام بالواجب يتيح السيطرة على ملكة الاشتهاء والخوف.

- إن القيام بالفعل بدافع الواجب فيه إرضاء للنفس أكثر من القيام بالفعل بدافع الميل. إن الواجب لا يقوض المشاعر الإنسانية.

- دعنا الآن نناقش كل من السعادة والواجب كدوافع للفعل.

- حسنًا.

- السعادة نتفق جميعنا أنها غاية للجميع، ولكننا لا نتفق عند القول بأنه من غير المقبول أن تكون هي من تمنح الوسيلة الشرعية. كثير يجهلون يا صديقي أنه من الضروري أن تكون أفعالنا غايات لا هدف لغايات، بجانب الغاية غير المستهدفة وهنا أقصد السعادة.

- أحسنت. إن السعادة لا تصلح إلا أن تكون غاية غير مستهدفة. عدم السعي يا صديقي لتحقيق وطلب غاية لا يعني أن هناك سعي لتحقيق النقيض (أقصد هنا الحزن والألم).

- بالضبط. إن استهداف السعادة والامتثال للواجب معًا وفي ذات الوقت غير ممكن. ولهذا ينبغي أن يكون هناك اكتفاء بالسعادة المُتحصَّلة بشكل غير مُستهدف نتيجة استهداف الامتثال للواجب.

- عدم استهداف الامتثال للواجب يعني إتيان نقيضه أما عدم استهداف السعادة فليس شرط أن يكون هناك طلب للنقيض.

- بالتأكيد، إن هناك نطاقًا واسعًا بين السعادة ونقيضها ولكن هذا النطاق ضيق بين الامتثال للواجب ونقيضه، ولهذا احتمال الوقوع في نقيض الامتثال للواجب أكبر من احتمال الوقوع في نقيض السعادة.

- إن السعادة غاية تتحقق بلى طلب أكثر مما تتحقق بالطلب. إننا نستخدم القياس النفعي لإقناع النفعيين بعدم صوابية قياسهم النفعي لا للتدليل على نفعية الأخلاق الكانطية.

- إن لغة القياس النفعي لغة يُجيدها المؤمنون بالأخلاق الكانطية أكثر مما يجيدها النفعيون، على الرغم من عدم احتياجهم إليها في إتيانهم للفعل الأخلاقي.

- وجود غايات أخرى بجانب غاية الامتثال للواجب هو مصدر صعوبة السعي في طلب هذه الغاية، وهو مصدر التخيير للإنسان أيضًا.

- يضع مل تحديد ما هو خير قبل وبمعزل عما هو أخلاقي، فالخير مصدر للأخلاقي وعليه فالخير سابق لما هو أخلاقي. وباعتقادي إن هذه الأسبقية للخير تجعل الأخلاقي نسبي.

- أن يجعل مل ما هو خير يحدد ما هو أخلاقي، يُلزمه بالإقرار بأن ما هو أخلاقي يختلف عما هو خير، فالأخلاق ليست خيرًا بحد ذاتها،بل هي وسيلة لما هو خير.

- إن نصيحة "لا تكذب" لدى النفعيين ليست بالنصيحة الجيدة ولا السيئة، فنتيجتها هي من ستحدد هذا الحكم. أما في الأخلاق الكانطية يُجيب عن ذلك قول كانط: "إن واجبي يقضي ألا أسرق، لذا فأنا لن أسرق احترامًا للواجب والعقل".

- وبما أن النتيجة هي من ستحدد الفعل، فلا يوجد لدى النفعيين قاعدة ثابتة ومبدأ ثابت يمكن الاعتماد عليه دائمًا والأخذ به. فالاعتماد على السعادة في تحديد الفعل يجعله نسبي.

- إن طلب السعادة يسهم في جعلنا نفضل إتيان الفعل ونقيضه لتجربة أيهما يمكن تحصيل أكبر سعادة منه.

- وإن طلب السعادة يفقدنا الثبات على الأفعال، لأن الأفعال لا تمنح قدرًا ثابت من السعادة، ولهذا ما هو أخلاقي اليوم قد لا يكون كذلك غدًا. وعليه فالوصف الأخلاقي يطال الفعل ونقيضه عند النفعيين.

- وعليه فصفة الخيرية عند النفعيين تكون للنتيجة أما عند الأخلاقيين فتكون للفعل.

- إن السعادة لا تصلح أن تكون مبدأ لاستحسان الفعل أو عدم استحسانه. إن كون السعادة أحد الغايات لا يعني بتاتًا صلاحها كمحدد لخيار القيام بالفعل أو عدم القيام به.

- السعادة غاية فاقدة لوسيلة مؤكدة للإيصال إليها، ولهذا لا تصلح كمحدد للفعل. فلكم كنا بأفعالنا نستهدف السعادة وللأسف لم نتحصل عليها.

- إن السعادة يا صديقي تُنال بعدم طلبها.

- أحسنت. إنَّ مل يُحيل وجود الأخلاق الإنسانية إلى التطور الحضاري لا إلى الطبيعة الإنسانية، فالإنسان أخلاقي لا بطبعه وإنما بظروفه ومحيطه، وهذا ما لا نتفق فيه معه بتاتًا، فنحن نرى إنسانية الإنسان وشعوره بحاجات أخيه الإنسان فطرية. والقول بأنها مُكتسبة هو أحد المحاولات لتبرير صيحات التفوق العرقي.

- إن إنسانية الإنسان ليست عادة درج عليها بل هي طبيعة مفطور عليها.

- إنَّ الأخلاق النفعية تحرف الإنسان للتفكير بالعاقبة لاتخاذ القرار بالفعل أو عدم الفعل، أما أخلاق الواجب فالقرار بالفعل لا يكون نتيجة هذا النوع من التفكير وبالتالي فأخلاق الواجب تتناسب مع عصرنا، فهي تراعي فجائية الاضطرار لاتخاذ قرار.

- أحسنت، إن حساب العواقب أي القياس النفعي، يتطلب وقت لا تسمح بوجوده في كثير من الأحيان هيجان وثورة العواطف والميول، ولهذا وحدها أخلاق الواجب من تكون حاسمة في مثل هذه الظروف.

- ثم إن القياس النفعي يؤثر سلبًا على نفسية الفرد، ويُشكل عبء كبير عليه يجعله يرغب في التنازل عنه لبعض الوقت، واتخاذ قرار لخدمة الأكثرية يُسهم في اتخاذ قرارات أنانية تعوِّض التنازلات التي قامت بها الأنا للآخر.

- أما في أخلاق الواجب الفعل يكون بعيدًا عن القياس النفعي وبالتالي بعيدًا عن الفصل بين الأنا والآخر، وعليه فأخلاق الواجب تحافظ على علاقة وثيقة بين الأنا والآخر من خلال عدم إيجاد فرصة للمفاضلة بينهما.

- وعلى ما تقدم فالأخلاق النفعية تتطلب وقتًا في اتخاذ القرار للقياس النفعي الذي تتطلبه، وبما أننا في عصر لا نملك فيه الوقت لكثير من قراراتنا، فإن الأخلاق النفعية لا تناسب عصرنا، وأيضًا لا تراعي فجائية عواطفنا وانفعالاتنا وميولنا وشهواتنا، حتى الخبرة البشرية المتراكمة عبر التاريخ لن تكون قادرة على التعامل مع هذه الفجائية لأن العواقب تجدد وسائلها وأدواتها.

- ولأن الخبرة البشرية غالبًا ما ستفشل في عرض الانتكاسات بقدر ما ستنجح بعرض المكتسبات للفعل، فالفعل بدافع الواجب هو الخيار الأمثل. إن القياس النفعي غير فعَّال في تحديد الفعل الذي ينبغي القيام به.

- ومن عيوب القياس النفعي سهولة إهمال نتيجته عند إخضاعها للقياس الزماني، فالمنفعة الآنية أكثر إلحاحاً وجذبًا من المنفعة المستقبلية.

- ولهذا أخلاق الأوامر القطعية هي الحل الأمثل والأكثر نفعية من الأخلاق النفعية.

- يجب أن نسأل أنفسنا لندرك الحقيقة "ألا يفشل الإنسان في قياسه لنفعية الأفعل بشكل مستمر؟ فلماذا نتخذ المنفعة مقياسًا؟

- الأخلاق الكانطية تكفل يا صديقي التوسع الليبرالي أما الأخلاق النفعية تكفل التوسع الديمقراطي. إنني أجد مل يقضي على ليبراليته بنفعيته.

- أحسنت. المذهب النفعي متوافق مع الحكم الديمقراطي ولكن يقف حجر عثرة أمام أي توسع ليبرالي.

- إن الأخلاق النفعية أخلاق محيط وليست أخلاق كونية.

- في النهاية كما يرى كانط الأخلاق ليست طريقًا يوصل للسعادة بل هي طريقًا يوصل لاستحقاق السعادة.

- في ختام بحثنا يا صديقي نجد أن الإنسانية غاية تتفق حولها جميع الإرادات.

- إنَّ الكمال الأخلاقي يُطلب ولا يدرك في حين السعادة لا تطلب ولكن تُدرك، وذلك بواسطة طلب الكمال الأخلاقي.

- إن صرامة كانط عممت خير الفعل الأخلاقي وأيضًا جعلت الفعل الأخلاقي غير مشروط أي ليس منتظرًا لمقابل.

- في النهاية الإرادة الخيّرة لو كانت جوهرة لما زاد أو أنقص ما ينتج عنها من منفعة أو مضرة من لمعانها.

- إن أي أساس تجريبي يدخل في بناء القانون الأخلاقي سيتسبب له بالنسبية.

***

كان قد مضى ثلاث سنوات على انطلاق عمر ومارك في رحلتهم الثورية، كانا فيها قد قاما بتغطية مساحة كبيرة ولكنها صغيرة بالنسبة لطموحهم، اقتحموا فيها كل حانة ومقهى وملهى ومعبد وجامعة ومدرسة ومصنع وشركة وكل مكان يتجمع ويتجمهر فيه الناس، لتعريفهم بالخيار اللاسلطوي.

كانت سنوات نشروا فيها كتابهم وجعلوه أكثر إحاطة، فلقد أتاح لهم التنقل والتجربة المتحصلة مواضيع جديدة اجتهادهم في البحث فيها يخدم هدفهم. لقد كان الكتاب متاح للأكاديمي وغير الأكاديمي لأهمية طرحه وبساطة أسلوبه، لينالوا بسببه سمعة جيدة في الأوساط الأكاديمية وقبولًا بين الأوساط الشعبية. ولقد ساهم في تقبل أسرع وفهم أوضح لخطاباتهم التي لم يترددوا في إلقائها أمام كل طبقة وفئة ومكان.

كانا بالسيارة السمراء الغير حديثة والغير قديمة الطراز التي يملكها مارك، يستهدفان كل اتجاه، فلقد حضي الشرق بنصيبه كما حضي الغرب وحضي الشمال بنصيبه كما حضي الجنوب، فكان كل طريق يقطعانه يشهد على مرورهم منه ووقوفهم فيه وذلك بصدى أصواتهم. كانت تلك الوجهات الأكثر إلحاحًا كمناطق الصراع والحروب تحظى بوسائل نقل مختلفة أكثر سرعة وأكبر مقدرة على الوصول.

كان الناس عند الاستماع لخطاباتهم ومناظراتهم يتأثرون عقليًا وعاطفيًا، فمنهم من كان تأثره العاطفي أكبر ومنهم من كان تأثره العقلي أكبر، ولكن ليس منهم من كان بلى تأثر بما سمعه منهما. في بدايتهم كان هناك من يلتفت للاستماع إليهما كلما صعدا فوق طاولة أو مسرح وكان هناك أيضًا من يتجاهل وجودهما للاستمرار بتسليته، وكان هناك من يحاول تفادي الاستماع إليهما ليتجنب التعرف على ذلك القدر الكبير من التضليل الذي خضع له لكي يُبقي على ثقته الزائفة بنفسه، ولكن بعدما تنامت سمعتهم وجاذبية طرحهم أصبحت جميع الآذان متحمسة ومستعدة لاستقبال كلماتهم.

كانا في هذه المدة قد أثرا في عدد كبير من الناس سواء كان تأثير فردي أو جماعي. لقد كانا يناقشان أشخاص وتكتلات وأحزاب وجمعيات ونقابات وجامعات ليعرضا الخيار اللاسلطوي، فكانت لخطاباتهم أثر كبير على الكثيرين، فمنهم من أخذ يعمل فرديًا ومنهم من أخذ يُكوِّن تنظيمات لخدمة الحراك اللاسلطوي ولكن بدون أن تكون عضوية التنظيم نافية للعمل الفردي.

كانا يقابلان ملاك ومدراء دور النشر والمحطات الإخبارية والوكالات الصحفية لإقناعهم بعدالة الخيار اللاسلطوي، ولدفعهم إلى إعطاء الطرح اللاسلطوي مساحته للتعبير عن نفسه، ولقد كان لتلك المقابلات مع البعض أثر ومع البعض الآخر أثر أكبر، فلقد كان لعظيم قدرتهم على الاقناع نتيجة إيجابية دائمًا بدون أن تكون هناك نتيجة سلبية.

كانت السيارة هي غرفتهم طوال السنوات الثلاث وكان الطريق منزلهم الذي لم يغادروه لنزهة هنا أو هناك.

كانا إذا التقيا أحد لا يلتفتان إلى تعليمه وثقافته، فكانا يقفان بكل احترام أمام الجميع، ويمنحان ما يحوزان من معرفة بكل صبر ولباقة.

كان عمر قد تعرف على الهدية التي كان إبراهيم ينوي تقديمها له، فلقد أخبره مارك في أحد أحاديثهم عنه بأنه كان لا يناديه في الفترة الأخيرة لهما معًا إلا بالهدية.

***

في أحد الأيام كانت وجهتهم إحدى مناطق الحروب، وكانت ميار قد عبَّرت عن رغبتها بالذهاب معهما للمرة الأولى، لتشهد على انتصار جديد ينتزعانه للإنسان من الجدار، فانطلقوا ثلاثتهم لوجهتهم المُحتدمة بالمعارك قاطعين أكثر الطرق خطرًا بأكثر وسائل النقل خطورة.

كانت من بعيد بناءً على رجاء عمر تتابع كل منهما وهو يخرج من بين الجموع وخطبته قد فعلت ما يتمناه كثير من الخطباء لخطبهم.

في أحد الليالي التي كانوا يستريحون فيها في أحد المقاهي سمعوا حركة لأليات وحشود عسكرية قادمة كتعزيزات لشن هجوم مفاجئ وسريع وحاسم، فنهضوا على عجل وانطلقوا حيث احتشد الجنود للانطلاق إلى معركتهم، ثم صعد عمر إلى منصة مرتفعة كانت تقام عليها الفعاليات الترفيهية للجنود من مسرحيات وغناء وغيرها، وأخذ يُلقي خطبته بمكبر الصوت مقاطعًا حديث كبير الضباط الذي أجَّل ردود أفعاله الغاضبة من هذه المقاطعة لبعد الاستجابة إلى مكالمة مع القيادة المركزية التي طلبته على الهاتف.

لقد كان يحاول إيجاد أكثر الكلمات تأثيرًا وأسرعها ولوجًا إلى قلوب وعقول الجنود، فلقد كانت هذه آخر محاولاته لثنيهم عن الذهاب للمعركة، ولقد نجح في جذب جنود السريات التي أُرسلت كتعزيزات بعدما أشاد بخطبه الجنود الذين استمعوا لخطبه سابقًا، فنجح في دفعهم لإعلان تمردهم على الأوامر التي أصدرها كبير الضباط الذي كان قد أنهي مكالمته، ومن شدة غضبه من عصيان أوامره، أخرج مسدسه وصوبه نحو عمر الذي استبعد أن ينفذ تهديده بقتله ليستمر في إلقاء خطبته التي أوقفتها الرصاصات الثلاث التي استقرت بصدره والذي حال تحرك الجنود لإيقاف قائدهم دون احتوائه لجميع الرصاصات التي يحملها المسدس.

سقط على الأرض وأخذت الدماء تتدفق من جسده معلنة حريتها رغم محاولات مارك إيقافها وكان رأسه بين ذراعي ميار التي كانت عيناها قد انفجر منهما نهران من الدموع.

بعدما أوقف مارك عن محاولات إنقاذه وشكره، أخذ ينظر في وجه ميار الذي حظي بقرب منه لم يحظى به من قبل مُترددًا بين توديعها كحبيبة أم كصديقة، إلى أن فضَّل توديعها كصديقة احترامًا لسنين صموده في عدم الاعتراف بحبه لها، وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه بعدما أغلق عينيه التي التقطت صورة وجهها كآخر صورة له، همست في أذنه كلمات رسمت على شفتيه ابتسامة خادعة لكل من يراها، ابتسامة توحي بأن صاحبها عاش حياة سعيدة لم يعرف فيها الحزن.

لقد كانت نهايته كباقي النهايات تتطلب جنازة ولكنها مع ذلك رسمت بداية تتطلب احتفالًا.

تمت

- (1) ترجمة د. فؤاد فريد
- (2) ترجمة فليكس فارس
- (3) غناء سعيد صالح وكلمات الشاعر أحمد فؤاد نجم
- (4-8) الجريمة والعقاب، دوستويفسكي، ترجمة سامي الدروبي

أقـف بجانـبي أنظـر إليَّ متأمـلًا لا فاعـلًا، لا لاختيـاري بـل لعجـزي، أحلّـل وأسـتنتج مـن تأمّـلاتي، ولكـن تبقـى تحليـلاتي واسـتنتاجاتي حبيسـة الواقـف المتأمـل بـدون انتقـال للفاعـل الـذي بإمكانـه الاختيـار، فـلا أجـد تأمّـلات الواقـف إلا إرضـاءً لفضولـه، ولا أجـد اختيـار الفاعـل إلا انقيـادًا لمـا ليـس لـه فيـه اختيـار، فأحـاول قطـع تأمّـلات الواقـف متشـبهًا بحـال الأغلبيـة، وفي جميـع محـاولاتي يحالفـني الفشـل الـذي يثبـت لي باسـتمرار أن اختياري ليس خياري.

جدران أربع وهدية